احسان عبد القدوس

شيء في صدري

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"
سعيد جوده السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي

- ١ -

حبيبتى هدى ..

هل فوجئت وانا اناديك : حبيبتى ؟ هل ارتفع حاجباك فوق عينيك ، وانفرجت شفتاك ، كأنك ذعرت ؟ !

ارجوك .. لا تذعرى .. ولا تدعى المفاجأة ترسم هذه الخطوط العميقة فوق وجهك الجميل .. حاولى ان تحتفظى بهدوئك .. وان تحتفظى بابتسامتك الحزينة الضعيفة .. ولا تدعينى ازداد احساسا بأنى اثمت بحبك .. هذا الاحساس الذى عانيته وشقيت به مدى عشر سنوات ، ولم اعد احتمل منه المزيد .. انى لم اعد احتمل ، فانى اموت .. كما تعلمين !!

هل استعدت ابتسامتك قبل ان تستمرى فى قراءة خطابى الطويل ؟ اذن .. دعينى اناديك مرة ثانية : حبيبتى هدى !

كم مرة ناديتك : حبيبتى ؟

بالضبط .. خمسة ملايين ومائتين وستة وخمسين الف مرة !!

لا تضحكى .. فانى لا استطيع ان اتخلص من هواية الارقام ، حتى عندما احب ، وحتى وانا ملقى على سرير الموت .. وهذا الرقم هو عدد الدقائق فى مدى عشرة أعوام .. وقد كنت أناديك « حبيبتى » فى كل دقيقة .. مع دقات الساعة ، ومع دقات قلبى ، ومع دقات قدمى فوق الارض فى كل خطوة اخطوها

.. حتى عندما انام كانت انفاسى تناديك « حبيبتى » .. وهو دائما نداء خفى ، صامت ، لم يسمعه احد منى .. ولم تسمعيه انت ابدا .. نداء يتردد فى صدرى كأنه تسبيح عابد ، ولا يكاد يهم بالانطلاق من بين شفتى ، حتى ازم عليه الشفتين .. ازمهما فى عنف وقسوة .. فيعود النداء مرتدا الى صدرى ليعيش فيه ، ويعذبنى ..

لم يكن من حقى ان اسمع احدا ندائى .. حتى انت .. وقد كنت بجانبك خلال هذه السنوات العشر .. فهل سمعت ندائى .. هل رايت صداه فى عينى وانا انظر اليك .. هل لمحت قلبى يتهدج فى حديثى معك .. هل احسست بيدى ترتعش وانا أمدها الى يدك ؟ !

لعلك الآن تحاولين ان تتذكرى ..

لا تحاولى ..

انك لن تتذكرى شيئا ..

فقد كنت اقسو على عينى حتى لا تفضحا ندائى .. عيناى المسكينتان اللتان ذاب جل نورهما بين الأرقام ، وجللهما عمرى بالسواد كأنه كان يعدهما للموت !!

وكنت وانا اتحدث معك اقبض على قلبى بضلوعى ، حتى لا يختلج وتتصاعد خلجاته الى لسانى .. قلبى الذى كان يضرب بشدة وقوة ، ثم تخاذل يوم التقى بك ، وبدأ يئن ويتوجع .. كأنه لم يشعر بالشيخوخة الا عندما التقى بصباك !

وكنت وانا امد يدى الى يدك ، امدها سريعا واسحبها سريعا ، قبل ان تلمسى الرعشة فيها .. يدى المعروقة التى انتشرت فوقها بقع صغيرة غامضة كأنها غبار الزمن حط عليها وتبلور فوقها !! لن يمكنك ان تتذكرى شيئا ، فلم يكن يخطر ببالك ان « عمك حسين » بوقاره ، وهيبته ، ومجده ، وعمره .. يمكن ان يحبك كل هذا الحب .. يحبك ويريدك .. يريد شفتيك

لشفتيه ، ويريد صدرك لصدره .. ويريد قلبك لقلبه . يريدك .. اتفهمين ماذا يعنى العجوز عندما يريد .. انه يجمع الحياة كلها فيما يريد .. انه يجعل ما يريده هو الفاصل بين الحياة والموت ، .. اما أن يموت او يحصل على ما يريد .. والى هذا الحد كنت اريدك .. وكنت احبك .. ولكن حبى لم يكن يخطر لك على بال .. فلم تحاولى ان تلحظى شيئا فى تصرفاتى ، ولم تحاولى أن تكشفى عن ندائى الخفى اليك .. انما اطمأننت الى ، ووثقت بى ، دون شك ولا ريبة .. بل دون أن تسألى نفسك : لماذا اهتممت بك كل هذا الاهتمام ، ورعيتك بكل هذا الحرص ؟ !

ـــ لماذا لم أعلن حبى قبل اليوم ؟

لماذا كتمت ندائى ، وتعذبت به كل هذا العذاب !!

سأروى لك القصة كلها .. لعلك تفهمين .. ولعلك بعد أن تفهمى تصفحين ...



منذ عشر سنوات ، وعلى وجه التحديد فى ١٤ سبتمبر عام ١٩٤٧ ، توفى والدك .. وكان صديقا لى .. وكانت صداقتنا لا يعرفها الناس ، بل لا تعرفينها أنت ، ولا والدتك .. كانت صداقة من نوع فريد .. فقد كنا زميلين معا فى مدرسة الفنون والصنائع ، منذ اكثر من خمسة وثلاثين عاما .. وكان يجمعنا التناقض فى كل شيء ..

كان ضعيفا رقيقا كأنه فنان امتص الفن كل قواه ولم يترك له الا خيالا .. وكنت قويا ممتلئا كأنى من أبطال الرياضة ، رغم انى لم اكن أمارس شيئا منها .

وكان هادئا ، طيبا ، خجولا .. وكنت مشاكسا ، جريئا ، لا ينقضى يوم من ايامى دون أن انتصر او انهزم ..

وكان شريفا ، يضع للشرف مبادىء صارمة ، وحدودا ضيقة ، حتى يكاد لا يتحرك فى الحياة حرصا على مبادىء

الشرف .. اما انا فكنت اضع للشرف معانى متساهلة وحدودا واسعة .. كنت أغش فى الامتحان ، وأسرق كتب زملائى ، وانافق المدرسين .. وانجح بتفوق كل عام !

وقد عرفته فى يوم لا انساه ..

كنت قد مرضت بالتيفويد ، وانا فى السادسة عشرة من عمرى ، وقضيت شهرين طريح الفراش .. شهرين غبت فيهما عن الحياة .. كنت خلالهما اعيش فى النار .. نار الحمى .. ثم شفيت .. وغادرت البيت لأول مرة ، وسرت فى الشارع .. ضعيفا لا تكاد ساقاى تحملانى ، مدهوشا ترتعش جفونى فوق عينى كأنى غريب عن هذا العالم .

ووقفت عند محطة الترام ، ورايت والدك .. كان اول وجه اعرفه والتقى به .. كنت أعرف انه طالب معى فى المدرسة ، ولم نكن قد تحادثنا او تعارفنا من قبل .. ولكنى عندما التقيت بوجهه احسست انى التقيت بالحياة .. احسست اننى لم اعد غريبا فى هذا العالم ، فتقدمت منه ، ومددت له يدى ، وشددت على يده فى فرحة كأننا اصدقاء قدماء التقينا بعد فراق طويل ..

وقلت وكلماتى تقفز فرحا فوق شفتى :

ــ ازيك !

قال مرحبا :

ــ ازيك انت .

ثم اخذنا نتبادل حديثا وادعا عن المدرسة واحوالها .. وركبنا الترام سويا ..

واحببته ..

كنت احب والدك حبا يشكل نوعا غريبا من الصداقة .. لم يكن صديقا اسهر معه ، او اتناقش معه ، او حتى العب معه .. فلم يكن يطيق سهراتى او يحتملها ، ولم يكن هناك موضوع واحد يمكن ان يجمعنا فى مناقشة ، ولم تكن رقته تسمح له ان

يشاركنى العابى الخشنة .. بل اننا لم نكن نذاكر دروسنا سويا ، فقد كان طويل البال فى المذاكرة ، يستطيع أن يجلس الى مكتبه ساعات دون ملل ، اما انا فكنت لا أطيق .. كان ذكائى أحد من ان يصبر على المذاكرة ، فكنت أخطف الدروس خطفا ، وما كنت اعجز عن خطفه ، كنت اعتمد على الغش !!

وقد حاولت عند أول معرفتى به أن اشده الى .. أو على الأصح ، حاولت أن اسيطر عليه .. حاولت أن اجعله يلتصق بى ، ويؤمن بى ، ويسلك فى الحياة طريقى .. ولكنه كان قوى الشخصية .. كانت شخصيته تقف كاملة فى مواجهة شخصيتى .. ولعله كان اقوى منى فى شخصيته .. وان كانت قوة شخصيته لا تبدو من خلال رقته ، وضعفه ، ونظراته الهادئة ..

ولم اثر لابائه على .. ولم اكرهه .. فقد كان أبيا بلا غرور او ادعاء .. وكان يحتفظ بقوة شخصيته لنفسه دون أن يحاول فرضها على احد ، حتى انه كان يبدو منطويا وادعا اكثر منه معتزا بشخصيته ..

وتولد بيننا هذا النوع الغريب من الصداقة ..

كنت اقابله فى الصباح ، فأحييه ، واتبادل معه بضع كلمات حول مواد الدراسة .. دائما كلمات جادة وقور كأننا رجال كبار .. ثم نفترق ولا نلتقى بعد ذلك ..

ورغم ذلك كنت أحس به طول النهار بجانبى ، وكنت دائما ابحث عنه بعينى فى فناء المدرسة .. وكانت اعيننا تلتقى أحيانا فيبتسم احدنا للآخر من بعيد .. كأنه هو الآخر يبحث عنى ..

ومع الأيام بدأت احس أنى اتعمد انتزاع اعجابه .. كنت أحاول دائما أن أبدو محترما مهذبا أمامه .. لم يسمع منى مرة نكتة خارجة من النكات التى تعودت أن اتبادلها مع بقية زملائى .. ولم ادعه يرانى وانا ادخن سجائر الحشيش فى ملعب الكرة ..

ولم يرنى ابدا وانا اسرق كتب الزملاء من ادراجهم فى خـــلال « انفسح » ..

وكنت ايام المظاهرات ــ مظاهرات عام ١٩٢٢ ــ اقف بين الزملاء الأخطب فيهم خطبا حماسية وطنية .. وبين كل مقطع وآخر من الخطبة ، التفت باحثا عنه ، وعنـــدما التقى بعينيـــه الهادئتين العميقتين ، انظر فيهما ، كأنى اسأله رايه ..

ولم اكن اعرف رايه ابدا ..

لم استطع يوما ان اتاكد مما اذا كان معجبا بى أم هازئا ..
لم استطع يوما ان أعرف ما اذا كان راضيا عنى أم ساخطا على ..

كنت أحيانا اعتقد انه يعرف ما فى نفسى ، وأن عينيه العميقتين تثقبان صدرى وتنفذان الى اعماقى لتكشفا ما فيها .. لتكشفا انى لست وطنيا صادقا ، وأن هذه الكلمات الضخمة الرنانة التى اقذفها من فمى فى وجوه الطلبة لا تعبر عن ايمانى .. انما هى مجرد كلمات تمثيلية يقتضيها الموقف ..

ثم كنت اقول لنفسى : « ومن ادراه بحقيقة نفسى .. من ادراه انى انتعل هذا الحماس الوطنى ، حبا فى الوصول الى مرتبة الزعامة بين الطلبة ، وحتى انتخب عضوا فى لجنة الطلبة التنفيذية ، واشترك فى جمع التبرعات ، واتعرف الى الزعماء .. ثم أختلس من التبرعات ، واستفيد من الزعماء » ..

كنت اقول لنفسى هذا الكلام ، ثم أدير راسى عنه .. عن أبيك .. واستطرد فى خطابى الحماسى ، مبالغا فى انتقاء الكلمات الضخمة ، مبالغا فى اداء الحركات التمثيلية .. ولكنى لا البث أن اعود باحثا عنه بعينى ، كأنى مصر على أن اعرف رايه .. فلا أرى الا النظرة الهادئة العميقة التى تثقب صدرى ، وابتسامة ضيقة كأنها فرجة من امل بعيد لن اصل اليه ابدا ..

وتطورت محاولتى انتزاع اعجابه ورضاه ، الى احساس آخر .. الى احساس غريب .. بدأت احس كأنى اخاف منه ..

نعم . اخاف ..

انا الذى كنت اعد بين الطلبة بطلا وزعيما .. انا الذى لم اعجز ابدا عن الوصول الى شيء اردته .. انا .. اصبحت اخاف هذا الزميل الرقيق ، الهادىء ، الطيب ، الذى يبدو كفنان امتص الفن كل قواه ولم يترك له الا خيالا ...

ولم اكن اخاف ان يضربنى .. او يشى بى .. أو يقف فى طريقى . ويا ليته حاول أن يضربنى أو يشى بى أو يقف فى طريقى .. ولو انه فعل ، لاعطانى العذر فى ان احطمه .. واقضى عليه ، واتخلص منه .. اتخلص من حبى له ، ومن محاولتى ارضاءه .. ولكنه لم يكن يفعل .. كان أرق من ان يضرب ، واطهر من أن يشى ، وارفع من ان يقف فى طريقى ..

وكنت أخافه ..

مم كنت أخاف ؟

كنت أخاف شيئا فى صدرى ، تحركه نظرته الهادئة العميقة ، وابتسامته الضيقة كفرجة الأمل البعيد .. وعندما يتحرك هذا الشيء احس بثقل يكاد يكتم انفاسى .. واحيانا يكون هذا الشيء حادا كأنه السكين يمزق رئتى ..

كنت اخاف هذا الشيء !

هل تفهمين ؟ !

هل تفهمين ما هو هذا الشيء ؟ !

لا .. انك لم تفهمى بعد .. ولك العذر ، فأنا نفسى لم افهم الا بعد ان عشت هذا العمر الطويل ، الى أن وصلت الى سرير الموت ..

ولأسرد لك حادثة وقعت لى عنـــدما كنت وأبوك طالبين فى مدرسة الفنون والصنايع .. لعلك تفهمين !

كنا نؤدى امتحان الدبلوم .. وأمسكت بورقة الأسئلة ، واخذت اقرأ كل سؤال بامعان ، فلم اجد واحدا منها أستطيع

ان اجيب عنه . ولكنى كنت مستعدا لمثل هذه الاحتمالات ..
بل انى لم اكن ادخل الامتحانات الا لأواجه هذه الاحتمالات ..
وفى كل جيب من جيوب سترتى « برشامة » ، اى ورقة صغيرة .. صغيرة جدا .. كتبت فيها بخط دقيق ، الجواب عن كل سؤال يحتمل ان اواجه به فى الامتحان ..

وبدات استعد لاخراج اول « برشامة » تحمل الجواب على اول سؤال ..

ووضعت يدى فى جيبى ..

ولكن ..

لقد توقفت يدى كأنها التصقت بالجيب ...

لماذا توقفت يدى ؟

انى لم اكن اخشى الأستاذ المراقب .. انه واقف بعيدا بحيث لا يستطيع ان يرانى .. وحتى لو كان واقفا قريبا منى ، فلم اكن لأحسب حسابه . فقد عودت يدى على خفة الحركة بحيث لا يستطيع اى مراقب ان يلمحنى ولو كان فوق راسى ..

ان يدى فى جيبى .. واصابعى تقبض على « البرشامة » .. سأسحبها من الجيب ، وسأسحب معها المنديل ، حتى تبدو حركة يدى كأنها حركة طبيعية .. ثم سأتظاهر بأنى امسح على وجهى بالمنديل .. ثم اعيده الى جيبى .. واظل محتفظا بالورقة فى راحة يدى ، بحيث لا تبدو من بين اصابعى ، ثم ابدا فى الاجابة عن السؤال ..

انى اجيد هذه الحركة تماما ..

ولكن يدى لا تزال داخل جيبى كأنها التصقت به ..

لماذا ؟

لماذا .. مرة ثانية ؟

انى استطيع الآن وانا فى الخامسة والستين من عمرى ، استطيع ان اجيب عن سؤال خطر لى وانا فى العشرين !

لقد تذكرت ساعتها اباك ..

تذكرت زميلى ذا العينين الهادئتين العميقتين ، والابتسامة الضيقة .. زميلى الذى احبه ..

هل يرانى وانا اغش ؟

ولكن مالى وماله .. لير اذا اراد ان يرى .. انى أواجه امتحانا قد أرسب فيه .. انى أواجه عاما من عمرى يكاد يضيع منى .. والوقت المخصص للاجابة عن الأسئلة يمر بسرعة .. يجب ان اخرج « البرشامة » من جيبى حالا .. حالا ..

ولكن يدى لا تزال ملتصقة بجيبى لا تريد أن تخرج منه ..

وبحركة لا ارادية التفت الى ابيك .. وفى نفس اللحظة التى التفت فيها اليه ، رفع راسه عن ورقة الاجابة ، ونظر الى بعينيه الهادئتين العميقتين ، وابتسامته الرقيقة الضيقة ..

وادرت راسى عنه بسرعة ، ودفنت وجهى فى ورقة الأسئلة ، وانا الهث .

نعم الهث ..

احسست بهذا الشىء الذى حدثتك عنه ، يتحرك فى صدرى .. شىء ثقيل يكتم انفاسى ، حاد كأنه السكين يمزق فى رئتى ..

وكان على ان اقاوم ..

وقاومت ..

قاومت بشدة ، وبقسوة على نفسى ..

وهدا الالم قليلا .. واسترددت سيطرتى على نفسى .. وبدات احاول من جديد ان اسحب « البرشامة » من جيبى .

ولكنى ــ بلا ارادة ــ التفت الى ابيك مرة ثانية .. الى زميلى الذى احبه .. ومرة ثانية رايته يرفع راسه عن الورق وينظر الى .. نظرته الهادئة العميقة ..

وتحرك الشىء فى صدرى ..

وبدات الهث من جديد ..

وفى خلال ذلك ، كنت اخوض معركة بين ذكائى ، وبين ابيك .. ذكائى يلح على ان اسيطر على نفسى ، وان اسحب « البرشامة » من جيبى .. ثم لا يكاد ذكائى ينتصر حتى اجد نفسى التفت الى ابيك ، واجد نفسى صريع هذا الشىء الذى تحركه فى صدرى نظرته الهادئة العميقة ..

وطال ترددى .. وربما وضح على وجهى آثار ما اعانيه من اضطراب .. فانتبه مراقب لجنة الامتحان ، وجاء الى ووقف فوق راسى ، وقال كأنه اكتشف جريمة :

— بتعمل ايه ؟

وما كدت اسمع كلمته حتى ثرت .. ووقفت صارخا بأعلى صوتى وانا انتفض :

— باعمل ايه !! بفكر .. بامتحن .. ممنوع التفكير كمان . انتم عايزينا نسقط .. احنا بينا وبيكم ايه .. انت متقصدنى ليه .. حرام عليكم .. ده انا بقالى جمعه ما نمتش ..

وسرت ثورتى الى باقى الطلبة .. وترددت همهمات السخط .. وارتفعت اصوات : « ايه الظلم ده » .. « الأسئلة صعبة » .. « مش فاهمين الأسئلة » .. « الامتحان مش من المقرر » .. وارتبك الأستاذ المراقب الواقف امامى ..

وجاء رئيس اللجنة مهرولا ..

ولم يكن لدى المراقب دليل على انى اغش فى الامتحان .. فصرفه رئيس اللجنة .. وهدأت الضجة بعد حين ..

وقد كانت ثورتى ثورة صادقة انبعثت من كل اعصابى .. ولكنها لم تكن ثورة على المراقب ، ولكنها فى حقيقتها كانت ثورة على نفسى .. على ضعفى .. على حبى لأبيك ومحاولتى الاحتفاظ برضائه واعجابه ..

وقد ساعدتنى هذه الثورة على تجميع ارادتى ، وعلى انتصار ذكائى ، فما كاد المراقب ينصرف من جانبى حتى اخرجت

« البرشامة » ، وأجبت عن الأسئلة .. ونجحت فى الامتحان بتفوق .. بل سبقت اباك فى ترتيب الناجحين !!

هكذا كنت انا وابوك ..

انه نوع غريب من الحب والصداقة .. ورغم ذلك فهو ليس نوعا غريبا جدا .. ان فى حياة كل واحد من الناس مثل هذا الحب .. ولكن الذين يعانون من هذا الحب قليلون .. وانا منهم :

فالمراة ــ مثلا ــ عندما تحب تزداد عناية بجمالها ، وتتعمد ان تكون رشيقة ، انيقة .. لا لأن حبيبها سيلقاها .. فهى جميلة ، ورشيقة ، وانيقة دائما ، حتى فى الأيام التى لن تلقى فيها حبيبها .. انها لا تحاول ان ترضى حبيبها ، ولكنها تحاول أن ترضى الحب نفسه .. تحاول أن ترضى شيئا فى صدرها .. اسمه الحب ..

وكما تحاول المراة ان ترضى هذا الشىء ، فهى تخافه .. انها تخاف ان تحادث رجلا آخر ، او تخـــاف ان تشرب كأســـا من الويسكى .. وقد تكون متأكدة ان رجلها لن يراها .. قد يكون مسافرا وبينه وبينها مئات من الاميال ، ورغم ذلك فهى تخاف .. تخاف هذا الشىء .. تخاف ان يتحرك هذا الشىء فتحس بثقل يكاد يكتم انفاسها ، وسكين حاد يمزق رئتيها ..

ومثل آخر ..

ان الأب يخاف ولده .. وقد يكون ولدا صغيرا لا يتجاوز عاما واحدا من عمره .. ورغم ذلك فالأب يخافه .. وهو فى الحقيقة لا يخاف الولد ، بل يخاف شيئا فى صدره يثيره هذا الولد .. شىء يسمى « الأبوة » .. فما ان يصبح ابا حتى يحاول أن يكون دائما محترما .. مهابا .. ويحاول أن يتخلص من خطاياه وعيوبه .. وكما يخاف هذا الشىء فهو يحاول أن يرضيه .. يحاول ان يتقدم فى عمله ، وان يرتفع بنفسه ، وأن يكون انسانا كاملا ..

واكثر من ذلك ..

قد يكون للانسان صديق .. وقد يكون هذا الصديق اضعف من فى حياته من الأصدقاء .. واقلهم نفوذا .. وقد لا يكون فى حاجة مادية اليه .. ورغم ذلك فهو يحاول دائما أن يبدو محترما امام هذا الصديق دون باقى الأصدقاء .. انه يتعمد الا يبدو مخمورا امامه ، ويتعمد الا يدعه يراه وهو جالس الى مائدة القمار ، ويتعمد ان يخفى عنه خطاياه .. ان هذا الصديق يحرك الشيء الذى يعيش فى الصدر ..

وفى صدر كل انسان هذا الشيء ..

ولكن ليس كل انسان يتعذب به ..

ان الانسان لا يتعذب بهذا الشيء ، اذا استطاع ان يستسلم له ، او استطاع ان يقضى عليه ..

اما انا فانى اتعذب به ..

اتعذب به ، لانى لم استطع ان استسلم له ، ولا ان اقضى عليه .. انما عشت اقاومه ويقاومنى .. واتعذب !

هل تفهميننى يا هدى ؟ !

انى اعلم انى احادثك بعقلية رجل فى الخامسة والستين من عمره لم يتعود ان يعبر عن افكاره بقلمه .. لم يتعود الا كتابة الشيكات .. ولم ير نفسه على حقيقتها الا عندما اصبح قريبا جدا من السماء ، ولم يعد بينه وبين قبره سوى بضعة انفاس ..

نعم ، انى ارى الآن نفسى على حقيقتها .. ارى النفس البشرية .. وقبل اليوم لم اكن اراها .. لم اكن ارى هذا « الشيء » الذى احدثك عنه ..

لم اكن اراه ..

ولم اكن اعرفه ..

لم اكن ارى الا اباك . ولم اكن اعرف ان اباك هو هذا الشيء !! وقد قضيت حياتى كلها احاول ان ارضى اباك ،

فلا أستطيع .. وأحاول أن أتخلص منه .. أن أسحقه .. فلا أستطيع !

وقد تخرجت أنا وأبوك فى مدرسة الفنون والصنائع .. ولم أحاول أن ألتحق بوظيفة حكومية .. كما فعل أبوك .. كان ذكائى واقبالى على الحياة أكبر من أن تتسع له وظيفة حكومية .. فقررت أن أشتغل مقاولا .. وكانت أيسر المقاولات وأكثرها ربحا مقاولات الجيش البريطانى .. جيش الاحتلال !

وفكرت ساعتها فى أبيك ..

هل يقبل أن يشاركنى .. وهل العمل مع الجيش البريطانى يعتبر انحرافا عن الوطنية .. وواجهتنى نظرة أبيـــك الهادئة العميقة .. وأحسست أنى مقبل على ارتكاب جريمة .. بدأت أحس بهذا الشىء الذى يكاد يكتم أنفاسى .. ولكن ذكائى ثار على هذا الشىء .. ان كثيرين من المصريين ينولون مقاولات الجيش البريطانى .. فلماذا لا أكون واحدا منهم .. وزعماء البلد الا يتقاولون مع بريطانيا .. لماذا ذهب سعد زغلول الى المعتمد البريطانى ؟ ! ليعقد معه معاهدة .. وما هى المعاهدة ؟ اليست هى مقاولة تحقق مصلحة مصر ومصلحة بريطانيا .. وأنا أيضا سأعقد معاهدة صغيرة مع بريطانيا .. معاهدة تحقق لى مصلحة ، وتحقق لهم مصلحة .

وقد كنت محتاجا الى هذا المنطق حتى أستطيع ان اتغلب به على خوفى من أبيك ومحاولتى ارضاءه .. واسرعت باندفاع عجيب ، وتعرفت بأحد ضباط الجيش البريطانى .. ودعوته الى سهرة ، قدمت له فيها الخمر ، والنساء ، وصداقتى ..

وفى صباح اليوم التالى ، حصـــلت على عقـــد مع الجيش البريطانى لتوريد عمال لعملية شق طريق داخل معسكرات جيش الاحتلال ..

وكنت فى حاجة الى راس مال صغير .. استطعت ان اقترضه بسهولة من بعض الأصدقاء ..

وقبل ان اسافر الى مقر عملى الجديد بيوم واحد .. ذهبت الى ابيك .. لماذا ذهبت اليه .. لا أدرى .. ولكنى ذهبت اليه .. وعرضت عليه ان يشاركنى فى المقاولة التى حصلت عليها بنسبة النصف ، دون ان يدفع شيئا من راس المال .. ولم يكن العمل فى حاجة اليه .. ولم تكن له كفاية ممتـــازة تغرى باســـتغلاله .. ولكنى كنت اريده معى .. كأنه يســـتطيع ان يحمينى من شىء اخافه .. كأنه يستطيع ان يسعدنى بشىء انا فى حاجة اليه .. ولكنه رفض .. نعم ، رفض .. رفض وابتسامته الضيقة كالأمل البعيد لا تزال فوق شفتيه ، ونظرته الهادئة العميقة لا تزال فى عينيه .. رفض مكتفيا بوظيفة حصل عليها فى وزارة الأشغال . وظيفة مهندس طلمبات فى مديرية قنا .

وتركته وانا ثائر ، حانق ، مغتاظ .. كنت اسبه والعنه .. الغبى .. الحمار .. ماذا يظن فى نفسه !! اله الفضيلة !! رب الزهد والقناعة !! بطل الوطنية !!

وظللت ثائرا عدة ايام ، وانا احاول ان اطـــفىء ثورتى باندفاعى فى العمل ..

وقد عملت كثيرا .. وربحت كثيرا ..

كنت احاسب الجيش البريطانى ، على عشرة قروش اجرا للعامل الواحد .. ثم لا ادفع للعامل الا خمسة قروش .. هل تعتقدين ان هذه سرقة .. سرقة اقوات العمال ؟ ! ان اباك ايضا كان يعتبرها سرقة .. ولكن العمال انفسهم كانوا يعتبرونها فضلا عظيما .. فان المقاول الذى كانوا يعملون معه قبلى ، لم يكن يدفع للواحد منهم سوى اربعة قروش !!

لقد احبنى العمال فعلا .. واعتبرونى نصـــيرا لهم ..

ولو اشتغلت بالسياسة أيامها لأصبحت « زعيم العمال » !!

لكن .. هل هدأت واسترحت ؟ !

هل نسيت أباك ؟!

أبدا ..

لقد أرسلت اليه عبد العظيم افندى ليعرض عليه مرة ثانية أن يكون شريكى فى العمل ، أو أن يقبل أن يكون مديرا لشركتى الجديدة .. « شركة المقاولات العمومية » .. بمرتب قدرة ثلاثون جنيها فى الشهر .. اى اكثر من ضعف مرتبه فى الحكومة .. وقد كانت الثلاثون جنيها أيامها تساوى اليوم ثلثمائة ..

وتعجب عبد العظيم افندى من هذا العرض .. فقد كان يعرف أباك ، وكان يعرف عنه انه لا يصلح شريكا لى ، ولا مديرا لشركتى .. كان يعرف عنه ما يعرفه كل الناس .. يعرف انه منطو .. لا تبدو شخصيته من خلال رقته .. ولا يبدو انه يحتمل كفاحا او يسعى الى أمل .. انه واحد من الملايين الذين يقفون على رصيف الحياة يتفرجون .. مجرد فرجة ..

ولم يكن عبد العظيم افندى يعرف مكانة والدك فى نفسى .. لم يكن يعلم انى أحب والدك .. اخافه واسعى الى رضائه ..

لم يكن يعلم ان والدك يمثل هذا الشىء الذى يسكن فى صدرى ، ويعذبنى .. وقد حاول أن يعارضنى ، وقال وهو يلوى شفتيه الغليظتين :

ــ وده حا تعمل بيه ايه ده .. ده ما ينفعش ببصلة !

واحسست كأنه أهاننى ، ورفعت اليه عينين غاضبتين وقلت فى حدة :

ــ ما لكش دعوه .. اعمل اللى باقولك عليه ، وانت ساكت !

ونظر الى عبد العظيم افندى بعينيه المنتفختين القذرتين ..

ثم ارخى جفنيه اللذين تساقطت رموشهما ، وخطا خطوة ، ثم عاد والتفت الى ، وقال فى الحاح :

ــ انا حاعملك كل اللى انت عايزه .. بس وحياة والدك فهمنى .. ايه اللى عاجبك فى سى محمد افندى ؟ !

وصرخت فى وجهه :

ــ انت حاتحاسبنى .. مين اللي بيشتغل عند التانى .. تكونش فاهم انى انا اللى باشتغل عندك .. غور من وشى !

وابتعد عبد العظيم افندى ، وهو يثير من تحت قدميه تراب الأرض كأنه يقذفه فى وجهى ..

وذهب الى والدك ..

وعاد ..

وقرات على وجهه الكريه نتيجة مسعاه .

لقد رفض والدك ..

واحسست انى اهنت .. احسست بالشىء يكاد يكتم انفاسى ويمزق رئتى .. واحسست فى الوقت نفسه بطاقة ثورية تنطلق فى نفسى وتتحدى والدك .. تتحدى الانسان الرقيق الهادىء الذى يعيش بعيدا عنى ، ويرفض ان يقترب منى .. واحسست انى فى حاجة الى ان اعمل عملا كبيرا .. فى حاجة الى نجاح كبير . ارد به على والدك .. لعله يقتنع بى .. ولعله يعجب بى ..

وسمعت صوت عبد العظيم افندى وكأنه يأتى من بعيد ، قائلا :

ــ الصنف ده غاوى فقر . ده صنف يعيش فقير ويموت فقير .. صنف جبان .

وابتسمت ساخرا وانا اسمع صوت عبد العظيم افندى .. انه لا يعلم !

***

حبيتى هدى :

انك تعرفين عبد العظيم افندى .. تعرفينه باسم عبد العظيم بك ، مدير شركة الصناعات التجارية ..

انه لم يكن أيامها « بك » ولم يكن مديرا عاما .. انما كان مجرد أفندى .. ولم يستحق لقب أفندى ، الا لأنه كان يضع طربوشا فوق رأسه ، ويعلق فوق أذنه « قلم كوبيا » ، ويرتدى معطفا أصفر كالحا ، فوق جلباب ذابت الألوان فيه حتى لم يعد له لون .. ويمسك فى يده « دفترا » صغيرا يسجل فيه حسابات العمال ، وفى يده الأخرى « خرزانة » يهزها فى وجوههم .. وجوه العمال !

ودعينى أقدم لك عبد العظيم بك على حقيقته ، فانك لن تعرفينى الا اذا عرفته ..

لقد كان طالبا معنا فى مدرسة الفنون والصنائع ، ورسب فى امتحان السنة الأولى عدة مرات .. وعندما نجح أخيرا وانتقل الى السنة الثانية خرج من المدرسة .. ولم يكن أحد منا يعرف كيف يعيش ، أو يعرف شيئا عن عائلته ، ولكنه كان فقيرا فى مظهره ، وكان دائما معنا .. حتى بعد أن خرج من المدرسة ظل مرتبطا بنا .. وبدأت حاله تسوء .. كان يبدو كأنه يبيت كل ليلة فوق الرصيف .. حلته متسخة دائما .. مكرمشة دائما .. كأنه يكرمشها تعمدا وبعناية .. ورباط عنقه رفيع ملتو كأنه رباط حذائه .. وشعره دائما مهوش فوق رأسه كأنه لم يمر به مشط فى حياته .. ووجهه أغبر معفر كأنه لم يغسله أبدا .. وساءت حاله أكثر فأكثر .. وبدا كأنه مريض .. هزيل ، نحيل ، أصفر .. وقال بعضنا عنه انه أدمن الكوكايين ، وقال البعض انه مريض بالسل ..

ولكن عبد العظيم لم يكن يحس بسوء حاله ، ولا يشكو منه .. كأنه اختار هذا الحال السيىء بمحض ارادته .. وبمزاجه ..

وكانت له حيوية كبيرة .. كان يتكلم دائما وكثيرا .. وكانت نكاته البذيئة لا تنتهى ..

وكان يفعل اى شيء !!

وعندما خرج من المدرسة اصبح هو الذى يتولى لنا شراء قطع الحشيش . وهو الذى يدلنا على النساء الرخيصات .. وهو الذى يقودنا الى الحانات مساء كل خميس .. و .. و .. وباختصار .. كان يفعل كل شيء !

وعندما تعددت خدماته لنا .. هذا النوع من الخدمات .. وتأكد اننا اصبحنا فى حاجة اليه .. لم يعد ينتظرنا أمام باب المدرسة كما كانت عادته .. ولم يعد يمر علينا فى بيوتنا .. بل اتخذ له مقرا فى احد المقاهى البلدية بشارع الحسينية ، واصبحنا نحن نذهب اليه .. ولم يعد يخدعنا فى ثمن قطع الحشيش ، أو اجر النساء الرخيصات ، بل اعلن — فى وقاحة — ان من حقه أن يتقاضى « عمولة » على خدماته ..

ولم يكن حتى ذلك الحين قد تجاوز التاسعة عشرة من عمره !! وبعد ان تخرجت .. وبدأ أول عمل لى مع الجيش البريطانى .. ذهبت اليه كما ذهبت الى والدك !!

ذهبت اليه لأطلب منه ان يعمل معى ملاحظا للعمال !

ورحب عبد العظيم بالعمل معى ، فقد كان يهابنى ، ويحترمنى اكثر مما تعود أن يحترم الناس ، ويحسب حسابا كبيرا لغضبى ورضائى .. كانت شخصيتى طاغية عليه ، الى حد انه لم يكن يستطيع ان يحاسبنى على « العمولة » التى يحاسب عليها بقية الزملاء !!

ورحبت انا بعبد العظيم ، لانى كنت أعلم انه يستطيع أن يكون اكثر من مجرد ملاحظ للعمال .. كان يستطيع أن يقوم بجميع الاعمال القذرة التى قدرت انى فى حاجة اليها لأسير بعملى ..

وقد قام فعلا بكثير من الأعمال القذرة .. قام بها على اكمل وجه !

كان هو الذى يعد الليالى الحمراء للضباط الانجليز .. وهو الذى يقدم لهم الرشاوى .. وهو الذى ينقل الى الأخبار .. اخبار المشروعات الجديدة .. وأخبار العطاءات التى يتقدم بها المقاولون المنافسون لى ، حتى أقدم عطاء أقل سعراً من عطاءاتهم وأفوز بالمشروع .. وكان يتجسس على العمال .. ويتحمل عنى متاعبهم .. وقد ثار عليه العمال مرة .. فخرجت اليهم وادعيت انى أناصرهم .. وانهلت على عبد العظيم افندى صفعا وركلا أمامهم .. كنت أضربه ضربا حقيقيا .. وكان يصرخ ويستجير .. وهدأت ثورة العمال ، وهتفوا باسمى .. « يحيا نصير العمال » .. ثم جاءنى عبد العظيم افندى فى مكتبى . ليقبض ثمن الصفعات والركلات ، وابتسامته تسيل كاللعاب من بين شفتيه الغليظتين .

وظل عبد العظيم افندى فى حياتى كلها ..

كبرت المشروعات .. وكبرت انا .. وكبر معى عبد العظيم افندى .. وكبرت معنا الأعمال القذرة !!

هل تتقززين وانت تقرئين هذه السطور !

هل التوت شفتاك الرقيقتان كأنك تمتعضين .. هل اهتز جفناك فوق عينيك العميقتين كأنك تطردين عنهما شبحا يخيفك !!

يا أحب الناس .. حاولى أن تحتملى خطابى كله .. لا تدعينى اخاف عليك مما سأحدثك به .. انى أعترف كما ترين .. واريد أن يكون اعترافى كاملا ، صادقا .. اريد ان اكون شريفا للمرة الأولى والأخيرة فى حياتى .. وانا كما تعلمين أقف الآن على باب السماء .. ولست طامعا فى عفو الله .. انا لا استحق عفوه .. ولكن كل ما أطلبه منه أن يعينك على قراءة خطابى هذا .. فساعدينى لدى الله .. ساعدينى حتى اتم اعترافى .. ولا تلوى

شفتيك .. لا تمتعضى هكذا ، فان ما حدثتك عنه حتى الآن ليس سوى الحياة .. الحياة خارج بيتك النظيف الذى لم يدنسه سوى دخولى اليه .. وعبد العظيم افنــدى كما وصفته لك شخصية معروفة فى دوائر الأعمال ، ودوائر الكبار .. ان وراء كل كبير .. ووراء كل عظيم ، عبد العظيم افندى .. ان الكبار لا يكبرون الا بالأعمال القذرة .. والأعمال القذرة فى حياة كل كبير يقوم بها عبد العظيم افندى !!

ولا تطلبى منى أن أعدد لك الـكبار الذين أقصــدهم .. ولا تطلبى منى أن أعدد كم « عبد العظيم افندى » يعيثون فسادا فى مصر .. فانى لا أنوى الدفاع عن نفسى ، ولا أريد أن اتخذ من اعمال غيرى مبررا لأعمالى ..

لا ..

ولكنى فقط أريد أن تهدئى ، حتى استطيع أن اســتمر فى خطابى ..

هل استمر ؟ !

اذن ، اسمعى .

لم يكن عبد العظيم افندى وحده كافيا لأحقق النجاح الذى حققته ، ولا الخطوات الكبيرة التى قطعتها .. فقد كان يلزمنى لتحقيق هذا النجاح ابوك ايضا .. نعم ، ابوك .. الرجل النظيف الرقيق الذى لا تبدو شخصيته من خلال رقته .. الرجل الذى احبه .. الرجل الذى احاول ان انال رضاءه واعجابه .. الرجل الذى يحرك الشىء فى صدرى ..

كان عبد العظيم افندى يمثل الأداة التنفيذية لى .. وكان ابوك يمثل الدافع .. يمثل القوة التى تدفعنى الى النجاح .. والى المزيد من النجاح ..

لقد نجحت فى مشروعى الأول .. كسبت كثيرا .. واصبحت غنيا .. ولكنى لم احس بأنى نلت اعجاب ابيك .. لقد بدا

الناس يحترمونني .. كل الناس يحترمونني .. ويعجبون بي ، وبذكائي ونشاطي . ولكني لم احس اباك يشارك الناس هذا الاعجاب وهذا الاحترام .. كان الشيء الذي يسكن صدري قلقا دائما .. لا يهدأ ابدا .. فتوليت مشروعا آخر نجحت فيه ، ثم مشروعا ثالثا ، ثم لم اعد اكتفي بعطاءات الجيش البريطاني .. دخلت عطاءات الحكومة .. ولبس عبد العظيم افندي حلة وجيهة ليستطيع ان يقابل بها كبار الموظفين ويقوم لهم الرشاوي ، باحترام كبير ..

وكثرت المشروعات الحكومية التي توليتها .. ثم انشأت مصنعا .. ثم شركة صناعية كبيرة .. واصبحت شخصية معروفة من الشخصيات التي تتحكم في مصير مصر .. ومددت اصابعي الى الأحزاب السياسية .. واستطاع عبد العظيم افندي الآن يشتري لي في كل حزب مجموعة من اعضائه .. وفي كل وزارة وزيرا او وزيرين .. وخلال كل ذلك نلت لقب البكوية .. وعندما نلت لقب الباشوية .. واصبحت . « باشا » .. في نفس اليوم ، اصبح عبد العظيم .. بك !!

وفي كل مرحلة من هذه المراحل كنت أسأل نفسي : هل رضي عني محمد افندي .. هل نلت اعجاب والدك ؟ !

ولو اني اعتقدت اني نلت اعجابه ورضاءه لتوقفت .. لو انه جاءني وشد على يدي ، لاكتفيت بما كنت قد وصلت اليه .. لو انه قبل ان يكون معي لقنعت بما انا فيه ..

ولكنه لم يرض ، ولم يشد على يدي ، ولم يكن معي .. فكنت دائما في حاجة الى نجاح اكبر .. الى مشروع اضخم .. لعلي اقنعه .. ولعلي اقنع الشيء الذي يعيش في صدري ..

ولم تكن علاقتي بأبيك خلال كل هذه السنوات مجرد خيال .. او مجرد احساس .. بل كانت علاقة واقعية .. كانت عملا من اعمالي اليومية .. وكان عبد العظيم افندي .. او « بك » ..

يفهم كل الأعمال التى اكلفه بها .. الا عملا واحدا كان مكلفا به دائما ، وهو ان ينقل الى اخبار محمد افندى السيد اولا بأول !

وكان عبد العظيم يكره محمد افندى السيد ، ويلعنه .. ويشتمه .. ولكنه لم يكن يستطيع ان يعصى لى امرا .. فخصص معاونا خاصا لجمع اخبار ابيك .. فكنت اول من يعرف خبر نقله من قنا الى اسيوط .. ثم من اسيوط الى القناطر .: ومن القناطر الى القاهرة .. وكنت اول من سمع بترقيته الى الدرجة السابعة .. ثم السادسة .. ثم الخامسة .. حيث وقف ولم يتقدم بعدها .. اصبح من الموظفين المنسيين .. وكنت اول من عرف بخبر زواجه .. وخبر ولادتك .. وكنت اعرف عنوان بيتكم .. وكنت اعرف يوم يغيب عن ديوان الوزارة .. ويوم يأخذ اجازته السنوية .. و .. و .. كنت اعرف كل ذلك .. وهو لا يدرى انى اعرف ..

ولن احدثك عن الرسل التى ارسلها اليه عبد العظيم لمحاولة ارضائه او اغرائه بالعمل فى احدى الشركات العديدة التى املكها دون ان يبدو اسمى فيها .. لقد خاب كل هؤلاء الرسل ، وكان كل منهم يعود ليعلن ان اباك رجل .. غبى !

ولكنه لم يكن غبيا ..

انى اعرفه ..

لقد كانت هذه طبيعته .. كانت هذه شخصيته .. كانت شخصية اقوى من ان تتلوث .. شخصية تشم رائحة العفن من بعيد ، فتبتعد عنه ..

وفى مرة طلبت من عبد العظيم أن يوعز الى زملائى خريجى مدرسة الفنون والصنائع ان يقيموا حفلة تكريم لى بوصفى ألمع خريجى المدرسة منذ انشئت حتى اليوم ..

لا تدهشى ..

فقد كنت اكلف عبد العظيم بكثير من مثل هذه المهام التى قد تبدو كأنها صفاقة منى ، ولكنها صفاقة يحتـــاج اليهـــا كل الكبار ..

ولم اكن أعبر عن هذه الصفاقة بصراحة ، بل كان يكفى أن أقول لعبد العظيم مثلا : « يظهر ان جريدة الأهرام مش راضية علينا اليومين دول » .

ويصيح عبد العظيم : « ازاى الكلام ده » ..

وفى اليوم التالى تبدو جريدة الأهرام وقد خصصت صفحة كاملة من صفحاتها للحديث عن مشروعاتى ، وعن « الوطنى المكافح حسين باشا شاكر » !!

وفى هذا اليوم قلت لعبد العظيم :

ــ والله زملاءنا اللى كانوا معانا فى المدرسة وحشونا ! ؟

واجاب عبد العظيم بذكائه اللماح :

ــ دول ناس ما فيهمش خير .. كان لازم يعملوا لسعادتك حفلة تكريم .. هو حد شرفهم غيرك !!

وبعد أيام جاءنى وفد من خريجى المدرسة ليعرضوا على أن اشرفهم بقبولى اقامة حفل لتكريمى ..

واعتذرت تواضعا منى !

والحوا .. وازدادوا الحاحا !

واقترحت عليهم ــ فى تواضع ــ أن يحولوا نفقات اقامة حفلة التكريم الى جمعية مبرة محمد على ..

وهتف الزملاء بحياة رجل البر .. اى انا !!

ونشر الخبر فى الصحف ..

ولكن الزملاء عادوا وقالوا انهم بعد ان تبرعوا بتكاليف اقامة الحفل لمبرة محمد على ، جمعوا مبلغا آخر لاقامة حفلة التكريم .. لان فى تكريمى تشجيعا لأمثالى المكافحين .. و .. و ..

واضطررت ان اقبل التكريم !!

وكل هذا حتى ارى اباك فى حفلة تكريمى .. حتى ارى عينيه الهادئتين العميقتين ، وارى نفسى فيهما ..

وقد كنت متأكدا انه دعى الى الحفل .. ان عبد العظيم تأكد بنفسه أن بطاقة الدعوة قد وصلته ..

ولكنه لم يحضر ..

نعم .. لم يحضر !

وقد دخلت الى مكان الحفل وانا ادير عينى باحثا عنه .. لم ار وجوه المستقبلين .. ولم اسمع التصفيق الذى استقبلت به .. ولم تلتقط اذناى شيئا من الكلمات التى كانت تلقى تحت قدمى .. كنت ادير عينى باحثا عنه ..

وجلست فى متعدى ، وانا لا زلت ادير عينى باحثا عنه ..

وتوالى الخطباء .. يشيدون بمجدى وكفاحى .. وانا لا إسمع شيئا ، انما اركز عينى على الباب لعلى اراه يدخل منه .. يدخل الى !

ثم يئست ..

انه لن يأتى ..

وعندما يئست من حضوره ، احسست كأنى صغير .. صغير جدا . احسست انى شىء حقير .. حقير جدا .. واحسست ان كل هؤلاء الناس المحيطين بى منافقون .. كلهم منافقون .. كلهم اصغر منى ، واحقر منى ..

واحسست ساعتها انى قذر .. يجلس بين اكوام من القذارة .. وقلبت شفتى فى امتعاض .. ومرة واحدة ، بينما كان احد الخطباء فى اوج حماسته .. قفزت من فوق مقعدى .. ثم اسرعت نحو باب الخروج ..

وارتبك الحفل .. وجرى البعض خلفى .. وهممت ببعض

كلمات ليس لها معنى . كأنها كلمات اعتذار .. ثم تولى عبد العظيم عنى مهمة الاعتذار للمحتفلين بى ، وافهامهم انى مرتبط بموعد هام سيتقرر فيه بناء مشروع ضخم ..

وفى اليوم التالى تبرعت بعشرة آلاف جنيه للأعمال الخيرية ..

وكان هذا هو ردى على عدم حضور ابيك الى الحفل ..

كانت هذه العشرة آلاف جنيه كأنها رشوة له .. لعله يرضى عنى ويعجب بى !

فهل رضى عنى !! هل اعجب بى ؟ !

لا ...

والشيء الذى فى صدرى يعذبنى !

وقد ترك هذا الحادث اثرا آخر فى نفسى .. لقد اصبحت احتقر الناس المحيطين بى .. واتلذذ باحتقارهم .. اصبحت اتعمد كلما جاءنى وزير ، او باشا من الباشوات الذين يشتريهم لى عبد العظيم لأعينهم اعضاء فى مجالس ادارة شركاتى .. اصبحت اتعمد ان « الطعهم » فى غرفة السكرتير مددا متفاوتة .. لا لشيء الا لأتلذذ بلطعتهم .. واتلذذ باحتقارهم .. وكلما طالت مدة لطعتهم . ازددت تلذذا ..

وبدا هؤلاء الناس يقولون عنى انى رجل متكبر ، متغطرس .. وكانوا يقولون هذا الكلام فى مجالسهم الخاصة ، اما فى مجالسهم العامة فكانوا يقولون عنى انى رجل مشغول !

والواقع انى لم اكن متكبرا ولا متغطرسا .. ولكنى عندما احسست ايضا انى انسان صغير حقير .. احسست ايضا ان كل هؤلاء الناس الذين يحيطون بى ، والذين اتعامل معهم ، هم اصغر منى واحقر .. وكنت فى حاجة الى هذا الاحساس لأنقذ نفسيتى من الانهيار وكنت فى حاجة الى ممارسة هذا الاحساس

واظهاره حتى اقنع نفسى به .. ثم اصبحت اتلذذ بهذا الاحساس .. اتلذذ بمعاملة هؤلاء الناس على انهم اصغر منى واحقر ..

وكان هذا من فعل والدك ..

***

حبيبى هدى ..

وسأناديك دائما : حبيبتى ..

لماذا حدثتك كل هذا الحديث الطويل عما كان بينى وبين المرحوم والدك ؟ ..

لانك لن تفهمى ما بينى وبينك ، الا اذا فهمت ما كان بينى وبين والدك .. لن تفهمى لماذا احببتك ، وكيف احببتك ، الا اذا فهمت اين كان والدك منى ، واين كنت منه ..

حاولى ان تفهمى ..

ارجوك .. حاولى كثيرا .. حتى لو اضطررت ان تعيدى قراءة سطورى مرة ثانيـــة .. حاولى بكل ذكائك ، وبـــكل احساسك .. فان ما سأحدثك به بعد ذلك ، فظيع .. فظيع .. ولن تحتملى فظاعته الا اذا فهمت ، الا اذا وضعت عقلك بجانب قلبك . وانت تقرئين ..

ولا تنسى انى اموت ..

دعينى اقص عليك الحوادث التى جمعتنا ..

دعينى اقص عليك قصة حبى .. القصة التى تسمعينها لأول مرة ..

انى ارى الماضى كله بوضوح .. والأيام كلها منتصبة أمامى ، يوما بعد يوم .. واستطيع ان اصف لك كل يوم ، وان اردد كل كلمة قيلت .. ان ذاكرتى لم تكن ابدا بمثل هذا الوضوح ، وذهنى لم يكن ابدا بمثل هذا الصفاء .. غريبة .. كأن الله يهب الناس ، وهم على فراش الموت ، ذاكرة قوية ، حتى لا يحتجوا بالنسيان وهم يؤدون امامه الحساب !!

اسمعى يا أحب الناس :

فى صباح ١٤ سبتمبر عام ١٩٤٧ ، قمت من النوم فى الساعة السابعة صباحا كما كانت عادتى دائما .. ولبست ثيابى فى تأن وهدوء .. وقد عودت نفسى على هذا التأنى والهدوء فى كل حركة من حركاتى ، حتى أحتفظ بمظهر محترم مهاب !! .. ثم نظرت الى نفسى فى المرآة بلا اكتراث .. الى رأسى الكبير ، والى حاجبى الكثيفين ، وركزت نظرى برهة على الشعرات البيض التى تكسو فودى ، وتتسلل الى شاربى الصغير .. ثم نزلت الى الحديقة ، وياسين خادمى الخاص ، يتقدمنى .. وطفت بحديقة القصر ، والجناينى يتبعنى .. ثم انحنيت وقطفت وردة حمـــراء كبيرة علقتها فى عروة سترتى .. وقد فعلت كل ذلك بلا احساس ، انما بحكم العادة .. فلم اكن احس بجمال الحديقة ، ولا بجمال الوردة .. انما هى عادة اتبعتها لأنها عادة الأغنياء الكبار .. ثم جلست الى المائدة المعدة تحت احدى الخمائل لأتناول عليها افطارى .. ورشفت رشفة من فنجان الشاى ، ثم مددت يدى وسحبت جريدة الأهرام .. وقد تعودت أن اقرا أولا صفحة الوفيات .. وربما كان الدافع لى على قراءة اخبار الوفيات يختلف عن دوافع بقية الناس ، فقد كنت اقرؤها على امل ان أجد عدوا لى قد مات .. انه امل خبيث ، ولكنى اعترف كما تعلمين ، وقد نويت أن اصدقك فى اعترافى .. نعم ، كنت اقرأ صفحة الوفيات على أمل أن يكون عدد أعدائى قد نقص واحدا .. أما اصدقائى ، فليس لى أصدقاء .. كل الناس أعداء .. زملائى رجال الأعمال الذين اجتمع بهم فى حفلات العشاء ، واقضى معهم فترات طويلة فى نادى محمـــد على وفى نادى السيارات ، نتبادل خلالها الابتسامات والنكات .. كلهم اعداء .. ورجال الأحزاب والمستوزرون .. كلهم اعداء .. حتى الذين اعينهم فى مجالس ادارة شركاتى ، وادفع لهم بسخاء .. كلهم

اعداء .. والموظفون كلهم اعداء ، والعمال كلهم اعداء .. كل الناس اعدائى .. لا يربطنى بهم سوى حاجتهم الى .. وهم يكرهوننى لانهم دائما يطمعون فى المزيد .. ولو اغمضت عينى عنهم ، او لو تحرروا من حاجتهم الى ، لا نقضوا على وحطمونى ..

كل الناس اعدائى ، وعلى راسهم صديقى الوفى ، وكلبى الذليل .. عبد العظيم بك !

وكلهم اتمنى لهم الموت ، ويتمنون لى الموت !

ولهذا كنت اهتم دائما بقراءة صـــفحة الوفيات فى جريدة الأهرام !!

وجرت عيناى بين السطور السوداء .. ثم توقفت ..

لقد قرات اسم والدك ..

مات ..

مات محمد افندى السيد .. الصديق الذى احبه واخافه واسعى الى رضائه .. مات الرجل الذى يحرك شيئا فى صدرى ، فأحس بثقل يكاد يكتم انفاسى . وســـكين حاد يمزق رئتى .. مات الرجل الوحيد الذى استعصى على طول حياتى . فلم أستطع ان اسيطر عليه ، ولا أن اتخلص منه ..

ولم أعرف ساعتها ما هو احساسى بالضبط .. انما شعرت كأن شيئا ينسلت منى ويتركنى فراغا .. ووقعت الجريدة من يدى . دون أن اتم قراءة الخبر ، ودون ان اقرأ اسعار البورصة التى يبدأ بها عملى كل صباح .. ولم ارشف الرشفة الثانية من فنجان الشاى .. انما قمت كالمذهول اسير فى طرقات الحديقة ، وصورة والدك تملأ مخيلتى .. وجهه النحيل كوجه فنان امتص الفن كل قواه ولم يترك الا خيالا ، وعيناه الهادئتان العميقتان اللتان تثقبان صدرى وتنفذان الى اعماقى ، وابتسامته الضيقة كفرجة من امل بعيد لن أصل اليه ابدا ..

وحاولت عبثا ان احدد احساسى فى تلك اللحظة .. احساسى

نحو وفاة والدك .. ولكن الأحاسيس ــ مختلف الأحاسيس ــ كانت تمر فى ذهنى ، كأنها اصناف بضاعة اختار منها واحدة .. الحزن .. والفرح .. والأسف .. والشماتة .. واللامبالاة .. والجزع .. كل هذه الأحاسيس كنت استعرضها فى ذهنى ، دون ان يسقط احساس واحد منها فى قلبى ..

كنت اقول لنفسى : « يجب أن تحزن .. انه الرجل الذى عاش فى صدرك طول حياتك .. انه الرجل الوحيد النظيف الذى التقيت به فى الدنيا .. لقد كنت تحبه .. فاحزن .. احزن جدا حاول أن تبكى » ..

وكنت احاول فعلا ان احزن .. كنت اجمع نفسى واضغط على اعصابى حتى احس بالحزن . وكنت اعصر عينى لعلنى ابكى .. بل خطر لى ساعتها ان ابدل رباط عنقى برباط عنق اسود ..

ولكنى فى نفس الوقت كنت أسمع هاتفا آخر فى نفسى .. هاتفا خبيثا يقول لى : « لماذا تحزن .. ان من حقك أن تفرح .. من حقك ان تشمت بموته .. انه رجل استعصى عليك .. انه رجل عذبك طول حياته .. لم يرض عنك ، ولم يبد لك احتراما ، ولم يقدر لك كفاحك .. لقد كان يقلقك ، ويثير فى صدرك شيئا يكتم انفاسك ويمزق رئتيك .. وقد مات هذا الرجل .. ومات هذا الشيء .. افرح .. اشمت .. تهاد فى مشيتك .. انه انتصار لك » ..

وكان هذا الهاتف قويا ، وكان قريبا جدا من قلبى ، حتى انى كنت اشعر بالابتسامة تكاد تقفز الى شفتى ..

وقد حاولت ان اقاوم هذا الشعور .. حاولت كثيرا ..

كنت ساعتها كأحد هؤلاء المنافقين الذين يسيرون فى الجنازات .. يحاولون ابداء الحزن فلا يستطيعون .. ويتغلب عليهم شعورهم بالشماتة ، فيكتمونه خوفا من ان يفتضح نفاقهم

أمام الناس ، ثم يلجئون الى من يسير بجانبهم يبادلونه الحديث حتى يهربوا من نفاقهم .. يهربوا من الحزن والشماتة معا ..

ولم يكن بجانبى احد ابادله الحديث ، لأهرب بالحديث من هذه الأحاسيس المتناقضة التى اثارها فى نفسى موت ابيك ..

وشيئا فشيئا ، رايتنى اخضع للهاتف القوى الخبيث .. انتصر فى نفسى الاحساس بالشماتة .

نعم .. شمت فى موت ابيك !

هدى .. لا تتقززى هكذا .. ولا تلقى خطابى من بين يديك .. ولا تكرهينى الى هذا الحد .. ارجوك يا هدى .. لا تكرهينى .. فانك ان كرهتنى لن تستطيعى فهمى .. وانا محتاج لكل فهمك .. حاولى أن تسيطرى على كل مشاعرك حتى انتهى من خطابى ، وتنتهى انت منه .. وبعد ذلك .. اكرهينى !

لقد اكتشفت ان اباك ايضا كان عدوا لى .. ولكنه عدو يختلف عن بقية اعدائى .. انه عدو يعيش فى صدرى .. عدو احبه !!

وغمرلى شعور الشماتة ..

وتركت ابتسامتى تملأ شفتى .. وتهاديت فى مشيتى بين أشجار الحديقة نشوان بلذة النصر ..

لقد نصرنى الموت على ابيك ..

المغفل .. مات !

ماذا أجدته حياته .. ماذا اجداه الشرف ، والأمانة ، والنظافة ، والقناعة .. وماذا أجدته عيناه العميقتان ، ونظرته الثاقبة ، وابتسامته الضيقة .. لقد عاش ومرتبه لا يتجاوز الثلاثين جنيها ، ومات ولم يترك وراءه سوى معاش لا يتجاوز الاثنى عشر جنيها .. المغفل !

وخرجت من قصرى وركبت سـيارتى وانا اكاد اطير من النشوة .. ودخلت الى مكتبى وانا احس بقوة لم احس بها من قبل .. قوة غريبة .. قوة مدمرة .. كنت أحس كانى استطيع ان اعصر مصر كلها فى قبضة يدى ، لأستنزف كل قرش فيها واضعه فى خزانتى ..

ودخل على عبد العظيم بك ..

انه دائما اول من القاه صباح كل يوم ، لنراجع سويا سير الاعمال القذرة ، ويتلقى تعليماتى بشأنها ..

وجلس عبد العظيم على المقعد المواجه لمكتبى ، وابتسامة كبيرة تسيل من بين شفتيه الغليظتين الكريهتين .. ابتسامة اكبر من ابتسامة كل يوم .. ثم مال براسه الى وقال فى لهجـة احسست انها لهجة تشف :

ـــ البقية فى حياة سعادتك !

وتجاهلت ما يقصده ، وقلت فى برود ، وانا ادس عينى فى بضع أوراق حتى اخفى عنه احساسى :

ـــ مين ؟ !

قال والتشفى ينضح من كلماته :

ـــ محمد افندى السيد .. تعيش سعادتك !

وبذلت جهدا كبيرا لأضغط على اعصابى ، وقلت فى اختصار :

ـــ الله يرحمه !

ونظر الى عبد العظيم نظرة ماكرة .. انه لا يصدق هذا البرود الذى ادعيه .. انه يعرف والدك ، ويعرف كيف ربطت نفسى به طول حياتى ، وقد قضى خمسة وعشرين عاما ينقل الى اخباره اولا بأول . فكيف يصدق مثل هذا البرود الذى استقبل به خبر موته !!

واحسست ساعتها انى لست وحدى الذى يشعر بالقوة والنصر بموت ابيك .. بل ان عبد العظيم ايضا يشعر بأنه

ازداد قوة .. ازداد قوة على .. على أنا ؟

وخفت يومها من عبد العظيم ..

احسست أنى فى حاجة الى مزيد من الحرص ، ومزيد من الدهاء ، لأظل مسيطرا عليه ، آمنا شره ..

أحسست أن والدك عندما مات تركنى وجدى لعبد العظيم .. تركنى بلا فرامل .. بلا شيء فى صدرى يثير القلق فى نفسى .. شيء أخافه ، وأحاول ان أنال رضاءه واعجابه ..

وقد انقدت فعلا لعبد العظيم ..

أو على الأصح انقدت لعقلية عبد العظيم ..

وانقضى أسبوع ارتكبت فيه من الأعمال قدر ما كنت ارتكبه فى عامين أو ثلاثة .. كنت أعمل بلا راحة .. وبلا رحمة .. وبلا تردد .. واستطعت أن أفلس احدى الشركات المنافسة .. واستطعت — فى هذا الأسبوع الواحد — أن أسقط وزارة لتحل محلها وزارة أخرى أكثر تفاهما معى .. وتسببت فى حل نقابة عمال « شركة الصناعات المصرية الكبرى » .. وخفضت الأجور .. ورفعت الأسعار .. وبعت للحكومة ثلاثة آلاف طن من البضاعة الفاسدة .. و .. و ..

وعبد العظيم منتش ، فرحان .. انه يجول ويصول ، وينفث شره فى كل مكان ..

وأنا جبار .. لا أرحم .. لا أرحم الناس ، ولا أشعر بوجودهم .. كل الناس حشرات تافهة أسحقها بنعل حذائى .. حتى الأعمال الصغيرة التى كنت اكتسب بها مظهر الخير امتنعت عنها .. التبرعات للجمعيات الخيرية ، وشراء تذاكر حفلات الجمعيات ، واعانة النوادى الرياضية ، واعلانات الصحف .. و .. و .. كل ذلك استغنيت عنه .. وأبلغت السكرتير بأن يطرد كل مندوبى هذه الجمعيات ، وكل مندوبى الصحف .. هؤلاء الشحاذين .. ما حاجتى اليهم !!

وفى خلال هذا الاسبوع كانت تمر على لحظات خاطفة كنت اخاف فيها من نفسى .. اخاف فيها من الطاقة الهائلة المدمرة التى اطلقتها على الناس .. وفى هذه اللحظات كنت اتذكر والدك .. ولكنى ما كنت اكاد اذكره ، حتى اسمع صراخا يتجاوب فى نفسى : « لقد مات .. مات .. مات .. مات .. مات » ثم اندفع فى عملى ، تطوينى الطاقة الهائلة التى تنطلق من نفسى .. اندفع كانى اجرى فزعا من شبح يطاردنى .. شبح ميت !!

وفى نهاية الاسبوع طرات على راسى فكرة غريبة ..

فكرة شاذة ..

لقد فكرت ان ازوركم فى بيتكم !!

لماذا ؟

ربما لانى لم اكن اصدق نفسى عندما اسمعها تردد ان والدك قد مات .. لم اكن اصدق انه لم يعد فى الدنيا من يستطيع أن يقلقنى او يحرك شيئا فى صدرى .. فأردت ان اذهب الى بيت الميت ، لأتأكد من انه فعلا قد مات ..

وربما لانى اردت ان ازداد شماتة فى ابيك ، وازداد احساسا بالنصر .. اردت ان ارى الفقر الذى كان يعيش فيه ، والفقر الذى تركه خلفه .. حتى اقنع نفسى بأنى لم اخطىء فى الطريق الذى دلنى عليه ذكائى .. طريق الثراء الكبير ، والجـــريمة الكبيرة ..

وقلت لعبد العظيم بعد ان انتهينـــا من مراجعة الأعمال القذرة قلت معتمدا على ذكائه اللماح :

ــ يا ترى عيلة محمد افندى السيد ، حالتها ايه دلوقت ؟ !

والتفت الى لفتة حادة كأن راسه انفصل عن عنقه ، وقال وقد اتسعت عيناه فى ذعر :

ــ احنا لسه ما نسيناش سيرة محمد افندى !!

قالها بلهجة لم يتعود أن يحادثنى بها من قبل .. ونظرت

اليه نظرة صارمة ثابتة ، حتى اضطر ان يرخى عينيه عنى ، ونكس راسه ، وعاد يقول فى صوت ذليل :

ــ الحقيقة انى كنت نسيت المرحوم خالص !

قلت وانا اضع فى كلماتى رنينا جادا يفهمه جيدا عبد العظيم :

ــ لازم الواحد يكون بار بزملائه .. ده كان أعز صديق أيام المدرسة !

وقال عبد العظيم :

ــ كلك خير يا باشا ..

ثم قام منصرفا ، وأنا واثق انه سيتخذ كل الاجراءات التى تكفل زيارتى لكم ..

وقد أرسل لكم احد معاونيه الخصوصيين ليحدد معكم موعدا لزيارتى .. وفى الوقت نفسه اعد مقالا لتنشره احدى المجلات عن تواضع حسين باشا شاكر .. اى انا .. الى حد اننى ذهبت بنفسى لأعزى فى وفاة موظف صغير من زملائى فى المدرسة ..

وحدد الموعد فى الساعة الخامسة من يوم الخميس ٢٥ سبتمبر .. انى لا انسى أبدا التواريخ .. بل ان ذاكرتى تعودت الا تحمل الا ارقاما وتواريخ ..

وذهبت اليك ..

وتعمدت أن اذهب فى سيارة متواضعة من سيارات الشركة ، حتى لا اثير الريبة ، وأنا امر فى شوارع شبرا ..

وذهبت وحدى .. كأنى ذاهب لزيارة قبر عزيز مات ، واريد ان اخلو بذكراه .

ووقفت السيارة أمام بيتكم فى شارع شيكولانى .. ونزل السائق وفتح الباب ، ومددت ساقى لأهم بالنزول .. ولكنى عدت وسحبتها .. وسحبت معها نفسا عميقا من صدرى كأنى استجمع كل قواى ..

لقد احسست ساعتها بالتردد ..

احسست انى مقبل على ارتكاب جريمة اكبر من كل جرائمى ..
احسست كأنى مقبل على انتهاك حرمة قبر .. أنى سأنبش القبر وأسرق الجثة !

وفكرت ساعتها ان اعود .. ان اعدل عن هذه الفكرة الغريبة الشاذة التى يثيرها فى راسى دافع خبيث .. دافع الشماتة فى الموت . والاطمئنان الى ان الميت قد مات ..

ولكن كان الدافع الخبيث اقوى منى .

وكان مقدرا على البيت الكريم الطاهر أن ادنسه بقدمى ..

وكان مقدرا عليك ان افسد حياتك .. وان احيل نضارة شبابك الى رماد .. الى حطام بائسة ..

لا تتعجلى ولا تسألينى كيف افسدت حياتك .. ولا تجهدى ذاكرتك بحثا عما فعلته بك .. انك لن تذكرى شيئا .. انى مجرم اكبر من ان يترك بصمات اصابعه فوق ضحيته .. وانت اطيب من أن تتصورى ان الدنيا يمكن ان تحمل مجرما مثلى ..

دعى الحوادث تحكى لك كل شىء ..

لقد نزلت من السيارة ، وانا لا زلت مترددا ، وقلبى واجف .. وصعدت السلم فى خطوات متلصصة ، كأنى أخشى أن يرانى احد وانا اتسلل اليكم .. ووصلت الى الدور الثالث .. انى اعرف أين انتم .. الشقة التى على اليمين .. ووقفت أمام الباب برهة ، التقطت فيها أنفاسى .. ولم يكن صعود السلم هو الذى اتعب انفاسى .. لقد كنت أيامها فى الخامسة والخمسين من عمرى ، ولكن انفاسى لم تكن تتعب من صعود السلم .. انما تعبت من ترددى ، ولعدم اقتناعى بما افعله ..

وطرقت على الباب طرقة خفيفة .. ثم اعدت الطرق ..

وفتحت الباب خادمة صغيرة ، على رأسها منديل اسود .. انى اذكر تماما وجهها .. وجها غبيا يثير الابتسام من فرط غبائه .. وقد فتحت الباب نصف فتحة .. وتلقت اسمى .. قلته لها

بلا لقب .. حسين شاكر .. فأغلقت البــاب فى وجــهى .. واحسست انى طردت .. انى اهنت .. احسست ان هذه الغبية الصغيرة قد اكتشفت انى مجرم ، وانها أرادت أن تحمى البيت منى .

ولكنها عادت بعد لحظات وفتحت الباب .. فتحته كله .. وقادتنى الى حجرة الاستقبال .. حجرة كسيت كل مقاعدها وأرائكها بأكسية بيضاء .. وأدرت نظرى فيها بسرعة .. وعلى الجدار لمحت صورة كبيرة غطيت بملاءة سوداء .. لابد انها صورة المرحوم .. اذن ، فقد مات المرحوم !!

وجلست تحت الصورة المحجبة بالسواد ، والشعور الخبيث يكاد يطلق ابتسامة من بين شفتى .. ولكن هذا الشعور بدأ يخف .. بدأ يزايلنى .. احسست انه ينفلت منى ويتركنى فراغا .. احسست بنفس الشعور الحائر الذى انتابنى لحظة قرأت نبأ وفاة ابيك .. وانتهت هذه الحيرة بأن احسست بالرّاحة .. نعم الراحة .. لا ادرى اى نوع من الراحة هى .. ربما الراحة لوجودى فى بيت شريف .. لا ادرى .. ولكن اعصابى بدأت ترتخى .. وتسربت الى انفى رائحة هادئة كأنها رائحة بخور .. وكانت النوافذ مغلقة ، والضوء هادئا .. شعرت كأنى فى مسجد .. أو كأنى فى مقبرة .. لا ضجيج .. ولا معركة .. ولا اطماع ..

هنا كان يعيش محمد افندى السيد ..

واحسست انى احسده .. لقد قضى حياته كلها فى مثل هذه الراحة اللذيذة المخدرة التى احس بها الآن .. وعندما حسدته بدأت ارى حياتى بشعة ، مزعجة ، بلا راحة ..

وانتبهت على صوت اقدام تقترب ..

ودخلت والدتك ، متشحة بالسواد .. ونظرت اليها بكل عينى .. ثم نظرت اليها مرة اخرى .. كنت اريد أن ارى زوجة

زميلى محمد افندى السيد .. كنت اريد ان ارى زوجات الناس الشرفاء .. كانى ابحث فى وجهها عن انسانة غريبة .. عن سيده ليست ككل السيدات اللائى التقيت بهن فى حياتى ..

ولم ار فى والدتك شيئا مما كنت اتصوره عن زوجة زميلى الشريف ..

انها ليست جميلة الى حد ان يميزها الجمال .. ولكنها تبدو ذكية .. ذكاء تنطق به عيناها ، ويتقدمها فى كل لفتة من لفتاتها ، وفى كل كلمة تنطق بها .. هذا النوع من الذكاء الذى تستطيعين ان تأمنى شره بسهولة .. لانه ذكاء واضح ، وليس مختبئا .. ليس خبثا .. او هو خبث بسيط ساذج .. مكشوف ؟

وتعجبت : كيف استطاعت هذه السيدة الذكية ان تعيش حياتها مع محمد افندى السيد .. كيف استطاعت أن تحصر ذكاءها فى هذا النطاق الضيق .. وخيل الى انها لو كانت موظفة عندى فى احدى شركاتى لاســـتطاعت بسرعة ان تكون مديرة شركة ، او على الاقل مديرة فرع لشركة ..

ومددت لها يدى ، وقلت فى تأثر وانا لا ازال انظر فى وجهها :

ـــ البقية فى حياتك يا هانم ..

قالت وهى تخفض رأسها لتبدو اكثر تأثرا :

ـــ حياتك الباقية يا سعادة الباشا ..

وسمعت فى صوتها رنة اعرفها جيدا .. انها رنة التزلف .. والنفاق .. انها رنة الزهو المكبوت عندما يقابل احد الصغار كبيرا مثلى .. باشا مثلى !!

ترى لو انى كنت قد التقيت بأبيك .. هل كنت اسمع فى صوته هذه الرنة ؟ !

وجلسنا .. ومرت بيننا فترة صمت .. كنت خلالها ابحث عن كلمات اقولها ، وكانت خلالها تنظر الى نظرات مختلسة مترددة ، كانها تتعجلنى لتسمع منى مبررا لزيارتى ، وهى فى نفس الوقت

تخشى الا يكون هناك مبرر الا مجرد تادية واجب العــزاء ، فيضيع منها « باشا » سقط عليها من السماء .

وقلت كأنى أبدأ مرافعة طويلة :

ــ المرحوم كان أعز اصدقائى . كنا زملاء مع بعض فى المدرسة .. انما للأسف مشاغل الدنيا فرقتنا عن بعض .. ويمكن حتى ما يكونش كلمك عن صداقتنا ..

قالت وهى تمصمص شفتيها ، لا اسفا على وفاة المرحوم ، بل اسفا على الصداقة التى لم تسمع بها :

ــ الحقيقة ان المرحوم ما كانش بيتكلم كتير .. عمره ما حكى لى عن ايامه فى المدرسة .. والحقيقة انه عمره ما جاب سيرة سعادتك !

واحسست باهانة لم احس بها من قبل .. انه كان يضن على حتى بذكر اسمى فى بيته .. ولكنى تمالكت اعصابى ، وقلت :

ــ انما انا دايما كنت فاكره .. و دايما أطمن عليه من بعيد !

وتنهدت .. وقالت :

ــ يديك طولة العمر يا سعادة الباشا !

قلت .. وانا ابحث عن مزيد من الكلمات حتى الزيارة فترة مناسبة :

ــ على كل حال ، اذا كنت ما قدرتش اخدم المرحوم و ، فأنا يشرفنى انى اخدمه بعد وفاته .. وارجو ان تعتبرينى العيلة .. واعتبرينى دايما فى خدمتك ..

قالت ، وهى تتنهد ايضا :

ــ متشكرين يا سعادة الباشا .. كلك خير .. والله المرحو سابنا لايصين .!!

ودخلت الخادمة الصغيرة تحمل صينية القهوة .. سادة ..
والتقطت الفنجان ورشفت رشفة مرة ، ثم عدت أسأل :
ــ المرحوم ساب أولاد كتير ؟ !
وكنت أعرف انه لم يكن له الا انت .. ولذلك لم اهتم كثيرا بسماع الجواب .. وعدت ارشف فنجان القهوة المرة ، بينما والدتك تقول :
ــ ما فيش الا بنتى هدى !!
قلت وانا اضع الفنجان على المائدة :
ــ ويا ترى عرفت معاش المرحوم اد ايه ؟
قالت وهى تلف الطرحة السوداء حول رقبتها ، كأن ذكر المعاش يحتاج الى مزيد من الحزن ، ومزيد من الحداد :
ــ بيقولوا حداشر جنيه ونصف .. انما لسه ما شفناش حاجة ..
قلت وانا ادعى التأثر :
ــ بس .. ده ما ..
وسكت .. لقد أحسست ــ فى هذه اللحظة ــ أن هناك احدا معنا فى الغرفة .. انى لم اسمع صوت اقدام تقترب .. ولكنى أحسست أن هناك من دخل .. وخيل الى أنى أسمع أنفاسا كرفيف الفراشات .. وكنت ملتفتا بكل جسمى ناحية والدتك فأدرت عنقى ناحية الباب بسرعة ..
انها أنت ..
لا .. انه هو !!
وقفزت من مقعدى وقد ملأتنى الدهشة .. دهشة فيها كثير من الذعر ..
لقد رأيتك واقفة عند الباب متشحة بالسواد .. ولكن وجهك .. انه الوجه النحيل كوجه فنان امتص الفن كل قواه ولم يترك له الا خيالا .. وعيناك الهادئتان العميقتان اللتان

تثتبان صدرى وتنفذان الى اعماقى .. وشفتاك الرقيقتان كأنهما ورقتا ورد .. وانف اشم ، يبدو كبيرا فى مساحة الوجه النحيل .. وشعر كستنائى فى لون البندق ، ينسدل ناعما فوق عنقك الطويل ..

انك صورة منه ..

صورة من ابيك ..

كل خط ، وكل لمحة ، وكل تعبير .. منقول عنه بالسنتى ، والملى .. منقول بالكربون ..

اذن فهو لم يمت !

احسست ساعتها ان اباك لم يمت ، انه لا يزال حيا فيك .. لقد عاد حيا .. عاد فى عمر الصبا .. فى السابعة عشرة من عمره .. العمر الذى التقيت به فيه لأول مرة .. عاد ليحرك فى صدرى الشىء الذى يكتم انفاسى ويمزق رئتى .. يبدو ان هذا الشىء لا يموت ابدا !!

وتقدمت أنت فى خطوات بطيئة صامتة .. انك لا تبتسمين ، حتى هذه الابتسامة الضيقة كفرجة الأمل التى عرفتها فى ابيك .. وصافحتك ، وسمعت والدتك تقول :

بنتى هدى ..

وابتسمت لك .. كانت المناسبة — مناسبة العزاء — لا تبيح الابتسام .. ولكنى ابتسمت رغما منى ، كأنى أتودد اليك بابتسامتى ، او ارشوك بها .. وقلت وانا أحرص على ان أضمن صوتى لهجة الوالد :

— البقية فى حياتك يا هدى .. شدى حيلك !

ولم تردى ابتسامتى .. ولم تهتزى .. لم اشعر منك بشىء مما شعرت به نحو أمك .. لم اشعر بأنك تهابين لقاء « باشا » ، هو أول « باشا » يدخل بيتكم ، او انك تحاولين تملق هذا الباشا وارضاءه .. انما شعرت بشخصيتك تقف كاملة امام شخصيتى

.. وربما كانت شخصيتك اقوى من شخصيتى ، وان كانت قوتها لا تبدو من خلال رقتك ..

هذا صحيح .. ولو انك ايامها كنت فى السابعة عشرة من عمرك !! وسمعتك تتمتمين ببضع كلمات لم اتبينها جيدا ردا على تعزيتى ، ثم جلست فى المقعد المواجه .. وجلست انا .. ولكنى لم اتخذ لنفسى نفس الجلسة التى كنت إجلسها مع امك .. لم اجلس مهوبا معتدا بنفسى كعادتى .. انما وجـدت نفسى أحرص على ان اجلس اكثر تأدبا ، واكثر اهتماما ، وأحرص على ان أبدو اكثر تأثرا ، واكثر تمسكا بتقاليد العزاء ..

وسادنا صمت ..

وشعرت بجو حزن لم اشعر به قبل ان تدخلى .. شعرت كأن كل شىء حولى حزين على وفاة والدك .. الجدران ، والمقاعد ، والأرض ، والسقف .. بل شعرت كأنى انا ايضا حزين ..

ومن خلال هذا الجو الحزين بدات احس مرة ثانية بالبيت الشريف .. وبالرائحة الهـادئة كرائحة البخور .. وبالضوء الهادىء ..

ولكنى كنت قلقا ..

بدا الشىء الذى فى صدرى يقلقنى ..

وقلت كأنى أحاول ان ابدد هذا القلق :

ــ وهدى بتروح مدرسة ايه ؟ !

واجابت والدتك :

ــ خدت التوجيهية السنة اللى فاتت وقعدت فى البيت !

وقلت موجها الكلام اليك ، كأنى الح عليك ان تتكلمى :

ــ ليه .. مش عايزة تروحى الجامعة ؟

وسمعت صوتك :

ــ بابا ما رضيش !!

وقد قلتها فى حزم واختصار ، كأنكِ لن تسمحى ابدا بمناقشة رغبة والدك .. وفعلا ، احسست بالجبن امام مناقشة رغبة والدك ، والتفت الى أمك ، وقلت :

ــ انا احب اقول لك يا هانم سِر ما تعرفهش .. وما حدش يعرفه ابدا .. احب اقول لك ان المرحوم صاحب فضل كبير على .. انا دلوقتى راجــل غنى .. انما لو ماكنش المرحوم ماكنتش عمرى بقيت غنى ..

وسكت برهة ، حتى الح وقع كلماتى .

ثم قلت :

ــ بعد ما اتخرجت من المدرسة ، وابتديت اشتغل ، استلفت من المرحوم عشرة جنيه . عشرة جنيه بس ، وكانوا كل راس مالى .. وبالعشرة جنيه دول بقيت غنى ..

وسكت ..

وقالت والدتكِ :

ــ البرك عليكَ انت يا سعادة الباشا .. العشرة جنيه ايدك ، مش زى الفَ فى ايد راجل تانى ..

ولم ارد .. انما تنحنحت تواضعا ..

ونظرت اليك ..

ولم يكن يبدو على وجهك شىء .. كنت تنظرين الى فى استطلاع كأنك تأمريننى بأن اتم كلامى ..

وعدت اقول :

ــ انا ما رجعتش العشرة جنيه دول للمرحوم .. عمره ما جه طالبهم منى ، وعمرى ما افتكرت ارجعهم له .. ما افتكرتش الا بعد وفاته .. وانا جاى النهارده علشان اسدد الدين .. انما الدين ما بقاش عشرة جنيه .. الدين بقى ثروتى كلها .. احب اقولك يا هانم انى باعتبر نفسى مسئول عنك وعن هدى من دلوقت .. انتى اختى ، وهى بنتى .. ومش ممكن اسمح لعيلة

صديقى وصاحب الفضل على أن تعيش بمعاش حداشر جنيه ..
وقالت والدتك ، وذكاؤها يتقدم كلماتها ، وأمل خفى يتراقص فوق وجنتيها :
ــ والله أنا محتارة نعيش بيهم ازاى ..
والتفت أنت الى ..
واحسست بعينيك تثقبان صدرى وتصلان الى اعماقى .. أحسست كأنك تتهميننى بالكذب ..
وكنت كاذبا فعلا ..
انها قصة إختلقتها ، ولا ادرى لماذا اختلقتها ، فلم اكن قد اعددتها قبل أن ازورك ، بل لم تخطر ببالى قبل ان اراك .. وربما اختلقتها لأنى احسست انى مرتبط بك .. كما كنت مرتبطا بوالدك .. وخفت أن تستعصى على والدك .. خفت ان افتقدك .. أن تبتعدى عنى ، وتظل نظرتك العميقة الهادئة تطاردنى ، وتحرك فى صدرى الشىء الذى يعذبنى ..
وقد نجحت القصة المختلقة .. وكانت مبررا كافيا لأن اربط حياتك بى الى الأبد .. أو الى أن أموت ..
وعدت اقول لوالدتك :
ــ وناويه تعملى ايه يا هانم .. قصدى ناويه تنظمى حياتك ازاى ؟
قالت وهى تضع يدها فوق خدها ، كأنها تبلغنى مصيبة :
ــ ناوية آخد هدى ونروح نقعد عند اخويا فى دمنهور !
وقلت بسرعة كأنى أحسست فعلا بوقع المصيبة :
ــ وده اسمه كلام .. طول ما انا عايش ، مش ممكن حاجة فى حياتكم تتغير .. تفضلوا عايشين زى ما انتم واحسن شوية !
والتفت اليك وسمعتك تقولين فى حزن عميق ، يحمل معنى التأنيب :
ــ ما دام بابا مش معانا مش ممكن نعيش احسن !

ونظرت اليك والدتك فى حدة ، ثم التفتت الى وقالت وهى تتنهد فى افتعال :

ـــ متشكرين يا سعادة الباشا .. برضه ربنا ما بينساش حد .. اهو المرحوم ما سابش لنا حاجه الا الناس الطيبين اللى زى سعادتك ..

قلت :

ـــ على كل حال يا هانم ، انا ارجو ان تعتبرينى فى مكان المرحوم .. وارجوك ما تعمليش حاجه الا لما تقوليلى .. وانا دايما حاسأل عليكم !

وقمت مستأذنا فى الانصراف ..

وصافحت والدتك ، وانا ألمح على شفتيها ظل ابتسامة تحاول أن تخفيها .. ابتسامة الأمل الكبير الذى أطلقته فى خيالها .. وقالت وهى تحنى رأسها مبالغة فى اخفاء ابتسامتها :

ـــ متشكرين يا سعادة الباشا .. سعيكم مشكور !

قلت ويدها لا تزال فى يدى :

ـــ انا بأدى واجب .. متنسيش يا هانم انى بسدد دين .. دين كبير .. وباذن الله حاتصل بيكم علشان ! ....

وقاطعتنى وهى تضغط على كلماتها :

ـــ انا اخويا حايبجى من دمنهور بعد بكره !!

وسكت .. كأنى فوجئت ...

كنت وانا انظـــر الى امك واحادثهـــا انسى اننى فى بيت شريف .. وانسى ان لهـــذا البيت تقاليده ، وأن من بين تقاليده ان يكون له رجل .. ان لم يكن الزوج ، فهو الأخ .. كنت انسى كل ذلك ، لأن ذكاءها الذى يشع من عينيها كان يبدو اقوى من الشرف واقوى من التقاليد .. انه ذكاء اشبه بذكار التجار ، يرى الحياة بيعا وشراء .. ولا اكثر من البيع والشراء .. وكنت اعتقد

انها مستعدة ان تبيعنى ما اريد ، ما دمت مستعدا ان ادفع ما تريد ..

ولكن يظهر انى كنت مخطئا فى تقدير ذكاء أمك !

ونظرت اليها بعينين نصف مغلقتين كأنى أحاول أن أراها من قريب .. كأنى احاول ان اصطاد شيئا من اعماقها .. وشددت قامتى كعادتى عندما اقبل على عقد صفقة معقدة .. وسألت نفسى فى لحظة سريعة : هل هى حقا لا تريد أن تلقانى الا فى حضور أخيها .. وهل هو تحفظ منها وحرص على مظاهر الشرف .. ام هو خبث .. مجرد خبث ساذج ؟ !

وسحبت يدى من يدها ، وأخرجت محفظتى من جيبى ، واخرجت من المحفظة بطاقة تحمل اسمى ، ناولتها لها قائلا :

ــ على كل حال .. لما يجى الأخ الكريم ، ارجوك تديله الكارت ده ، وتخليه يفوت على فى الشركة ..

واخذت البطاقة قائلة :

ــ حاضر .. متشكرين يا سعادة الباشا !

وبالمناسبة .. احب ان اقول لك انى احمــل نوعين من البطاقات .. نوعا يحمل اسمى بخط كبير ، وحامل هذه البطاقة لا يستطيع ان يقابلنى ، مهما كانت وعودى له .. ونوعا آخر من البطاقات يحمل اسمى بخط دقيق ، ومن يحصل منى على هذه البطاقة يفتح له بابى ..

وقد اعطيت والدتك بطاقة من النوع الأخير .. فقد كنت أريد ان اقابل خالك .. كنت مستعدا أن اقابل اى انسان .. أى ملاك او شيطان .. لأربط حياتك بحياتك ..

واستدرت اليك .. كنت قد وقفت احتراما لوقفتى .. وكان وجهك النحيل يملأ الغرفة كلها .. ويملأ صدرى .. ومددت يدى اليك قائلا :

ــ شدى حيلك يا هدى .. ربنا يعوضك خير !

وانفرجت شـــفتاك كأنك تهمين ان تتكلمى .. ولكنك لم تتكلمى !

وسحبت يدى من يدك سريعا ، فقد خيل الى انك ستلمسين الرعشة فيها .. وادرت عينى عن عينيك بسرعة حتى لا ترى من خلالهما اعماقى .. واتجهت الى الباب ، ووالدتك تسير بجانبى تودعنى .. وانت واقفة فى مكانك ، وعيناك احس بهما كأنهما تثقبان ظهرى ..

ونزلت السلم ، وانا اتعجب من نفسى ..

مالى وكل هذا ؟

لماذا لا اترك هذا البيت فى حاله ؟ !

ما هذا العبث الصبيانى الذى اقوم به ؟ !

ولكني رغم ذلك كنت اعلم انى سأعود .. واعلم ان شيئا لن يستطيع ان يقف فى طريقى اليك ..

وخرجت من البيت ، انسانا آخر غير الذى دخله .. لم اكن افكر فى اعمالى هذا التفكير العنيف الاجرامى ، كما كان حالى فى الأسبوع الذى مضى .. لم تعد اعمالى تشغل كل تفكيرى .. اصبح هناك شىء آخر .. اصبح هناك .. انت ..

وعقب خروجى ذهبت لحضور اجتماع مجلس ادارة احدى شركاتى .. ودهش عبد العظيم ، عنـــدما رآنى ساهما كأنى عاشق ، ودهش اكثر عندما رآنى اطلب تأجيل عدة قرارات كنت قد اتفقت معه على اعلانها .. قرارات كلها تخفى تحتها اعمالا قذرة .. اقذر مما تتصورين ..

وانهيت الاجتماع بسرعة .. ورفضت عقب الاجتماع ان اجلس مع عبد العظيم كما هى عادتى .. وعدت الى بيتى وانا لا زلت افكر .. افكر فيك ..

ولم يكن هذا هو الحب ..

لا يا هدى ..

لم اكن قد احببتك بعد .. انى لم احبك من النظرة الأولى ، ولا الثانية !!

ولكنى كنت افكر فيك تفكيرا غريبا .. كنت احس كأنى احاول ان استعيد صباى .. كأنى احاول ان ابدأ من جديد .. منذ اليوم الأول الذى عرفت فيه اباك بعد أن شفيت من مرض التيفويد .. وكان الأمل الذى يراودنى هو أن انجح معك فيما فشلت فيه مع ابيك .. ان اكسب رضاءك واحترامك .. وأن اسير معك فى طريق واحد .. وان اربطك بى .. وكان يخيل الى انى استطيع ذلك .. واذا استطعته استراح الشىء الذى يكتم انفاسى ويمزق رئتى .

وكنت اقول لنفسى : « انها صغيرة .. وهى لا تعلم عن حياتى شيئا ، ولا تفهمها .. ومن السهل ان اخفى عنها اخطائى ، وشرورى ، واعمالى القذرة .. بل انى استطيع الآن ان استغنى عن هذه الأخطاء والشرور .. وعن هذه القذارة .. لقد اصبحت غنيا .. ولست فى حاجة الى مزيد من الغنى .. فما حاجتى الى القذارة .. انى استطيع الآن ان ابدأ من جديد .. ابدأ شريفا كوالدك .. وأن اكسب ثقتك واعجابك كدليل يقنعنى بأنى اصبحت شريفا فعلا » ..

كنت اقول هذا الكلام وانا اتعجب من نفسى .. انى احاول شيئا عجيبا .. هل تعرفين ما كنت احاوله .. كنت احاول ان اشترى الشرف .. نعم .. حاولى أن تفهمى .. كنت احاول ان اشترى الشرف .. وكان الشرف بالنسبة لى يتمثل فى انسان بسيط وموظف صغير هو والدك .. ثم اصبح يتمثل فيك .. فى فتاة بسيطة ، وجهها نحيل ، وشعرها فى لون البندق .. وقد عجزت عن شراء ابيك ، فلو استطعت شراءك .. فقد اشتريت الشرف !!

ولا اقصد بالشراء ، مجرد دفع الثمن بالنقود .. فقد كنت

مستعدا ان ادفع الثمن بأى عملة .. ادفعه من جهدى وذكائى ، بتغيير مجرى حياتى كلها ..

هذا ما كنت اتخيله ..

وهذا ما كنت افكر فيه ، وانا راقد فى فراشى ..

وتقلبت على جنبى ، نصـــدمتنى صورة زوجتى موضوعة بجانب الفراش .. وامتعضت .. لويت شفتى تقززا .. ان هذه الصورة موضوعة هنا دائما ، ولكنى لم اكن اراها .. كانت قطعة من قطع الأثاث .. موجودة ولكنى لا احس بوجودها .. فلماذا احسست بها اليوم ؟ !

— ٢ —

انك سمعت عن زوجتى .. زوجتى الانجليزية .. ولكنك لا تعرفينها .. ويبدو انى يجب ان احدثك عنها . وعن حياتى معها ، حتى تكتمل حقيقتى امام عينيك ..

دعينى اقدم لك زوجتى الانجليزية ..

واقول « زوجتى الانجليزية » ولا اقول « زوجتى » فقط ، لانى اعلم ان كل الناس يدعونها دائما « زوجته الانجليزية » زوجته الانجليزية ذهبت .. زوجته الانجليزية جاءت .. زوجته الانجليزية مرضت .. لا احد يقول ابدا « زوجته » .. دائما « زوجته الانجليزية » .. كأنهم يتعمدون اهانتى !!

وانا استحق هذه الاهانة !

فقد تزوجتها لأنها انجليزية !!

فقط ، لأنها انجليزية !!

كان ذلك عام ١٩٢٧ .. وكنت ايامها لا ازال اعمل فى مقاولات الجيش البريطانى .. جيش الاحتلال .. وكان مركز عملى فى بورسعيد .. ولم اكن اكتفى بمجهودات عبد العظيم بك — او افندى — فى رشوة الضباط الانجليز ، ولا بالليالى الحمراء التى يعدها لهم .. بل كنت احاول ايضا ان اتقرب الى عائلات الضباط .. وكنت شابا .. لم اكن جميلا .. ولكنى كنت فحلا .. وكانت فحولتى والسمرة التى تلفح وجهى ، تثير النساء الانجليزيات

.. كنت ارى عيونهن تشتهينى ، وشفاههن تكاد تأكلنى .. ولكنى كنت دائما حريصا على تجاهل عيونهن وشفاههن ، لا تعففا منى ، بل لانى لو لبيت نداء واحدة فسأغضب الباقيات ، ولو أغضبت واحدة فقد يثور على جيش الاحتلال كله ..

ولذلك حرصت على ان أعرف بين العائلات الانجليزية بأنى انسان مهذب .. جنتلمان !!

الى ان كان يوم ..

ودعانى احد الضباط الى كأس نتناوله فى النادى الخاص بهم داخل المعسكرات .. وهو شرف كبير لا يناله الا القليل من المصريين امثالى !

وهناك رأيتها ..

فتاة سمينة .. بعكس أغلب الفتيات الانجليزيات المشهورات بالنحافة .. انها قطع من اللحم بعضها فوق بعض .. وملامح وجهها غاصت فى هذا الكوم من اللحم ، فلم تعد يبدو منها عينان ولا انف ولا شفتان .. وساقاها لا خطوط فيهما كأنهما عمودا تليفون ، وذراعاها عريضتان ، لونهما أحمر كأنهما فخذا خنزير مسلوق ..

هل تعتقدين انى بالغت فى وصف بشاعتها ؟ ثقى انى لا ابالغ ، فهكذا رأيتها لأول مرة !

ورغم ذلك فقد اهتممت بها عندما قدمنى اليها صديقى الضابط الانجليزى .. وبالغت فى الاهتمام بها .. وبدوت أمامها فى اجمل صورة للجنتلمان .. فقد كانت تحمل شيئا جميلا .. جميلا جدا .. كانت تحمل الجنسية الانجليزية !

ولم المح فيها — عندما رأيتها لأول مرة — شيئا مما تعودت أن المحه فى عيون النساء الانجليزيات وشفاههن .. ربما لانى لم اكن اكاد ارى عينيها وشفتيها وسط كوم اللحم الذى تحمله فوق

كتفيها .. وربما لأنها كانت قد فقدت ثقتها فى نفسها الى حد اليأس ، فلم تعد تشتهى الرجال ..

وخرجنا نحن الثلاثة ، بعد ان شربنا عدة كئوس ، نطوف ببعض ملاهى بورسعيد .. ثم ودعتهما ، وعدت الى بيتى .. ونسيتها قبل ان اصل الى الباب ..

وفى الصباح جاءنى عبد العظيم يهرول فى جلبابه الكالح — وكان أيامها لا يزال يرتدى الجلباب وفوقه المعطف الأصفر — وقال وكلماته تتزحلق فوق شفتيه الغليظتين :

— تعرف مين البنت اللى كانت معاك امبارح ؟

قلت بلا اهتمام :

— البت المكلبظة ..

قال عبد العظيم كأنه يلومنى :

— ايوه المكلبظة .. مين تبقى المكلبظة دى !

قلت وقد اثارنى اهتمام عبد العظيم :

— لأ .. تبقى مين ؟

قال كأنه يلقى قنبلة :

— تبقى بنت الكولونيل ديفيز .. الكولونيل

وقلت مبهوتا :

— لا يا شيخ ..

قال وهو يهنىء نفسه :

— وحياتك عندى .. دى انا عارفها .. ساعة ما بتمشى وسط المعسكر ، العساكر كلهم يتنطروا واقفين وياخدوا تعظيم سلام ..

وتركنى عبد العظيم وانا افكر فى مشروع ضخم للاستيلاء على جميع مقاولات الجيش البريطانى ، بل جميع مشروعات الحكومة المصرية ايضا ..

ان الكولونيل ديفيز هو مدير الأشغال العسكرية بالجيش البريطانى .. ولكن نفوذه كان يمتد الى جميع امكانيات مصر ...

فقد كانت كل امكانيات مصر فى خدمة الجيش البريطانى .. وكان فوق ذلك صديقا شخصيا للمندوب السامى البريطانى .. لم يكن ابدا مجرد « كولونيل » انجليزى !

وقلت لنفسى : « لو استطعت ان استولى على بنت ديفيز ، فقد استوليت على ديفيز ، واذا استوليت على ديفيز ، فقد استوليت على المندوب السامى ، واذا استوليت على المندوب السامى فقد استوليت على مصر » !

انها مجرد عملية حسابية بسيطة .. كما ترين !!

وبدأت فى تنفيذ مشروعى الضخم ..

بدأت ارسم خطواتى فى حرص ، وصبر طويل .. كان يجب الا ابدو مهتما بالفتاة اكثر من اللازم .. والا الاحقها .. انى اعرف هؤلاء الانجليزيات ، اقصد الانجليزيات اللائى كن يقمن فى مصر ايام الاحتلال .. انهن متغطرسات .. وملاحقتهن تزيد من غطرستهن ، ومن احساسهن بالسيادة .. واحساسهن بوضاعتنا !

وسعيت كى أدعى الى نادى الضباط اكثر من مرة .. ذهبت الى هناك ثلاث مرات ، دون أن التقى بها .. ثم رايتها فى المرة الرابعة .. ولم اقبل عليها .. بل تركتها تحيينى من بعيد .. ثم صبرت الى ان قامت وجاءت لتنضم الينا ــ صديقى الانجليزى وانا ــ ونحن واقفان الى « البار » ..

وبدوت امامها كما راتنى عندما التقيت بها اول مرة .. انسانا مهذبا .. جنتلمان .. ولكنى كنت اختلس النظر اليها خلسات لا تلمحها .. كانت نظرات ابحث بها عن ملامح وجهها التى غاصت فى كوم اللحم .. وعن ساقيها ، كأنهما عمودا تليفون .. وعن ذراعيها كأنهما فخذا خنزير مسلوق .. وكنت اسائل نفسى : « هل هذا الشىء يصلح زوجة لى » !!

وكنت اشعر بقشعريرة تكاد تثقب امعائى ، وانا اتصورها

زوجة لى . راقدة بجانبى فى فراش واحد .. لا لأنها سمينة .. فقد كانت السمنة ايامها احدى مميزات الجمال ، وكنت لا اتقزز عندما اجد فى فرشى امراة سـمينة .. انما كنت اتقـزز لأن « سمنتها » كانت تطغى على كل خطوط جسدها ووجهها .. كانت اشبه ببالة القطن المكبوس .. وكانت تحيط بها ريح ثقيلة . كأنها تملأ فراغا اكبر مما يحتله جسدها .. لم يكن فيها الا شيء واحد جميل .. شيء آخر بجانب الجنسية الانجليزية .. قلبها .. كان لها قلب طيب كريم ساذج .. وكانت تهب حنانها لكل شيء حولها .. وتضحك لكل شيء تسمعه أو تراه .. وتبكى عندما لا تجد شيئا تضحك له او تهبه حنانها ..

ولكن ماذا يجدينى قلبها ، فى فراشى !!

ورغم ذلك فقد اهتممت بها ليلتها .. اعطيتها كل ما املك من ذكاء ولباقة .. اضحكتها كثيرا ، واسعدتها .

وقبل ان نفترق دعوتها هى وصديقى الضابط الانجليزى ، الى العشاء فى الأسبوع التالى .. ولم احدد اليوم .. انما وعدت بأن اتصل بهما لتحديد الموعد .

وبعد ايام ارسلت لها خطابا رقيقا ادعوها الى العشاء يوم الأحد فى الفندق الذى كان يطلق عليه الأهالى اسـم « البيت الحديد » .. لأنه قائم على عمد من حديد ..

وارسلت نفس الخطاب الى صديقى الضابط الانجليزى .. ولكنى تعمدت أن يصل اليه خطابى فى مكتبه بعد ظهر يوم السبت ، حتى لا يتسلمه ، فى يومى السبت والأحد ..

ولا تنسى أن التليفون لم يكن قد انتشر فى مصر بعد !!

وجاءت وحدها ، فى سيارة يقودها جندى بريطانى .. ولم يكن فى بورسعيد كلها الا خمس سيارات خاصة ، هذه احداها ..

جاءت ترتدى ثوبا للسهرة تبدو فيه كمنطاد زبلن .. واستقبلتها وانا ارتدى حلة « سموكنج » كعادة الانجليز فى سهراتهم .. ولم

اضع الطربوش على راسى حتى ابدو اكثر تحررا من مصريتى .

وكنت قد أعددت مائدة لثلاثة .. وجلسنا نشرب كئوس الويسكى فى انتظار الصديق الذى لم يحضر ، بينا عيون المصريين الذين يحيطون بنا ، تكاد تشهق .. ثم تنحسر شهقتها عن نظرات غل وحسد ، وهم يروننى جالسا مع ابنة الكولونيل ديفيز ..

وبعد قليل انستنا كئوس الويسكى صديقنا الغائب .. وسلطت عليها ذكائى ولباقتى .. واهتزت بالة القطن من الضحك ، ومن فرط السعادة ..

وقمت أراقصها .. وكنت قد تعلمت الرقص منذ بدات احاول ان اكون « جنلتمان » ، ومنذ بدات اسعى الى التعرف بعائلات الضباط الانجليز .

وحملت بالة القطن بين ذراعى .. وراقصتها « التانجو » ، و « الفالس » ، ولكنى رفضت ان اراقصها « الشارلستون » .. فقد خفت أن يضحك عليها وعلى المصريون الجالسون حولنا ، وهم يروننا نقذف بسيقاننا وأذرعنا فى الهواء كأننا نحاول ان نتخلص منها ..

وفى خلال الرقص ايضا حرصت على ان اكون « جنتلمان » .. ولكنى تعمدت أن اوقعها فى حيرة .. كنت التقى بعينيها فأنظر اليها نظرة فيها حب واشتهاء .. ثم اسحب نظرتى سريعا قبل أن تتأكد منها .. وكنت ادع خدى يلامس خدها ، وقبل ان تستريح على خدى ، ابتعد سريعا .. وكنت احرك يدى فوق ظهرها ونحن نرقص ، وقبل أن تسرى حرارة يدى فى جسدها ، اقف يدى عن الحركة .. وأروى لها نكتة مهذبة !

وشربت كثيرا ليلتها ، كأنها كانت تحاول ان تنسى بالكأس حيرتها .. او كأنها كانت تحاول ان تجد فى الكأس جوابا على عشرات الأسئلة التى اثرتها فى راسها : لماذا اهتم بها كل هذا

الاهتمام ؟ .. وما معنى هذه النظرة ؟ .. وما معنى هذه اللمسة .. و .. و .. ؟ !

وكانت الساعة الثانية صباحا ، عندما ودعتها عند باب سيارتها .. والجندى البريطانى يفتح لها الباب ، ويرفع يده بالتحية العسكرية ..

ودعتها دون ان احدد معها موعدا للقاء ..

وتريثت قليلا قبل ان تركب السيارة . ولمحت عينيها بين كومة اللحم التى تشكل وجهها ، لمحتهما حائرتين كأنهما تسألانى : متى اراك ؟ !

ولكنى لم اجب العينين الى سؤالهما ..

ومضى اسبوع لم احاول خلاله ان اتصل بها .. كنت اريد ان أزيد من حيرتها .. وكنت احاول ان اتركها تسعى الى وتلاحقنى .. ليس هذا فقط .. فقد كنت خلال هذا الأسبوع أحاول ان اراجع نفسى .. كنت احاول اى اقنع نفسى بأن اعدل عن هذا المشروع .. وكنت أتذكر زميلى محمد افندى السيد ، واتساءل : هل يرضى عن مثل هذا الزواج ؟ ! ويجيئنى الجواب فى صورة شىء يتحرك فى صدرى ، ويكاد يكتم انفاسى ، ويمزق رئتى .. شىء يقلقنى ، ويعذبنى !

ليس هذا فقط .. فقد كانت انفاس اليزابث لها رائحة عجيبة .. رائحة أشبه برائحة خميرة البيرة .. وانا اكره البيرة واكره رائحتها !

ولكن ..

فى نهاية الأسبوع ، وصلتنى دعوة منها الى حفلة ساهرة تقيمها فى بيتها .

حفلة فى بيت الكولونيل ديفيز ..

حاولى أن تتصورى هذا .. مقاول صغير مثلى لا يزال

فى بداية الطريق ، يدعى الى بيت مدير الأشغال العسكرية بالجيش البريطانى !!

ولا تنسى أننا كنا فى عام ١٩٢٧ ..

وكدت أطير من الفرح .. وطغت فرحتى على ترددى .. نسيت محمد افندى السيد .. ونسيت رائحة أنفاس اليزابث .. ونسيت الساقين اللتين تشبهان أعمدة التليفون ، والذراعين اللتين تشبهان فخذى الخنزير المسلوق .. نسيت .. وانطلقت فى خيالى آمال كبار .. رأيت خريطة مصر كلها منشورة أمامى ، ولى فى كل مكان منها مصنع .. ومشروع .. وعزبة !!

وذهبت الى الحفل مرتديا الحلة « الاسموكنج » ، وفوق رأسى طربوش طويل فاقع اللون ، فقد كنت أعلم أن الانجليز يحبون أن يزينوا حفلاتهم بهذه الطرابيش الحمراء .. انها مظهر من مظاهر سيادتهم ؟!

واستقبلتنى اليزابث عند الباب فرحة .. بل أغرقت فى الضحك بمجرد أن رأتنى ، فقد تذكرت بعض النكات التى رويتها لها ؟ !

ثم قدمتنى الى والدها الكولونيل ديفيز .. والى امها ، مسز ديفيز ، ثم ظلت بجوارى طوال الحفل ، فأصبحت بها كأنى ضيف الشرف .. وقدمتنى الى كل المدعوين .. اسماء يسمع بها المقاولون أمثالى من بعيد ولا يقتربون منها ابدا .. اسماء كبيرة .. اسماء تحتل مصر ؟ !

ولم أضيع وقتا .. عصرت ذكائى كله لأربط نفسى بهؤلاء السادة الانجليز .. لم اكن افعل اكثر من أن أتحدث .. ولكن الحديث ليس فنا سهلا .. انه اشق مهمة فى الحياة .. ولو سألتنى كيف استطعت أن أنجح وأن أجمع ثروتى ، لأجبتك ببساطة : لقد عرفت كيف أتحدث !

وقد عرفت ليلتها كيف أتحدث .. لم اكن أنافق نفاقا مفضوحا

سمجا . ان النفاق قد يرضى غرور من أنافقه . ولكنه لا يربطنى به . ولا يكسبنى ثقته .. انما كنت أسوق آراء فى مختلف المسائل ... فى المسائل السياسية ، وفى المسائل الادارية ، وفى المشاريع العمرانية .. آراء تبدو كأنها تمثل ايمان رجل مصرى متحمس لمستقبل وطنه .. ولكنها فى الوقت نفســـه تحقق المصـــالح الانجليزية ، وتعترف بوجود الانجليز ..

وقد كسبت بهذه الآراء ثقة الجميع ، وعلى رأسهم الكولونيل ديفيز ..

واليزابث دائما بجانبى ..

ولم يغضب احد من الانجليز الشبان المدعوين معى ، وهم يرون اليزابث ملتصقة بى .. انها حمل ثقيل يسر كل شاب ان يتخلص منه .. وربما حمدوا لى أن حملت العبء عنهم ..

وفى نهاية الحفل خرجنا — اليزابث وأنا — الى الشرفة .. وفى يد كل منا كأسه .. وأخذت أروى لها مزيدا من النكات المهذبة .. وهى تهتز كالزلزال لكل نكتة .. ولم تكن تتكلم .. انها لا تعرف كيف تتكلم . فقط تعرف كيف تضحك وتبكى .. كنت أنا الذى أتكلم طول الوقت ، ثم فجأة توقفت عن الحديث .. وامسكت بيدها وضغطت عليها .. ضغطت بشدة حتى تسرى ضغطتى خلال أكوام اللحم الى أن تصل الى أعصابها وحسها .. ولكنها لم تهتز .. ولم تفهم لضغطة يدى معنى .. ظلت فاغرة فاها كأنها تستعد لضحكة جديدة تطلقها ردا على نكاتى .. واقتربت منها .. واقتربت اكثر .. وضغطت على أعصابى حتى احتمل رائحة خميرة البيرة تنطلق مع أنفاسها .. ثم ملت عليها وقبلتها فوق وجنتيها ..

وابتعدت ..

ونظرت الى عينيها اللتين تطلان من خلال كومة اللحم .. وكانت فى عينيها دهشة .. دهشة أشبه بالغباء .. ربما

لأنها لم تصدق أن شابا يمكن أن يسعى لتقبيلها ، وربما لأنها باردة الحس ، الى حد أن قبلة واحدة لا يمكن أن تثيرها ..

ورغم ذلك فقد مدت وجهها الى ، كأنها تطلب القبلة الثانية .. ولم أعطها اياها . انما وضعت الكأس من يدى فى حركة تمثيلية كأنى عاشق ولهان .. ثم قلت بصوت متهدج :

ــ سعدت مساء !

واعطيتها ظهرى ، وخرجت من الشرفة وهى تجرى خلفى ..

وصافحت من وجدتهم من المدعوين .. وصافحت الكولونيل ديفيز ، ومسز ديفيز .. وعدت الى بيتى ..

عدت متعبا ..

لم اتعب أبدا مثلما تعبت فى تلك الليلة ..

ان تعمد النجاح فى حفلة من الحفلات الاجتماعية ، عمل شاق متعب !!

وقمت فى صباح اليوم التالى لأتم خطتى ..

أرسلت لاليزابث هدية .. علبة فضية عليها نقوش فرعونية .. وتلقيت منها دعوة الى تناول الشاى .. ودعوتها بعد أيام الى العشاء .. ثم اصبحت أزورهم بلا تكليف .. وانتشر خبر صداقتى لعائلة الكولونيل ديفيز فى المدينة كلها . وفجأة ارتفعت من مقاول صغير مغمور الى شخصية هامة .. كبار الموظفين يتوددون الى ، وكبار التجار يسعون الى صداقتى ، وزملائى الذين يشتغلون فى المقاولات قبل أن اشتغل بها بسنوات ، بدءوا يعرضون على أن اشاركهم فى العطاءات التى يتقدمون بها ..

كل هذا من أجل الكولونيل ديفيز !!

وبفضل صداقة الكولونيل ديفيز استطعت ان أحصل على أول مقاولة كبيرة فى حياتى .. مقاولة تزيد قيمتها على عشرة آلاف جنيه .. وعندما حصلت على هذه المقاولة ، خلع عبد العظيم افندى الجلباب والمعطف الأصفر ، وارتدى الحلة ، وقميصا ذا ياقة

منشاة عالية ، يبدو رأسه فوقها كرأس مضحك السيرك .. لقد اتسعت أعمال عبد العظيم .. ولم تغننى صداقة الكولونيل ديفيز عن عبد العظيم ، بل زادت حاجتى اليه .. أصبحت فى حاجة الى رشوة مزيد من الضباط الانجليز ، واعداد الليالى الحمراء لهم .. والى مزيد من عمليات التجسس على زملائى المقاولين ، وعلى العمال .. الى مزيد من الأعمال القذرة !!

ولم يكن الكولونيل ديفيز رجلا سهلا كما تعتقدين .. كان رجلا حريصا أزرق الناب .. وكان أشد ما يحرص عليه ألا أستفيد من صداقته أكثر مما يريدنى أن أستفيد ..

وكنت أريد أن أتغلب على حرصه هذا .. كنت أريد أن أمسك به من عنقه ، وهزه بشدة لأسقط من جيوبه كل المقاولات التى أريدها ..

وعنق الكولونيل ديفيز ، هو : ابنته !

ولكن ابنته لا تتحرك .. انها من السذاجة والغباء ، بحيث لا تستطيع أن تحب ، ولا أن تخطو نحو الرجل الذى تحبه خطوة .. وقد صبرت عليها طويلا حتى تخطو خطوة أخرى نحوى .. أن تشجعنى على أن أطلبها للزواج .. فلم تفعل .. ظلت مكتفية بما أعطيه لها .. معتقدة أن هذا هو كل ما تستطيع أن تناله منى .

وكان يجب أن أشدها نحوى خطوة أخرى ..

كان يجب أن أذيب هذا الجبل من الشحم . لامسك بروحها بين يدى ..

كنت اريد ان اسيطر عليها سيطرة كاملة ..

وكنت أومن بأن الرجل لا يستطيع أن يسيطر على المرأة الا اذا سيطر على جسدها .. سيطر على حاجة جسدها اليه ..

وكنت واثقا من نفسى ..

كنت فى شبابى استطيع ان اسيطر على جسد اى امرأة ..

كانت المسألة بالنسبة لى مسألة اعصاب .. مجرد مسألة اعصاب ... لا عاطفة ، ولا تجاوب ، ولا اى شىء آخر .. مجرد اعصاب قوية أستطيع ان استعملها كيفما شئت ، الى ان تخضع المراة .. اى امراة .. واى نوع من النساء .. نساء الشوارع .. او نساء الصالونات !!

المسكينة ..

لقد قدر عليها ان تخضع لى .. الى الأبد !

وكنا مدعوين فى حفلة ساهرة ، وشربت اليزابث ليلتها كثيرا .. ثم عرضت عليها أن اصحبها الى بيتها .. فسعدت بالدعوة ، انها دائما سعيدة وهى بجانبى .. وامرت سائق سيارتها بالانصراف ، وركبت معى حنطور .. وفى الطريق عرضت عليها أن تزور مكتبى .. ووافقت .. بسرعة .. كأنها تنتظر هناك شيئا يجعلها تضحك اكثر .

وكنت استأجر بناء صغيرا فى اطراف الحى الأفرنجى ببورسعيد .. مكونا من دورين .. الدور الأرضى خصصته للمخازن ، والدور العلوى للمكتب ..

وكان عبد العظيم ينتظرنى هناك .. وكان قد أعد كل شىء !!

ودخلت اليزابث وهى تدير عينيها فيما حولها ، وفمها مفتوح تأهبا للضحك .. واغلق عبد العظيم الباب وراءنا .. وجلس خلفه يؤدى واجبه .. ان عبد العظيم يجيد دائما تأدية هذا الواجب !!

وبدأت اداعب اليزابث ، وهى تضحك ، ويهتز منطاد زبلن مع ضحكاتها .. ثم اقتربت منها .. واحطتها بذراعى .. ضممتها الى صدرى بكل قواى كأنى اصارع فيلا .. ثم اطبقت بشفتى على شفتيها حتى اسكتها عن الضحك .. ولم استطع ان ابقى شفتى على شفتيها طويلا .. كانت رائحة خميرة البيرة اعنف من

ان احتملها لأول وهلة .. كانت هذه الرائحة تتطلب منى مزيدا من التأهب .. ومزيدا من الضغط على أعصابى ..

وقالت اليزابث بانجليزيتها المترنحة ، وانا أفك ذراعى عن جسدها :

ــ هل كل المصريين اقوياء هكذا !!

قلت فى صوت جاد :

ــ اننا اقوياء عندما نحب !

وسكتت برهة عندما سمعت كلمة الحب .. كأنها لا تصدق اذنيها .. ثم عادت تضحك كأنها اعتبرت ما سمعته نكتة اخرى .. ولكنى لم اشاركها الضحك .. بل وقفت أمامها صامتا ، وفى عينى نظرة خطيرة .. وبقيت صامتا وفى عينى هذه النظرة الخطيرة .. حتى كفت عن الضحك .. ورأيتها حائرة .. لا تدرى سر صمتى .. ولا تدرى ماذا يجب أن تقول أو تفعل .. كأنها اكتشفت فجأة انها تائهة .. تائهة فى ..

وبخطوات ثابتة .. خطوت نحو النور واطفأته .. كنت فى حاجة الى الظلام ، لأتمكن من السيطرة على أعصابى .. ثم عدت اليها وامسكتها من يدها واجلستها على الأريكة .. واحطتها بذراعى مرة أخرى .. ضممتها بكل قواى .. واطبقت بشفتى على شفتيها ..وحاولت ان أغلق طاقة انفى حتى لا اشم رائحة البيرة ، ولكنى لم استطع الا ان اغلق عينى !!

وملت بها فوق الأريكة .. وهى مستسلمة .. صامتة .. ونزعت عنها ثيابها .. وهى مستسلمة صامتة .. ان كومة الشحم لم تذب بعد .. اريدها ان تذوب .. اريدها ان تلهث .. أن تتحرك .. ان تتمنى ..

وصبرت ..

وبدأت انفاسها تتلاحق .. ورائحة خميرة البيرة تنطلق فى

وجهى كالزوبعة .. بدأت تذوب .. وتتحرك .. و .. و ..
و .. و ..

. . . .

. . . .

هدى :

لا تفزعى وأنت تقرئين هذه السطور ، ولا تصرخى كأنك رأيت ثعبانا تحت قدميك .. أرجو الا تفزعى ، ولا تغطى وجهك البرىء بيديك .. ارفعى يديك عن عينيك .. وانظرى الى فى هدوء .. انى أريدك أن تريني كما أنا .. أريدك أن ترى المجرم الذى أفسد حياتك .. ترينه عاريا .. ولعلك لاحظت أنى أفيض فى سرد جرائمى .. ان كل هذه الجرائم ليست الا مقدمة للجريمة الكبرى .. الجريمة التى كنت أنت ضحيتها .. مقدمة اتعمد أن أطيل فيها حتى أخفف عليك من وقع الصدمة الأخيرة .. وقدرى أننى أعترف .. أعترف لك أنت وحدك .. ولم أكن فى حاجة الى الاعتراف ، لولا أننى أحببتك !

ثم لا تسألينى عما اذا كنت قد وجدت زوجتى عذراء فى تلك الليلة أم لا .. انه سؤال ساذج .. لم يخطر على رأسى ولا على رأسها .. ولكن اسألينى : ماذا حدث لها بعد ذلك ؟ .

لقد تغيرت ..

كفت عن الضحك .. كأنها دخلت فى عالم ساحر عجيب ، لم تكن تدريه ، ولا تتخيله .. وقفزت الى عينيها هذه النظرة النهمة التى كنت ألمحها فى عيون النساء الانجليزيات ، وهن يلتقين بفحولتى ..

وأصبحت تطاردنى ..

تسعى ورائى ..

لقد ملكتها .. سيطرت عليها !!

ولكنى تركتها تجوع .. جاعت أياما طويلة حتى كادت تجن ..

وخيل الى انها فى هذه الأيام ، قد فقدت كثيرا من سمنتها .. بدات اعصابها تأكل فى كوم اللحم .. وكنت الاقيها .. واحاول كعادتى أن املأ فمها بالضحك .. وان اروى لها نكاتى .. ولكنها لم تكن تريد الضحك .. كانت تريد دائما ان تذهب الى مكتبى !!

ولم ادعها تذهب اليه ..

الى ان قالت لى يوما ، ونحن فى شرفة بيتها .. قالت فى لهجة كائسة كأنها سقطت اعياء من شدة الجوع :

ــ هل صحيح انك تحبنى .. لقد سمعتك مرة تحدثنى عن الحب ؟!

وكسوت وجهى بملامح جادة ، وقلت وانا ادعى الارتباك :

ــ انى احب الى حد انى افكر فى الزواج !

قالت وهى دهشة :

ــ ماذا تعنى ؟

قلت وانا انظر اليها :

ــ أعنى انى أريد أن اتزوجك !!

قالت صارخة :

ــ تتزوجنى انا ؟ !

قلت وانا ادعى الجزع :

ــ اترفضين ؟ !

قالت كأنها تزغرد :

ــ ارفض ، هل انا مجنونة !! الا تعلم .. !!

وقبل أن تتم جملتها سحبتنى من يدى ، وخرجت بى من الشرفة الى حيث كان يجلس والداها .. وقالت لهما صارخة :

ــ لقد اتفقت انا وحسين على الزواج !

واسقط الكولونيل ديفيز الجريدة من أمام عينيه ، ورفع غليونه من بين اسنانه ، ثم قام من مقعده فى منتهى الهدوء ، وتقدم الى يصافحنى قائلا :

ـــ مبروك ..

بينما احتضنت مسز ديفيز ابنتها ثم جاءت تقبلنى ، قائلة :

ـــ لم اكن انتظر أن يكون لى ابن مصرى ..

وصاح الكولونيل :

ـــ أظن اننا يجب أن نشرب كأسا !

وهكذا تزوجت !!

اى زواج هذا ! ؟

لقد عرفت زوجتى المسكينة بعد فترة قصيرة . ماذا كان يعنى زواجنا .. عرفت أن زواجنا مجرد عملية بيع وشراء .. تبيعنى نفوذها ونفوذ أبيها ، لتشترى ما يشبع جسدها .. لقد عودتها الا تنالنى الا اجرا على صفقة ساعدتنى على اتمامها ..

وقد ساعدتنى فى كثير من الصفقات .

كانت تطلب من أبيها صراحة أن يساعدنى .. وكنت اقول لها ان الجيش البريطانى سيطرح مناقصة عن مشروع كذا ، فتذهب الى ابيها وتصر على أن ترسو هذه المناقصة على ، حتى لو تقدمت بأسعار أعلى من أسعار بقية المقاولين .. ولم يكن أبوها يستطيع أن يرد لها طلبا .. انها ابنته الوحيدة ، وأنا زوج ابنته الوحيدة .. وعندما ترسو المناقصة على ، كانت الابنة تنام سعيدة ؟ !

وأصبحت فى يدى كل مناقصات الجيش البريطانى .. ولم أكن من الغباء بحيث استولى عليها كلها وحدى ، بل كنت اترك بعضها لزملائى من كبار المقاولين ، على أن أشاركهم فيها ؟ !

ان رجل الأعمال الماهر ، يجب الا يترك الفرصة لمنافسيه حتى يتحدوا ويتألبوا عليه .. بل يفرق بينهم دائما .. أن يشارك واحدا منهم فى هذه العملية .. ويشارك الثانى فى عملية أخرى .. حتى لو ضحى فى سبيل ذلك ببعض أطماعه .. وهذا ما كنت أفعله !

وعن طريق زوجتى اصبحت صديقا شخصيا للمندوب السامى البريطانى .. صديق العائلة .. وكنت ادعى الى اخص الحفلات التى تقام فى دار المندوب .. حفلات عائلية صغيرة ، لا يحضرها الا اربعة او ستة من المدعوين ، ليس بينهم مصرى الا انا ..

وعندما عرفت المندوب السامى ، عرفت زعماء مصر ووزراءها ورجال احزابها ..

لم اسع اليهم .. ولكنهم سعوا الى .. ولم أعد شخصية محلية يقتصر نفوذها على بورسعيد وحدها ، بل اصبحت شخصية عامة تملأ مصر كلها ..

وقد حدث كل هذا بسرعة .. بسرعة غريبة .. ثلاث او اربع سنوات .. واقتربت من المليون الاول ..

وانتقلت انا وزوجتى الى القاهرة . واستأجرت قصرا فى الزمالك . لأكون بجانب دار المندوب ..

وليس معنى ذلك انى اصبحت انجليزيا ..

لا ..

انا لا استطيع ان اكون انجليزيا .. وانا لا استطيع ان أكون مصريا .. انا مصنع .. انا شركة .. انا عزبة .. انا صفقة .. انا مصلحة .. واينما كانت مصلحتى اكن !!

وكانت مصلحتى مع الانجليز .. بل ان الانجليز اصبحوا شركاء لى فى كثير من شركاتى .. وقد سافرت مع زوجتى الى انجلترا عدة مرات ، قدمتنى الى سادة رجال الاعمال .. السادة الانجليز .. واستطعت ان اعقد معهم عدة اتفاقات .. لقد وجدتهم محتاجين الى اسم مصرى يخفون خلفه رءوس اموالهم .. فمنحتهم اسمى .. هكذا ببساطة !

ولكنى لم اكن من الغباء بحيث اعادى الحـــركة الوطنية المصرية .. لا بالعكس .. لقد كنت اؤيدها فى الحدود التى لا تضر مصالحى .. واطمأن رجال الاحزاب الى .. على اختلاف

أحزابهم .. اطمأنوا الى لأنهم عرفوا أنى لا أطمع فى أن أكون رئيسا للوزراء ، ولا وزيرا ، وأنى لن أؤلف حزبا أنافسهم به .. فبدأوا يتقربون الى ، وكل منهم يستطيع أن يتخذ منى رسولا لدى الانجليز .. وكنت أرحب بأن أكون رسولا الجميع .. فهم عندما اتخذوا منى رسولا ، وضعوا أعناقهم فى يدى !!

وكل هذا وعبد العظيم يوزع الرشاوى على الموظفين .. كبارهم وصغارهم .. ويشترى لى رجال الأحزاب ، ويعينهم أعضاء فى مجالس شركاتى .. و .. و .. وبقية الأعمال القذرة التى حدثتك عنها .

وزوجتى ..

لقد بدأت تفقد نفوذها .. أصبحت أنا أكبر منها ، وأكبر من أبيها .. أصبحت أكبر من الكولونيل ديفيز نفسه .. وعندما كبرت لم أعد فى حاجة لأن أضغط على أعصابى حتى أشبع جوعها .. جوع الزوجة المسكينة التى صنعت لى كل هذا المجد ، وكل هذا الثراء ..

وبدأت هى تنزوى .. صبرت على الجوع حتى لم تعد تجوع .. ومع الأيام لم تعد تربطها بى حاجة جسدها الى . بل أصبح كل ما يربطها بى هو الثراء الذى أحيطها به ..

انك لا تعلمين يا هدى كم تعذبت بهذه الزوجة .. لقد كنت أتعذب وأنا أحاول ارضاءها كى أستغل نفوذها .. ثم أصبحت أتعذب لمجرد مرآها .. لم أكن أكرهها .. ولكنى كنت أكره نفسى كلما رأيتها .. كنت أرى فيها بشاعة نفسى .. كنت أرى فيها قسوتى ، وجشعى .. وكنت أهرب منها .. نعم كنت أهرب منها .. كانت تنقضى أيام كثيرة دون أن أراها .. حتى لا أرى نفسى فيها ..

وكنت أحيانا أتذكر أباك .. زميلى محمد افندى السيد .. وأتساءل : ترى كيف يعيش هو وزوجته ؟ .. وأى نوع من

النسـاء تزوج ؟ .. ثم كنت اتصوره فى بيت صغير هادىء ، وبجانبه زوجة حنون راضية .. فأحسده .. واحس بالشىء يتحرك فى صدرى ويكاد يكتم أنفاسى ، ويمزق رئتى ..

ورغم ذلك فانى لم افكر فى أن اطلق زوجتى . انى لازلت محتاجا اليها ، على الأقل أمام الناس ، وحتى لا اثير بطلاقها حديثا أنا فى غنى عنه ، واغضب أصدقائى الانجليز الذين لازلت فى حاجة اليهم .. لقد كانت بالنسبة الى كأنى احمـل الجنسـية الانجليزية ، بجانب جنسيتى المصرية ..

وكنت اهرب منها بالعمل .. ومزيدا من العمل .. ولكن العمل وحده لم يكن يكفينى .. ان الذين يعملون كثيرا ، يحتاجون الى نوع عنيف من اللهو حتى يريحوا رءوسهم من العمل ..

ان معظم رجال الاعمال يغرمون بالمقامرة مثلا .. لا بقصد الربح ، ولكن لأن المقامرة لهو عنيف مثير ينسيهم العبء الكبير الذى يحملونه فى رءوسهم .. وقد يخرج رجل الأعمال من مكتبه ليلعب الشطرنج ، أو ليلعب « البريدج » .. والشطرنج والبريدج من الألعاب التى تحتاج لتفكير عنيف .. ورغم ذلك فرجال الاعمال يقبلون عليهما ، لانهم محتاجون الى هذا التفكير العنيف ، حتى ينشغلوا به عن عبء التفكير فى اعمالهم ..

وقد كنت أهوى المقامرة .. والنساء !!

ولم اخسر كثيرا فى المقامرة ..

ولكنى خسرت مع النساء .. خسرت مرة واحدة .. خسارة انتهت بى الى المحكمة .. والى الحكم على فى جريمة خلقية .. رغم انى كنت ايامها فى قمة سطوتى ونفوذى ..

هل تعلمين انى محكوم على بالسجن فى جريمة خلقية ؟

لا .. انك لا تعلمين ..

ان كل الناس تحترمنى .. وتهابنى .. وتفسح لى الطريق وترفعنى فوق الرءوس .. فكيف يكون هذا الانسـان المبجل محكوما عليه بالسجن فى جريمة خلقية ؟ !

- ٣ -

انى استطيع ان ارى عينيك ملؤهما الاســـتطلاع .. انك تتعجلين قصة الجريمة التى ارتكبتها .. تريدين ان تعرفى ماذا فعل حسين شاكر حتى يقبض عليه البـــوليس ويقـــدمه الى المحكمة ؟.. انك لا تتصورين عمك حسين وراء القضبان .. ولعلك الآن تقفزين السطور قفزا لتصلى الى نهايتها .. لا .. ارجوك .. لا تقفزى السطور .. اقرئيها سطرا سطرا ، بامعان وتدقيق .. فان ما اكتبه ليس مجرد اعتراف ، انه ايضا دفاع .. والمجرم لا يعترف الا لأنه لا يجد دفاعا عن نفسه الا الاعتراف .. واذا كان اعترافى يحمل دفاعا ، فانى لا اطمع من وراء هذا الدفاع ان أبرىء نفسى .. فقط اطلب الرحمة .. رحمتك ، بعد أن يئست من رحمة الله !!

ولنتفق أولا ، على معنى الجريمة !

ان الجريمة هى : اعتداء .. هى : ايذاء الناس ..

اليس كذلك ؟ !

ولكنى عشت طول حياتى أعتدى على حقوق الناس ، واخرب بيوتهم ، واغتصب رزقهم .. ان كل ساعة فى عمرى جريمة .. ورغم ذلك فان القانون لم يلحقنى ابدا .. والمجتمع لم يصمنى بالجرم .. والله نفسه لم يعاقبنى .. انما كانت كل جريمة ارتكبها شهادة بذكائى اقدمها للمجتمع فأرتفع فى عينيه .. وكلما ازدادت

جرائمى ارتفعت اكثر .. حتى وضعنى المجتمع على رأسه ، الأن احدا غيرى لم يستطع أن يرتكب ما ارتكبه من جرائم !!

مرة واحدة تحرك القانون ضدى ..

ومرة واحدة أشار المجتمع الى بأصبح الاتهام ..

وفى هذه المرة الواحدة لم أكن قد اعتديت على حق احد ، ولا آذيت احدا .

صدقينى ، ان الجريمة الوحيدة التى حوكمت من أجلها ، هى الجريمة الوحيدة التى لم ارتكبها .. بل انها ليست جريمة على الاطلاق !

وكان ذلك فى عام ١٩٣٥ .

وكانت لى عشيقة ..

انى أقولها ببساطة ، وبلا خجل .. كانت لى عشيقة .. وكل الرجال الكبار الذين كانوا يعيشون حولى كانت لهم عشيقات .. الملك له عشيقة ، ورئيس الوزراء له عشيقة ، وزعماء الأحزاب لكل منهم عشيقة .. و .. و .. ان نظام العشيقات نظام معترف به دون نص مكتوب ..

انه ظاهرة اقتصادية ، فالفقــراء يتزوجون مثنى وثلاث ورباع ، والأغنياء يتزوجون مرة واحدة ، ويعشقون مثنى وثلاث ورباع !!

لماذا ؟ !

لأن تكاليف الزوجة اقل من تكاليف العشيقة .. الفقــير يستطيع أن ينفق على أربع زوجات ، ولكنه لا يستطيع أن ينفق على أربع عشيقات . ولا حتى على عشيقة واحدة .. أما الغنى فليس محتاجا لأن يتزوج أكثر من واحدة ، لأنه يستطيع دائما أن يقتنى عشيقة ..

ونظام العشيقات ظاهرة اجتماعية أيضا .. فالمجتمع لا يطلب من الفقير أن يقدم له زوجته ، بل هو — اى المجتمع — لا يعرف

الفقير ولا زوجته . ولا يريد ان يراهما .. لا يريد ان يسمع اخبارهما . ولا ان يرى صورتهما فى المجلات .. ولكن المجتمع — نفس المجتمع — يلزم الرجل الغنى بأن يقدم له زوجته ، ويسعى دائما ليعرف اخبار هذه الزوجة .. ماذا تلبس ؟ . وماذا تأكل ؟ . وأين تقضى سهرات المساء ؟ . وحتى لا يرتبك المجتمع فى تتبع اخبار زوجات الأغنياء الكبار ، فهو يطلب من كل منهم الا يقدم اليه الا زوجة واحدة !!

ومعظم هؤلاء الأغنياء الكبار يرضون المجتمع فلا يتزوجون الا زوجة واحدة .. زوجة يقدمونها الى الناس . ويبدون معها فى الحفلات وأمام عدسات المصورين .. ولكل منهم عشيقة تنتظره الى ان تنتهى الحفلة ، والى ان ينتهى المصورون من التقاط الصورة !!

ورغم ذلك فانى لم اتخذ لنفسى عشيقة لمجرد أن اتخاذ عشيقة هو مظهر من مظاهر المجتمع الذى اعيش فيه ..

انما انا من هواة النساء ..

انها هواية كهواية جمع طوابع البريد .. وقد بدأتها معتمدا على ذكائى وحده ، ثم أرحت ذكائى واعتمدت فى هوايتى على ثرائى ..

وقد بدأت هوايتى هذه منذ كنت طالبا فى مدرسة الفنون والصنائع . وكنا نلتقى كل ليلة جمعة بعبد العظيم ، وكان أيامها لا يزال متشردا صغيرا يقدم نوعا معينا من الخدمات لأصدقائه ، وكان يصحبنا الى بيت من بيوت الساقطات ، ويتركنا ننتقى الأجساد الرخيصة . وينتظرنا بجوار الباب ليحاسب صاحبة البيت . ويحاسبنا على « العمولة » ..

كانت كلها اجساد رخيصة فقيرة ، لا يتجاوز ثمن الجسد الواحد خمسة قروش . ورغم ذلك فقد كانت هوايتى ان اسرق هذه القروش الخمسة من المرأة المسكينة .. كنت اتحايل عليها ،

واسيطر على اعصابى حتى اثير جسدها المنهوك المظلوم .. فتتعلق بى ، وتتنازل عن اجرها راضية ، ثم تلاحقنى وتدفع لى من كسبها .. وانا ازهو بذكائى امام الطلبة .. كل الطلبة ما عدا اباك .. كان هو وحده الذى يجعلنى اخجل من ذكائى كلما لمحته ، او كلما تذكرته .. كان هو وحده الذى يفسد متعتى وانا ازهو بين اصدقاء الليل بهذا النوع من النساء الذى يلاحقنى ..

وتخرجت من المدرســـة وبدات اعمـــل ، وبدأت أضم الى مجموعتى صنفا أرقى من النساء ..

نساء خدعتهن باســـم الزواج .. ونساء خدعتهن باســـم الحب .. ونساء سعيت اليهن ، لأنى كنت فى حاجة اليهن لتيسير صفقة من صفقاتى .. ونساء اشتريتهن .. ونساء استغللت حرمانهن .. ونساء اعتقدن انهن خدعننى !!

عشرات النساء .. لم يكن لواحدة منهن فى حياتى اكثر من الساعة التى اقضيها معها .. ولم تستطع واحدة منهن أن تستولى على قلبى .. لم يكن لى قلب لتستولى عليه امراة .. ولم تستطع واحدة منهن أن تلهينى عن عملى .. ان النساء كن بالنسبة لى ، هواية أوقات الفراغ .. كنت دائما أستطيع أن أزيحهن من أمام عينى ، وامسحهن من صفحة ذهنى ، وانا مقبل على عملى .. بل آنى قضيت شهورا طويلة دون أن التقى بامراة ، او افكر فى امراة ، لأن عملى كان يقتضينى كل دقائق عمرى خلال هذه الشهور ..

وانتقلت الى القاهرة .. وكبرت .. واشتهرت .. واصبحت نجما من نجوم المجتمع .. وانتقيت بصنف اكثر رقيا من النساء ..

اكثر رقيا !! لعل هذا التعبير فيه كثير من المبالغة .. لا .. نهن لسن اكثر رقيا .. انهن فقط اكثر لمعانا .. والصفيح يلمع حيانا اكثر من الذهب عندما تسلط عليه الأضواء !!

واسالى عبد العظيم .. بك !

لقد اصبحت مهمته اسهل بكثير مما كانت عليه ، عندما كان يعيش معى فى أوساط الطبقة الفقيرة والمتوسطة .. كان ايامها يضطر الأن يخدع ، ويجهد ذكاءه ، ويغرى ، ويهدد .. حتى يصل بالمرأة الى بابى .. اما بعد ان انتقلنا الى الأوساط الراقية ، فلم تعد مهمته تتعدى فتح الباب !!

وكنت انا نفسى ادهش ، عندما اجد امرأة ذات اسم كبير .. وجمال كبير .. تلقى بنفسها على .. هكذا بسهولة ، ودون ان اسعى وراءها ..

ثم اكتشفت ان هناك نساء — مثلى — من هواة جمع الرجال .. انهن يردننى باعتبارى نجما لامعا يصلح ليضاف الى المجموعة التى يحتفظن بها فى ادراج ذكرياتهن ..

واكتشفت ان هناك صنفا ثانيا منهن .. يحمل اسما كبيرا أيضا .. أسماء عائلات ضخمة .. ويعشن فى بذخ يبلغ حد الجنون .. ولكنهن لا يملكن من أسباب هذا البذخ ، الا اجسادهن .. والنسبة محفوظة .. فقد تكون هناك امرأة تملك خمسة قروش وتضطر ان تبيع جسدها لتحصل على عشرة قروش أخرى تدفعها ايجارا للغرفة التى تقيم فيها .. وهناك نساء تملك الواحدة منهن مائة فدان ولكنها فى حاجة الى ايراد الف فدان حتى تحتفظ بحياة البذخ الذى تعيش فيه .. فتضطر ايضا ان تبيع جسدها .

ثم هناك صنف ثالث من النساء .. النساء اللائى يعتقدن أن ازواجهن لا يستطيعون ان يعتمدوا على انفسهم ، وانهم فى حاجة الى مساعدتهن ليرتقوا فى مناصبهم .. فيتقدمن ، بلا سبب ، وبلا مقدمات ، ليعرضن انفسهن على الرؤساء لقاء « درجة » أو « علاوة » تمنح للزوج الغافل .. وهذا الصنف من النساء يهبن اجسادهن بعد أن يقتنعن انفسهن بأنهن يقدمن على تضحية كبيرة فى سبيل الزوج المسكين ..

وقد خبرت هذا الصنف طويلا .. كانت الواحدة منهن تقبل وفى عينيها نظرة مسكينة كأنها شهيدة تقدم عنقها على مذبح المجتمع .. ثم كانت تحاول أن تبدو ذكية . فلا يخرج ذكاؤها الا فى سلسلة من كلمات النفاق ، والضحكات الرنانة الجوفاء .. ثم تقول بعد أن تقوم من فراشى ، وتقف امام المرآة لتصلح نفسها : « انا عايزاك تدى جوزى شغل كتير .. اشغله فى اى حاجة .. ولما ينشغل حافضالك انا » .. ان هذا المعنى تقوله كل منهن ، فى تعابير مختلفة .. ودائما يقلنه بعد ان يتركن فراشى ويقفن امام المرآة ليصلحن من انفسهن !!

ولم تستطع واحدة من هذا الصنف ان تأخذ منى ترقية لزوجها لا يستحقها .. انهن لا يعلمن انهن يعشن دائما خارج دائرة عملى .. وانا نفسى اخرج من دائرة عملى عندما التقى بهن .. وقد كان من بينهن زوجات لموظفين اكفاء فى شركاتى .. وكان مقدرا لهؤلاء الأزواج ان يرتقوا فى مناصبهم دون مساعدة زوجاتهم .. ولكن ، ما دامت زوجاتهم تصر على مساعدتهم .. فليس لدى مانع !!

هكذا كنت اعيش ..

عشرات النساء ..

ولا تسالينى اين كانت زوجتى .. ان المسكينة منزوية بعد ان صبرت على جوع جسدها حتى لم تعد تجوع .. ولم تحاول مرة ان تحاسبنى .. لم تحاول ابدا ان تتجسس على لتعرف أين اقضى أوقات فراغى .. وربما كانت تعلم .. فانى لم انقطع عن هواية النساء منذ ان تزوجتها .. بل ان زواجى بها اطلق هذه الهواية فى نفسى .. فاندفعت فيها اشد جموحا .. كنت احس كأنى انتقم من كل النساء الجميلات اللائى لم اتزوجهن .. كنت اعوض النقص الذى احس به وانا زوج لامراة قبيحة .. كنت اعرف ان بقية الأزواج .. بقية الرجال .. ينظرون الى زوجتى

.. الى كوم اللحم الذى غاصت فيه ملامح الوجه فلم تعد تبدو منها عينان ولا انف ولا شفتان ؟ والى الساقين اشبه بعمودى تليفون ، والى الذراعين الحمراوين كأنهما فخذا خنزير مسلوق .. ينظرون الى هذا الشيء الذى تزوجته فيسخرون منى فى دخيلة نفوسهم .. وقد يشفقون على .. فكنت أنتقم من سخريتهم ، ومن شفقتهم .. كنت أنتقم منهم فى اجساد زوجاتهم .. كنت عندما امتلك واحدة من هاتيك الزوجات فى فراشى ، أحس احساس خبيث .. احس كأنى امتلكت زوجها ، وانتقم منه بغل وعنف .. لأنه سخر من زوجتى .. ولأنه تزوج امراة اجمل من زوجتى !!

الى أن كان يوم ..

وكنت مدعوا فى حفلة خيرية ساهرة اقيمت فى فندق سان استفانو بالاسكندرية .. وذهبت ومعى عبد العظيم بك .. أنه دائما معى !!

وهناك رأيتها ..

لمحتها من بعيد .. وكانت عيناها مسلطتين على !

وحاولت أن اتجاهل عينيها .. ولكنى لم استطع .. وعدت اواجههما من جديد !!

انهما عينان غريبتان .. واسعتان حتى تسعان كل الناس فى النظرة الواحدة .. وفى طرفهما غمزة خفيفة كأنهما تشيران الى اشارة خفية .. واهدابهما طويلة ، كأنها صنعت من هذه الأهداب وسادة من الحرير تنام فوقها نظرتها .. وكتفاها .. انى لم أر بعد عينيها الا كتفيها .. كتفان عاريتان فى لون اللبن المزوج بشراب الورد .. وخيل الى انى اتحسس كتفيها بعينى .. وانى اشعر بنعومتهما .. بالبشرة الملساء المشدودة كأنها صنعت من عجين الياسمين .. وانتبهت الى يدى وهى تمسح على حافة المائدة كأنى فعلا اتحسس كتفيها !!

وملت على اذن عبد العظيم وسألته :

ــ مين الست اللى هناك دى .. انا فاكر شفتها قبل كده ؟!
ولم اكن قد رايتها من قبل ، ولكنه نوع من النفاق تعودت ان اخاطب به عبد العظيم ..

وقال دون أن يرفع عينيه ليبحث عن المرأة التى أعنيها :

ــ دى مرات ايزاك السمسار !

وقلت بعد فترة :

ــ انا سمعت ان ايزاك سمسار كويس !

ولم يجب عبد العظيم .. انما نظر الى من خلال عينيه المنتفختين ، ثم ارخى جفنيه اللذين تساقطت رموشهما ، وابتلع بقية كأس الويسكى ، ثم قام من جانبى ..

وبعد قليل رايته واقفا مع ايزاك السمسار .. رجل قصير ، أصلع الرأس ، باهت الشخصية .. اشبه بآلة عد النقود التى توضع فى المحال التجارية !!

وجاء عبد العظيم ومعه ايزاك .. ولم أقم له واقفا .. انى اعرف كيف اعامل هذا الصنف من الناس .. وتركته ينحنى امامى حتى كاد يقبل يدى ، وبين شفتيه ابتسامة كبيرة سائلة ، وفى عينيه نظرة مبهورة كأنه ينظر الى جبل من سبائك الذهب .. ولم ادعه للجلوس ، انما أبقيته واقفا امامى .. واخذت احدثه عن احوال البورصة ، واسعار القطن والأوراق المالية .. وهو يجيبنى فى ادب سمح ، بينما يتلفت حوله بين كل كلمة واخرى كأنه يبحث عن شىء ..

وكان يبحث عن زوجته ، لتعينه فى هذه الفرصة الذهبية التى سنحت له .. فرصة تشرفه بمعرفتى ..

وامهلته مدة اطول حتى يجد زوجته .. كنت اكثر من الأسئلة ، وهو يطيل فى كل جواب !

واخيرا جاءت ..

جاءت تتهادى فى مشيتها كأنها ملكة .. كأنها تمن على الأرض

بخطواتها .. انها طويلة .. اطول من زوجها بكثير ، واطول منى بقليل .. وقوامها ملفوف ليس فيه قطعة زائدة ولا قطعة ناقصة .. وشفتاها .. انهما الشفتان اللتان اضعف امامهما .. لأنى اغرق نفسى فيهما .. احس وانا اقبلهما انهما تمتصانى كلى .. شفتان مليئتان ، كأنى آكلهما وأنا اقبلهما ..

وقمت واقفا .. احتراما للعينين ، والكتفين ، والقوام الملفوف ، والشفتين الشهيتين ..

ولكنها لم تلتفت الى ..

لم تنظر الى ..

وكان يكفى هذا لأعرف اسلوبها .. اسلوبها مع الرجال ..

وخبطت على كتف زوجها بطرف مروحتها ، وقالت له بفرنسية رقيقة ، وفى صوت مبحوح يدغدغ الأعصاب :

ــ هل تتكلم ثانية فى العمل ؟

وقال زوجها وهو يشير الى كأنه يقدم لها هدية عيد الميلاد :

ــ حسين باشا شاكر .. انك تعرفينه بلا شك ؟ !

والتفتت الى ، وفى عينيها نظرة تسعنى كلى ، وقالت بلا مبالاة كأنها لا تعرفنى :

ــ تشرفنا .. يا باشا !!

ومدت الى يدها ، وهى ترفعها الى شفتى ..

وانحنيت اقبل اليد الطرية ، وانا ابتسم ابتسامة خبأتها فى صدرى ..

وقالت بفرنسيتها التى تدغدغ الأعصاب :

ــ آسفة .. باشا .. هل قطعت عليكما الحديث ؟

قلت وانا احاول ان اضع ذكائى فى عينى ، حتى تعرف انى افهمها جيدا :

ــ ابدا .. تفضلى !

وسحبت لها مقعدا بجانبى .. وجلس ايزاك ، وعبد العظيم ..

وهكذا عرف ايزاك انه لن يجلس ابدا على مائدتى الا اذا كان مع زوجته !

ولم تمض دقائق حتى كانت الزوجة الجميلة تملك المائدة كلها ..

لم تكن تخصنى بحديثها ، كما هى عادة كل النساء اللاتى يجلسن بجانبى .. بل ربما خص عبد العظيم من حديثها اكثر مما خصنى ..

ورغم ذلك فلم اغضب .. ولم احس بشىء ينقصنى .. كان حديثها لذيذا حتى عندما توجهه الى غيرى .. حتى عندما توجهه الى عبد العظيم !

انها ذكية هذه المراة ..

ولكن .. هل هى اذكى منى ؟

ولم استطع ليلتها ان اقدر مدى ذكائها .. ولكنها تركتنى وانا اشك فى مدى ذكائى .. وتركتنى وانا احس انى مقبل على معركة .. معركة ذكاء .. وهو شعور لذيذ بالنسبة لى .. كنت ايامها قد وصلت الى مرحلة التأفف من المراة السهلة .. المراة التى لا تثير ذكائى .. وهذه المراة ليست سهلة ..

وكان يجب ان اربطها بى قبل ان تنتهى السهرة .. او على الأصح اربط زوجها بى .. فالتفت اليه قائلا بالفرنسية :

ــ تستطيع غدا ان تبيع لى خمسمائة سهم من اسهم الشركة الكيمائية !

والتمعت عينا ايزاك فرحا .. لقد اصبح سمسارا لى .. انها ثروة هبطت عليه .. وهى ثروة لا تكلفنى شيئا .. فقد كنت انوى ان ابيع هذه الخمسمائة سهم عن طريق سمسار آخر ، سمسار ليست له زوجة بهذا الجمال !

واخرج ايزاك نوتة صغيرة من جيبه ليسجل امر البيع ، والتفتت الى كوليت — وهذا هو اسمها — وقالت فى لهجة ساخرة :

— كيف صنعت ملايينك ؟!

وفوجئت بالسؤال وقلت :

— ماذا تقصدين ؟ !

قالت وهى تدير راسها عنى :

— لا شىء !

قلت ملحا :

— لا بد انك تقصدين شيئا ؟

قالت وهى تعود براسها الى وتنظر الى بكل عينيها :

— مهما كانت الطريقة التى صنعت بها ملايينك ، فلا شك انك ستفقدها قريبا !

قلت وقد ازعجنى الحديث الى حد التشاؤم .. احسست كأن انسانا يدعو على بالافلاس :

— لا افهم .. ماذا تعنين ؟ !

قالت وهى تتنهد كأنها تخاطب طفلا لا يفهم فى حديث الكبار :

— ان احدا لا يبيع اسهم الشركة الكيمائية غدا ، ولكنه يشترى .. يشترى قدر ما يستطيع .. ثم يبيع بعد اسبوع !

ونظرت اليها صامتا ..

لم اعد ارى جمالها ، ولكنى كنت فى هذه اللحظة ارى اموالى .. ارى عملى .. كأنى انتقلت فجاة الى مكتبى .. وارى ذهنى يدور بسرعة كأنما سرى فيه تيار كهربائى .. ثم التفت اليها ، ونظرت فى عينيها نظرات ثابتة ، قابلتها بنظرات اثبت ، وفوق شفتيها ابتسامة صغيرة كأنها تشفق على ..

واتخذت قرارا ، والتفت الى ايزاك قائلا :

— مسيو ايزاك .. اشـــتر لى الف ســـهم من الشركة الكيمائية !!

واتسعت ابتسامتها ، وربتت على يدى ، وقالت كأنها تدللنى :

— انك طفل مطيع !

ونظر ايزاك اليها والى كأنه لا يفهم شيئا ، وشطب « الأمر » الذى كتبه فى مفكرته ، وكتب « الأمر » الجديد .. وعبد العظيم يحاول عبثا ان يخفى ابتسامة الشماتة فى !

واحسست انا بالارتباك ..

احسست كأن شخصيتى قد اهتزت .. كأن كل امجادى السابقة لم تعد تساوى شيئا ..

وقامت واقفة .. كالملكة .. كأنها تأمرنا بالانصراف ..

وقال عبد العظيم بفرنسيته الركيكة .. وهو يصافحها :

— لقد اتفقت مع مسيو ايزاك على أن نتناول العشـــاء معا غدا ..

قالت :

— غدا .. اتفقنا .. ولكنى سأضطر ان انصرف مبكرة .. انى مدعوة الى سهرة !!

ورفعت يدها الى شفتى عبد العظيم ليقبلها ..

ثم قدمت لى يدها ..

وتقززت من ان اضع شفتى مكان شفتى عبد العظيم .. ولكنى وضعتهما .. قبلت اليد التى قدمتها الى ..

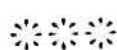
وتركتنا ، وايزاك يسير وراءها ، كأنه ذيل ثوبها

وجلست انا وعبد العظيم .. ونظرت اليه كأنى آمره ان يتكلم .. أن يقول كل ما عنده ..

وتكلم دون أن يرفع عينيه لى .. قال كأنه يقـدم تقريرا رسميا :

— عبد العزيز باشا مبارك بيحبها .. ومش طايل منها حاجة .. وخاربه بيته .. وبتلعب فى البورصة !!

وابتسمت وأنا أسمع اسم عبد العزيز باشا مبارك .. انه أحد كبار رجال الأعمال فى الاسكندرية .. وكانت بينى وبينه دائما منافسة .. منافسة استعملنا فيها كل الأسلحة القذرة .. وقد انتصرت عليه فى عدة صفقات لأنى دائما أقذر منه .. هل أستطيع أن انتصر عليه فى هذه الصفقة أيضا .. صفقة كوليت ؟!



وجاءت كوليت فى الليلة التالية .. دائما جميلة !

وكان المفروض أن يتولى عبد العظـيم مهمة الحـديث مع ايزاك ، لأتفرغ أنا للحديث مع كوليت .. كان هذا هو النظام المتبع فى مثل هذه المناسبات ، والذى يعرفه عبد العظيم جيدا .. ولكن كوليت خرجت على هذا النظام .. تولت هى الحديث كله .. وكانت تعطى منه لعبد العظيم اكثر مما تعطينى .. كأنها تحاول محاولة لم تقدم عليها امرأة أخرى .. كأنها كانت تحاول أن توقع بينى وبين عبد العظيم .. أن تجعلنى أغار منه !

وصبرت ..

قررت أن اصبر طويلا ..

لا شىء يغلب هذا النوع من النساء سوى الصبر ..

وتغلبت روح العبد الذليل فى عبد العظيم ، فكان يرد حديثها الى .. كانت تسأله عن نفسه فيحدثها عنى .. كانت تمتدحه فيرد مديحها الى .. كانت تلاطفه فيحول ملاطفتها على ..

وعرفت كوليت أنها لا يمكن أن تستعمل عبد العظيم ضدى .. وأنا صابر ..

لا اقبل عليها ، ولا افر منها .. ولا اكلف زوجها بأمر جديد يربح من ورائه شيئا ..

ودعتنا فى اليوم التالى الى بيتها .. بيت أنيق فخم . اكبر وافخم من بيت مجرد سمسار فى البورصة .. ونسيت أن أقول لك ان كوليت لم تكن ايضا مجرد زوجة سمسار .. انها من عائلة كبيرة معروفة فى الاسكندرية .. والثراء ليس جديدا عليها . ولكنه بالنسبة لها هواية .. هواية جمع المال ..

ولم تكن الدعوة لنا وحدنا .. لقد وجدنا هناك آخرين .. كلهم من كبار رجال الأعمال .. ونساء جميلات . وعبد العزيز باشا مبارك ..

واستقبلنى عبد العزيز باشا بابتسامة صفراء ينضح منها النسم .. ونظرت اليه وانا اضحك ضحكة كبيرة .. نظرت الى عينيه الغائرتين وسط أمواج من التجعدات . كأنهما قطعتان صغيرتان من الحجر القيتهما فى مستنقع من الماء الملوث .. والى لغده الذى يتدلى تحت ذقنه . طية فوق طية .. وكرشه الضخم ، هو الآخر ، طية فوق طية .. والى طربوشه الأحمر الفاقع ، وزهرة القرنفل الحمراء التى يضعها فوق صدره وتميل على كتفه كأنها تبتعد عن أنفاسه .. انه اشبه شىء بالديك الرومى .. وأخلاقه أخلاق الديك الرومى .. انه ينتفض غاضبا لأى بادرة .. وهو جاد دائما .. جاد فى مكتبه .. وجاد فى ميدان السباق .. وجاد وهو يشرب الويسكى فى سهراته .. جاد وعنيد ووقح .. وربما كان هذا هو سبب هزيمته كلما وقف أمامى فى منافسة حول صفقة .. فرجل الأعمال يحتاج الى كثير من المرونة ، وكثير من الابتسامات ، وكثير من التواضع ..

وهذا الديك الرومى ، هو الذى ينافسنى فى كوليت الآن !

وضحكت مرة ثانية .. ضحكة كبيرة .. وادعيت أنى اضحك لنكتة ألقاها عبد العظيم ..

ورحبت بى كوليت .. ثم حاولت أن تتجاهلنى .. وحاولت أيضا أن تثير منافسة بينى وبين الديك الرومى ..

وصبرت على كل ذلك ..

صبرت وعيناى تتبعان كتفيها العاريتين المصنوعتين من عجين الياسمين .. وتتبعان القوام الملفوف .. والغمزة الخفيفة فى طرف العينين الواسعتين كأنهما تشيران اشارة خفية الى كل الناس ..

ثم غادرت الحفل ..

وكان قبولى الدعوة الى بيت ايزاك ، حدثا اجتماعيا ، رفع من مركز ايزاك فى البورصة ، وأحاطه باهتمام كل رجال الأعمال .. فاكتفيت بهذا الفضل عليه ، ولم أعرض عليه جديدا ..

وفى اليوم التالى عدت الى القاهرة .. وقبل أن اعود أرسلت الى كوليت علبة شيكولاته ، شكرا على دعوتها .. وقد تعمدت أن تكون علبة شيكولاته ، لا سوار من الماس .. ولا خاتم سولتير .. كما جرت العادة بيننا نحن رجال الأعمال ، عندما نحاول أن نبدى اعجابنا بسيدة ..

ولم استطع أن انسى كوليت فى القاهرة ..

كنت افكر فيها دائما .. لا بقلبى .. ليس لى قلب يفكر .. بل كنت افكر فيها كصفقة جميلة يجب أن افوز بها .. كمناقصة معروضة فى سوق المقاولات ، قررت أن اتقدم اليها منافسا لبقية المقاولين .. كنت أراها كما كنت أرى عمارة فخمة اريد شراءها ، وأحاول أن اشتريها بأبخس ثمن ..

ولكنها كانت أكثر من ذلك .. كانت المرأة الوحيدة التى جعلتنى افكر فيها وانا فى مكتبى .. وانا اعمل .. كانت نصيحتها لى الخاصة بأسهم الشركة الكيمائية قد هزت ثقتى بنفسى .. وكنت اتمنى أن أخسر من وراء هذه النصيحة ، حتى استرد ثقتى بنفسى .. حتى اتخلص من صورة هذه المرأة التى تطل على كلما هممت أن اتخذ قرارا ، وبين شفتيها ابتسامة ساخرة ، كأنها تهزأ منى ..

ولكنى لم أخسر بنصيحتها ..

لقد ربحت .. ربحت مبلغا طائلا ..

ورغم ذلك لم افرح .. انما احسست انى لن استطيع ان اعيش ولا ان اعمل الا اذا استوليت على هذه المرأة ..

ولم اشكرها على نصيحتها ، حتى لا افتح بابا لاطماعها ، واشعرها بفضلها على ..

انما صبرت .. وصبرت اكثر .. ان الفرق بين الهزيمة والنصر ، دقيقة واحدة من الصبر !!

وكنت خلال هذه الأيام قد أمرت عبد العظيم بأن يكلف ايزاك ببعض عمليات البورصة الصغيرة ، حتى ابقى على صلته بى ..

ثم ذهبنا الى الاسكندرية .. انا وعبد العظيم !

وقابلتها مرة ثانية .. وقالت وهى ترفع يدها الى شفتى :

— وحشتنا .. باشا .. اين كنت ؟

قلت وانا احاول ان احتفظ بأعصابى حتى لا تذوب فى نار جسدها الملفوف :

— انها الأشغال !

قالت وفى صوتها المبحوح المثير نغمة خاصة كأنها تذكرنى بشىء نسيته :

— بالمناسبة .. مبروك على صفقة الشركة الكيمائية !

قلت :

— مرسى .. الفضل لك !

ولم ازد . لم اعرض عليها نصيبها فى الصفقة كما جرى بذلك العرف بين رجال الأعمال . كنت اريد ان اشعرها بأنها لن تأخذ منى شيئا الا لقاء الثمن الذى اريده .. الثمن الذى احدده انا .. البضاعة التى اختارها !

وتعمدت بعد ذلك ان احول مجرى الحديث .. وحاولت أيضا ان اسيطر على الحديث ، حتى لا تسيطر عليه هى ..

وتعمدت أن يكون حديثى كله فى الأعمال .. فى البورصة .. والشركات وتقلبات السوق ..

وأطلت اقامتى فى الاسكندرية ..

وكلفت ايزاك بمزيد من الأعمال ..

وكنت معها كل مساء ..

وبدأت المعركة تتضح بينى وبينها .. معركة الصبر .. من منا يصبر على الآخر اكثر .. وكان كل ما احرص عليه خلال المعركة أن اجعلها دائما أمامى .. وكان سلاحى دائما هو زوجها .. كنت اطلق له حبالا طويلة من الأمل .. حبالا من اطماعه .. وكان عندما يأتى الى وحده ، او عندما تنقضى ليلة لا ارى فيها زوجته ، اشل حركته .. واحرمه من اعمالى .. وارفض ان اجلسه الى مائدتى ، واقطع حبال اطماعه . فيعود الى معها .. وكان كل ما تحرص عليه هى ، الا تفيدنى بآرائها فى تقلبات البورصة بعد أن حرمتها من نصيبها فى صفقة الشركة الكيمائية .. لم تعد تحدثنى فى العمل .. بل لم تعد تطيق حديث الأعمال .. ثم بدأت تنهار .. بدأت تظهر ضيقها من حديثى الذى لا ينقطع عن العمل ..

وذات مساء انتفضت الى فجأة ، وقالت غاضـــبة فى همس مبحوح :

ـــ الا تكف عن حديث العمل !!

وابتسمت ابتسامة خفيفة ، وساءلت نفسى بسرعة : « هل حانت اللحظة ؟ » ثم قلت وانا اميل على اذنها ، وقد وضعت فى عينى نظرة ذات معنى :

ـــ انهُ الحديث الوحيد الذى يصلح وحولنا كل هؤلاء الناس !

قالت وهى تنظر الى كأنها تحاول أن تتخذ قرارا :

ـــ ومتى تستطيع ان تجد حديثا آخر ..

قلت وأنا احس كأنى مقبل على توقيع عقد شراء :

ــ عندما تقبلين دعوتى !

ونظرت الى طويلا ، وبين شفتيها المليئتين ابتسامة ساخرة ، ثم قالت :

ــ اين ؟ !

قلت وانا استعين بكل جراتى فى عقد الصفقات :

ــ ان لى عشا هادئا .. هنا فى الاسكندرية !!

واشاحت بوجهها عنى .. واخذت تنقر بأصابعها على المائدة نقرات عصبية كأنها تعد ضربات قلبها .. ثم عادت والتفتت الى ، وقالت فى حدة :

ــ اتفقنا .. غدا الساعة السابعة !!

واحسست كأنى ملكت الدنيا كلها .. اشتريت الدنيا .. وعدت التفت الى ايزاك وعبد العظيم ، واحدثهما فى تقلبات البورصة ، كأنى أؤكد لها انها لن تجد منى حديثا آخر الا فى عشى الهادىء .. وفى نفس الوقت تسللت بيدى الى جيبى واخرجت قلمى وكتبت عنوان العش على قائمة الطعام ، ثم وضعته امام عينيها ، دون ان يشعر احد ..

وجاءت ..

جاءت بعد صبر طويل دام ثلاثة اشهر ونصف ..

وعشى الهادىء ، هو قطعة من الجنة .. انفقت فى اعداده آلاف الجنيهات .. ولم يكن مجرد مكان لمزاجى الخاص .. بل كان ايضا مكان عملى .. ففى هذا العش سهر كثير من الوزراء والكبراء ، وتلقوا من يدى الرشاوى فى صورة خسائر اخسرها لهم على مائدة القمار ، وكانوا يعلمون انى اتعمد خسارتها .. وفى هذا العش تبذل كثير من الوزراء والكبراء بين احضان النساء ، وباعوا صفقات الحكومة لى وهم سكارى ..

كان لى مكتب وعش فى الاسكندرية ، ومكتب وعش فى القاهرة !!

ورغم ذلك فانى فى ذلك اليوم لم أشعر أن عشى الهادىء هو مكان عملى .. لقد أحسست لأول مرة انه قطعة من الجنة .. ورأيت الصور الثمينة معلقة على الجدران كما لم ارها ابدا .. جميلة ، رائعة .. بل انى أحسست بالغيرة على عشى لأن غيرى من الرجال قد دنسوه بشهواتهم .. وتمنيت لو استطعت أن آخذ كوليت الى مكان آخر .. مكان لم يدخله غيرى من الرجال !!

وجلست فى انتظارها وقلبى واجف ، كأننى انتظر صدور نشرة البورصة لأعلم مدى خسارتى وربحى ..

وجاءت ..

جاءت فى السابعة تماما .. انها أذكى من أن تتعمد التأخير عن موعدها كما تفعل بقية النساء ..

واستقبلتها فرحا .. وانحنيت اقبل يدها .. وخلعت عنها معطفها .. وقدمت لها كأسا من الشمبانيا .. لم يكن معنا أحد .. ولأول مرة لا يكون معى عبد العظيم .

وبدأت أحدثها عن صبرى الطويل ، وأنا أضم يدها بين يدى ولكنها سحبت يدها ، وقالت وهى تبدو كأنها غاضبة ، وبين شفتيها ابتسامة تمسح عنها الغضب :

— لقد جاء دورى الأتحدث فى الأعمال .. أين نصيبى من صفقة الشركة الكيمائية ؟

وضحكت ضحكة كبيرة ، وربت على فخذها .. ومددت يدى وأخرجت شيكا باسمها قيمته ألف جنيه ..

كنت أنوى فى هذا اليوم أن أعطيها نصيبها ، وكنت قد أعددت الشيك مقدما ..

وأخذت الشيك بين يديها ، ونظرت فيه بامعان وهى تبتسم ساخرة .. وفجأة شدته بين أصابعها وأخذت تمزقه قطعا صغيرة كأنها تقرضه بأسنانها ..

وصرخت دهشا :

ـــ مـاذا تفعلين ؟
قالت دون أن تثور :
ـــ انك سافل !
قلت كأنى ادافع عن نفسى ؟
ـــ لقد كنت انوى ان اعطيك نصيبك ، ولكن .. و ..
قاطعتنى بصوتها المبحوح الذى يدغدغ اعصابى ، وفى لهجة حنان كأنها تغازلنى :
ـــ لنتفق اولا على انك سافل .. انك لا تستطيع ان تنكر أنك سافل !
قلت وانا احاول ان اضحك :
ـــ لنفرض انى سافل .. ولكن هذا الشيك من حقك !
قالت وهى تبتسم :
ـــ انه هدية منى اليك .. هدية تستحقها على سفالتك !
قلت ضاحكا :
ـــ انك تغرينى بالسفالة ؟
قالت وهى ترفع كأسها الى شفتيها :
ـــ لا اظن .. انك لا تستطيع ان تكون اسفل مما انت !!
وضحكت .. وملت على يدها اقبلها مرة ثانية !!
واخذنا فى الحديث .. ولم اكن اريد شيئا فى لقائنا الأول سوى الحديث .. وقامت كأنها تهم بالانصراف .. وقمت معها .. وخطونا نحو الباب .. وامسكت لها معطفها ، وهممت ان اضعه فوق كتفيها .. ولكنها استدارت .. ونظرت الى بعينيها اللتين تسعانى كلى ، ولمحت الغمزة الخفيفة فى طرف العينين وقد ازدادت ارتعاشا .. وقالت وصدرها يكاد يقفز فوق صدرى :
ـــ لا تحاول ان تكون ماكرا .. انى أعرف ما تريد .. فلماذا لا تحاول أن تطلبه ..
وتسمرت فى مكانى دهشا ..

ان هذه المراة اقوى منى .. انها لا تريد ان اخدعها .. لا تريد أن اتمتع بخداعها .. وسمعتها تقول وقد ازدادت التصاقا بى :

— ان الانتظار حتى اللقاء الثانى خدعة قديمة .. حاول ان تكون رجلا مودرن ! ..

وامسكتها من كتفيها ..

وأغرقت نفسى فى شفتيها ..

وسقط معطفها على الأرض ..

ثم سقط الثوب عن الجسد الملفوف !

***

وعشت مع كوليت اجمل سنوات عمرى ..

وصدقينى اننى كنت اول رجل تخون زوجها معه .. اول رجل استطاع ان يذيب ترفعها ، وان يحطم مبادئها .. وكان من مبادئها الا تتخذ لنفسها عشيقا حتى لا تغضب بقية الرجال وتخسر التفافهم حولها واطماعهم فيها .. ولكنها وجدت فى كل الرجال !!

ولم يكن بيننا حب .. ليس هذا الحب الذى يتكلم عنه الناس .. ولكن كان بيننا تفاهم .. تفاهم تام بين اثنين لا يستطيع احدهما ان يخدع الآخر .. حتى جسدانا تفاهما ، لم اكن اشعر معها بأنى اتعمد ان اضغط على اعصابى لارضيها ، ولم تشعر معى انها تعطينى شيئا لا تريده ..

ونظمنا علاقتنا المالية .. اصبح لها النصف فى كل صفقة تشير بها .. وكنا دائما نربح سويا .. وكنت اعطيها مرتبا شهريا يغنيها عن تعمد ارضاء زبائن زوجها ، ويغنيها عن مضايقات عبد العزيز باشا مبارك .. وكنت اعطى زوجها اعمالا تغنيه عن أن يكون له زبائن غيرى ..

واشتهرت علاقتنا فى كل المجتمعات .. عرفها رجال الأعمال ، ورجال السياسة ، ورجال السلك الدبلوماسى ، والصحفيون ..

و .. و .. ولم نهتم .. انى لست الرجل الوحيد الذى يتخذ لنفسه عشيقة وليست هذه اول عشيقة لى ..

وجرفنا تيار التفاهم الذى نعيش فيه .. اصبحت اقضى ثلاثة ايام من الأسبوع فى القاهرة ، واربعة فى الاسكندرية .. معها .. وفى الأيام التى اقضيها فى القاهرة ، اتصل بها ثلاث او اربع مرات بالتليفون .. واحيانا لا اطيق فراقها ، فأدعو زوجها فى عمل عاجل ، وادعوها معه !!

ونسينا كل شىء يمكن ان يحدث لنا .

نسينا الزوج ..

لا ، لم انس ايزاك ، ولكنى كنت اعامله كما تقضى تقاليد المجتمع الذى اعيش فيه .. المجتمع الذى يعترف بالزوج والعشيق !

ولم اكن اعرف ان هذا الفأر .. هذا الزوج ، القصير ، الباهت الشخصية ، الذى يشبه آلة عد النقود التى توضع فى المحال التجارية .. يمكن ان يسبب لى اكبر هزة تعرضت لها فى حياتى .. يمكن أن يقدمنى الى المحكمة .. وان يذيب نفوذى الذى اسيطر به على مصر كلها ، فيحكم على القضاة بالسجن ..

– ٤ –

.. كنت التقى انا وكوليت فى الساعة السادسة عادة .. ويدوم لقاؤنا حتى التاسعة ، ثم تعود الى بيتها لتبدل ثيابها ، ثم تصحب زوجها ، ونلتقى ثانية على مائدة العشاء .. واحيانا كنا نتناول طعام الغداء وحدنا ، عندما تجد عذرا كافيا تقنع به زوجها .. واحيانا كانت تأتى الى القاهرة وحدها ، فتقضى الليل كله معى .. انام وراسى فـوق الكتف المصـنوعة من عجين الياسمين !

وكانت حياتنا معا قد انتظمت واستمرت ، الى حد ان اصبحت حياة طبيعية .. لم يعد فيها ما نحترس منه او نخاف عليه .. كنت اذهب الى الاسكندرية فأقيم فى فندق « سيسيل » وفى الساعة الخامسة تماما اترك الفنـدق واذهب الى عشى الهادىء .. ومعى عبد العظيم .. واجلس هناك فى الشرفة المطلة على البحر .. وفى الساعة السادسة تماما يدق جرس الباب ، ويقوم عبد العظيم ليفتح .. وتدخل كوليت ، ولا اقوم لاستقبالها ، ولا التفت اليها .. انما اظل ارقب البحر الى ان اشعر بشفتيها فوق راسى .. تقبلنى فى اعلى جبهتى .. فأمسك بيدها واشدها الى — وانا لا زلت جالسا فى مقعدى — واقبلها فوق شفتيها .. ثم اترك يدها ، لتقف امامى مستندة الى حاجز الشرفة .. ونأخذ فى الحديث نحن الثلاثة .. وكان اغلب الحديث

دائما من نصيب كوليت .. ان عندها دائما كثيرا من آخر أنباء رجال البورصة ، ورجال الأعمال .. وعندها دائما نكات لاذعة تطلقها عليهم .. وعندها كثير من الفضائح المثيرة التى تعيش فى مجتمعنا .. وهى تتحدث دائما كملكة .. فى حديثها ترفع يرفعك اليها ، ولا ينزل بها اليك .. وتتحدث عن الفضائح كأنها تتحدث عن رعاع لا تعيش بينهم .. وتطلق النكتة وبين شفتيها ابتسامة كأنها فنانة تعجب بفنها .. وكان من عادتها دائما أن تهتم خلال حديثها بعبد العظيم ، أكثر مما تهتم بى .. كأنها تعوضه عن حرمانه .. كأنها تمنحه وسام الشرف على خدماته الجليلة التى يؤديها لى .. ولها ! وكان عبد العظيم يحبها لذلك .. كانت المرأة الوحيدة فى حياتى التى احترمها عبد العظيم ، وحرص على أن يبقى علاقتها بى .. بل كان يخيل الى أحيانا أنه يغار عليها .. غيرة العبد لا غيرة السيد .. كان لا يطيق أن يسمع عنها كلمة تمسها ، وكنت أنا نفسى عندما أقول عنها كلمة لا تعجبه يقلب شفتيه وينظر الى بعينين ساخرتين ، كأنه يقول لى : « والله دى خسارة فيك » ..

وينتهى حديث الشرفة .. وتتركنا كوليت بلا تعمد ، وتدخل الى داخل البيت .. انه بيتها .. وفى حجرة النوم تحتفظ بكل ادوات التجميل الخاصة بها .. وعشرات من زجاجات العطور التى تفضلها .. ولها فى الحمام برنس خاص ، ومنشفة .. وأملاح البنفسج التى تذيبها فى الماء قبل أن تستحم به .. وهى التى أشارت بتغيير ستائر غرفة النوم وأثاثها .. فقد كانت تفضل اللون « الأوكر » .. وكانت ترفض أن يكون لها سرير نام عليه غيرها ..

شىء واحد حرصت كوليت على الا تحمله الى بيتنا .. الى عشنا الهادىء .. هو قميص النوم .. انى لم ارها أبدا بقميص النوم .. كانت دائما تواجهنى بثوبها الكامل .. ثوب الخروج ..

وتترك لى ان ابدا الطريق من اوله .. وكانى فى كل مرة التقى بها لأول مرة .. وربما كان هذا هو الفرق بين الزوجة والعشيقة .. وهو فوق كبير !

واكثر من ذلك ..

لقد كنت اقيم سهرات صغيرة فى هذا العش .. كما كانت عادتى دائما .. سهرات ادعو اليها الوزراء ورجال الأعمال ليتلقوا الرشاوى فى صورة خسائر اخسرها لهم على مائدة القمار .. او الأسكرهم واسلط عليهم سحر نوع معين من النساء ، حتى ينطقوا بأسرارهم ، ويبيعوا لى كل ما اريد شراءه .. وكانت كوليت دائما معى .. وكانت تقوم بدور المضيفة .. دور ست البيت .. هى التى تستقبل المدعوين ، وهى التى تشرف على راحتهم ، وهى التى تقوم على تنفيذ الخطط التى نتفق عليها .. وكان زوجها ايزاك يحضر معها .. وكان يعلم .. كان يعلم تماما مركز زوجته منى ومن البيت .. انه ليس غبيا ، وليس ساذجا !

فهل هناك ما يمكن ان اخشاه بعد ذلك ..

هل هناك ما يمكن ان يثير ريبتى حتى احسب حسابا لهذا الزوج .. هذا الفأر الذى يشبه آلة عد النقود التى توضع فى المحال التجارية !

لا .. لقد كنت مطمئنا .. غاية الاطمئنان !

الى ان كان يوم ..

يوم لا انساه ابدا ..

جاءت كوليت فى الساعة السادسة ..

وانتهى حديث الشرفة ..

ودخلت كوليت الى حجرة النوم .. ولحقت بها بعد قليل .. وتركت عبد العظيم ينظر الى البحر ، وفى يده كأس من الويسكى المثلج .. ليس اكثر برودا من اعصابه !

وانقضت فترة .. فترة طويلة .. وافقت من نشوتى ، على صوت جرس الباب يرن ..

من هذا ؟

لعله البواب .. لعله أحد السكرتيرين الخصوصيين الذين يعملون مع عبد العظيم ويعرفون سر هذا العش ، جاء فى مهمة عاجلة .. لعله ..

ولكن رنين الجرس يتوالى .. بعنف .. كأنه صراخ امراة تتباهى بصراخها .

وانتبهت اذناى ، وجسدى كله لا يزال مع كوليت ..

ثم سمعت خبطا بالأيدى فوق الباب ..

ثم سمعت صوت الباب يفتح ..

ثم ضجة ..

واتسعت عينا كوليت فزعا .. عيناها قريبتان جدا من عينى حتى خيل الى انى اغرق فى بحر من الفزع .. وقالت وشفتاها قريبتان جدا من شفتى .. حتى لم اكن ادرى ايهما تتكلمان ، شفتاها أم شفتاى .. قالت فى صوتها المبحوح وقد حشرجه الفزع :

ــ ما هذا ؟ !

وقبل ان اجيبها .. فوجئت بباب غرفة النوم يفتح فى عنف .. ورايت أمامى اربعة رجال طوال ، وخلفهم ايزاك يشب على قدميه ، كأنه يحرص على الا تفوته مشاهدة استعراض مثير .. ثم خلف الجميع يقف عبد العظيم مذهولا ، فاغر الفم ، كأنه أصيب بصعقة ..

وكنا نحن الاثنين .. كوليت وانا .. عريانين !

وانتفضت من فوق السرير ، وانا احاول ان اغطى جسدى بذراعى ويدى .. وكلما غطيت ناحية منه ازددت خجلا من الناحية التى لم اغطها ..

وصرخت كوليت ، وجذبت ملاءة السرير حتى اعلى صدرها .. واخذت ترتعش فى عصبية كأنها اصيبت بالحمى .. ثم ركزت عينين مجنونتين فوق وجه زوجها ، وصرخت بالفرنسية :

ـ خنزير .. قذر !!

ثم اخذت تبكى فى نشيج حاد ..

واسرعت الى ثيابى ، ولكن ضابط البوليس كان اسرع اليها منى ، ووضع يده عليها وهو يقول فى ادب مفتعل ، وبين شفتيه ابتسامة ساخرة :

ـ آسف يا باشا .. مش ممكن تلبس دلوقت .. لازم نعمل اثبات حالة الأول !!

وجذبت ثيابى من تحت يده فى قوة وانا اصرخ فى وجهه محاولا ان استرد شخصيتى .. شخصية حسين باشا شاكر .. رجل الأعمال القوى .. صديق الانجليز الذى يحكم مصر :

ـ بلاش قلة ادب .. اثبت اللى انت عايزه .. ما حدش ديكدبك .. انما لازم البس هدومى !

وتركنى الضابط البس ثيابى ، وقد اتسعت ابتسامته الساخرة ، بينما بقية الرجال ـ بما فيهم عبد العظيم ـ يسقطون كل عيونهم فوق كوليت ، كأنهم يحاولون أن يمزقوا الملاءة بأعينهم ليروا ما تحتها ..

ونظرت الى ايزاك وانا اضم طرفى البنطلون الى وسطى ، وصرخت فيه :

ـ انت اتجننت يا راجل انت .. انت عارف انت بتعمل أيه ؟ !

ولم يلتفت ايزاك الى .. هرب من عينى .. واشار بأصبعه الى زوجته ، كأنه يراقب عجلة الروليت التى راهن عليها بكل امواله ، وقال بالعربية المكسرة ، وقد امتقع وجهه :

ـ آهو .. هى دى الست بتاعى !!

وعادت كوليت تكرر بين نشيجها :

ــ خنزير .. قذر !!

ودققت فى وجه ايزاك ، ثم تذكرت فجاة رئيس الوزراء ... نعم .. انه هو .. رئيس الوزراء .. وقلت لنفسى وانا اجز على اسنانى : « عملها ابن الكلب !! » .

والتفت الى ضابط البوليس ، وقلت وانا احاول ان احتفظ بلهجتى الآمرة :

ــ اتفضلوا نقعد فى الصالة ..

وحاول الضابط ان يعترض .. ولكنه عاد وراجع نفسه .. وقرر ان ينسحب من الغرفة هو رجاله .. وربما تذكر ساعتها ان رئيس الوزراء الحالى ، قد يسقط !!

وتجاهلت ايزاك .. وسبقت الجميع ، وجلست على الأريكة ، واخرجت سيجارا ضخما وضعته فى فمى واشعلته .. وجلس الضابط على مقعد مقابل .. ووقف الجنود الثلاثة .. جنود فى ثياب مدنية .. خلف الضابط .. وايزاك واقف بجانبه كأنه يحتمى به .. وحرص عبد العظيم على ان يغلق باب غرفة النوم لبترك لكوليت فرصة ارتداء ثيابها .. ثم جاء وجلس بجانبى ، وهو لا يزال مذهولا .. لقد كانت فى عبد العظيم نقطة ضعف واحدة .. وهى خوفه من البوليس .. منذ ان كان صغيرا يتاجر فى الحشيش ، ويصحبنا الى بيوت الساقطات ، وهو يخاف البوليس .. وكبر ، واغتنى ، واصبح مدير شركة ، و « بك » .. وهو لا يزال يخاف البوليس ..

وقلت لضابط البوليس ، وانا احاول ان اسيطر على اعصابى ، وانفخ دخان السيجار الطويل فى الهواء ، كأنى اطرد آثار الهزة العنيفة التى اصابتنى :

ــ نعم ..

وقال الضابط :

— مسيو ايزاك معاه أمر من النيابة بضبط زوجته متلبسة بجريمة الزنا ..

قلت دون أن ارفع عينى الى ايزاك :

— وايه الاجراءات فى الحالة دى ؟

قال وقد بدأ يشعر بأنى .. باشا :

— سعادتك تتفضل معانا على القسم .

قلت مقاطعا :

— لأ .. اذا كنت حاتكتب محضر اكتبه هنا !

قال :

— ده لازم النيابة تحقق ..

قلت فى حزم :

— برضه النيابة تيجى هنا !

وسكت الضابط قليلا ، وتردد ، ثم قال :

— تسمح أستعمل التليفون ؟ .

قلت وانا لا انظر اليه :

— اتفضل ..

وكنت أعرف أن الضابط سيتصل بالمأمور ، والمأمور سيتصل برئيس النيابة ، ورئيس النيابة سيتصل بالنائب العام ، والنائب العام سيتصل برئيس الوزراء .. ويأتى الأمر من هناك !

ولأول مرة تمنيت أن يرحمنى رئيس الوزراء من الذهاب الى القسم ..

انا الجبار .. صديق الانجليز .. انا الذى يشترى الوزراء ، ويسقط الحكومات .. كنت ساعتها لا اتمنى شيئا الا ان يعفينى رئيس الوزراء من الذهاب الى قسم البوليس ، ولو اضطررت ان استجديه واطلب رحمته ..

لم اكن اخاف التحقيق .. تحقيق النيابة .. او تحقيق البوليس بل ان التحقيق لم يكن مشكلة بالنسبة الى .. انما كان

كل ما أخافه هو الذهاب الى القسم .. كان يخيل الى انى سأفقد كل شيء اذا خطوت بقدمى الى داخل قسم البوليس .. سأعود متشردا تافها كملايين التافهين الذين يملأون شوارع مصر .. وما قيمة ثرائى ونفوذى اذا كنت سأدخل قسم البوليس كأى واحد من الباعة المتجولين !!

وبينما كان الضابط يتحدث فى التليفون ، قام عبد العظيم من جانبى وقد أفاق من ذهوله ، واتجه الى ايزاك ، وحاول أن يجذبه من ذراعه ، ليحادثه على حدة .. فاذا بالفأر يصرخ فيه ، قائلا :

— ابعد عنى .. انت موش يكلمنى .. موش ممكن يكلمنى !!

وازداد التصاقا برجال البوليس ..

ونظرت الى عبد العظيم نظرة صارمة ، آمره بأن يعود الى مكانه ..

لقد أخطأ عبد العظيم فى تقدير الموقف ..

ان ايزاك آخر من يسأل عن هذا الحادث .. انه لم يقدم على فعلته ، الا تحت اغراء شديد .. والاغراء وحده لا يكفى ، بل يجب أيضا أن يستند على نفوذ كبير يحميه من انتقامى ..

وصاحب النفوذ الكبير هو رئيس الوزراء ..

وقد كان بينى وبين رئيس الوزراء معركة مستمرة .. انه رجل أعمال .. صاحب شركة تنافسنى وصاحب مصانع تتعارض مع مصالحى .. وأنا احتمل كل شيء فى رؤساء الوزارات الا أن يكونوا رجال أعمال .. الا أن يكونوا منافسين لى فى الميدان الذى أعمل فيه .. لقد تركت لهم دنيا السياسة ، ولم أحاول يوما أن أنافسهم فى وزارة .. وكل ما أطلبه منهم الا ينافسونى فى تجارة .. انى اقبل أن اتنازل لهم عن نصف أرباحى أدفعها رشوة لهم ولرجالهم ، ولكنى لا اقبل أن ادخل فى منافسة مع واحد منهم ..

ولكن مصطفى باشا سامى ، كان يريد كل شيء .. كان

يريد السياسة والتجـــارة .. بل انه لم يشتغل فى السياســـة الا ليربح فى التجارة .. وهو رجل ناعم أملس .. كل شىء فيه أملس .. صـــلعته .. وبشرته التى لا ينبت فيها شـــعر .. وابتسامته .. ونظرات عينيه .. وذكاؤه .. كان كالثعبان يتسلل من حيث لا تدرى ضحيته .. وكنت كلما ضيقت عليه الخناق ، وجد منفذا يتسلل منه الى رئاسة الوزارة .. اذا أقفلت فى وجهه باب الانجليز ، دخل من باب السراى .. واذا أقفلت فى وجهه باب السراى ، دخل من باب الأحزاب الوطنية .. ثعبان يتسلل من تحت قدمى .. وقادر دائما على أن يغير جلده .. انه يوما رجل الملك .. ويوما رجل الانجليز .. ويوما زعيم شعبى يحمله الطلبة على الأعناق !!

هذا هو رئيس الوزراء .. وكان يعلم انى اعمل على اسقاطه من رئاسة الحكومة .. كان يعلم أنى أسد فى وجهه الأبواب ، بابا بعد باب .. فدبر لى هذه المصيبة ، ليقضى على قبل أن أقضى عليه ..

المسألة اذن ليست مسألة غيرة على الأخلاق .. والزوج لم يتحرك غيرة على شرفه ، والبوليس لم يتحمس حماية للدين أو التقاليد ..

انها مجرد منافسة بين اثنين من رجال الأعمال ، تستعمل فيها كل الأسلحة القذرة .. ولو لم أكن منافسا لرئيس الوزراء .. ولو كنت شريكا له .. لسعى حتى يتشرف بمعرفة عشيقتى ، بل ربما تنازل لى عن عشيقته ، وعين جندى بوليس على بابى يرفع لى يده بالتحية والتعظيم ..

وكانت كل هذه الخواطر تمر بخاطرى ، وأنا فى انتظار ضابط البوليس حتى ينتهى من تلقى أوامر رؤسائه .. وكنت أحترق من الغيظ .. كانت أعصابى تتلوى ، وعروقى تكاد تنبثق من

تحت لجدى .. وكنت اكرر من تحت اسنانى : « عملها ابن الكلب .. عملها ابن الكلب » !

ورغم ذلك حاولت ان ابدو هادئا حتى لا اضعف امام رجال البوليس ، وسيجارى بين شفتى ، اطرد منه الدخان بعنف ، كأن بين رئتى قطارا يجرى بأقصى سرعة .

ووضع ضابط البوليس سماعة التليفون ، والتفت الى قائلا :

ــ وكيل النيابة ، جاى دلوقت !

ورفعت اليه عينى ثم خفضتهما ، دون ان اتكلم .. ان رئيس الوزارة اعفانى من الذهاب الى قسم البوليس .. لم يعفنى رحمة بى ، بل رحمة بسمعة الطبقة التى ينتمى اليها .. طبقة رجال الأعمال !!

وعاد الضابط يقول :

ــ انا آسف يا افندم .. بس انا مضطر اعمل معاينة !

قلت فى برود :

ــ اتفضل !

واخرج الضابط ورقة وقلما ، وبدا يكتب .. ثم ارسل احد جنوده ليأتى له بورق مما يستعمل فى كتابة المحاضر .. وقمت انا لأطمئن على كوليت .. وفتحت باب غرفة النوم .. انها لا تزال فوق الفراش .. عارية .. مغمى عليها !

واسرعت افيقها .. قربت من انفها محلول النوشادر .. ودلكت قفاها بقطعة من الثلج .. ومسحت على اطرافها بماء الكولونيا ..

وافاقت ، وهى تنتفض كأنها عصفورة سـقطت مكسـورة الجناح ، وقالت وهى تشهق :

ــ ماذا حدث .. ماذا سيفعلون بنا !

ــ لا شىء .. مجرد اجراءات .. لا تخافى شيئا !

وبدات اساعدها على ارتداء ثيابهـــا ، وانا اختـــلس اليها النظرات .. نوع جديد من النظرات ..

احسست ساعتها انى اكرهها .

نعم ، اكرهها ..

تبخرت متعة الشهور الطويلة التى قضيتها معها ، ولم يبق لها منى الا الكراهية ..

وبدات افكر كيف اتخلص منها .. وكنت احسب حساب التحقيق .. وما يعقب التحقيق .. اننا .. انا وهى .. قد نحال الى المحاكمة .. ثم قد يطلقها زوجها .. ثم قد يطالبنى بتعويض ، واكثر من ذلك .. قد تطالبنى بالزواج !!

يجب ان اتخلص منها .. ولكن ليس الآن .. انى محتاج اليها الآن لستر فضيحتنا !

وتركتها وعدت الى الصالة ، وهمست فى اذن عبد العظيم :

ـــ شوف الجرايد !!

وهم عبد العظيم بأن يخرج من البيت ، ولكن ضابط البوليس استوقفه ، قائلا :

ـــ لو سمحت تستنى لغاية النيابة ما تيجى !!

ولم يخرج عبد العظيم ، انما سحب آلة التليفون الى ركن بعيد وبدا يتصل باصدقائه الصحفيين واصحاب الصحف .. ان لكل منهم ثمنا محددا !

وبدا ضابط البوليس يستجوبنى :

ـــ سين .. ما هى العلاقة بين سعادتكم وبين زوجة مسيو ايزاك ؟

قلت فى برود واختصار :

ـــ صداقة !

قال :

ـــ سين .. كيف عرفتها ؟

قلت :
ــ تدمها الى زوجها ، وحضر معها الى هذا البيت مرارا ..
قال :
ــ سين .. ولماذا حضرت السيدة الى بيت سعادتكم اليوم ؟
قلت :
ــ كانت فى انتظار زوجها !
قال :
ــ سين .. لقد تم ضبطكما بمعرفتى فى غرفة النوم .. فما اقوالك ؟ ..
قلت دون أن اهتز :
ــ كنا نتحدث فى الأعمال !
ورفع الضابط عينيه الى دهشا ، ثم عاد وخفضهما وهو يكتم ابتسامة خبيثة ، عاد يسأل :
ــ ما هى الأعمال التى كنتم تتحدثون فيها ؟
قلت وانا لا ازال ضاغطا على اعصابى :
ــ انها تضارب معى فى البورصة بمعرفة زوجها !
وصاح ايزاك :
ــ موش مضبوط .. الباشا هو اللى ضحك على الست بتاعى .. و ..
ونظرت اليه نظرة صارمة اخرسته .. وتوالت الأسئلة ..
ثم جاء وكيل النيابة واعاد الأسئلة من جديد .. وكتب فى اوراقه اوصافا بذيئة مخجلة للحالة التى وجدنا عليها البوليس ..
وافرجت عنى النيابة ..
وعدت الى القاهرة فى اليوم التالى ..
وانتشرت الفضيحة بسرعة .. لم تكتب الصحف شيئا ، فقد تولى اسكاتها عبد العظيم .. ولكن الفضيحة انتشرت فى اوساط رجال الأعمال ، وفى المجتمعات ، وبين اصدقائى الانجليز ..

ولم يأخذها أحد على أنها فضيحة خلقية ، بل اعتبروها جولة خسرتها أمام رئيس الوزراء .. وهنأوا الرئيس على ذكائه .. ولم يلمنى أحد على اتخاذى عشيقة !

وبدأت اجراءات التحقيق تسير بسرعة .. بسرعة عجيبة .. ورئيس الوزراء يدفعها كلما تلكأت ..

وحدد موعد لنظر القضية أمام القضاء .

وفى خلال ذلك كانت أعمالى قد ارتبكت .. وأعصابى كانت أشد ارتباكا .. وتجمع كل رجال الأعمال المنافسين وانضموا الى رئيس الوزراء فى محاولة القضاء على .. لقد وقع العجل — أى أنا — فكثرت السكاكين فوق رقبته !

وكان يجب أن أعترف بالهزيمة ..

وقد اعترفت بها بينى وبين نفسى .. لقد كنت عجلا ، ولكنى لم أقع .. انى لا أزال واقفا على قدمى .. وسأبقى واقفا !

وكان رئيس الوزراء يريد بهذه الفضيحة أن يصمنى بجريمة مخلة بالشرف ، فيبعدنى بذلك عن السراى ..

فقررت أن أستغنى مؤقتا عن السراى ، وأصدقائى فيها ..

ثم كان يريد أن يبعدنى عن أصدقائى الانجليز .. وهذا لن يتحقق .. ان أحدا لا يستطيع أن يفقدنى صداقة الانجليز مهما حدث لى .. ان الانجليز لا يفرطون فى أصدقائهم بسهولة .. وهم ليسوا أصدقائى فحسب ، انهم شركائى .. ان رءوس أموالهم تحمل اسمى ، وكل ما يمس هذا الاسم ، يمس رءوس أموالهم ..

ولكنى أعرف أيضا أن دار المندوب السامى لا تحب أن تحرج .. لا تحب أن تقف مكشوفة الوجه فى قضية كهذه ، وتطالب باقالة الوزارة مثلا .. فقررت أن أتحمل الموقف وحدى ، والا أطلب من أصدقائى الانجليز — مؤقتا — الا استمرار علاقتهم بى ..

وجاءت زوجتى بعد أن سمعت بالقضية .. لقد تعودت منذ

زمن طويل أن تقضى أكثر من ستة شهور كل عام فى انجلترا .. وقد قطعت اقامتها هناك وجاءت .. لم تجىء غاضبة ولا ثائرة ، ولكنها جاءت ملهوفة يتقدمها الجزع .. ولم يكن الأمر بالنسبة لها أمر اتخاذى عشيقة ، فهى تعلم أن لى دائما عشيقة .. ولم يكن يهمها هذه الفضيحة التى ثارت حولى ، بل كان كل ما يهمها هو تأثير هذه الفضيحة على أموالى .. على شركاتى .. على عملى .. ان كل ما أصبح يربطنى بها هو نصيبها من التمتع بثرائى ..

وكانت أعمالى قد تأثرت فعلا .. كانت أسهم شركاتى قد بدأت فى الهبوط . وكنت أدخل البورصة مشتريا لأسهمى ، حتى أحول دون هبوط أسعارها .. وقد اشتريت كثيرا حتى كدت أخسر رأس مالى ..

ولكن زوجتى وقفت بجانبى .. وبعد عودتها بأيام ، دعينا نحن الاثنين الى حفلة خاصة فى دار المندوب السامى ..

كان مجرد وقوف زوجتى بجانبى ، ودعوتنا الى دار المندوب ، سببا كافيا لانقاذ أسهم شركاتى فى البورصة .. لقد شمت أنوف الثعالب رائحة الحياة تنبعث من أعطافى .. عرفوا أنى لم أمت بعد .. فارتفعت الأسعار !

والمجتمع .. المجتمع الراقى الذى أعيش فيه .. ماذا فعل بى ؟

هل احتقرنى ؟ هل أدار لى قفاه ؟ أبدا ..

انى لا زلت نجما لامعا .. بل ازددت لمعانا .. ولا زلت أدعى فى كل حفلة ، وكنت أتعمد أن ألبى كل دعوة .. وكنت أسمع من حولى الهمسات كدبيب الحشرات .. فأشق الصفوف منتفخ الصدر ، فتخرس الهمسات ، وأعين النساء تتطلع الى فى شبق وتمن .. تتطلع الى ليلة مثيرة عنيفة تنتهى بتدخل البوليس .. لقد أصبحت دون جوانا مثيرا :

الوحيد الذى احتقـــره المجتمع هو .. ايزاك .. ايزاك المسكين !!

لقد هنأ المجتمع رئيس الوزراء على ذكائه .. ولكنه احتقر ايزاك لأنه وضع شرفه فى خدمة ذكاء رئيس الوزراء .. لأنه خالف بذلك التقاليد المرعية بين الزوج وعشيق الزوجة .. خصوصا اذا كان زوجها من صنف ايزاك !

وقد اختفى ايزاك من المجتمع .. ولكنه لا يزال يعمل فى البورصة .. وقد ظهرت بين يديه ثروة هبطت عليه من رئيس الوزراء .. وتعمد بعض المنافسين ان يعهدوا اليه ببعض اعمالهم حتى يحموه من اغرائى اذا حاولت ان اعرض عليه ان يتنازل عن القضية .. عن حقه فى زوجته .. ثم بدأ بعـــد ذلك يكون شركة ، ومعتمدا دائما على نفوذ رئيس الوزراء ..

ولم احاول ان اتصل به .. كنت اعلم انى مهما عرضت عليه فسيطلب المزيد .. ومهما اعطيته فان رئيس الوزراء مع مجموعة المنافسين ، وعلى راسهم عبد العزيز باشا مبارك ، يستطيعون ان يعطوه اكثر ..

ورغم ذلك فعبد العظيم لم يؤمن بكلامى .. وذهب يعرض عليه ثمنا لتنازله .. فرفض ايزاك وصرخ .. وراح يقول للناس انى احاول ان اشترى شرفه !

اما كوليت .. فقد اصبحت تعيش وحيدة بعيدا عن زوجها .. واتفقت معها على الا نبدو سويا حتى تكف الضجة ، ولكنى كنت ادفع لها مرتبها الذى تعودت ان ادفعه لها .. حتى تسكت ، وحتى لا تصبح الضجة ، ضجتين !!

واخيرا نظرت القضية ..

وجلست فى قاعة المحكمة مستسلما .. ادير حولى عينين مشفقتين .. ولم اكن اشفق على نفسى .. انما كنت اشفق على القضاء .. وعلى وكلاء النيابة .. وعلى المحامين .. وعلى

الشهود .. وعلى الجمهـــور الذى تجمع متلهفـــا كأنه يرقب استعراضا للعرايا .. بل كنت أشفق على القانون نفسه .. كنت أشفق على مجتمع هزيل ضعيف ، لم يعد يملك من أسباب الحياة الا أن يخدع نفسه ، أن القاضى يخدع نفسه وهو يطبق القانون .. ووكيل النيابة يخدع نفسه وهو يدافع عن الأخلاق .. والمحامى يخدع نفسه وهو يدافع عنى .. والجمهور يخدع نفسه وهو يعتقد أن الفضيلة انتصرت على .. والقانون .. القانون ليس الا أداة خداع !

وفتحت الجلسة ..

واستطاع المحامون أن يقنعوا القضاء بأن يجعلوا الجلسة سرية ..

وبدأ وكيل النيابة يتكلم .. قال كلاما كثيرا لم أستمع اليه .. ان هذا الرجل الذى يحمل وشاحا فوق صدره ، أول من يعلم أنه كاذب فيما يقول ، انه يقول كلاما أملاه عليه رئيس الوزراء ..

وسقط رأسى فوق صدرى رغما عنى .. وربما ظن القضاة أنى خجل مما يقوله وكيل النيابة .. ولكنى لم أكن خجلا .. ولم أكن أسمع ما يقال .. انما كنت ساعتها أتذكر زميلى محمد افندى السيد .. الرجل الطيب الشريف .. وكانت ذكراه تؤلمنى .. تعذبنى .. تحرك الشىء الذى يسكن صدرى ويكاد يكتم أنفاسى كلما تحرك .. لعل محمد افندى السيد الآن يعتبر نفسه منتصرا على .. خيل الى انه ينظر الى فى شماتة كأنه يقول لى : « ألم أحذرك من الطريق الذى تسير فيه ؟ » .. ولكن .. ماذا كان يريدنى أن أكون .. موظفا صغيرا فقيرا مثله .. هل أترك كل هذا الثراء ، وكل هذا المجد ، لأنضم للشرفاء .. للفقراء .. خوفا من أن أقدم يوما للمحاكمة فى جريمة زنا ؟ !

وبدأ ذكائى يسخر من محمد افندى السيد ..

وانتهى وكيل النيابة من سرد الاتهام .

وبدأ المحامون يترافعون عنى .. ولم أحاول أن أستمع اليهم هم الآخرون .. انهم سيقولون كلاما فارغا .. ولو أرادوا أن يقولوا الحق لأطلعوا المحكمة على أسرار المعركة التى تدور بينى وبين رئيس الوزراء .. لقالوا للقضاة انى لم اقدم اليهم لأنى ارتكبت هذا الجرم بالذات ، بل لأنى ارتكبت جرائم أخرى نافست بهـا جرائم رئيس الوزراء .. ورئيس الوزراء يريد أن يكون المجرم الوحيد .. بلا منافس !

ورغم ذلك فانى بعد قليه انتبهت الى كلام يقوله المحامى ..

انتبهت الى أن المحامى لا يدافع عنى .. بل يدافع عن الجريمة ذاتها .. جريمة الزنا !

كان يقول كلاما غريبا أسمعه لأول مرة ..

كان يقول ان الأديان كلها لم تعتبر هذه الجريمة .. جريمة !

فالدين الاسلامى استثنى هذه الجريمة من بقية الجرائم ، واشترط لثبوتها أربعة شهود من الرجال .. اى لو انى ارتكبت جريمة قتل لكان يكفى أن يشهد ضدى رجلان .. أو رجل وامرأتان .. ثم يحكم على بالاعدام .. أما فى جريمة الزنا ، فيجب أن يشهد على أربعة رجال .. والا .. فلا جريمة !!

ما معنى هذا ؟

معناه أن الاسلام لا يعاقب على الزنا فى حد ذاته .. لا يعاقب الرجل والمرأة عندما يتبادلان جسـديهما ، لمجـرد انهما تبادلا جسديهما .. بل يعاقبهما اذا انقلبت جريمتهما الى « فعل فاضح » .. اذا تمت هذه الجريمة أمام جمهور لا يقل عدد أفراده عن أربعة أفراد .. رجال .

وأنا وكوليت لم نرتكب فعلا فاضحا .. كنا حريصين على أن نختبىء .. لم نجرح احساس أحد .. ولم نزعج أحدا .. لم يكن

معنا سوى عبد العظيم .. وعبد العظيم تنازل عن احساسه منذ زمان طويل ..

والمسيحية ..

ان المسيح له حكمة معروفة .. عندما لجأت اليه امـــرأة خاطئة ، والناس تجرى خلفها ليرجموها بالحجارة .. فحماها المسيح من الناس ، وقال : « من لم يكن منكم بلا خطيئة ، فليرمها بحجر » ..

وسقطت قطع الحجارة من ايدى الناس !

ما معنى الحكمة ؟

معناها أن المسيحية افترضت هذه الخطيئة فى كل الناس .. كل الناس يرتكبون نفس الجرم الذى ارتكبته انا .. فلا عقاب عليه .. الا اذا عوقب كل الناس !

ثم القانون ..

القانون الذى يحكم المجتمع الآن .. ماذا يقول ؟

انه يقول ان هذه الجريمة ليست جريمة فى حق المجتمع .. انما هى جريمة فى حق الزوج وحده . فاذا تنازل الزوج .. فلا جريمة .. ولا حكم .. ولا محكمة .. لو تفضل مسيو ايزاك وتنازل عن حقه فى كوليت .. فأنا برىء : فأنا رجل شريف .. وكوليت امرأة شريفة !!

ولو انى سرقت من مسيو ايزاك قرشا واحدا .. فان هذه جريمة فى حق المجتمع ، والقانون لا يعفينى من المحـــاكمة حتى لو تنازل مسيو ايزاك عن القرش الذى سرقته منه ، واعطانى فوقه قرشين .. اما لو سرقت من ايزاك شرفه .. فالمجتمع يغمض عينيه ، بشرط واحد .. هو أن يغمض مسيو ايزاك عينيه ايضا !!

هكذا يقول القانون ..

وضحكت بينى وبين نفسى ، وانا اسمع ما يقوله القانون .. ضحكت ساخرا .. ولو كنت اعرف هذا الكلام ، لكتبت عقدا

بينى وبين ايزاك .. عقد ايجار كوليت .. ولرحب يومها ايزاك بتوقيع العقد ..

ولكنى لم أكن أملك مثل هذا العقد ..

ومسيو ايزاك .. الفاضل .. لا يريد أن يتنازل عن حقه !

فحكمت المحكمة ..

حكمت على بأربعة شهور سجن .. مع وقف التنفيذ !!

وأسرع عبد العظيم يطوف على دور الصحف ، فلم تنشر احداها الحكم .. لم تنشره الا جريدة يومية تنتمى الى حزب كبير .. وقد نشرته لأن عبد العظيم وصل اليها متأخرا بعد موعد الطبع .. ثم امتنعت عن النشر فى اليوم التالى ، بعد أن تفاهم معها عبد العظيم !! ولم يبق الا مجلة صغيرة .. صممت على أن تنشر الحكم ، وعلى أن تستمر فى النشر رغم كل محاولات عبد العظيم .. ولم أهتم بهذه المجلة الصغيرة . لم أكن أعلم ان المجلات الصغيرة يمكن أن تشعل ثورة فى مصر كلها !

وقد أراحنى أيامها صدور الحكم .. كان هـــذا هو غاية ما يستطيع أن يصل اليه رئيس الوزراء .. لن يستطيع أن يفعل بى أكثر من ذلك !

وجاء دورى ..

دورى فى الانتقام .. انتقام بلا شفقة !

وكان أمامى ثلاثة أعداء :

رئيس الوزراء ..

وايزاك ..

وكوليت .. نعم .. وكوليت أيضا !

وبدأت بالأول .. وكان يجب أن يترك الوزارة حالا .. بأسرع ما يمكن .. وقد تركها .. أسقطته .. ضربته بالشلوت !

ان اسقاط الوزارات أيامها لم يكن أمرا صعبا بالنسبة لى .. فقد كان لى عميل من رجال السراى . ولنسمه « صديق » ..

وكنت متفقا معه على أن ينقل الى اخبار الملك أولا بأول ، لقاء أن أنقل اليه اخبار المندوب السامى أولا بأول .. وهو يأخذ الأخبار التى أزوده بها ويرفعها الى الملك .. وانا آخذ الأخبار التى يزودنى بها وارفعها الى المندوب السامى ..

ومن السهل دائما تحريف هذه الأخبار ..

فاذا حرفت الأخبار التى تصل الى الملك ، وحرفت الأخبار التى تصل الى الانجليز .. وقعت أزمة .. وتشتد الأزمة .. فتسقط الوزارة !!

وهكذا سقطت الوزارة .. سقطت بعد أن سممت جميع الآبار أمام رئيس الوزراء !

ولم يستطع مصطفى باشا سامى أن يعود الى الوزارة بعد ذلك .. الا بعد عشرين عاما !

ثم جاء دور ايزاك ..

انه رجل حريص .. انه يعرف أنى متربص له .. ولكن ذكائى لا يرحم .. وقد وجد ايزاك نفسه شريكا لممول سخى .. ممول لم يكن معروفا . ظهر فجأة فى السوق كأحد الوارثين .. واعتقد ايزاك انه وجد فى هذا الممول فريسة سهلة .. لم يكن يعرف انه أحد عملائى .. ودفع هذا الممول لايزاك ضعف رأس ماله .. وايزاك فرح بشركته .. ولكن يوما بعد يوم ، بدأ هذا الممول يسيطر على الشركة .. وبدأ يوجهها توجيها تبدو فيه السذاجة ، ولكن كان مصمما على هذه السذاجة .. عنيدا فى تصميمه .. وايزاك يكاد يجن .. ويوما بعد يوم ، بدأت الشركة تميل الى الافلاس ، افلست لحسابى ، واستردت الأموال التى كنت قد دفعتها لهذا الممول ليشارك بها ايزاك ، وأخذت معها أموال ايزاك أيضا ..

وخرج ايزاك مفلسا من مصر .. ذهب الى ايطاليا يبحث لنفسه عن زوجة جميلة أخرى ، يبدأ بها الطريق من أوله !

وكوليت .. لقد كانت عبئا ثقيلا يجب أن أتخلص منه ، كانت البقعة السوداء التى تلوث كل حلة أرتديها ..

لقد قطعت عنها مرتبها بمجرد صدور الحكم .. وغيرت نمرة تليفونى السرية التى كانت تتصل بى من خلالها .. وأقفلت فى وجهها جميع أبوابى ..

ولكنها كانت كريمة .. كانت لا تزال ملكة .. فأسرعت تتنازل عن عرشى قبل أن أطردها عنه .. وسافرت هى الأخرى الى الخارج .. ولم يكن فى وداعها سوى عبد العظيم .. انها المرة الوحيدة التى أراه فيها انسانا .. ولكنه لم يكن انسانا كاملا .. كل ما هنالك انه أراد أن يتخذها عشيقة لنفسه .. ولكنها رفضت .. انها لا تزال ملكة .. وهو لا يزال خادما .. والخدم أكثر اخلاصا للملكات من الأسياد .. ولكن الملكات لا يتخذن الخدم عشاقا لهن ..

وهكذا انتهيت من انتقامى .. تخلصت من ثلاثة أعداء .. ووقفت أواجه ملايين الأعداء الآخرين ، الذين تعودت أن أعيش بينهم !!

ولكن هل استرحت .. ؟

هل نسيت هذا الحكم الذى أصدره على القضاء ..

أبدا .. لقد ترك جرحا فى قلبى لا يندمل .. جرحا ينزف ألما كلما خلوت لنفسى .. كان هذا الحكم يمثل زلة ذكائى ، كان السبة الوحيدة التى يمكن أن تلاحقنى طول حياتى ، وبعد مماتى . زلة لن ينساها التاريخ أبدا .. سيقول التاريخ عنى انى كنت رجل أعمال ناجح ، محكوما على فى جريمة خلقية .. وبعد أعوام .. بعد عشرة أعوام أو عشرين عاما سيظهر كاتب لن أستطيع أن أشترى قلمه .. فيكتب قصة هذا الحكم الذى صدر على .. وتمر عشرون عاما أخرى ، ويظهر كاتب آخر ، يكتب

القصة مرة اخرى .. ومرة ثالثة .. انها قصة سيحكيها التاريخ ، كلما حكى قصة مصر ..

هل يهمنى التاريخ ..

نعم ..

هل هذا يثير الدهشة .. ان يهتم رجل مثلى بالتاريخ .. ولكن ، ان كل رجل مغرور يصل بغروره دائما الى حد التفكير فى التاريخ .. وانا رجل مغرور .. مغرور بذكائى ، ومغرور بنجاحى ، ومغرور بالملايين التى جمعتها ، ومغرور بآلاف العمال والموظفين الذين اتحكم فى ارزاقهم ، ومغرور بنفوذى الذى اسيطر به على مستقبل بلدى .. مغرور .. لا يحد من غرورى الا موظف صغير فقير .. فقير .. اسمه محمد افندى السيد .. واحد من ملايين الناس الفقراء .. كان زميلا لى فى المدرسة .. ولم استطع يوما ان اسيطر عليه ، او احظى برضائه واعجابه ..

— ٥ —

حبيبتى هدى ..

هل عرفتنى الآن ؟

هل عرفتنى بعد أن وصفت لك طريق الوحل الذى سرت فيـــه ؟

انى غارق فى الوحل .. والوحل يطمس عينى ، ويملأ اذنى .. وفوق رأسى تاج من الوحل .. ورغم ذلك فالناس لا ترى هذا الوحل . ان بريق الذهب الذى املكه يعمى عيونهم ، ويكفى أن أنثر حفنة منه على الأرض حتى ينحنوا كلهم أمامى .. تحت اقدامى ..

لم يكن يرى هذا الوحل الا أنا .. ولم اكن أراه الا فى فترات متباعدة ، عندما يجف جشعى ، ويتكاسل ذكائى ، وتمر بى لحظة عاطفية أتذكر خلالها والدك .. أتذكر زميل الدراسة الذى أحاول أن أحترم نفسى أمامه ، وأنال رضاءه واعجابه .. أتذكره فيتحرك شىء فى صدرى يكاد يكتم أنفاسى ويمزق رئتى .. وأرى الوحل !

هذا هو أنا ..

وكان يجب أن تعرفينى ، وأن تعرفى زوجتى ، وعشيقاتى ، قبل أن أستطرد فى قصتى معك .. قصة حبى .. قبل أن اقول لك ماذا حدث بعد أن زرتكم فى بيتكم لأول مرة .. بعد أن رأيتك ، ورأيت فيك صورة والدك .. وبعد أن قررت أن أحاول معك

ـ ٥ ـ

حبيبتى هدى ..

هل عرفتنى الآن ؟

هل عرفتنى بعد أن وصفت لك طريق الوحل الذى سرت فيـــه ؟

انى غارق فى الوحل .. والوحل يطمس عينى ، ويملأ اذنى .. وفوق رأسى تاج من الوحل .. ورغم ذلك فالناس لا ترى هذا الوحل . ان بريق الذهب الذى أملكه يعمى عيونهم ، ويكفى أن أنثر حفنة منه على الأرض حتى ينحنوا كلهم أمامى .. تحت اقدامى ..

لم يكن يرى هذا الوحل الا أنا .. ولم اكن أراه الا فى فترات متباعدة ، عندما يجف جشعى ، ويتكاسل ذكائى ، وتمر بى لحظة عاطفية أتذكر خلالها والدك .. أتذكر زميل الدراسة الذى أحاول أن أحترم نفسى أمامه ، وأنال رضاءه واعجابه .. أتذكره فيتحرك شىء فى صدرى يكاد يكتم أنفاسى ويمزق رئتى .. وأرى الوحل !

هذا هو أنا ..

وكان يجب أن تعرفينى ، وأن تعرفى زوجتى ، وعشيقاتى ، قبل أن أستطرد فى قصتى معك .. قصة حبى .. قبل أن أقول لك ماذا حدث بعد أن زرتكم فى بيتكم لأول مرة .. بعد أن رأيتك ، ورأيت فيك صورة والدك .. وبعد أن قررت أن أحاول معك

ما فشلت فيه مع والدك .. أن اكسب رضاءك واعجابك .. ان اقنعك بأنى رجل شريف ، حتى لا أتعذب بك كما تعذبت بوالدك ، وحتى لا يعود « الشىء » يتحرك فى صدرى ويكتم انفاسى .. وكنت أعتمد فى محاولتى على صغر سنك ، وجهلك بى ، وبالحياة .. ولم أكن أدرى انك نفسى ، وانى ان لم أستطع أن أقنع نفسى ، فلن أقنعك ، لقد بت ليلتها ــ بعد أن زرتكم لأول مرة ــ وأنا أفكر فى الغد ..

هل سيجىء خالك الى مكتبى ، كما اتفقت مع والدتك ؟

هل ستتركون لى الفرصة لأستولى عليكم .. عليك ، وعلى أمك ؟

وأدرت صورة زوجتى الانجليزية الموضوعة بجانب فراشى .. انها المرة الأولى التى أديرها .. بل انها المرة الأولى التى أحس أن لزوجتى صورة بجانب فراشى .. صورة تذكرنى بطــريق الجريمة الذى سرت فيه ؟

وقمت الى الحمام ، وما كدت أعود منه حتى وجدت ياسين خادمى الخاص قد أعاد صورة زوجتى الى وضعها .. ورأيتها تواجهنى بوجهها المكتنز .. كتلة اللحم التى غاصت فيها ملامح الوجه .. رأيتها تواجهنى كأنى لن افر منها أبدا .. ولا من جرائمى !

وارتديت ثيابى فى عصبية أزعجت ياسين .. ولعله ظن أنى مقبل على صفقة جديدة ضخمة .. ولم يكن يدرى أنى مقبل على شراء أضخم صفقة فى حياتى .. صفقة لشراء الشرف .. صفقة محاولة اقناع نفسى ــ أو اقناعك ــ بأنى رجل شريف !

ونزلت الى الحديقة .. ولم أقطف وردة كما تعــودت كل صباح .. وقرأت أخبار الوفيات بلا اهتمام كأنى صفحت عن عدائى الذين يموتون كل صباح ، ولم أعد أريد لهم الموت ..

وتناولت افطارا لم أذق له طعما .. ثم ذهبت الى مكتبى ، وأنا أفكر فيك ..

فيك أنت ..

كنت أحاول أن أرسم طريقى اليك .. وكنت أحاول أن أرسمه بحذر شديد ، فانى أعلم أن الطريق الى الناس البسطاء ، أصعب بكثير من الطريق الى الناس الكبراء !

فكرت أن أرسل لكم هدية فخمة عربونا لصداقتى .. ولكنى عدلت .. ان الهدايا الفخمة لا تدفع الا عربونا لصداقة زملائى من رجال الأعمال ورجال السياسة .. وقد تثير هديتى الشكوك فى نفوسكم .. الى حد أن تخافونى !

وفكرت أن أرسل لكم مندوبا عنى ليطمئن عليكم .. ولكن ، لا أيضا .. يجب أن أضبط أعصابى ، يجب الا أبدى من الاهتمام بكم الا بقدر ما أشعركم بحاجتكم الى .. يجب أن انتظر حتى تأتى الخطوة التالية منكم ..

هل تخطون الى ؟ !

ودخلت الى مكتبى وأنا لا زلت وراء أفكارى ، وجاء عبد العظيم ليعرض على أعماله .. الأعمال القذرة .. وفى عينيه المنتفختين نظرات متسائلة تحاول أن تقف أمام عينى ، فتضعف وترتد ويخفيها تحت جفونه .. وعرض على موضوعا .. ثم موضوعا آخر .. وأنا أناقشه بلا حماس .. وبلا قسوة .. وبلا جشع .. كأنى أصبحت انسانا آخر .. انسانا فاترا ، حائرا ، هائما .. كأنى لم أعد أنا !

وطوى عبد العظيم أوراقه .. وسكت وقلت له فى فتور :

— ما عندكش حاجة تانيه ؟

قال وهو يخفى عنى عينيه حتى لا اقرأ فيهما سخطه :

— لأ .. خلاص .. ده اللى عندى النهارده !

وكان كاذبا .. انى أعلم أن لديه أمورا أخرى للعرض على ..

ولكنى استرحت لكذبه .. ثم ضمتنا فترة سكوت ، لا يبددها الا الضجيج الذى يدور فى رأس كل منا ..

ولم يهم عبد العظيم بالانصراف .. انه يعلم أنى فى حاجة اليه .. يعلم أن هناك موضوعا سأتولى أنا عرضه عليه .. ولكنه لم يحاول أن يساعدنى فى طرق باب هذا الموضـــوع .. وهو يعلم أنه موضوع حساس بالنسبة الى .. يعلم — بعد أن عاش معى كل هذه السنين — أن نقطة ضعفى الوحيدة تكمن فى هذا الموضوع .. ورغم ذلك فلم يحاول أن يساعدنى .. لم يحاول أن يقول كلمة يفتح بها باب الحديث .. انما ظل صامتا ، وقد اشعل سيجارة وأخذ ينفخ دخانها الملوث بأنفاسه فى هدوء ، وراحة .. كأنه يتلذذ بشعور خبيث .. شعوره بأنى فى حاجة اليه .. وشعوره بأنى حائر ..

وقلت وأنا أحاول أن أكسو صوتى برنة الجد كأننا لا زلنا نتحدث فى الأعمال القذرة :

— امبارح رحت زرت عيلة المرحوم محمد افندى السيد ..

قال ، وهو يضم شفتيه ليخفى ابتسامة ساخرة :

— ازيهم .. على الله يكون سابهم مستريحين ..

قلت وأنا لا زلت احتفظ برنة الجد :

— لا والله .. باين عليهم تعبانين ..

وسكت برهة ثم قال كأنه لم يعد يطيق أن يكتم سخريته :

— ما هو الله يرحمه ، كان غاوى فقر !

ونظرت اليه نظرة غاضبة ، وقلت فى حدة :

— ما تنساش انه كان أعز صديق لى فى المدرسة .. والفقر مش عيب !

ورفع عبد العظيم عينيه كأنه لا يصدق أنى أنا الذى اقول أن الفقر ليس عيبا ، ثم تنهد كأنه يسلم أمره لله وقال :

ــ انا باشوف اننا لازم نساعدهم .. والبركة فى سعادتك .. عمرك ما بتنسى اصدقاءك !

واسترحت .. لقد قرر عبد العظيم ان يكف عن تعذيبى ، ودخل فى الموضوع .. وقلت :

ــ بس حا نساعدهم ازاى ؟ !

قال فى بساطة :

ــ نديهم قرشين .. ولا نعمل لهم معاش !

قلت وانا اتهمه فى ذكائه :

ــ المسألة مش بالبساطة دى .. دول باين عليهم ناس شرفا ومحافظين .. يمكن يرفضوا ياخدوا فلوس ..

قال وهو ينظر الى كأنه لم يعد يستطيع ان يفهمنى :

ــ امال تفتكر سعادتك تعمل لهم ايه ؟

قلت وانا اتنهد :

ــ والله مش عارف يا عبد العظيم !

وبانت على وجهه آثار التفكير العميق كأنه احس بمسئوليته عن حيرتى وتنهدى .. ثم قال :

ــ نقول لهم ان المرحوم كان له اسهم فى الشركة .. وكان مخبيها عنهم .. ونبتدى نديهم أرباح الأسهم دى .. وثوابنا عند الله !

قلت بسرعة :

ــ انا قلت لهم انى مدين للمرحوم بعشرة جنيهات استلفتهم منه بعد ما اتخرجت من المدرسة .. وان العشرة جنيه دول هم اللى عملت بيهم ثروتى .. اعمل ايه يا عبد العظيم .. كانت حالتهم محزنة .. واضطريت انى اكدب الكدبة دى :

قال وهو يبتسم كأنه يهنئنى على ذكائى :

ــ والست صدقت ؟

قلت :

— ايوه ..
قال كأنه ينهى الموضوع :
— خلاص .. نقول لهم ان العشرة بقت الف !
قلت متجاهلا كلامه :
— أنا اتفقت مع الست ، انها تبعتلى اخوها ، علشان نتفق معاه على اللى ممكن يتعمل .. ابقى قابله انت ، واتفق معاه .. المهم اننا ما نسيبهمش لوحدهم .. انا مهتم بيهم جدا ..
وفهم عبد العظيم ما اعنيه .. ففهم أنى أريد الاستيلاء عليكم .. ولكنه لم يفهم لماذا أريد الاستيلاء عليكم .. انه لم يستطع أبدا أن يفهم سر اهتمامى بوالدك وهو الآن لا يستطيع أن يفهم سر اهتمامى بك .. وقال على قدر فهمه :
— هيه حرم المرحوم ، أد ايه .. قصدى ، يطلع عندها كام سنة ؟
ونظرت اليه كأنى غاضب .. ولم أكن فى الحقيقة غاضبا ، فقد كنت انتظر منه هذا السؤال .. ان عقله يضيق عن أن يفهم سببا لاهتمامى بامرأة ، الا اذا كنت أريد اتخاذها عشيقة ..
وقلت كأنى ألومه :
— دى ست طيبة .. مش من النوع اللى بالك فيه !
قال وهو يبتسم ابتسامة تسيل فوق شفتيه الغليظتين :
— مش قصدى .. بس كنت باسأل ؟
وقام عبد العظيم من على مقعده مستأذنا فى الانصراف ، وقبل أن يصل الى الباب استوقفته قائلا :
— يا ترى ما فيش شقة فاضية فى العمارة اللى فى شارع النيل ؟
ورفع عبد العظيم حاجبيه دهشة .. وبدا غبيا كما لم يبد أبدا .. ثم قال :
— ما أظنش ..

قلت وأنا اضغط على كلماتى لتبدو كأنها أمرا لا يناقش :

ــ يمكن تفضى شقة فيها قريب !!

قال وهو لا يزال فى حالة الغباء :

ــ يمكن !!

وظل ينظر الى بعينيه المندهشتين برهة .. ثم تحركت شفتاه كأنه يهم بأن يقول كلاما .. ثم خرج وقد انقلبت دهشته الى سخط .. كان ساخطا على لأنى أبدو أمامه لغزا .. وساخطا على نفسه ، لأنه لا يستطيع أن يفهمنى .. وساخطا عليكم لأنكم دائما تقفون بينى وبينه .. كان يكره والدك لأنه لا يرى له جدوى فى حياتى ، ثم لما مات والدك وظن انه تخلص منه .. ظهرت انت فى مكان والدك .. وبدأ يكرهك قبل أن يراك ..

كان عبد العظيم ساعتها يبدو كأنه شيطان يحارب جيشا من الملائكة يريدون الاستيلاء على .. وكان ساخطا على هذه الحرب .. كأنه ساخط على الله .. لماذا خلق الله الملائكة ، ما دام قد خلق الشيطان .. وما هى حكمته سبحانه وتعالى فى أن يخلق فرقا تتحارب .. لماذا يترك الدنيا للشيطان أو يتركها للملائكة ، حتى يسودها السلام .. سلام تحت سيطرة الشيطان ، أو تحت سيطرة الملائكة .

كان هذا هو حال عبد العظيم ..

وكان هذا هو حالى أيضا ..

كنت أنا أيضا أتساءل : لماذا اريد ان اكون شريفا ، ما دمت قد نجحت فى أن أكون غير شريف .. وماذا أريد منك .. من فتاة بسيطة فى السابعة عشرة من عمرها .. نحيلة الوجه . وعيناها هادئتان عميقتان .. وشعرها ناعم فى لون البندق .. ماذا أريد منك ، وأنا أستطيع أن أشترى كل نساء الأرض .. ما حاجتى اليك ، والدنيا كلها ملك يدى ..

ولم يكن هناك جواب ، الا فى هذا الشىء الغامض الذى

يتحرك فى صدرى ، ويقلقنى ، ويكاد يكتم انفاسى .. ويدفعنى — فى لحظات ضعفى — الى ان احاول أن أكون انسانا شريفا ..

ورغم ذلك ، فقد كنت واثقا من انى سأحقق ما أريد .. كنت واثقا من انى سأستولى عليكم .. وأن عبد العظيم سيصل بكم الى .. انى مؤمن بقوتى .. قوة الذهب وقوة الذكاء .. انى استطيع أن اشترى بهما كل شىء ، حتى الشرف .

ولم يعد امامنا الا أن ننتظر وصول خالك الى مكتبى ..

متى يصل ؟

ومضت الساعات ، وانا جالس فى مقعدى لا اتحرك .. كأنى اخشى ان تحركت أن أؤخر وصول خالك .. كنت أراه فى خيالى ينزل من القطار قادما من دمنهور .. ثم يصل الى بيتكم فى شبرا .. ثم ارى والدتك تستقبله فى لهفة ، وتشده من يده الى حجـــرة خالية ، وتهمس فى اذنه بالخبر المثير .. خبر زيارتى لكم .. وعرضى مساعدتكم وفاء للدين الموهوم .. وكنت أرى فرحتها تطغى على حزنها لوفاة المرحوم .. وأرى خالك وقد بهت للخبر المثير .. وفغر فاه ورفع حاجبيه .. وكنت اتصوره فى خيالى سمينا كتجار الأرياف ، واحيانا أتصوره رفيعا معروقا .. وكنت اراك فى الصورة التى ارسمها فى خيالى .. اراك حزينة ، صامتة .. ثم ارى خالك يهرول خارجا فى طريقه الى مكتبى ، واراه واقفا على محطة الترام .. و .. و .. و ..

ويدق جرس التليفون بجانبى ، فأرفع السماعة وانهى المكالمة بسرعة .. انى لا اريد أن يقطع احد خيالى .. اريد أن ارى خالك وهو فى طريقه الى ..

ويدخل احد الموظفين حاملا أوراقا لأوقعها .. فأؤجل توقيعها .. ان امضائى هى اعز ما املك ، ولا أستطيع ان اضعه على ورقة ، وأنا فى مثل هذه الحالة العصبية ..

تمر الساعات ..

ولا يحضر خالك ..

انى واثق أن عبد العظيم سينبئنى بوصوله ..

ولكن عبد العظيم لم ينبئنى بشىء .

وأرفع سماعة التليفون ، وأتصل بعبد العظيم لاقول له أى شىء .. كلاما لست فى حاجة الى قوله .. ولكنى أقوله لمجرد أن أتصل بعبد العظيم ، لعله نسى أن ينبئنى عن وصول خالك ..

ولا ينبئنى عبد العظيم بشىء .. وأكاد أرى من خلال سلك التليفون ابتسامته .. ابتسامة الشماتة فى ، والسخرية منى ..

وأؤجل موعد مغادرتى للمكتب ..

لقد تعودت أن أغادره فى الساعة الواحدة والنصف تماما . ولكنى بقيت فيه حتى الساعة الثانية والنصف .. والموظفون فى دهشة .. ولو علموا أنى جالس فى انتظار تاجر تروى لسخروا منى .. لفقدت احترامى بينهم .. انى لم أتعود أن أنتظر أحدا .. كل الناس ينتظروننى ، بما فيهم الوزراء والكبراء .. ولكنى لا أنتظر أحدا ..

ولم يحضر خالك ..

وقضيت يوما شـــقيا .. أحسست بنفس العــذاب الذى أحسست به عندما رفض والدك أن يشترك فى حفلة تكريمى .

خيل الى أن خالك لن يحضر أبدا .

خيل الى أنكم قررتم أنى لست شريفا ، وابتعدتم عنى حتى لا تتلوثوا بى ..

خيل الى أنكم احتقرتمونى .. احتقرتم ثروتى ونفوذى ..

وبدأت أبحث عن خطة أخرى للاستيلاء عليكم .. خطة أكثر خبثا وعنفا .. ولكنى جمعت أعصابى ، ووطدت نفسى على الانتظار ..

سأنتظر يوما آخر .. يومين ..

ولكنى لم أنتظر طويلا ..

لقد حضر خالك فى اليوم التالى ..

نعم .. حضر !!

وعلمت بوصوله بمجرد ان دخل من الباب .. ولكنى لم أستقبله .. كان عليه أن يمر فى طريق طويل قبل أن يتشرف بمقابلتى .. ان لنا اسلوبا خاصا فى معاملة ضحايانا .. اسلوبا أشبه بحرب الأعصاب .. وكان يجب أن تلين أعصابه ، ويمتلىء بالرهبة قبل أن يقف أمامى .. فتركوه ينتظر فى حجرة الاستقبال ساعة ، ثم نقلوه الى غرفة السكرتير لينتظر نصف ساعة اخرى .. ثم نقلوه الى غرفة مدير مكتب عبد العظيم بك ، وانتظر فيها ساعة ايضا .. كل ذلك وهو يعيش فى جو هادىء مثير .. اشبه بجو وزارة الخارجية الانجليزية .. ويرى رجالا يتكلمون همسا ، ويسيرون على أطراف أصابعهم ، ويرددون اسماء كبيرة .. والتليفونات ترن من حوله .. تليفونات كثيرة تخيفه وتزعجه .. وهو يتضاءل .. ويتضاءل .. حتى يصبح صفرا ..

وعندما تقرر ان خالك أصبح صفرا ، سمح له بمقابلة عبد العظيم .. بك !

وفى خلال ذلك كنت انا قد استعدت هدوئى .. ان الصفقة بدأت تسير سيرها الطبيعى .. ولم اعد أحمل لها هما .. واقبلت على عملى كعادتى ، دون ان أتعجل مقابلة خالك ، أو تزعجنى أنباؤه ..

وقد عرف عبد العظيم بخبرته اى نوع من الرجال ينتمى اليه خالك .. فخاطبه باهمال وترفع ، وقال له ان « الباشا » — أى أنا — تعطف وشمل عائلة المرحوم محمد افندى السيد برعايته ، وأنى قررت أن أتولى أمر كريمة المرحوم وارملته ، ذكرى للصداقة التى كانت تربطنى به ..

وتلقى خالك هذا الكلام وهو يدعو لى بطول العمر ، ويشيد بكرمى واريحيتى !

وأخرج عبد العظيم خمسين جنيها أعطاها لخالك ، وهو يقول له : انى أمرت بصرف هذا المبلغ لعائلة المرحوم ، حتى تسد به احتياجاتها العاجلة ، الى أن ننظم لها حياتها الجديدة ..

وأخذ خالك المبلغ بلا تردد .. تردد قليلا .. أقل من اللازم .. ثم أخذه بيدين مفتوحتين كأنه يتلقى هبة السماء ..

المغفل .. لو انه طلب منى يومها خمسمائة ، لأعطيته !

وبعد ذلك طلب منه عبد العظيم أن ينتظر ليقابلنى ، حتى يتلقى تعزيتى فى وفاة المرحوم .. ورجاه أن ينتظر قليلا فى غرفة السكرتير .. ثم تركوه ينتظر نصف ساعة !!

وأخيرا صحبه عبد العظيم الى مكتبى .

ورأيته لأول مرة .. واستقبلته واقفا .. وبقيت واقفا حتى لا أدعوه للجلوس .. ومددت له يدى ، فانحنى يقبلها .. وتركته يقبلها ، وأنا أنظر اليه من عل !!

لقد دخل الى مرتعدا .. تهزه الهيبة التى تحيط بى ، فترتعش ركبتاه ، وترتعش عيناه ، وترتعش شفتاه .. ورأيته كما كنت أتخيله .. رفيعا معروقا .. يرتدى حلة من قماش لا يصلح الا ليكون جلبابا .. أو قفطانا .. وفوق رأسه طربوش مائل الى الوراء ، اكلحت حافته كأنها امتصت كل ما فى دمنهور من غبار .. وبرزت من تحتها جبهة عريضة تشقها خطوط عميقة من الشقاء .. ووجه فيه ذكاء ، ولكنه ذكاء لم يستطع أن ينقذ صاحبه ، ولا أن يرتفع به .. ذكاء تاجر صغير .. قد يخدع زبائنه وقد يغشهم ، ولكنه لا يستطيع أن يكون أكثر من تاجر صغير ..

انى أعرف هذا النوع من الناس .. انه نوع يكل أغلب أمره الى الحظ .. اذا خسر قال انه الحظ ، واذا ربح قال انها الشطارة

.. ويسمى الحظ « الله » .. ويؤمن بالناس على قدر ما يعطونه لا على قدر ما يريده منهم .. وايمانه ضعيف ، ولذلك فهو يبيعه رخيصا ..

ولم اتهم خالك فى شرفه ..

لم اعتقد انه يقبل ان يبيعنى شرفه .

ولم يخطر على باله انى احاول شراء شرفه ، لم يكن يتصور ان باشا مبجلا مثلى يطمع فى شرف رجل بسيط مثله .. انما أخذ النقود من يد عبد العظيم مقتنعا تماما أنها مجرد كرم منى ، وردا لجميل الصديق الذى مات .. وربما ظن ان هذا الكرم احدى خصال كل الباشوات امثالى !

وقال عبد العظيم ، وهو يقف فى احترام كبير ، ويضم اطراف سترته ، حتى يزيد الموقف هيبة ووقارا :

ــ اسماعيل افندى عبد الجواد نسيب المرحوم محمد افندى السيد ، جاى يشكر لسعادتك !

وقبل أن اتكلم انطلق اسماعيل افندى يقول فى صوت متهدج :

ــ اتشكر .. اتشكر ازاى .. هوه فيه كلام يساع شكر سعادة الباشا .. ربنا يديك طولة العمر يا سعادة الباشا .. ربنا يزيدك من نعايمه .. ربنا يديمك للكرم ، والشهامة .. و .. و ..

وقاطعته وانا ابدو حزينا :

ــ البقية فى حياتك يا اسماعيل افندى .

قال فى صوته المتهدج :

ــ يديم حياتك يا سعادة الباشا .. البركة فى سعادتك .. الدنيا بخير طول ما سعادتك عايش فيها .. و ..

وعدت اقاطعه فى لهجة متعالية :

ــ انا باعتبر عيلة صديقى المرحوم محمد افندى ، زى عيلتى تمام .. بنته بنتى .. وانا مسئول عنها .. وولى امرها .. وأى

حاجة ممكن اعملها أرجوك يا اسماعيل افندى تقول لى عليها ..
وهدا تهدجه ، وقال :
ــ احنا مش عايزين الا رضا سعادتك !
قلت :
ــ انا سمعت انك تاجر فى دمنهور ..
قال :
ــ أيوه يا سعادة الباشا .. تاجر صغير على أد الحال !
قلت وانا ابتسم له ابتسامة صغيرة كأنها تفضل منى :
ــ عال .. تبقى تقدر تخدمنا فى اسكندرية ..
وفغر اسماعيل افندى فاه كأنه لا يصدق اذنيه .. هل يستطيع أن يخدمنى .. وكيف ؟
والتفت الى عبد العظيم قائلا :
ــ ابقى شوف يا عبد العظيم بك شغلة لاسماعيل افندى فى شركة اسكندرية .. انا احب اتعاون مع الناس الطيبين دول .
ثم أدرت عينى اليه ، وهو لا يزال فاغرا فاه ، وقلت :
ــ احنا بقينا عيلة واحدة يا اسماعيل افندى ..
ومددت له يدى ، فانحنى يقبلها مرة ثانية ، وهو يدعو لى ، وقد عاد صوته اكثر تهدجا .. ثم انسحب وهو يخطو الى الخلف محنى القامة ، كأنهينسحب من حضرة الملك ..
وما كاد يخرج ، حتى ناديت عبد العظيم وهمست فى اذنه :
ــ ما تنساش تشوف شقة فاضية فى عمارة شارع النيل !!
وفهم عبد العظيم ما اقصده ..

- ٦ -

دعينى أحدثك عن عمارة شارع النيل .. عن المسرح الذى ارتكبت فوقه جريمتى ..

لقد كنت أيامها أملك خمس عمارات كبيرة .. ثلاث فى الاسكندرية والرابعة فى وسط القاهرة .. فى شارع سليمان باشا .. والخامسة هى عمارة شارع النيل .. فى الجيزة .. ولم أكن أملك هذه العمارات باسمى .. لم أكن أضع اسمى ابدا على أملاكى .. ان الرجل الغنى الذى يضع اسمه على أملاكه هو غنى ساذج ، ضيق الأفق ، لا يستطيع أن يساير التطور ، ولا الأساليب الجديدة فى الامتلاك .. وأنا لم أكن ساذجا ولا ضيق الأفق .. ولذلك لم أدع الناس يرون اسمى على شىء أمتلكه .. كان كل شىء يحمل أسماء شركات .. كانت احدى العمارات ملكا لشركة التأمين العالمية .. والثانية لشركة المقاولات العمومية .. والثالثة ملك لشركة التجارة والصناعة .. وأنا الذى أملك كل هذه الشركات .. أنا وحدى .. وأملك كل شىء فيها ، حتى أموال المساهمين !!

ولم يكلفنى بناء هذه العمارات شيئا .. لم أدفع مليما واحدا فيها .. بل امتلكتها مجانا ، وربحت من وراء امتلاكها آلاف الجنيهات ..

كيف ؟

انها عملية بسيطة لا تحتاج الا الى قليل من الذكاء ..

كانت شركة التأمين التى املكها تقــرر بناء عمــارة فى الاسكندرية ، بأموال المؤمنين .. وهو قرار قانونى لا شائبة فيه :

ثم تتقدم شركة المقاولات التى املكها ايضا ، وتأخذ اموال المؤمنين ، لتقوم بعملية البناء .. وتكسب شركة المقاولات من هذه العملية عدة آلاف !!

ثم تتقدم شركة التجارة والصناعة ، التى املكها هى الأخرى ، وتتفق مع شركة المقاولات ، على ان تورد لها ما تحتاج اليه من حديد واخشاب وباقى مواد البناء .. وتكسب من وراء هذا الاتفاق عدة آلاف اخرى !

ثم تتقدم باقى الشركات التى املكها ، وتطلب فى الحاح ان تستأجر كل منها طابقا او طابقين فى العمارة الجديدة ، وبالشروط والايجارات التى افرضها .. وهى دائما ايجارات تزيد عن ضعف ايجارات العمارات الأخرى .. وتعود حصيلة هذه الايجارات الى شركة التأمين التى املكها !

هل فهمت هذه العملية البسيطة ؟ !

هل عرفت كيف كان يمكن ان تكونى صاحبة عمارة ، دون أن تدفعى مليما واحدا ؟ !

قد تقولين ان العمارة لا تزال ملكا للمؤمنين .. اى لأصحاب بوالص التأمين .. لا يا احب ساذجة .. ان الرجل الذى يدفع قسط تأمين قد لا يتجاوز عشرين جنيها فى العام ، لا يستطيع ان يقف امام عمارة من عشرة ادوار ويقــول : هذه عمــارتى .. ولا يستطيع ان يدعى حقا له على هذه العمارة .. لا يستطيع حتى ان يطالب بمراجعة حساباتها .. ولكن انا .. انا الذى يجمع هذه العشرين جنيها من مئات الرجال .. كل منهم يدفع لى عشرين جنيها فى العام .. انا وحدى الذى استطيع ان اقول ان هذه العمارة عمارتى .. وانا وحدى الذى اتصرف فيها ،

واصنع بها ما أريد .. وليس لأحد حق مراجعتى الا « جمعية عمومية » صورية تجتمع كل عام ، وتهز رأسها بالموافقة على ما أعرضه عليها ثم ينفض اجتماعها .. والا ادارة حكومية هزيلة تسمى « ادارة الشركات » لا يجرؤ أكبر موظف فيها على الوقوف امامى الا وركبتاه ترتعشان من فرط الخوف ، فهو يعلم أن مصيره فى يدى ، ومصير وزيره فى يدى أيضا .. وكل حقوق المؤمنين امامى هى ان يستردوا قيمة التأمين بعد ان تنتهى مدته .. اى بعد عشرة أعوام أو بعد عشرين عاما حسب عقد التأمين .. وكأنهم بذلك قد أعطونى أموالهم لأبنى بها عمارة لنفسى .. أعطونى قطرات عرقهم بلا ربح ، ولا فائدة .. وهم لا يدرون أن العشرين جنيها التى يدفعها كل منهم فى العام ، تصبح مائة فى يدى بعد ان استغلها فى شركاتى ومشاريعى .. لا يدرون انهم هم الذين صنعوا ملايينى ومجدى .. هم ، هؤلاء البسطاء الطيبون .. وقد يموت أحدهم قبل انتهاء مدة التأمين ، فأضطر أن ادفع لورثته قيمة التأمين كاملة .. حتى لو كان المتوفى لم يدفع لى سوى قسط واحد من أقساط التأمين .. لم يدفع لى سوى عشرين جنيها .. واضطر أن أردها للورثة مائتى جنيه .. ولكن لا تنزعجى .. ان نسبة الوفيات والحرائق بين أصحاب بوالص التأمين نسبة تافهة لا يعتد بها .. ولا تحسب الشركات حسابها .. وحتى فى هذه الحالة .. حالة الوفاة أو حالة حريق العقار أو البضاعة المؤمن عليها .. أستطيع أن اتخلص من الدفع .. ان القانون له أسرار تفتح لى أبوابا كثيرة أستطيع أن أهرب منها .. واكثر من القانون ، هناك نفوذى !!

هل اقتنعت الآن بأنى المالك الوحيد لكل هذه العمارات ؟!

انها ليست عملية نصب .. ولكنه نظام لاستغلال الأموال يبدو كأنه نصب .. ومن خلال هذا النظام استطعت ان اكون مليونيرا .. واستطعت أن أؤسس عشرات من الشركات لم أدفع

فى تأسيسها مليما واحدا من جيبى او من راس مالى .. انما كنت أؤسس كل شركة من ارباح الشركة الأخرى ، وأملك من أسهم التأسيس اكثر من النصف . حتى يكون لى — قانونا — حق السيطرة عليها ، ثم ادعو الناس ليشتروا بقية الأسهم .. ثم اعطيهم ارباحا صورية ، وآخذ باقى اموالهم لأؤسس شركة جديدة أمتلك ايضا اكثر من نصف اسهمها .. وهكذا !

ولم تكن شركاتى تستأجر كل عماراتى .. كان بعضها يستأجره الأهالى القادرون على دفع ايجاره .. خصوصا عمارة شارع النيل .. فلم تكن تصلح لتكون مقرا لمكاتب شركة .. كانت عمارة سكنية .. هادئة .. انيقة .. تطل على النيل .. ولم يكن كل سكانها يدفعون ايجارا .. كنت امنح بعض شققها كرشوة لكبار الموظفين .. لوكيل وزارة .. او لمدير مكتب وزير .. او .. او ..

ولم اكن اعرض هذه الرشوة عرضا رخيصا .. انما كنت اضن بها ، حتى يلجأ الموظف الكبير الى .. اقصد الى مدير الشركة التى تملك العمارة .. ويلح فى طلب الشقة .. ويصل فى الحاحه الى حد الاستجداء .. ثم بعد ذلك أصدر امرا الى المدير بأن يعطيه الشقة .. ويكتب معه عقدا مستوفيا لكل الشروط القانونية .. وبعد أن ينتقل الموظف الكبير الى الشقة الجديدة ، لا يطالبه احد بالايجار .. وتمر الشهور ، والموظف الكبير مطمئن الى انه لن يدفع ايجارا ، أو هو مطمئن الى انه يدفع الايجار فى صورة خدمات معينة يؤديها لشركاتى .. حتى يعزل الموظف من منصبه .. او يحال الى المعاش .. او يفقد نفوذه .. اى الى أن يصبح عديم الفائدة بالنسبة لى ولشركاتى .. وبكل بساطة ، يبدأ مدير الشركة التى تملك العمارة فى مطالبته بالايجار .. الايجار المتأخر كله .. ويلوح أمامه بالعقد المكتوب المستوفى لجميع الشروط القانونية .. وعندما ينهار المسكين امام المفاجأة ، يعرض عليه

المدير ان يتنازل له عن المتاخر وعن العقد ، على شرط ان يخلى الشقة .. فيخليها !!

وكان يجب ان تخلى شقة فى هذه العمارة لتكون مسرحا لجريمتى .. فكل ادوات الجريمة معدة فيها .. وآخر طابق فيها اعد ليكون عشا خاصا لى .. اقضى فيه الليالى مع عشيقاتى ، واقيم فيه الحفلات الخاصة التى ادعو اليها الوزراء والكبراء لاشترى نفوذهم .. ولهذا الطابق مصعد خاص بى ، لا يستعمله بقية السكان ، ولا يقف عند بقية الطوابق .. بل يحملنى توا — دون ان يرانى احد — الى عشى .. الذى كنت اسميه عش النسر ، تشبها بهتلر الذى كان يتخذ لنفسه عشا فوق اعلى قمة من الجبل ..

ولم يكن اخلاء شقة فى هذه العمارة مشكلة بالنسبة لى او لعبد العظيم .. بل كانت المشكلة كيف ننقلكما الى هذه الشقة .. انت وامك !

كنت اريد ان انقلكما الى عمارتى ، لتكونا بين يدى ..

ولم تكن الجريمة حتى هذا اليوم قد خطرت ببالى .. بل لم اكن اعتقد انى سأكون مجرما بشعا الى هذا الحد .. كنت حتى هذا اليوم احاول ان اقنع نفسى بانى رجل خير ، استطيع ان اتصدق عليكما بسخاء ، وان انقلكما الى حياة مترفة فخمة .. دون ان انتظر منكما ردا للجميل .. وانا لا اتبرع للجمعيات الخيرية لانى رجل خير ، بل اتبرع لها لانها جمعيات لها نفوذ وتضم شخصيات احتاج اليها .. اما لو تبرعت لكما — انت وامك — فليس لكما نفوذ تخدمانى به ، ولن آخذ منكما عوضا سوى رضائى عن نفسى ، وسوى اقتناعى بانى رجل شريف .. نعم .. كنت حتى هذا اليوم انسانا

يحاول أن يكون شريفا ، وأن يقنع نفسه بأنه شريف .. وكان تفكيرى فيك وفى أمك لا يتعدى محاولتى ان ابدو امامكما رجلا شريفا ، وأن انال رضاءكما واعجابكما ، حتى أسكت الشىء الذى يتحرك فى صدرى ويقلقنى ويكاد يكتم أنفاسى ..

ولم أكن أستطيع أن أستمر فى هذه المحاولة ، وانتما تقيمان بعيدا عنى فى حى شبرا .. لم أكن أستطيع أن أزوركما فى بيتكما .. ان هناك — فى حى شبرا — مجتمعا يستطيع أن يحميكما منى ، ومن زياراتى .. سيتحدث عنكما وعنى الجيران ، وجيران الجيران ، ويشهرون بكما وبى ، وقد يحذرونكما منى ، فكان يجب أن أبعدكما عن هذا المجتمع .. وأن أضعكما فى عالم ليس فيه مجتمع .. وليس فيه جيران .. عالم لا يحس فيه الانسان بمشاكل أخيه الانسان .. ولا يحمل لأخيه هما .. ولا يخاف عليه ، ولا يتطوع لمساعدته .. وكان هذا العالم هو عالم عمارة شارع النيل .. ان الجيران فى هذه العمارة لا يتزاورون .. ولا يحس أحدهم بالآخر .. انه عالم تسوده الفردية .. وفلسفة الفرد .. ولن يزعجهم أن تشاركوهم هذا العالم ، ولن يسألكم أحد لماذا جئتم ، ولن يتدخلوا بينى وبينكم اذا لاحظو ترددى عليكم ..

كيف انقلكم الى هذا العالم ؟ ..

يجب أن أتصرف بحرص ..

وكان خالك قد بدأ يتردد على مكتبى كثيرا ، لم يعد يفكر فى العودة الى دمنهور .. لقد وجد فى مكتبى ربحا يوازى اضعاف أرباحه من تجارته الصغيرة .. وكان مجرد تردده على مكتبى يفتح أمامه أبوابا واسعة من الأمل ، ويقف أمامها مذهولا لا يدرى اى باب يطرقه .. وعبد العظيم يجسم له هذه الآمال .. ويفتح له كل يوم بابا جديدا .. ولكنه ظل يعامله بترفع حتى لا يبدد من نفسه الرهبة والخوف ، وحتى يجعله دائما ذليلا مطيعا ..

ولم يستطع خالك ان يقابلنى مرة ثانية .. كان يجب أن احتفظ بحجاب كثيف بينى وبينه حتى لا يطمع فى .. حتى لا يرفع رأسه امامى .. حتى تظل الرعدة تملأ صدره كلما تصورنى ، أو استعاد اسمى ..

وكنت أريد أن اراك ..

ولم اكن ادرى كيف اراك ، واى حجة اتحجج بها لأذهب الى بيتكم مرة ثانية ، دون أن افقد احترامى أمامكم ، ودون ان اثير الريبة فى راس أمك ..

وجاء يوم لم اعد احتمل فيه مزيدا من الانتظار .. لا لأنى أحببتك .. لا .. لم اكن احببتك حتى ذلك الحين .. ولكن كان هناك دافع فى صدرى يدفعنى لأطمئن على صورتى فى عينيك .. خيل الى انى لو ابتعدت عنك اكثر من ذلك فسأفقدك .. سيتدخل بيننا عدو من اعدائى ، ويسرد عليك قصة آثامى ويحذرك منى .. كنت اريد ان ازداد اطمئنانا الى انى قادر على الاستيلاء عليك ، واقناعك بنفسى ، قبل أن تفلتى منى كما افلت أبوك ..

وركبت احدى سيارات الشركة ، وأمرت السائق ان يتوجه الى حى شبرا .. وكان قلبى يخفق طول الطريق .. كأنى عدت شابا يواجه حبه الأول .. وخيل الى أن الناس فى الطريق يشيرون الى .. ويخرجون السنتهم ، ويحكون بأصابعهم فوق انوفهم اغاظة فى .. وكأنهم جميعا يعلمون انى ذاهب اليك .. كأنهم يعلمون ان حسين باشا شاكر الرجل القوى .. الجبار .. المهاب .. يضعف الى حد أن يرتجف وهو ذاهب لزيارة عائلة موظف صغير توفاه الله ..

ودخلت السيارة الى شارعكم .. واشتدت رجفة قلبى .. انا .. انا أرتجف ! .. واحسست أن فى عقلى طاحونة تدور بسرعة دون أن تطحن شيئا .. عشرات الأسئلة تقفز أمام عينى كأنها شرارة النار ، دون ان اجد لها جوابا .. بماذا سأبرر زيارتى

لكم ؟ وماذا أقول لأمك ؟ وماذا اقول لك ؟ وماذا تظنان بى ؟ وماذا يظن الجيران ؟ .. اسئلة .. عشرات الأسئلة .. وبدأت أقتنع أن زيارتى لكما ستفسد كل خططى .. ستفقدنى احترامكما لى .. ستثير الريبة فى نفسيكما .. كنت فى هذه اللحظة اعانى معركة نفسية هائلة .. معركة بين محاولتى أن ابدو امامكما انسانا محترما ، كريما ، أمينا .. وبين حقيقتى .. حقيقة نفسى .. نفس المجرم الذى يسعى اليكم وفى رأسه خطة مرسومة للاستيلاء عليكم حتى أغطى نقصا شعرت به فى حياة والدك .. كانت معركة بين مظهرى وجوهرى .. بين الفخامة والأبهة التى أبدو بهما أمام الناس ، والطين العفن يملأ صدرى ..

والسيارة تقترب من البيت .. وأنا لا زلت حائرا ، اخوض معركتى النفسية .. وعندما وصلت أمام باب البيت ، ملت على السائق وأنا مبهور الأنفاس ، وبدل ان اقول له : « قف هنا » همست فى صوت محشرج : « عد بنا » ..

وعدت .. عدت لاهثا ، كأنى كنت أجرى . كأنى عدت من مغامرة عنيفة لم أقدم على مثلها من قبل ..

وانت لم تدرى شيئا .. لم تدرى أن باشا عظيما مثلى .. أن أغنى رجل فى مصر .. قد طاف بسيارته أمام بيتك .. ثم لم يجرؤ على الدخول .. وعاد لاهثا !

وقلت لعبد العظيم فى اليوم التالى ، وأنا احاول ان اقرأ فى عينيه أكثر مما ينطق به لسانه :

— يا ترى عيلة محمد افندى السيد عامله ايه ؟

قال دون أن ينظر الى كأنه ينتظر السؤال ، وأعد الجواب :

— كويسين الحمد لله .. اسماعيل افندى خال البنت خد الخمسين جنيه ، واداهم للست الكبيرة تلاتين بس !

قلت كأنى فرحت :

— والست اخدتهم ؟ !

قال :

ــ أيوه .. وما عملتش بيهم حاجة .. لسه شايلاهم !

قلت :

ــ المهم انها أخدتهم .. انما عرفت ازاى التفاصيل دى !

قال كأنه يتباهى بذكائه :

ــ مجرد استنتاج .. اسماعيل افندى جه الشركة أول امبارح لابس بدله جديده .. حايجيبها منين الا اذا كان لطش قرشين من الفلوس اللى خادهم .. والصنف ده يحب دايما يكون عادل فى اللطش .. مش ممكن يلطش الفلوس كلها .. انما يلطش أقل من نصفها علشان يقنع نفسه ان قلبه على أخته .. واخته مش ممكن تكون صرفت الفلوس لأنها ما خرجتش من البيت .. وعرفت انها ما خرجتش من اسماعيل افندى نفسه ..

قلت متلهفا :

ــ والبنت .. هدى .. عملت ايه ؟ !

قال كأنه يتلو تقريرا من تقارير البوليس السياسى :

ــ ما تعرفش حاجه .. ولما سألت خالها قال لى انهم مش متعودين يقولوا لها .. حاجه ..

وابتأست .. كنت أفضل أن تعرفى أن خالك قد قبل أن يأخذ منى نقودا ، حتى أعرف على الأقل موقفك منى .. حتى أعرف انك لست كوالدك ترفضين كل شىء أمد به يدى اليك ..

وعدت أقول لعبد العظيم فى صوت حزين ، وأنا أضغط على كلماتى حتى يفهم ما أعنيه :

ــ والله أنا حقى أطمن عليهم بنفسى !

ورفع الى عينيه المنتفختين ، ونظر الى نظرة ملوثة بأفكاره ، وقال وأنا أحس فى كلماته رنين سخرية خبيث :

ــ الواقع انهم كانوا لازم ييجوا يتشكروا لسعادتك .. ده اللى عملته لهم ما حدش عمله ..

قلت وبين شفتى ابتسامة متواضعة اشكره بها على ذكائه :
ــ ما هو مش ممكن ييجوا هنا المكتب يا عبد العظيم .. دول ناس محافظين مش متعودين يدخلوا مكاتب شركات !
قال بسرعة كأنه يطمئننى :
ــ مش ضرورى ييجوا هنا .. كانوا يقدروا يطلبوا زيارة سعادتك فى البيت !
وابتسمت ابتسامة لم استطع اخفاءها .. وقلت كأنى اوجه الحديث ناحية اخرى :
ــ واسماعيل افندى .. يا ترى شفت له وظيفة فى شركة اسكندرية ؟
قال وهو يقلب شفتيه احتقارا لشأن اسماعيل افندى :
ــ الوظيفة موجودة !
قلت كأنى اساعده فى ذكائه :
ــ على كل حال ما تخلهش يسافر الا بعد ما يطمئن على مستقبل العيلة !
وقال عبد العظيم :
ــ فاهم .. فاهم كويس !
هل فهمت انت أيضا يا هدى ؟
انى لم اكن اعنى ان يطمئن خالك على مستقبلك .. بل كنت اعنى أن نمنعه من السفر حتى يبقى اداة فى يدى .. حتى يكون الشبكة التى اصطادك بها .. وبعد أن يقع الصيد ، نستغنى عن الشبكة ونرسلها الى الاسكندرية !
وقام عبد العظيم ..
وبدأت انتظر زيارتك لى .. كأن ما اقرره واعهــد به الى عبد العظيم ، هو قرار القدر ينفذه الشيطان .. انا القدر ، وهو الشيطان !
واتصل عبد العظيم بخالك اسماعيل افندى ، واتفق معه على

أن يصحبكَ ، ويصحب والدتك ، لزيارتى فى بيتى .. لتقدموا لى شكركم على عطفى الذى شملتكم به ..

وتحدد موعد الزيارة ..

وبدأت احس بالارتبــاك .. وكلما اقترب المــوعد ازددت ارتباكا .. هل تذكرين الحادثة التى رويتها لكِ ، والتى وقعت عندما كنت زميلا لوالدك فى مدرسة الفنون والصنايع ، وحاولت أيامها أن أغش فى الامتحان وخفت أن يرانى والدك وأنا أغش ، فارتبكت الى حد أنى كدت أضبط ..

لقد كنت أعانى نفس الارتباك وأنا فى انتظار زيارتك .. كنت أخافك .. كنت أخاف أن أغشك كما أغش بقية الناس .. انى اقابل الناس بمظهر الرجل المحترم المهاب ، وهو مظهر كله خداع .. مظهر لا يدل على حقيقة نفسى .. وكنت لا أريد أن أخدعك ، ولا أريد أيضا أن أطلعك على حقيقة نفسى .. فكانت المحاولة الوحيدة أمامى هى أن أغير ما بنفسى .. أن أكون انسانا آخر غير الانسان الذى أعرفه فى نفسى .. أن أكون رجلا شريفا فعلا ..

ترى ، كيفَ يكون الناس الشرفاء ؟

ان عقلى لم يستطع أبدا أن يقتنع بأن الرجل الشريفَ هو الرجل الفقير .. ولم أستطع أن أقتنع بأن الرجل الشريف هو الرجل القنوع ، الذى يتنازل عن طموحه ويقبل وظيفة صغيرة فى وزارة الأشغال ، كما فعل والدك .

الرجل الشريف لا يمكن أن يكون الرجل السلبى .. الجبان .. الذى ينأى بنفسه عن المعركة خوفا من أن يصيبه رذاذ الطين !

من هو الرجل الشريفَ ؟

لا أدرى ..

وأنا .. هل أستطيع أن أكون مليونيرا ، وشريفا أيضا !

لا أدرى ..

وكيف يبتسم الشرفاء ، وكيف يتكلمون ، وكيف ينظرون ، وكيف يتلفتون ؟

لا أدرى .. لا أدرى .. وقلبى ينكمش على نفسه كأنه يختنق .. وشىء فى صدرى يتحرك ويكاد يكتم أنفاسى .. واكاد اجن .. أريد أن أكون شريفا .. أريد .. انى حصلت فى حياتى على كل ما أردت .. والآن لا أريد الا أن أكون شريفا .. من اجلك انت .. انت وحدك !

وبلغ من جنونى أن وقفت أمام المرآة بعد أن اغلقت على نفسى الباب بالمفتاح ، وأخذت أحاول أن أقلد الناس الشرفاء كما اتصورهم .. انهم يبتسمون هكذا .. ثم أبتسم فى المرآة ابتسامة خجول متواضعة .. وهم يتكلمون هكذا .. ثم اتكلم أمام المرآة فى صوت خفيض ضعيف ، واكرر فى حديثى ذكر الله « وصلى على النبى » .. وهم ينظرون هكذا عندما يكونون فى حضرة النساء .. ثم أخفض راسى أمام المرآة ، وارخى جفونى فوق عينى .. و .. و .. وانتبه الى نفسى .. فأثور .. اثور على هذا الشىء الخفى الذى يدفعنى الى هذه المهازل .. اثور على هذا الضعف !

أتصدقين أنى أصل الى هذا الحد من الضعف .. اتصدقين أن حسين باشا شاكر بهيبته ووقاره يقف أمام المرآة بكل ابهته وجلاله ، ليمثل مهزلة .. لو رآنى الوزراء والكبراء والسادة الانجليز وانا فى هذا الموقف امام المرآة ، لضجوا بالضحك ، ثم حملونى بالقوة الى مستشفى المجاذيب .. وقالوا : الله يرحمه .. ولو رآنى عبد العظيم لاعتقد أن فرصته قد سنحت للانقضاض على والاستيلاء على كل اموالى !!

ولكن ، هذا ما كان يحدث لى ..

ان أحدا لا يصدق .. ولكنها الحقيقة .. وقد حاولت أن أهرب من الحقيقة ، ففتحت باب الغرفة وناديت خادمى ياسين

وانا اصرخ كأننى استنجد به .. وفعلا كنت أستنجد به .. أستنجد به حتى لا يتركنى وحيدا مع ضعفى ..

والموعد يقترب ..

لم يبق سوى ساعة .. وأراك !

هل استقبلكم فى الحديقة ، كما تعودت أن أستقبل أصدقائى رجال دار المندوب السامى ..

لا .. سأستقبلكم فى داخل الدار ، فهذا أكثر احتشاما !

هل اتركم فى انتظارى ساعة .. أو نصف ساعة ..

لا .. سأترككم تنتظرون ربع ساعة فقط .. حتى اوفق بين لهفتى الى لقياك ، وبين اذلالكم...

وكنت افكر هذا التفكير وانا اضغط على أعصابى حتى لا يغلبنى ضعفى .. كنت احاول أن أنقذ ذهنى من أن يخضع لهذا الجنون الذى يملأ صدرى ..

وأخيرا وصلتم ..

وقادكم الخادم الى الصالون الفخم .. وبقيت فى حجرتى — بالدور العلوى — كالأسد المحبوس فى انتظار أن تمضى الربع ساعة المقررة .. وأنا أحاول أن أسلى نفسى بتصوركم وأنتم فى انتظارى .. لابد انكم بهرتم بفخامة القصر .. ولابد أن خالك قد دخل وهو يسير على أطراف اصابعه كأنه يخاف أن يدنس أرضى بأقدامه .. ولابد أن أمك كانت تدير عينيها حولها كأنها دخلت قصرا مسحورا .. لا تحتمل ما تراه عيناها من جمال .. ولابد أنها مسحت على قماش المقاعد بيديها لتتحسس فخامته ، ثم تخاف أن يلمحها أحد من الخدم ، فتخفى يديها بين طيات ثوبها .. وانت .. لقد حاولت أن أتصورك أنت أيضا مبهورة بفخامة القصر .. ولكنى لم استطع .. كنت تقفين فى خيالى بعينيك الهادئتين العميقتين .. وشخصيتك القوية .. شخصية

اكبر من سنك .. ولم استطع أن اتصور هذه الشخصية تضعف امام فخامة قصرى ..

ومضت الربع ساعة ..

ونزلت اليكم وانا احاول أن اخطو فى بطء ورزانة .. وتعمدت الا التفت اليك عند دخولى ، ولكنى شعرت بمجرد أن دخلت ، بعينيك مثبتتين على .. تثقبان صدرى ، وتحاولان أن تصلا الى أعماقى .. شعرت بهاتين العينين دون أن اراهما ..

وهب خالك واقفا ، وهو يصلح من وضع طربوشه فوق رأسه ، ويضم أطراف سترته .. وقامت أمك واقفة بجانبه ، وهى تبتسم ، وتحاول أن تخفى ابتسامتها فلا تستطيع ، وقمت انت عن مقعدك فى بطء .. كأنك تؤدين واجبا ثقيلا ..

وقال خالك وهو ينحنى ليقبل يدى :

ـ يا سعادة الباشا .. احنا مش عارفين نودى جمايلك فين .. ده والله ان ..

وقاطعته وانا اسحب يدى من تحت شفتيه .. وقلت فى تواضع اقلد به الناس الشرفاء :

ـ العفو .. العفو يا اسماعيل افندى .. ما تقولش الكلام ده !

وقالت والدتك وهى تصافحنى :

ـ احنا متشكرين اوى يا سعادة الباشا ..

وسمعت فى صوتها هذه الرنة التى سمعتها لأول مرة .. الرنة التى أعرفها جيدا .. رنة التزلف الى سعادة الباشا .. وقلت :

ـ ازيك يا هانم ..

قالت والرنة فى صوتها ترتفع :

ـ الله يسلمك يا سعادة الباشا ..

ثم واجهتك .. واجهت فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ..

العينين الهادئتين .. والشفتين الرقيقتين .. والوجه النحيل الحزين .. وانف يبدو كبيرا بعض الشيء بالنسبة لمساحة الوجه .. وشعر ناعم فى لون البندق ..

ولم تتكلمى ..

لم تقولى اى كلمة .. فقطة نظرات عينيك تثقبان صدرى ..

وسحبت يدى من يدك سريعا قبل أن تلمسى الرعشة فيها .. وتكلمت انا .. تكلمت كأنى أحاول ان اغطى ربكتى بكلامى .. قلت :

ــ ازيك يا هدى ..

واجبت فى اختصار دون أن تبتسمى :

ــ الله يسلمك !

لم تقولى حتى « يا سعادة الباشا » كما تعودت أن أسمع من بقية الناس . ورغم ذلك لم اغضب .. بل شعرت فى هذه اللحظة برغبة جامحة فى أن ارفع ذراعى ، وأربت على كتفك ، كأنك فعلا ابنتى .. ولكنى قاومت ذراعى .. وابتعدت .. وجلست .. وجلستم ..

ونظرت الى خالك كأنى آمره بالحديث .. ورأيت فى نظرتى ، حلته الجديدة .. وطربوشه الجديد ايضا .. ان الخمسين جنيها التى اخذها منى لم تضع هباء .. وقال بعد أن تنحنح كأنه يهم بالقاء خطاب طويل :

ــ يا سعادة الباشا .. الست أختى وبنت أختى جايين يشكروا لسعادتك على نعمتك عليهم .. دى نعمة نزلت من السما .. ربنا ما بينساش حد .. و ..

قلت اقاطعه ، وكأنى أحرمه من لذة القاء الخطاب الطويل الذى أعده :

ــ لا شكر على واجب يا اسماعيل افندى .. جميل المرحوم

على مش ممكن يتعوض .. والمهم انى أعرف ازاى أقدر أعوضه ..

ثم نظرت الى أمك قائلا كأنى أستجديها :

ـ انا عايز أعرف يا هانم انتم ناقصكم ايه ، وأنا أعمله حالا ..

ونظرت الى والدتك وذكاؤها الساذج يطل من عينيها ، وقالت :

ـ كلك خير يا سعادة الباشا .. والله المرحوم سابنا لايصين ..

قلت وانا أحاول الا تكون فى لهجتى رنة التفضل .. وأنا أحاول لأن أكون متواضعا :

ـ اذا كان على المعاش ، ما تحمليش هم .. المعاش حا يجيلك لغاية عندك كل شهر .. وحداشر جنيه مش كفاية .. نخليهم خمسين ..

وقفز خالك صائحا :

ـ الله يخليك يا سعادة الباشا .. الله يعمر بيتك .. ده كتير قوى يا سعادة الباشا ..

واشتعل الذكاء الذى يطل من عينى أمك .. وقالت وعلى وجنتيها رعشة تفضح فرحتها :

ـ وهيه الحكومة حاتدفع خمسين جنيه .. دى ماهيته كانها الله يرحمه ، كانت تلاته وتلاتين جنيه ..

قلت وأنا أدارى ابتسامتى حتى لا تعرف أنى أفضح ذكاءها :

ـ الحكومة ما لهاش دعوة .. ده دين على للمرحوم وبارده ..

قالت وقد أتعبها ذكاؤها :

ـ والنبى ده كتير يا سعادة الباشا .. أقول لسعادتك الحق .. أنا مش مصدقة !!

قلت فى صوت خفيض كأنى متأثر :
ــ دى خدمة بتأديها لى يا هانم .. اذا كنت غلطت وماردتش دين المرحوم فى حياته ، فأرجوكى تسمحى لى أرده لعيلته بعد وفاته .. ضميرى مش ممكن يستريح الا اذا رديت الدين كله ..
قالت وهى تخفض رأسها كأنها تقنع نفسها بأن تصدق :
ــ أنا والنبى مش عارفه أقول ايه .. دى حاجة ما كنتش أحلم بيها ..
وصاح خالك كأنه يخاطب والدتك :
ــ سعادة الباشا راجل الخير والبر .. ده خيره على البلد كلها .. والبلد بخير طول ما سعادة الباشا فيها .. ربنا يخليك للبلد .. يارب !
ونظرت اليك ، بينما كان الخدم قد أقبلوا ليقدموا لنا أقداح الشاى ..
انك صامتة ، جامدة ، وقد التمعت نظرات عينيك كأنك غاضبة .. وقلت لك كأنى أتزلف اليك :
ــ ويا ترى هدى ناوية تعمل ايه ؟
قلت فى حزم :
ــ ناوية أشتغل !
والتفتت اليك والدتك كأنها فوجئت .
واهتز قدح الشاى فى يدى حتى كاد يقع .. ماذا تقصدين .. هل تهربين منى كما هرب والدك .. هل تقبلين وظيفة حقيرة كوظيفة والدك ، فقط حتى لا تكونى بجانبى .. لقد أحسست ساعتها أنك لم تقصدى الا أن ترفضى مساعدتى لكم .. ترفضى المعاش الذى أعرضه عليكم .. ترفضى كل شىء .. وكأنك عندما أعلنت أنك ستعملين .. تعنين أنك تستطيعين الاستغناء عنى .. وتحاولين اقناع والدتك بالاستغناء عنى والاعتماد عليك ، كما اعتمدت من قبل على أبيك ..

ــ وناويه تشتغلى ايه بأه يا ست هدى ؟

واجبت انت فى هدوء :

ــ اى حاجة .. اهو اشتغل والسلام .

وقلت وقد سيطرت على اعصابى :

ــ تشتغلى ازاى يا هدى .. ده والدك الله يرحمه ما كنش عايز يدخلك الجامعة فى حياته .. تقومى تشتغلى بعد ما يموت .. لا .. انا زى والدك تمام .. ومش حتحتاجى للشغل طول ما انا موجود ..

وقال خالك كأنه يعتذر نيابة عنك :

ــ والله يا سعادة الباشا احنا عمر ما بنت من بناتنا اشتغلت ولا تمرمطت .. بس هى هدى اللى ساعات يطلع فى دماغها حاجات غريبة ..

ونظر اليك كأنه يهددك بالضرب ان فتحت فمك بكلمة ..

وسكت انت كأنك غلبت على امرك .

واسترحت انا فى قرارة نفسى .. لقد ضمنت وقوف والدتك وخالك فى صفى .. ورغم ذلك قلت كأنى اطيب خاطرك :

ــ على كل حال نسيب الموضوع ده لبعدين .. يوم ما نتفق انك تشتغلى ، ابقى اشوف لك شغلة عندى ، وتحت اشرافى ..

وقالت امك وهى لا تزال تنظر اليك كأنها تؤنبك :

ــ عجايب !!

وعدت اقول لك :

ــ انتى زى بنتى يا هدى .. من هنا ورايح حا تبقى بنتى .. وانا زى ابوكى !

وقلت فى برود :

ــ انا ابويا مات !

وارتفع صوت أمك محتدا :

ــ يا بت ما تختشى امال .. ده بدل ما تشكرى ســـعادة الباشا .. اتكلمى كويس انا باقول لك ..

وقلت من بين اسنانك كأنك تسكتين أمك :

ــ متشكرة ..

ومرت لحظة صمت .. ارتفع فيها صوت قبيح يخرج من بين شفتى خالك وهو يمتص قدح الشاى .. وكنت انا خلالها أحس بأن هناك معركة بدأت تتجمع فى حياتى .. معركة بينى وبينك .. نفس المعركة التى دارت بينى وبين ابيك .. وقد خسرت المعركة مع ابيك .. فهل اخسرها معك ؟

وتعجلت وقلت لأمك كأنى احاول ان اكسب منك موقعــة جديدة :

ــ مش تفتكرى يا هانم انكم تعزلوا من الشقة اللى انتم فيها ؟

قالت وهى تحاول ان تفهم ، فلا تستطيع :

ــ نعزل نروح فين .. دى شقة بقالنا فيها العمر كله ..

وتبينت انى تعجلت فى طرق هذا الموضوع .. كان يجب أن اتركه لعبد العظيم ، فهو اقدر منى على طرقه ، وحتى لا اضطر ان الح عليكم فأفقد هيبتى بالحاحى ، ورغم ذلك قلت :

ــ أنا باشوف اننا ما دام بقينا عيلة واحدة ، يصح انكم تسكنوا فى شقة أحسن من كده ..

وقالت امك :

ــ والنبى دى شقة كويسة وترد الروح ..

وقلت انت فى كمد ، كأنك تخاطبين نفسك :

ــ وكمان حانعزل من بيتنا !!

وقال خالك :

ــ كفاية خيرك علينا يا سعادة الباشا .

قلت وانا احاول ان ابدو كأن الأمر لا يهمنى :

ــ على كل حال الشقق كتيرة وتحت امركم ..

وبدات اشك فى انى استطيع أن اقنعكم بأن تنتقلوا الى الشقة التى اعددتها لكم .. فسكت ..

سكتنا جميعا ..

وفجاة انطلقت امك تقول ، كأنها تقذف هاجسا فى صدرها لا تستطيع ان تكتمه :

ــ وازاى الست الهانم ؟

قلت مندهشا :

ــ هانم مين ؟

قالت وهى تدارى ارتباكها :

ــ قصدى الهانم حرم سعادتك !!

يا للذكاء الساذج .. ان كل ما خطر لها بعد أن عرضت عليها ان تنتقل الى شقة جديدة .. هو هذا الخاطر .. خاطر لا يمكن ان يتحقق فى نظرها ، وانا رجل متزوج !!

وقلت وانا ابتسم فى صدرى ساخرا من ذكائها :

ــ الهانم فى انجلترا .. مش هنا !

قالت :

ــ ربنا يرجعها بالسلامة !

قلت كأنى اردت ان انتهز المناسبة لأكسب قلوبكم :

ــ الست بتاعتى بتقعد فى بلدها طول السنة تقريبا .. الله يرحمه محمد افندى ، ما كانش موافق على جوازى .. كان دايما ينصحنى انى اتجوز واحدة مصرية .. الله يرحمه ويحسن اليه ..

وسكتت السيدة والدتك ، كأنها ازدادت ارتباكا ، ولم يعد ذكاؤها يستطيع ان يدلها على طريقها معى ..

***

.. ولم استطع ان افهم سر معارضتك فى الانتقال الى عمارة شارع النيل .. انى أعرض عليك ثروة .. اعرض عليك طبقة جديدة راقية تنتقلين اليها .. اعرض عليك حلما كحلم سندريلا يراود خيال كل فتاة فى عمرك .. فكيف ترفضين ؟

هل كنت تكرهيننى ؟

لماذا ؟

فتاة فى السابعة عشرة تكرهنى .. هكذا ، من اول نظرة ، ولوجه الله !!

انك لا تعرفيننى .. لا تعرفين شيئا عن ماضى .. ولا تعرفين شيئا من جرائمى .. ولا تعرفين ما كان بينى وبين والدك .. فكيف تكرهيننى ؟ !

ـ مستحيل !!

لا بد ان هناك سببا آخر يجعلك تعارضين فى الانتقال الى شارع النيل ، وتتشبثين بسكنى بيتكم فى حى شبرا .. تتشبثين الى حد البكاء .. كأنك ستنتقلين الى العالم الآخر .. عالم مخيف مجهول !

هل هو حبك لوالدك ، وحرصك على ذكراه ؟

لا اظن .. او على الاقل لم استطع ان اقنع نفسى بأن هذا يمكن أن يكون السبب ..

لابد ان هناك سببا آخر ..

ولم استطع ان افهم ..

وكنت افهم لماذا تعارض والدتك .. ان معارضتها لا تزيد على مجرد الحذر .. حذر ساذج يتميز به كل الناس البسطاء .. حذر يحيط بكل تصرفاتهم ، ويتسلل الى ايمانهم .. انهم يؤمنون بالله ولكنهم يظلون على حذر منه .. ويؤمنون بالصدق ولكنهم يحذرون الصدق .. ويؤمنون بالشرف ولكنهم يحذرون الشرف .. وقد كانت والدتك تؤمن بأنى هبطت عليكم من السماء .. وتؤمن

بالفرصة التى سنحت لها كأنها طاقه فتحت لها فى ليلة القدر ..
ورغم ذلك فقد كانت على حذر من الفرصة التى سنحت لها ..
على حذر منى .. انها تخطو كل خطوة فى تردد وخوف .. وكل
خطوة تحاول أن تقف عندها ولا تخطو ابعد منها .. وقد ارادت
أن تكتفى بالخمسين جنيها التى قررتها معاشا لكم فى الشهر ..
كانت تحاول أن تقنع نفسها بأن هذا يكفى ، وأن ترفض ما عدا
ذلك .. كانت تحاول أن ترفض اطماعها .. لأنها تخاف هذه
الأطماع . وتحذرها ..

وأنا .. ما ذنبى انا ؟ !

انى رجل يحاول أن يكون شريفا .. يحاول ان يشترى
الشرف .. ولا يجد دليلا على شرفه الا فى رضاء عائلة بسيطة
ساذجة .. واحدة من ملايين العائلات التى تملأ بيوت مصر !

ولكنكم لا تصدقون !

انت تبكين ..

وامك تحذرنى ..

فهل اترككما لحالكما .. هل اتخلى عن صفقة شراء الشرف ؟!

لا .. لا استطيع .. لقد عشت معذبا بهذا الشىء الذى
يتحرك فى صدرى كلما تذكرت والدك ، ولا استطيع ان اموت
وهذا الشىء لا يزال يعذبنى !

وهل يلومنى الناس اذا اشتريت الشرف عن طريق غير
شريف ؟ !

لا أيضا .. ان الغاية تبرر الواسطة !

وعلى هذا تركت الأمر للشـــيطان لينفـــذ حكمى فيكما ..
الشيطان .. عبد العظيم بك ..

واستدعى عبد العظيم بك خالك ، وصرخ فى وجهه :

— انت يا راجل مجنون .. انتم فاهمين نفسكم ايه .. ازاى
الباشا يعرض عليكم تعزلوا ، وترفضوا ؟ .. عايزه يتبنى البنت

وهى ساكنة فى شبرا ازاى ؟ .. انتم مش وش نعمة .. انتم كلاب وحاتفضلوا طول عمركم كلاب .. و ..

وارتج لسان خالك امام هذه الزوبعة .. كان قد بدأ يعتبر نفسه شخصا مهما بعد ان لبس حلة جديدة ، وطربوشا جديداً ، واصبح لأخته معاش قدره خمسون جنيها فى الشهر .. ولم يكن يعتقد انه لا يزال كلبا فى نظر عبد العظيم .. نسى انه كلب وحاول ان يدافع عن نفسه .. حاول ان يرد على عبد العظيم . ولكن عبد العظيم عاجله قائلا ، وهو لا يزال يصرخ :

ــ اسمع .. ما فيش احسان بالعافية .. اذا كنتم عايزين الباشا يساعدكم لازم تسمعوا الكلام .. مش عايزين ، يبقى ربنا يحنن عليكم .. الراجل عمل اللى عليه .. مش فاضل الا يبوس ايديكم علشان تقبلوا نعمته .. ناس ما يتمرش فيكم الخير .. ناس حوش ..

وبرطم خالك ، وعاد يحاول أن يتكلم .. ولكن عبد العظيم استطرد صارخا :

ــ اتفضل روح اتفق مع اختك ، شوفوا حاتعملوا ايه .. ولازم تعرفوا ان الباشا اذا كان حايتبنى البنت ، حايبقى هو المسئول عنها .. هو اللى كلامه يمشى .. واتفضل ومن غير مطرود ..

وخرج خالك وراسه مدلى بين قدميه ..

وكان الشيطان خبيرا بنفوس الناس .. كان يعلم انه لن يتغلب على حذر خالك ووالدتك الا بالتهديد .. التهديد بطردهم من الجنة .. جنتى .. ولابد ان خالك قد عاد الى والدتك وتناقشا طويلا .. نصبا بينهما ميزانا يزنان به نعمتى عليهما وحذرهما منى ..

ومرت ايام طويلة ..

ايام كنت خلالها لا افكر فى شىء .. لا اعمل شيئا ..

الا انتظارك .. انتظارك انت .. ولا تظنى أن أعمالى تأثرت خلال هذه الأيام .. أبدا .. ان أعمالى تستطيع دائما أن تسير وحدها .. أن رأس المال ككرة الثلج ، يكفى أن تتركيها تتدحرج ، وكلما تدحرجت ازدادت حجما ..

وبدأت كفة نعمتى تثقل على كفة الحذر ، فى الميزان الذى أقامه خالك ووالدتك .. وبدأ خالك يتردد على عبد العظيم ، وفى كل مرة يحمل اليه سؤالا جديدا ..

من الذى سيدفع ايجار الشقة الجديدة ؟

وقيل له انى أنا الذى سأدفع ايجارها ..

من الذى سيقوم بتأثيثها ؟

أنا ...

وعشرات الأسئلة الساذجة ، أجاب عليها كلها عبد العظيم ، بما يطمئن خالك ووالدتك ..

كل ذلك وأنت لا تدرين شيئا ..

لا تدرين ما يحدث من أجلك ..

فقط تبكين ..

وتقرر أن تنتقلوا الى الشقة الجديدة .. وصدرت الأوامر الى محل « بنترمولى » لتأثيثها .. انها شقة مكونة من ست غرف .. اثنتان خصصتا للاستقبال .. طراز « استيل » ومقاعد « أوبيسون » .. وحجرة للطعام .. وحجرة لوالدتك بحمام خاص .. وحجرة لك ، بحمام خاص أيضا .. وحجرة لتمضية النهار .. ومطبخ كامل .. وشرفة واسعة ، تطل على النيل ، انتشرت فيها مقاعد مريحة وأضواء خافتة ..

وأعددت لكما كل شىء .. حتى قطع الصابون ، وأملاح البنفسج التى تذاب فى ماء الاستحمام ..

وكلفنى كل ذلك خمسة آلاف جنيه ..

هل هذا كثير ؟

لقد استكثرته انا ايضا .. كنت اتساءل : لماذا اكلف نفسى كل هذه الجنيهات .. ماذا اريد منك أو من امك ؟

ولم اكن ادرى بالضبط ماذا اريد .. انما كانت تطل على صورة والدك ، وإحس كأنى اتحداه .. كأنى احاول أن أذله بعد موته ، وقد عجزت عن اذلاله فى حياته .. كأنى احاول أن انتزع من الميت اعترافا .. اعترافا بأنى رجل شريف !

وقد ذهبت الى الشقة قبل أن تذهبوا اليها ..

ذهبت اليها .. وطفت بأنحائها .. ودخلت الغرفة المخصصة لك .. لقد كان « بنترمولى » يعلم أنها غرفة مخصصة لفتاة فى السابعة عشرة ، فجعل أثاثها كأنه قطعة من الصبا .. أثاث ينبض بالمرح والأحلام .. وزهور ضاحكة فوق الستائر وكساء المقاعد .. الضوء يغمرها كأنه أمل الشباب ..

وجلست على الفراش الذى ستنامين عليه .. كانت المرة الأولى التى يلمس فيها جسدى فراش الطهر .. واخذت اجيل عينى فى الغرفة كأنى ابحث عما ينقصها .. وفى قلبى ابتسامة كأنى أراك فيها ..

وقررت أن الغرفة ينقصها عروسة .. عروسة كبيرة توضع فوق الفراش .. هل تصدقين انى اصل الى هذا الحد من الحنان .. الى حد ان افكر فى أن أشترى لك عروسة !!

لقد اعتقدت أيامها أنه حنان .. مجرد حنان .. ولم اذكر أن هذا الحنان صادر عن ذكرى دنسة تعيش فى أعماقى .. ذكرى عشيقتى كوليت .. فقد كانت كوليت تضع فوق فراشنا .. فراش الدنس .. عروسة كبيرة .. كأنها تعوض بها نقصا تحس به .. النقص الذى تحس به كل عشيقة لم تكن فى يوم من الأيام عروسا طاهرة بعشيقها ..

وخرجت من غرفتك .. وجلست قليلا فى الصالون . وانا اتخيل والدتك جالسة بجانبى ، وانت جالسة فى الناحية الأخرى ..

وأحسست وأنا فى هذا الخيال كأنى أصبحت رجلا شريفا .. كأنى ورثت شرف والدك .. احسست بأعصابى تهدأ .. ونفسى تصفو ..

وخرجت من الشقة ، وعم جابر رئيس بوابى العمارة يسير خلفى .. دون أن يتكلم .. ان عم جابر مضى عليه فى العمارة عشر سنوات دون أن يتكلم !!

وفوجئت أنت يوما بأمك تأمرك بأن تجمعى ثيابك ..

كانت مفاجأة لك ..

انك لم تعلمى شيئا عن المفاوضات التى دارت بينى وبين أمك وخالك لتنتقلا الى الشقة الجديدة .. ولم تعلمى أن أمك وخالك ذهبا وعاينا الشقة وبهرا بها ..

وعارضت .. عارضت بشدة كما علمت .. وعدت تبكين .. بكيت طويلا وكثيرا .. ولو أنك علمت يا أحب الناس ما أنت مقبلة عليه لوفرت دموعك .. لاحتفظت بها لأيام العذاب الطويلة التى تنتظرك ، ولن يكون لك سند فيها الا دمعك ..

ولم تجد معارضتك ..

كان حزم أمك ، وصرامة خالك اقسى من أن تجدى بينهما مجالا لمعارضتك ..

وفى يوم واحد كان كل ما تملكانه من ثياب ، وحاجيات منزلية قد جمع فى ثلاث حقائب ، وسبتين من الخوص ، وسحارة ..

ووقفت أمك تبيع ما تملكه من أثاث ، لأحد تجار الأثاث القديم باعته بحرص ، دون أن تدع لهفتها تغلبها على حقها ، أو تدع التاجر يغلبها فى مليم ..

ثم شاهد عم جابر بواب عمارة النيل منظرا فتح فاه دهشة ..

لقد كان ينتظر أن يكون السكان الجدد من الاجانب — كما تعود — أو على الأقل من الطبقة المصرية الراقية .. كان ينتظر امرأة جميلة فى صحبة زوج مرفه .. فهكذا عودته تجربة عشر

سنوات .. ولكنه فوجىء بامرأة حول رأسها طرحة سوداء . تقل فى مظهرها عن أية مربية أطفال ممن يعملن لدى سكان العمارة .. وفتاة بسيطة المظهر فى ثوب أسود رخيص .. تسير فى هزال وحزن كأنها تتعثر فى كل خطوة .. ورجل من الأرياف فى حلة لا يرضى عم جابر أن يرتديها .. وثلاث حقائب قديمة ، وسبتين من الخوص ، وسحارة .. وخادمة صغيرة يبدو على وجهها الغباء .. ولم يتكلم عم جابر أيضا !

وهكذا انتقلتم الى عمارة النيل ..

وجاءنى عبد العظيم فى اليوم التالى يقول بامتعاض وهو ينظر الى من تحت جفنيه المنتفختين :

ــ الجماعة وصلوا ..

وابتسمت رغما عنى .. نفس الابتسامة الخبيثة التى تنطلق فى صدرى كلما انتصرت فى صفقة من صفقاتى .. لم أكن ساعتها رجلا شريفا ، ولكنى كنت رجلا منتصرا ..

وكتمت ابتسامتى ، وقلت لعبد العظيم وأنا أفتعل أمامه شخصية رجل الخير :

ــ أنا عايزك تشوف راحتهم .. الشقة حاتكون مصاريفها كتير عليهم .. اتفق مع الست تديها مبلغ تصرف منه كل شهر ..

ونظر الى عبد العظيم فى قرف .. انه يحتمل كثيرا من نزواتى .. بل انه يسعد كلما أقبل على خدمة عشيقة من عشيقاتى . انه يعتبر كل عشيقة نقطة ضعف فى يستطيع أن ينفذ منها الى قلبى .. ولكن هذه النزوة لا يستطيع أن يفهمها ، ولا يستطيع أن يصدق أن ذوقى قد انحط الى حد أن أحاول أن أتخذ من أمك عشيقة لى .. انه لا يفهم شيئا .. وأشد ما يضايقه الا يفهم .. أن يحتار فى فهمى .. انه فى هذه الحالة يخشى أن يفقد سيطرته على .. يخشى أن يؤدى به عجزه عن فهمى ، الى أن أفلت منه ..

وقال وهو لا يزال قرفان :

— وتفتكر سعادتك مصروف الشقة يبقى أد ايه ؟ !

قلت بلا اهتمام :

— ميت جنيه !!

وفتح فمه كأنه ذعر .. ثم عاد واغلقه ، وقال فى صوت خفيض :

— كتير !!

قلت كأنى اخاطب عاطفته .

— يا شيخ حرام عليك .. دى شقة زى دى مش ممكن تصرف أقل من ميتين جنيه .. شوف عايزة خدامين بكام .. و ..

وقال يقاطعنى :

— ما احنا بنديهم خمسين جنيه .. والجماعة دول مش واخدين على الفلوس الكتير !

قلت وأنا أنظر اليه بكل عينى وبين شفتى ابتسامة كأنى ارشوه بها :

— فى ذمتك انت بتصرف كام فى بيتك ؟ !

ورفع عينيه الى فى غضبة سريعة ما لبث أن ابتلعها سريعا ، وقال كأنه يسلم أمره لله :

— ما فيش لازمة للكلام ده .. خلاص .. أمر سعادتك !

وهم بالانصراف ، ولكنى استمهلته .. لقد بقى شيء .. شيء هام .. كان قد تم لى الاستيلاء عليكم .. ابعدتكم عن المجتمع الذى كان يحميكم فى حى شبرا .. عن الجيران وجيران الجيران الذين كانوا يستطيعون اطلاق ألسنتهم وتحذيركم منى . ونقلتكم الى مجتمع لا يحميكم ، ولا يسأل عنكم .. ولكن بقى شيء .. بقى خالك !

كان يجب أن يبتعد خالك .. بعد أن أدى دوره ..

وقلت لعبد العظيم بلا اهتمام :

— واسماعيل افندى استلم وظيفة شركة اسكندرية ولا لسه ؟

وقال عبد العظيم :

ـــ لسه .. حيستلمها الجمعة الجاية !

قلت كأنى أستعجله :

ـــ ده راجل طيب .. وحاينفعنا !

قال من بين أسنانه ، وشفتاه الغليظتان لا تكادان تنفرجان :

ـــ فعلا .. راجل طيب جدا !

وانصرف عبد العظيم منفعلا ، وهو يدق الأرض كأنه يحاول أن يحطمها فوق رأسى ..

وبدأ خالك العزيز .. اسماعيل افندى عبد الجواد .. التاجر الصغير الذى لا يملك سوى دكان حقير فى دمنهور لا تزيد مساحته على مترين فى متر .. بدأ هذا الرجل الطيب يساوم طويلا .. ولم يكن يدرى بالضبط ما الذى يساوم عليه ، ولكنه كان يحس احساسا خفيا بأنى فى حاجة الى ابعاده الى الاسكندرية .. ولم يكن يدرى لماذا اريد ابعاده .. وكان أكثر منا علما بأن ليس لديه ما يؤهله لأى وظيفة .. فلابد أن هناك سببا لا يدريه .. سببا قويا .. وهو لا يستطيع أن يصدق أن الدافع يمكن أن يكون مجرد فعل الخير .. أو مجرد تخليد ذكرى المرحوم زوج شقيقته .. اى مرحوم هذا الذى يستحق كل هذا الكرم !! ..

وافترض خالك بينه وبين نفسه انى أريد شيئا .. سواء كان شيئا خبيثا أو كريما ، وبدأ يساوم !

انه يريد تعويضا عن تجارته التى سيتركها فى دمنهور .. وتجارته كلها لا تساوى أكثر من خمسين جنيها .. ولكنه يريد خمسمائة !!

وهو يريد ضمانا لوظيفته الجديدة ، قبل أن يصفى تجارته فى دمنهور !!

وهو يريد مرتبا يكفيه هو وعائلته ليعيش فى الاسكندرية فى نفس المستوى الذى انتقلت أخته لتعيش فيه !

و .. و .. وجن عبد العظيم وهو يساومه .. وكنت اسمع اخبار هذه المساومات ، فأضحك .. كنت احس بالشماتة فى عبد العظيم وانا ارى تاجرا ريفيا ساذجا يغلبه على أمره ، وينافسه فى ذكائه ، وفى قدرته ..

وقد استطاع خالك ان يغلب عبد العظيم .. غلبه لانه كان مستعدا لأن يرفض الوظيفة .. كان يفضل ان يبقى فى القاهرة ويعيش مع اخته فى عزها الجديد .

واعطاه عبد العظيم كل ما اراد ..

وسافر الى الاسكندرية ، تسبقه تعليمات الى مدير الشركة بألا يسمح له بالتغيب عن الشركة الا بعد استئذان القاهرة ..

ولم يتركه عبد العظيم فى حاله .. كان لابد أن ينتقم منه على مساومته .. كان لابد ان يمسك به من عنقه حتى يذله .. فاتبع معه خطة قديمة .. خطة نستعملها مع كثير من الموظفين عندما نريد اذلالهم .. لقد بدأ يغريه بالاختلاس من أموال الشركة .. حتى اذا اختلس واثبت عليه الاختلاس ، أمسكه من عنقه !

هل يقع خالك فى هذه الخدعة ؟

لقد مرت شهور طويلة ، قبل ان يستطيع عبد العظيم ان يختبر ذكاء خالك ..

- ٧ -

حبيبتى هدى :

كل هذا وانت لا تدرين .. وقد قدر عليك ان تعيشى دون ان تدرى سر عذابك ..ان ترى الدماء تنزف منك دون ان ترى السكين المغروز فى صدرك .. ان ترى قطعا من لحمك تتساقط دون ان ترى اليد التى تنزعها .. وربما كنت تتهمين القدر .. وقلة البخت .. وكنت تستسلمين للمكتوب على جبينك .. دون ان تدرى انى انا القدر ، وانا بختك التعس ، وانا الذى كتبت بيدى على جبينك !!

يا احب الناس .. اقرئى سطورى .. اقرئى ، واعيدى ما تقرئينه ، وستجدين الراحة .. ستجدين السكين المغروز فى حياتك .. وعندما تنزعينه سيكف عنك الالم .. انك لا تتألمين الآن من الجرح .. ولكنك تتألمين من سر هذا الجرح .. تتألمين من حيرتك فى جرحك . فانت لا تدرين اين موضعه .. ولا تعلمين من جرحك .. وسادلك انا على السر .. سأدلك على موضع جرحك .. وسأرفع امام عينيك اليد التى جرحتك ، والسكين التى جرحت بها .. وسأنصف الله امامك .. لن تحتدى بعد ذلك على الله .. ستعلمين انه ليس الله .. انه الشيطان .. انه انا !!

اقرئى يا احب الناس ، فانى اقترب بك من الجريمة .. ولعلك بعد ان انتهى من خطابى ، وتنتهى منه .. ترتاحين وارتاح !!

هل تذكرين اول مرة زرتكم فيها بعد ان انتقلتم الى عمارة شارع النيل ؟ !

كان قد مضى على انتقالكم اليها اسبوعان .. وكان خالك قد سافر الى الاسكندرية وتسلم عمله هناك .. واصبحتما انت وامك وحيدتين فى القاهرة .. بين اصابعى .. وقد زرتكم بلا موعد .. كنت اريد ان افاجئكما برفع الكلفة بينى وبينكما .. ان ابدو امامكما كأنى صاحب بيت .. كأنى فعلا ابوك ، وشقيق والدتك ، وصديق المرحوم الحميم .. وكان احساسى بأنى لا اريد بكما شرا يشجعنى على هذا المظهر الذى احاول أن ابدو به امامكما .. لم اكن حتى هذا اليوم اريد بكما شرا .. الا اذا كانت مجرد نزوتى ان اسيطر عليكما تعتبر شرا .. نعم لقد فعلت كل ذلك .. وتكلفت كل هذه الأموال ، دون ان اقصد شرا .. بل انى مهدت لهذا اليوم بكثير من التصرفات التى حاولت بها ان ابدو كأنى رجل شريف .. فى حدود فهمى لمعنى الشرف .. لقد صرفت مكافأة اسبوع لعمال شركة الصناعات المصرية .. وهتف العمال باسمى .. وسمحت لهم بيوم اجازة ليأتوا الى مكتبى فى مظاهرة ضخمة ويشكرونى على كرمى .. و .. ويحيا نصير العمال .. وفى نفس الأسبوع تبرعت بألف جنيه للهلال الاحمر .. وجاءنى وفد من السيدات يشكرنى .. وقبلها اتخذت موقفا فى البورصة لم اكن اتخذه لو تركت نفسى لذكائى .. كنت أيامها اضارب على النزول .. وكان من المؤكد ان تهوى اسعار القطن بعد عدة ضربات .. وتهوى فى الوقت الذى يحتاج فيه اكثر المزارعين الى « قطع الكونتراتات » اى الى بيع اقطانهم لتسديد ديونهم .. ولكنى فجأة انسحبت من البورصة .. عدلت عن موقفى وتركت الأسعار ترتفع ارتفاعا طبيعيا .. وعبد العظيم بجانبى يكاد يجن .. يضرب كفا بكف ، وينظر الى كأنى انسان لا يعرفه .. وذكائى أيضا كان ثائرا .. كنت احس بعقلى يتهمنى بالجنون وبالسخف ،

ولكن شيئا فى صدرى كان يجذبنى اليه ويجعلنى أحاول أن أبدو شريفا ..

كان عقلى يقول لى وأنا أوقع قرار صرف مكافآت العمال « ماذا تفعل أيها الأبله .. لا تكن حمارا » ..

وكان صوت آخر يرتفع فى صدرى كأنه يستجدينى : « كن كريما .. انك لن تخسر شيئا بكرمك .. انك لست فى حاجة الى كل أموالك .. فامنح بعضها للناس .. للفقراء » ..

ويعود عقلى يخاطبنى فى حدة : هل تعتقد أن الفقراء سيحمدون فضلك ويكتفون .. انهم سيطالبون بالمزيد .. لو استسلمت لهم فسيبتزون كل أموالك الى أن تصبح فقيرا مثلهم » ..

ويعود الشىء الذى فى صدرى يقول لى فى رقة : « جرب هذه المرة .. هذه المرة فقط .. انهم سيدعون لك .. سيهتفون باسمك » !

وكان الشىء الذى فى صدرى .. هو أنت .. كنت أتخيلك دائما بجانبى .. وجهك النحيل الحزين .. وعينيك الهادئتين العميقتين .. وشفتيك الرقيقتين .. وشعرك الناعم فى لون البندق .. كنت دائما بجانبى ، وأنا أوقع شيك التبرع للهلال الأحمر .. وأنا أصرف مكافآت العمال .. وأنا أعدل عن موقفى فى البورصة .. وكانت الجرائد تنشر عنى كل ذلك .. وتنشر صورتى .. فأتخيلك تقرئين .. وأتخيلك تفخرين بى .. بل انى وزعت صورة جديدة لى على الصحف ، أبدو فيها مبتسما فى حنان كأنى أبتسم لك ، ، ويبدو شعرى الأبيض يغطى فودى كأجنحة الملائكة ، كأنى أطمئنك به على وقارى ، وأحاول أن أخدعك به عن حقيقتى ..

وبهذا الشعور الصادق زرتكم لأول مرة بعد أن انتقلتم الى عمارة شارع النيل ..

وضغطت على الجرس ..

وانتظرت طويلا .. كأن الجرس يدعوكم من بعيد !

ثم فوجئت عندما فتحت لى الباب نفس الخادمة التى يكسو وجهها الغباء .. فتحته نصف فتحة .. وسألتنى عن اسمى .. وقلته لها بلا لقب .. حسين شاكر .. فصفقت الباب فى وجهى بعنف كأنها تحمى البيت منى .. تماما كما فعلت عندما فتحت لى الباب عندما زرتكم فى شبرا .. وكأن شيئا لم يتغير !!

وعادت الخادمة الغبية ، وفتحت لى الباب .. فتحته كله .. ودخلت وانا أحس كأنى صدمت .. كأن كل احلامى انهارت .. ان وجه الخادمة الغبية اقنعنى بأنى لا زلت بعيدا عنكم ، وانكم لا زلتم بعيدين عنى ..

وخطوت الى داخل الصالون .. كان معتما .. ورائحة التراب تفوح منه .. كأن احدا لم يدخله منذ سكنتم فيه .. لم اشم فيه رائحة البخور المريحة التى شممتها عندما دخلت بيتكم فى شبرا .. ثم وقفت ممتعضـــا عندما رايت فـــوق الأريكة « الأوبيسون » حملا من الالحفة والوسائد القديمة التى حملتموها معكم .. وطفت بعينى المتعضتين فرأيت تحت احد المقاعد المذهبة صفيحة تفوح منها رائحة الفطير الذى يوزع فى مناسبة زيارة الأضرحة ..

وشعرت بالغضب .. شعرت كأنى اغار على الصـــالون « الأوبيسون » والمقاعد المذهبة .. انها من اموالى .. ان هذه الأريكة وحدها تساوى ثلثمائة جنيه ، وانا لم اضع فيها كل هذا المال لتوضع فوقها الالحفة والوسائد القديمة .. وهذا المقعد المذهب يساوى خمسين جنيها ، ولم يصنع لتوضع تحته صفائح الفطير .. ووجدت نفسى اشتمكم والعنكم ، واهمس ساخطا : « ناس بلدى صحيح .. الحق على انا .. .. دول مش وش نعمة » !!

وبلغ من غيرتى على قطع الأثاث .. على اموالى .. ان

هممت بأن ارفع بيدى الألحفة والوسائد من فوق الأريكة ، وأن ارفع صنيحة الفطير من تحت المقعد ، وأن القى بكل ذلك من الشباك .. كأنى اتخلص من قذارة تلطخ اموالى .. ولكنى ضبطت أعصابى .. وجلست وانا اقضم أظافر يدى بأسنانى ..

ودخلت أمك ..

لم يتغير شىء ..

نفس الطرحة السوداء التى تحيط براسها .. ونفس الذكاء الساذج الذى يشع من عينيها ويتقدمها فى كل افتة من لفتاتها .. كأنها لم تنتقل الى عمارة شارع النيل .. كأنها لا تتقاضى مائة جنيه فى الشهر .. كأنها لا تزال تقيم فى شقة بحى شبرا لا يزيد ايجارها على ثلاثة جنيهات .. وتعيش على معاش زوج متوفى لا يتجاوز احد عشر جنيها فى الشهر . وقالت مرحبة وهى تمد يدها تصافحنى ، وتحاول ان ترشونى بابتسامة كبيرة :

ــ اهلا وسهلا بسعادة الباشا .. خطوه عزيزه .

قلت وانا انظر اليها كأنى احاول ان اعرفها من جديد :

ــ ازيك يا نفيدة هانم .. ازى صحتك !

قالت وهى تتقدم نحو باب الشرفة لتفتحه :

ــ تسلم يا باشا ..

وامسكت بالشريط الذى يشد « شيش » الشرفة الى اعلى واخذت تشده بصعوبة ، وفى حركة عنيفة كأنها مراكبى عجوز يشد القلع الى اعلى السارى .. وانا لا زلت انظر اليها .. وخيل الى انها اقل جمالا مما رايتها لأول مرة .. وشعرت باحساس خبيث وانا اراها تجهد نفسها فى رفع خشب « الشيش » .. كأنى كنت اقتص من هذا الجهد بعض ما دفعته لها من مالى .

ولكنى رغم ذلك تقدمت وعاونتها على فتح الشرفة .. بتأفف .. وغمر الضوء حجرة الصالون ، والتفت فرأيت صورة والدك تحتل صدر الحائط .. ولم اركز اول نظرة على الصورة ..

حين تركزت نظرتى الأولى على المسمار الذى علقت فيه الصورة . انه مسمار كبير ، لعلكم دققتموه فى الحائط بفردة قبقاب ، دون أن تعلموا أن هذا الحائط الذى شوهتموه بهذا المسمار قد كلفنى طلاؤه عشرين جنيها على الأقل .. وكدت أثور مرة ثانية .. ولكن نظرتى انزلقت على صورة والدك .. وتركزت لحظة فى وجهه .. واحسست بعينيه العميقتين الهادئتين تثقبان صدرى ، وتصلان الى أعماقى .. واحسست بالشىء يتحرك فى صدرى ويكاد يكتم أنفاسى ويمزق رئتى .. أحسست به كأنه يعرف أنى مجرم .. كأنه يأبى كل هذه النعم التى غمرت بها عائلته .. ووجدت نفسى أدير ظهرى الى صورته ، وصوت يهتف بى كأنه يشجعنى : « لقد مات .. مات .. مات » !

وافقت على صوت والدتك تقول :

— اتفضل يا باشا .. اتفضل اقعد !

جلست وأنا التقط أنفاسى ، ثم قلت بعد برهة :

— على الله تكونوا مستريحين ؟

قالت وهى تلف طرحتها حول عنقها :

— الحمد لله .. البركة فى سعادتك .. كله من خيرك !

قلت :

— والشقة عاجباكى ؟

وترددت برهة ثم قالت كأنها تريد أن تشكو هما كتمته طويلا :

— اقول لك الحق يا باشا .. الشقة كبيرة علينا قوى .. عايشين زى اللى تايهين فيها .. أنا قفلت تلات أود ، وخليت تلاتة نقعد فيهم .. ده شقة عايزة أورطة علشان يدوبك تتهف كل يوم بالمقشة ..

قلت وأنا أنظر اليها كأنى اتهمها :

— انتى مش جبتى خدامين يا نفيدة هانم !

قالت :

ــ اهى البت فتحية مقطعة نفسها .. انما مش ملاحقة تعمل يه ولا ايه !

وكدت اصرخ فيها لأتهمها بالسرقة .. انى اعطيها مائة جنيه مرتبا شهريا . ورغم ذلك فهى لا تريد ان تصرف مليما اجرا لخادم ، وتشفق على فتحية من كثرة العمل .. ولكنها لبست سرقة .. انه الذكاء الساذج .. ذكاء التاجر الصغير الذى يدخر كل ارباحه دون ان يحاول استغلالها فى توسيع تجارته .. ولو استغلها لدرت عليه اكثر مما يدخره .. ولو صرفت امك كل المائة جنيه على البيت الذى خصصته لكما ، فربما استطاعت أن تأخذ منى أكثر مما تستطيع ان تدخره .. أنه الذكاء الساذج ، الذى يدفعها الى ادخار كل ما تأخذه ، ولا تحاول ان تصرف اكثر مما كانت تصرفه عندما كانت تعيش فى حى شبرا .

وقلت لها وانا اضع فى كلامى لهجة الأمر :

ــ لا .. لا يا تفيدة هانم .. انتى لازم يكون عندك اتنين سفرجية ، وطباخ .. على الاقل ؟!

قالت وهى تضع يدها على صدرها كأنها ذعرت .

ــ على ايه ده كله يا سعادة الباشا .. ده احنا كلنا نفرين .. انا وبنتى هدى .. نقوم نجيب تلاته يخدمونا ..

انها لا تعلم انى أعيش وحدى ، وفى بيتى عشرة من الخدم ..

وقلت وانا ابتسم محاولا تخفيف وقع الصدمة عليها :

ــ ما دام الشقة كبيرة ، يبقى لازم خدامين كتير .. وانتى حايهمك ايه .. كل اللى تعوزيه اطلبيه !

واطلقت عينى الى حجرة الطعام ، الملاصقة للصالون الذى نجلس فيه .. فرأيت على المائدة طبقا مليئا ببقايا طعام مطبوخ ، وفوقه غطاء من السلك .. الغطاء الذى يستعمل فى بيوت الطبقة الوسطى لحماية الطعام من الذباب ..

وشعرت مرة ثانية بأنى أهم بالثورة .. الم تر امك ان فى المطبخ فريجدير .. فريجدير كلفنى مائتى جنيه .. لماذا لا تضع فيه بقية الطعام ، بدل ان تشوه منظر حجرة المائدة التى كلفتنى خمسمائة جنيه !

ولكن ثورتى انقشعت سريعا ، وحل محلها شعور بالشفقة .. اشفقت عليكم .. وتذكرت نفسى .. لقد بدأت مثلكم .. كنت أنا ووالدك من أولاد الطبقة الوسطى الصغيرة .. ونعيش فى بيوت متواضعة ، ووسط تقاليد وعادات متأخرة .. وقد تركت والدك فى هذه الطبقة ، وسعيت أنا الى الطبقات العليا .. وقضيت عشرين عاما حتى عرفت كيف أعيش فى بيوت جديدة ، وتقاليد جديدة .. عرفت كيف اتناول طعامى بالشوكة والسكين .. وكيف أسلم أظافرى لفتاة جميلة لتعالجها بالمانيكير .. وكيف استعمل السيارة ، والفريجدير .. وكيف اخاطب السائق والسفرجى .. وكيف افرق بين المقاعد الأوبيسون والمقاعد الخيزران ، وكيف افرق بين انواع العطور .. و .. و .. هذا الطريق الطويل الذى قطعته فى عشرين عاما ، حاولت ان اجعلكم تقطعونه فى اسبوعين ، وان افرض عليكم مجتمعا جديدا لا تعرفونه ، ولا تعرفون اساليب حياته ، ولا الأدوات التى يعيش بها ..

وعذرتكم ، واشفقت عليكم !

انكم فى حاجة الى استاذ ليعلمكم فن الحياة الجديدة التى نقلتكم اليها ..

من يكون الأستاذ .. من ؟ !

وقلت لوالدتك وأنا اتجه فى حديثى اتجاها جديدا :

— ويا ترى مين زاركم لغاية دلوقت ؟

قالت وهى تمصمص شفتيها كأنها تترحم على حالها :

— ولا حد .. الباب ما خبطش علينا من يوم ما جينا

ولا حد من الجيران سأل عنا ولا قال لنا الحمد لله على السلامة .. انا عارفه دول جيران ايه دول .. مش برضه الأصول يسألوا .. وحتى اصحابنا اللى فى شبرا نسيونا .. انما الحق علينا .. احنا اللى قصرنا ، وما سبناش عنوانا لحد ..

قلت ، وانا ابتسم لأطيب خاطرها :

ــ ما تحمليش هم .. انا حاخلى خيرية هانم تيجى تزوركم ، وتسليكى ، وتعرفك بالجيران كلهم ..

قالت وهى تنظر الى فى تساؤل مريب :

ــ اهلا وسهلا .. تآنس وتشرف .. ودى تبقى مين ست هانم ؟

قلت :

ــ دى ست قريبتى من بعيد ، ومتجوزة واحد صديقى قوى .. وكان برضه من زملاء المرحوم .. انما ست طيبة وحاتعجبك خالص .

قالت فى تردد كأنها لا تستطيع ان تطمئن الى صديقة جديدة :

ــ اهلا بيها !

وكان هذا هو اول تفكيرى فى ان ادخل خيرية فى حياتكما .. لم افكر فيها من قبل .. لم اكن اعتقد ان الجريمة تحتاج الى اكثر من شيطان واحد .. الى ثلاثة شياطين .. انا ، وعبد العظيم ، وخيرية ..

وقلت لوالدتك كأنى احاول ان اشغلها عن التفكير فى الصديقة الجديدة التى سأفرضها عليها :

ــ امال فين هدى !

وكنت طول الوقت انتظر ان احس بكِ فى الغرفة قبلَ أنْ اراك .. كما احسست بك عندما زرتكم فى بيتكم القديم بشبرا .. ولكنك لم تظهرى .. ولم احس بكِ ..

وقالت والدتك :

— قاعده فى اودتها .. مش مبسوطة شوية !!

وقفزت من مقعدى فى حركة مفاجئة ، وانا اقول :

— مالها .. عيانة .. ابعت أجيب دكتور .. أقدر أشوفها ؟

واتجهت الى داخل الشقة دون ان يدعونى أحد ، ووالدتك ورائى مبهورة من هذه الحركة المفاجئة ، وتقول كأنها تحاول ان تمنعنى من دخول الشقة :

— لأ .. لأ .. مش عيانة ولا حاجة .. دول بس شوية صداع !

ولم أستمع اليها ..

ولم اكن ملهوفا على مرضك الى هذا الحد .. ولكنى انتهزتها فرصة لأبدأ فى استعمال حقى فى التجول فى انحاء البيت .. ثم انى كنت أريد أن اراك .. صدقينى انى فقط كنت أريد أن اراك .. وكنت أخشى أن تنتهى زيارتى دون أن اراك ..

وسرت فى الممر الذى يؤدى الى غرفتك بخطوات ثابتة كأنى صاحب البيت .. ودخلت اليك .. ولم أرك فى فراشك .. كنت فى الشرفة .. تطلين على النيل .. فى ثوب أسود .. واحسست بدخولى فالتفت الى بعينين واسعتين كأنك ذعرت .. وتقدمت سريعا الى داخل الغرفة ، كأنك تحاولين أن تسبقينى قبل أن أخرج اليك فى الشرفة .. ورأيت وجهك ممتقعا .. اكثر امتقاعا مما عرفته .. وعينيك مضطربتين .. وشفتيك ترتعشان .. ومددت يدك الى كأنك تدفعيننى الى الوراء .. وصافحتك .. وسحبت يدى من يدك سريعا ، وأنا أقول :

— ازيك يا هدى .. مالك .. مامتك بتقول انك عيانة !!

قلت وقد بدأت تهدئين ، وتستردين شخصـــيتك كاملة .. واستقرت عيناك العميقتان :

— لا أبدا .. كان عندى شوية صداع .. انما الحمد لله !

قلت وانا ابتسم لك واحاول أن أضع فى ابتسامتى حنانا لم أتعوده :

ـــ شغلتينى عليكى .. لازم تعبتى من العزال ..

وتشاغلت عن عينيك اللتين بدأتا تنظران الى فى ثبات ، وتثقبان صدرى .. واخذت اتلفت فى الغرفة .. انها هى .. كما رسمها بنترمولى .. أنيقة . بهيجة ، كأنها قطعة من الصبا .. ليس فيها ما يقلل من صباها الا شعرى الأبيض ، وثوبك الأسود .. وآلة خياطة وضعت على جانب من الفراش ، وقد غطيت بملاءة بيضاء ، فبدت كأنها قبر صغير ..

وقلت لك :

ـــ يا ترى مبسوطة من أودتك ؟

قلت فى اختصار :

ـــ كويسة .. مرسى !

وعدت اقول كأنى اجر لسانك من فمك لتتكلمى :

ـــ ودى ماكنة خياطة .. انتى غاوية خياطة ؟

وقالت أمك :

ـــ دى هى اللى بتخيط لكل البيت .. وايام ما كنا فى شبرا كانت بتخيط لنص الجيران ..

ومصمصت والدتك شفتيها كأنها تترحم على أيام شبرا ..

وقلت وانا أفتح ابتسامتى حتى آخرها :

ـــ من هنا ورايح مش ضرورى تتعب نفسها فى الخياطة .. الفساتين تيجى جاهزة لغاية عندها !

قلت :

ـــ أنا ما حبش البس فساتين جاهزة .. احب اخيط فساتينى ! .

ونظرت اليك متعجبا .. وقلت :

ـــ خلاص .. واذا كنتى عايزه ، أفتحلك كمان مصنع خياطة !

وتقدمت الى الشرفة ، فاذا بك تقفين فى مواجهتى كأنك تمنعيننى من الدخول .. ثم كأنك تنبهت الى أن ليس من حقك أن تمنعينى .. فابتعدت عن طريقى .. وسرت أنت وأمك ورائى الى الشرفة .

وابتسمت وانا أجد على سور الشرفة صينية قلل وقد اكتحلت أفواه القلل بلون البخور .. وابتسمت .. لم أغضب هذه المرة لتشويه منظر الشرفة والعمارة كلها .. بل تمنيت أن أشرب من احدى القلل .. احسست انى لم أشرب أبدا منذ بدأت أشرب من زجاجات الفريجدير .

وأخذت أحدثكما عن العمارة .. ومتى بنيت .. وكيف بنيتها ، وبدأت الاحظ أثناء حديثى أنك تلقين نظرات مختلسة الى الشارع .. وتكررت نظراتك .. وأنا مستند الى سور الشرفة وظهرى الى الشارع .. وفجأة إلتفت ونظرت الى أسفل .. الى الشارع .. الى حيث تنظرين .. دافع أقوى منى جعلنى ألتفت .. بلا خبث .. وبلا سوء نية !

ورأيته لأول مرة ..

شاب واقف على الرصيف المقابل ، يرتدى القميص والبنطلون .. مفتوح الصدر .. مهوش الشعر .. كأنه عائد لتوه من مظاهرة وطنية كانت تهتف بسقوط الانجليز ..

وكان ينظر الينا .. وما كاد يلتقى بوجهى حتى أرخى عينيه ، وسار مبتعدا فى خطوات بطيئة !

من هذا الشاب ؟

هل هو حبيبك ؟

وهل ابنة محمد افندى السيد .. يمكن أن يكون لها حبيب ؟ هل بنات الشرفاء يقعن أيضا فى الحب ؟ !

والتفت اليك .. كانت وجنتاك قد احتقنتا كأنما حطت كل منهما فراشة حمراء .. ولم أر عينيك هذه المرة .. انما

عيناى بك كلك .. كأنى أحاول أن اكتشفك .. وتوقفت عيناى عند نهديك البارزين كأنهما يتململان تحت الثوب .. وعند خصرك النحيل كأنه خاتم الخطوبة .. وساقيك المستقتين .. وقدميك الصغيرتين .. و .. انك لست هدى .. لست ابنة محمد افندى السيد .. انك فتاة .. فتاة جميلة ويمكن أن يكون لك حبيب .. يمكن أن يأخذك منى شاب أى شاب !!

واستأذنت سريعا .. وتركت الشقة .. ونزلت الى أسفل العمارة .. ثم وضعت نفسى فى مصعدى الخاص ، الذى حملنى الى عشى ، فى أعلى العمارة .. ودخلت .. واعددت لنفسى كأسا من الويسكى .. وجلست وانا أحاول أن أفهم نفسى ..

وأحاول أن أنسى انك فتاة ..

ولكى أنسى اتصلت بخيرية فى التليفون ، ودعوتها الى ..

.. وجاءت خيرية ..

انها تعرف الطريق الى جيدا .. وتعرف أين تجدنى .. جالسا على المقعد الكبير فى غرفة البار وامامى كأس الويسكى ، لا أكاد أرفعه الى شفتى حتى أنزله عنهما .. فهكذا تعودت منذ تجاوزت الاربعين من عمرى .. أن أبلل شفتى بالويسكى ، ولا أشربه !

وانحنت خيرية تقبلنى فوق كل من وجنتى ، ثم نظرت الى قائلة من خلال ابتسامتها الكبيرة :

ـــ مالك يا حسين .. مالك مبوز كده ؟ !

ونظرت اليها دون أن أقف لتحيتها .. نظرت اليها طويلا .. واحسست فجأة بالندم لأنى دعوتها الى .. لقد تعودت أن أدعوها كلما وقعت فى مشكل نسائى ، ولكنى فى هذه المرة ـــ ولأول مرة ـــ ندمت على دعوتها ، ربما لأن المشكل الذى وقعت فيه ليس مشكلا نسائيا .. انه مشكل مع نفسى .. نفسى التى تبحث عن الشرف .. هل تستطيع خيرية أن تساعدنى فى البحث عن الشرف ؟ !

كان قد مضى على معرفتى بها خمس سنوات .. انها ابنة « باشا » .. وزوجة « بك » .. سيدة متألقة فى المجتمع المصرى .. بجمالها .. ومتألقة بذكائها .. ومتألقة بنشاطها .. انها فى كل جمعية خيرية .. وفى كل لسان .. وصورتها فى كل مجلة .. ورغم ذلك فليس فيها صلف سيدات المجتمع ولا افتعالهن وتعاليهن .. انها تتحدث فى أسلوب بسيط ، وفى لهجة مرحة كأنها احدى بنات البلد ، وتروى نكاتا لا تلقى الا فى مجالس الحشيش .. ترويها فى فرح كأنها عثرت على تحفة أثرية فى خان الخليلى .. ولم تكن تستعمل الكلمات الفرنسية الا اذا احتاجت اليها ، وتستطيع فى دقائق أن ترفع الكلفة بينها وبين اى صديق جديد .. وهى فنانة ايضا .. ولكنها لا تعطى فنها الا بقدر حاجتها اليه كسيدة مجتمع .. انها تعزف على البيان لتكمل نجاحها كسيدة مجتمع .. وترسم لوحات بالزيت ، ليقال عنها انها ترسم بالزيت .. وتقرأ عن تشياكوفسكى وفان جوخ لا يفوتها حديث عنهما فى احد الصالونات .. ان الفن عندها ، كعقدها الماسى ، وكالخاتم « السولتير » الذى تضعه فى أصبعها ، وكالفراء « الفيزون » الذى تضعه فوق كتفيها .. شىء تتزين به أمام الناس !

وكل هذه الصفات التى تتصف بها خيرية ، تتضاءل أمام صفتها الأولى البارزة التى تحدد شخصيتها .. الطموح .. انها طموح الى أبعد الحدود ، كأن فى أعماقها بحرا لا قرار له يبتلع كل ما تلقيه فيه .. لم تكفها العمارة التى تركها لها أبوها الباشا فى مصر الجديدة .. ولم تكن تكفيها الخمسمائة فدان التى يمتلكها زوجها البيك .. فكانت تشترى أسهما ، وتبيع أسهما .. وتدخل مضاربة فى بورصة القطن .. وتشترى أراضى وعمارات ثم تبيعها وتربح فيها .. بل كانت تدخل فى مشاريع عجيبة .. كانت تشارك بعض المقاولين فى مناقصات حكومية .. وكانت شريكة فى محل بشارع قصر النيل .. ثم كانت تلعب القمار بشراهة ، وتأخذ

الربح ، وتجد دائما من يدفع لها الخسارة .. كان طموحها يبلغ حد النهم والجشع ، ولكنها كانت تستطيع أن تغلف هذا الطموح فى قالب اجتماعى جذاب ، بحيث لا تنفر منها ولا تخافها ، انما تجد نفسك أسير لباقتها ، وذكائها ، وجمالها ، وخفة دمها ، فتسلمها نفسك لتلقى بك فى البحر الذى لا قرار له .. بحــر طموحها !

وقد عرفتنى لأنها وجدت فى متنفسا لهذا الطموح .. واحاطتنى بكل اهتمامها ولباقتها وذكائها .. ولم تحاول أن تغرينى بشىء آخر .. ولكنى كنت اريد هذا الشىء الآخر .. كنت أريد أن اضمها الى مجموعتى الكبيرة .. مجموعة النساء اللاتى حصلت عليهن .. وكانت جميلة .. عيناها السوداوان اللتان تبرقان دائما كأن فى كل منهما شعلة من نور .. وحاجباها الكثيفان .. وأنفها الصغير المرفوع .. وشفتاها الواسعتان الضاحكتان ، اللتان تكشفان دائما عن أسنانها الحلوة كأنهما ستارة مسرح ترتفعــان عن مسرحية ناجحة لا تنتهى فصولها .. وجسدها الملىء .. وبشرتها الناعمة السمراء .. و .. و .. ولكن ليس كل ما اغرانى بها هو جمالها .. كان جمالها آخر ما أغرانى بها .. انما كنت أريد الاستيلاء على ذكائها ، وعلى لباقتها وعلى شهرتها فى المجتمع المصرى ، وعلى طموحها ، وعلى أبيها الباشا ، وزوجها البك .. كنت أريد كل ذلك فى فراشى .

وقد عرفت أنى أريدها ..

عرفت بذكائها .. وعرفت أن كل لباقتها لن تغنيها عن أن تعطينى نفسها .. وعرفت أن رغبتى ستظل دائما معلقة بيننا تحول دون أن تقوم بيننا صداقة مستقرة ، وتفاهم مستقر .. فأرادت أن تشبع فى هذه الرغبة ، لتنتهى منها .. ارادت أن تعطينى جسدها لأتفرغ بعد ذلك لذكائها .. ارادت أن ترضى الحيوان لنتفاهم مع الانسان .. وبكل بساطة ، منحتنى نفسها

.. جاءت الى فراشى بلا تكلف ، كأننا كذا على موعد فى النادى لنلعب مباراة فى التنس ... لم تحاول أن ترسم مأساة حولنا .. ولم تحاول أن تقنعنى بأنها ضحت بشىء من أجلى ، أو منحتنى شيئا عزيزا لديها .. ولم تحاول أن تجعل لهذا الشىء ثمنا . أو تضعه فى قائمة الحساب بيننا .. واشد ما حرصت عليه بعد ذلك الا تعاملنى كعشيقة .. لم تفرض لنفسها حقوق العشيقة ، ولم تدعنى أتكلف معها اسلوب العشق .. لا غيرة .. ولا مسئوليات .. ولا مطالب .. لا شىء سوى مباراة ممتعة فى التنس .. وجسدها دائما تحت أمرى كلما أردته .. وكأنها كانت واثقة أن اليوم سيأتى سريعا عندما امل هذا الجسد ، وافضل عليه ذكاءها ولباقتها وخفة دمها والمجتمع المثير الملىء بالحياة الذى تحيط نفسها به ..

وهذا ما حدث فعلا .. بدات امل جسدها ، ولكننى لم املها هى .. بل انى شعرت كلما ازددت مللا من جسدها انى ازداد حاجة اليها .. الى ذكائها .. والى الأوقات السعيدة التى اقضيها معها وسط الناس .. والى الخدمات الكثيرة التى تؤديها لى .. وكانت خدمات مختلفة .. بعضها تشترك فيه مع عبد العظيم بك .. كانت تنقل الى اخبار الوزراء واصحاب النفوذ .. وتأتى الى بمشاريع الحكومة قبل أن تعلن ، ثم كانت تقود الى كثيرا من النساء .. نساء اصيلات لم اكن أعتقد أنى سأصل اليهن أبدا .. ولكن خيرية قادتهن الى .. ولم تكن تقودهن الى غرفة نومى .. لا .. انها أحرص من ذلك .. وأرقى من ذلك .. انما كانت تكتفى بخلق المناسبات التى تجمع بينى وبينهن ، بعد أن تضع فى أذن كل منهن كلمة تثير طموحها .. ثم تترك الباقى على .. وعلى لباقتى حتى لا تحرمنى من لذة ذكائى ..

وهكذا استقرت العلاقة بينى وبين خيرية .. أصبحنا أصدقاء .. يفهم أحدنا الآخر جيدا .. نفهم بعضنا بالاشارة ،

وبالتلميح ، وبالنظرات .. وأصبحت بالنسبة لى كعبد العظيم .. تعرف الكثير من أسرارى ، وأعرف الكثير من أسرارها .. وعن طريق هذه الصداقة ــ لا عن طريق الجسد ــ استطاعت أن ترضى جانبا كبيرا من طموحها .. أخذت منى الكثير .. اكتنزت من ورائى ثروة .. ولم اندم على ما أعطيته لها ، فقد كانت خدماتها لى تساوى أكثر مما أعطيها .. كانت دائما تحقق لى كل ما أريده منها ..

هل تستطيع أن تحقق لى الشرف ؟ !

هل تستطيع أن تقنعنى بأنى رجل شريف ؟ !

هل تستطيع أن تساعدنى على أن أنال رضاء ابنة موظف صغير ، كان زميلا لى فى المدرسة ، ومات وهو يتعفف عنى ؟ !

وأطلت النظر فى وجه خيرية ، وهى واقفة أمامى تنظر الى فى دهشة كأنها لا تعرفنى ..

وسمعتها تردد :

ــ جرى ايه يا حسين .. ما تتكلم .. مالك .. حصل ايه .. اللى يشوفك يتهيأ له انك خسرت مليون جنيه ؟ !

ورفعت كأسى وبللت به شفتى ، وقلت وأنا أزفر كلماتى من صدرى :

ــ اقعدى يا ريرى ..

والقت معطفها من فوق كتفيها ، وجلست وهى تنزع قفازها من بين أصابعها ، وقالت ضاحكة :

ــ ما تزعلش قوى كده .. اذا كنت خسرت مليون ، لسه فاضل ستة .. يا دوبك يكفوك ويكفونى !

قلت وأنا لا أنظر اليها .. وفى صوتى لهجة الجد :

ــ أنا مش زعلان .. أنا حيران !

قالت وهى ترفع شفتيها عن أسنانها الضاحكة :

— أحسن .. انت طول عمرك محير الناس ، خليك تجربـ
الحيرة ولو مرة !

قلت وأنا أتنهد :

— أنا باتكلم جد يا ريرى .. أنا حيران فعلا !

قالت وقد بدأت شعلتا النور تتوهجان فى عينيها كأنها تحاول أن تنير لى بهما الطريق :

— خير يا حسين .. انت مخوفنى ؟ !

وعدت أتنهد ، وقلت وأنا أنظر فى كأسى :

— شوفى يا ستى .. بأه أنا اندبيت .. وقررت أن أهتم بعيلة صديق كان معايا فى المدرسة ومات .. الله يرحمه .. حبيت أرد جميل كان له على ، فجبت عيلته وسكنتها هنا فى العمارة دى .. وعملت كل اللى ممكن يعيشها عيشة نضيفة .. كويس كده ؟

قالت ريرى وهى تحاول أن تفهمنى :

— كويس .. لغاية هنا ما فيش حاجة تحير .. وتستحق لقب فاعل خير !

قلت دون أن أضحك :

— صاحبى الله يرحمه كان راجل فقير .. وعيلته على أد الحال .. عمرهم ما سكنوا فى عمارة زى دى .. ولا شافوا ناس زينا .. ويمكن ما بيعرفوش ياكلوا بالشوكة والسكينة .. رحت النهاردة أزورهم لقيتهم مش عارفين يعيشوا فى الشقة .. مش عارفين قيمة النعمة اللى هم فيها .. تصورى انى لقيتهم حاطين صفيحة فطير فى الصالون الأبيسون !

وقالت خيرية وهى تبتسم :

— وده اللى محيرك ؟ ! ..

قلت وأنا أنظر اليها مستنجدا :

— أيوه ..

قالت :

ــ ولا يهمك .. خلاص .. سيب الحكاية دى على ..

قلت فى جزع كأنى أخاف عليكما منها :

ــ حاتعملى ايه ؟ ..

قالت فى بساطة :

ــ حاعلمهم ازاى يعيشوا .. مش ده اللى انت عايزه ؟ !

قلت فى ضعف :

ــ ايوه .. بس دول ناس طيبين قوى .. وناس بلدى .. خايف انهم ما يفهموكيش ..

قالت :

ــ مالكش دعوة .. هم كام نفر ؟

قلت وانا ادير عينى عنها حتى لا ارى وقع كلامى عليها

ــ نفرين .. الأم وبنتها !!

وارتفعت الشفتان عن الأسنان الضاحكة ، وقالت :

ــ ايوه قول كده من الصبح !

ورفعت اليها عينين مذعورتين ، وقلت كأنى أصد عنكما مصيبة :

ــ صدقينى يا ريرى ، أنا مش عاوز منهم حاجة .. كل اللى عاوزه انى أرد جميل صاحبى .. انى أشوف الأم وبنتها عايشين كويس !

قالت وهى تقوم وتتجه الى البار ، وتعد لنفسها كأسا من الويسكى :

ــ حد قال حاجة .. انما قول لى .. الست يطلع عندها كام سنة ؟

قلت فى حدة :

ــ ما اعرفش .. واعملى معروف بلاش حداقة !

قالت :

ــ مش بس أعرف علشان أعمل حسابى .

قلت :

ــ بكره حاتشوفيها .. ست ما تعرفش حاجة فى الدنيا .. من ستات البيوت بتوع زمان .. ويمكن عندها اتنين واربعين .. انما تبان اكبر من كده !

قالت :

ــ والبنت ؟

قلت :

ــ سبعتاشر سنة .. ولا يمكن تمنتاشر !

قالت :

ــ كويس .. يعذى أد بنتى شوشت !

قلت :

ــ حاتعملى ايه ؟

قالت :

ــ مالكش دعوة .. الا فوتر !

ورفعت كأسها أمام وجهى ، كأنها تشهر أمامى الخطيئة ، ثم أسقطت الخطيئة فى جوفها ..

واخذت تحاول أن تسرى عنى ، دون أن تدرى سبب هذا التوتر النفسى الذى اعانيه ويبدو فى زفراتى ، وفى القلق الذى يطل من عينى .. ثم التقطت معطفها ، ونظرت الى نظرة أخيرة كأنها تحاول أن تعرف سرى .. ثم قالت وهى يائسة من أن تفهمنى :

ــ انت النهارده دمك تقيل قوى يا حسين .. أوريفوار بأه . أنا معزومة على العشا !!

وتركتنى وقد دلها ذكاؤها على أن من العبث أن تلح على معرفة سرى .. ولو الحت ، فانى أنا نفسى لم اكن يومها أعرف سرى !

تركتنى وأنا مبتئس .. وشىء فى صدرى يعذبنى ويكاد يكتم

أنفاسى .. كنت أعلم انى بدعوتى لخيرية قد بدأت أنقاد للجريمة .. وانى لن أكون شريفا .. لن أكون شريفا أبدا وأنا أحاول أن أجذبكم الى دنياى ، بدل أن أحاول أن أعيش فى دنياكم .. لن أكون شريفا وأنا أحاول أن أنصر ذكائى على ضميرى .. وأحاول أن أنتصر عليكم ، لا أن أنتصر لكم ..

وقامت فى نفسى المعركة ذاتها التى قامت يوم كنت أحاول أن أغش فى الامتحان وعينا والدك ترقبانى ، كعينى رجل البوليس .. كنت أقول لنفسى : « دعهم يعيشوا كما يريدون .. ماذا تريد من أرملة طيبة وفتاة يتيمة مسكينة ؟ » .. وكان صوت آخر يقول لى فى خبث كأنه يغرينى : « هل تدعهم يعيشون فى فقر .. انها أرملة صديقك ، وابنة صديقك .. واذا كان صديقك قد مات فقيرا لأنه كان مغفلا ، فما ذنب عائلته لتعيش فى فقر ، وتتحمل تبعة غفلته ؟ .. تقدم اليهم .. انقذهم .. قدم لهم النعيم .. متعهم بالحياة .. و .. » .. ويعود الصوت الأول يقول فى ضعف كأنه يسترحمنى : « انهم سعداء فى فقرهم .. ان السعادة فى القناعة ، وقد كانت الأم وابنتها قانعتين .. لم يأملا يوما فى حياة غير التى يعيشان فيها .. انك تريد أن تحطم قناعتهما .. تريد أن تلوث روحيهما بالطموح والطمع .. ابعد عنهما .. انك تعلم مدى قسوتك ، ومدى جبروتك .. فارحمهما » !!

والمعركة تشتد فى نفسى .. ثم لا أكتفى بأن أبلل شفتى بالويسكى ، فأشرب الكأس كلها ..

وتنسكب الخمر على نار المعركة فتزداد اشتعالا .. ومن خلال ألسنة اللهب التى تندلع فى نفسى أرى صورة الشاب الذى كان يقف على الرصيف المقابل للعمارة .. وأعود أسائل نفسى : من هو ؟

هل هو حبيبك ؟

وأحسست بالغيرة .. نوع معين من الغيرة .. أحسست

كأن هناك من يضاربنى فى بورصة القطن .. كأن هنـــاك من ينافسنى فى مناقصة حكومية .. كأن هناك من يريد أن يأخذك منى !

احسست بنفس التحفز والعناد الذى احس به وانا اواجه اعدائى رجال الأعمال ..

لا .. لن يأخذك احد منى !

ولكن ، لماذا ؟

السـت بمثابة ابنتى .. اليس من حق ابنتى ان تحب ، وان تتزوج ؟ !

وعدت احاول ان اقنع نفسى بأنك ابنتى .. حاولت ان اضع فى راسى وفى قلبى احساس الاب كما اتخيل احساس الآباء .. حاولت كثيرا .. ولكنى لم استطع .. لم استطع ان اتصورك ملكا لانسان آخر .. لم استطع ان اتصور رجلا آخر يمتلك جسدك ، وروحك ، واهتمامك ، وعمرك .. انى لم اسع اليك كل هذا السعى ، ولم ادفع كل هذه الاموال ، لازفك الى فراش رجل آخر ..

هل الآباء ملائكة ؟ .. هل يتحررون من كل انانية ، الى حد ان يضيعوا اعمارهم فى تربية بنات ، لا لشىء الا ليهبوهن الى رجال آخرين ؟ !

انى لم استطع ان اكون ملاكا ..

ان عقلى لا يستطيع ان يحتمل منطق الملائكة .. لا استطيع أن اتخلص من انانيتى الى هذا الحد ..

ومنذ هذه اللحظة كتب عليك وعلى العذاب ..

منذ هذا اليوم ، اصبحت شيئا آخر غير ابنة محمد افندى السيد .. اصبحت شيئا املكه .. واحرص على امتلاكه .

ولكن ، كيف امتلكك ، وانا احاول ان اكون رجلا شريفا .. احاول ان انال احترامك ورضاك عنى .. ؟

ان كل الناس تحترمنى .. كلهم استطعت ان اشترى احترامهم .. ولكن انت .. كيف استطيع ان اكسب احترامك . دون ان اضحى بك لانسان غيرى .. لشاب يقف على الرصيف المقابل ويرفع عينيه اليك ، وانت تطلين عليه من الشرفة كانك تقذفين بنفسك اليه ؟ ..

وقمت وانا احمل اثقالا من حديد ترسب فى صدرى .. وغادرت عشى فى اعلى العمارة ، وعدت الى بيتى وانا اتعجب من نفسى .. لم اكن ابدا اعانى من مثل هذه الحيرة .. ولم اتعذب ابدا مثل هذا العذاب !

***

وانقضى يومان ثم حددت مع خيرية موعدا لزيارتكم ..

وجاءت ترتدى ثوبا اسود محتشما ، وخففت الطلاء من فوق وجهها ، وعقصت شعرها خلف راسها ، فبدت كزوجة شريفة محافظة .. لا كسيدة من سيدات المجتمع ..

وابتسمت رغما عنى عندما رايتها .. ابتسمت تحية لذكائها !!

وحملتها فى سيارتى الى العمارة .. وقفزت ابتسامة ساخرة الى شفتى خيرية عندما فتحت لنا الباب هذه الخادمة الصغيرة الغبية ..

ودخلنا الى الصالون .. ولم يكن قد تغير فيه شىء .. فلا تزال رائحة التراب تفوح منه .. ولا تزال الالحفة والوسائد القديمة فوق الأريكة الأوبيسون .. ولا تزال صفيحة الفطير تحت المقعد المذهب .. ولمحت خيرية كل ذلك ، واتسعت ابتسامتها .. ولكنها كتمت الابتسامة سريعا ونظرت الى كانها تقول لى : « اطمئن .. كل شىء سيتغير » .

وجاءت والدتك وهى لا تزال فى نفس الثوب الأسود ، وحول عنقها طرحتها السوداء ، وقالت فى لهجة مفتعلة وهى متجهة نحو خيرية ويدها ممدودة اليها :

ـــ أهلا وسهلا .. آنستى ، ونورتى .. اتفضلى يا حبيبتى !
وقالت خيرية ، وهى تحاول ان تقلد امك فى لهجتها :
ـــ الله ينور عليكى يا اختى .. والنبى ده انا مكسوفة موت .. كان على الأقل لازم آجى اعزى فى المرحوم .. انا ما عرفتش الا اول امبارح من حسين باشا .. ده انا البيه بتاعى كان دايما يكلمنى عن المرحوم ايام ما كانوا مع بعض فى المدرسة .

وقالت والدتك وهى تتجه الى الشرفة لتشد الحبل الذى ترفع به « الشيش » :
ـــ البركة فيكى .. كتر خيرك ..
واضطررت ان اساعد والدتك فى رفع « شيش » الشرفة .. كأنى مضطر كى اكون معكم ان اقوم بأعمال الخدم ..
وغمر الضوء الصالون .. ولمحت والدتك تنظر الى خيرية فى تمعن . وذكاؤها الساذج يطل من عينيها ، كأنها تحاول ان تعرفها جيدا .. وربما راعها جمالها ، وربما راعتها اناقتها ، رغم ما بذلته خيرية لتبدو محتشمة .. وإحسست ان والدتك قد بدأت تتحفظ فى حركاتها ، وأن صوتها قد انخفض قليلا عما كان عليه وهى ترحب بنا .. واعتقدت أن مهمة خيرية لن تكون سهلة ..

وجلسنا .. والألحفة والوسائد القديمة فوق الأريكة الأوبيسون ، وصفيحة الفطير تحت المقعد المذهب ..

ودهشت عندما بدأ الحديث يتصل بين والدتك وخيرية .. لقد استعملت خيرية كل لباقتها وكل دهائها حتى ازالت تحفظ والدتك بسرعة .. واصبحتا تتحادثا كصديقتين .. وخيرية تحاول جهدها أن يدور الحديث فى حدود حياة والدتك ، دون ان تتعالى عليها ، او تكشف لها عن الحياة الأخرى التى تحياها .. كأن خيرية تعيش نفس الحياة مع والدتك .

ودخلت أنت ..

ورفعت عينى اليك . ثم خفضــتهما سريعا . وقد بدأت المعركة تتحرك من جديد فى صدرى ..

وصافحتك خيرية ثم شدتك اليها وقبلتك وهى تقول :

ـــ ما شاء الله .. ده انت اد بنتى شـــوشت تمام .. انا حاعرفك بيها وتبقوا اصحاب ..

وهززت راسك وانت تبتسمين بلا انفعــال ، ثم جلست تستمعين الى الحديث الذى عاد يتصل بين خيرية ووالدتك ..

وتعمدت طول الوقت الا انظر اليك .. والا ادع عينى تلتقيان بعينيك ..

وبعد فترة قمت انت وخرجت من الغرفة ..

ونظرت خلفك بكل عينى ..

نظرت الى قوامك الرفيع الذى يبدو فى ثوبك الأسود ، كأنه آهة حزينة تخرج من صدر عاشق .. والى خصرك النحيل .. والى ساقيك المتسقتين .. والى قدميك الصغيرتين ..

هل كل ذلك يمكن ان يكون ملكا لرجل آخر ؟ !

وهل انت فتاة يطمع فيها رجل ؟ !

الست صغيرة على طمع الرجال ؟

ولكن هذا الشاب الذى يقف على الرصيف المقابل للعمارة ..

انه يطمع فيك .. يطمع فى هذا الجسد الرقيق !

لعلك خرجت الآن لتطلى عليه ؟ !

جريت بعينى وراءك حتى اختفيت داخل الشقة .. ثم تقفزت واقفا وانا اقول لخيرية ووالدتك :

ـــ يظهر انى ماليش قعاد معاكم .. اما اسيبكم تتكلموا كلام الستات !

وقالت خيرية :

— مع السلامة يا حسين .. ابقى ابعت لى العربية بعد نص ساعة !

وقالت لها والدتك :

— نص ساعة ليه يا اختى .. ما تخليكى قاعده معانا !

ونظرت اليهما نظرة طويلة .. الى عالمين مختلفين ..

هل يجتمعان فى عالم واحد ؟

وخرجت ..

كأنى أهرب من نفسى ..

— ٨ —

وانقضى اسبوعان لم احاول خلالهما أن اراك .. كنت يائسا من نفسى .. كنت يائسا من انى أستطيع أن أرتقى بنفسى الى مرتبة الشرف .. وكنت مستسلما للمعركة التى تدور فى صدرى استسلاما عجيبا كأنى أستعذبها .. ولم أكن أدرى سر هذا الاستسلام .. لقد واجهت هذه المعركة طول عمرى ولكنى لم أستسلم لها ، ربما لانه كانت لى آمال وأطماع تنصرنى على الشىء الذى يتحرك فى صدرى .. تنصر ذكائى على محاولتى ارضاء والدك ونيل اعجابه .. ولكنى أصبحت بلا آمال ولا أطماع ، لقد حققت كل آمالى وأطماعى .. بل حققت أكثر مما كنت أطمع فيه . والملايين التى أملكها تستطيع الآن أن تنمو نموا طبيعيا على حساب الناس ، دون أن تكلفنى جهدا .. فلم يكن هناك دافع قوى يستطيع أن ينصر ذكائى على الشىء الذى يتحرك فى صدرى .. اى على ضميرى .. وفى الوقت نفسه كان ذكائى من القوة والعناد بحيث لا يستطيع ضميرى أن ينتصر عليه .. فكنت فى هذين الأسبوعين .. أعيش بين قوتين متوازنتين .. ذكائى الشرير ، وضميرى .. وأحيانا ترجح كفة الشر ، وأحيانا ترجح كفة الضمير .. وأنت دائما منتصبة أمامى ، أحاول ارضاءك حينا ، فأمتنع عن أذية الناس .. وأحيانا أثور عليك ، وعلى نظرتك الهادئة العميقة التى تثقب صدرى ، فأندفع فى أذية

الناس .. وكل ذلك بلا تعمد .. انما عشت بلا ارادة .. كنت قرفان .. قرفان من نفسى .. واحس بالملل من حياتى .. لم يعد هناك جديد .. كل شىء شبعت منه حتى ايذاء الناس .. ليس من جديد فى حياتى الا انت وامك !

وفى خلال هذه الفترة كانت خيرية تزوركما كل يوم تقريبا .. كانت تتسلل فى حياتكما برقة وهدوء وصبر .. ولكنها كانت كعبد العظيم لا تستطيع أن تفهم سر اهتمامى بكما ..

وقد اتصلت بى بالتليفون ، وصاحت ضاحكة :

— اسمح لى أقولك يا حسين ان ذوقك انحط قوى .. ايه الست اللى اتلميت عليها دى ؟ دى زى البجم ، ما بتتحركش أبدا .. يظهر انك شبعت من الجاتوه وابتديت تدور على العيش الدرة ؟

قلت لها وأنا أحاول أن اقنعها :

— صدقينى يا خيرية .. ده ما فيش بينى وبينها حاجة ابدا .. صدقينى أنا مش عاوز حاجة الا انى ارد جميل صاحبى اللى مات ..

وقالت ساخرة :

— مصدقاك ياخويا ..

وسألتها :

— وعملت معاهم ايه ؟ !

قالت :

— ما تخافش .. لازم اخلى البجم يتحرك !

وانهت حديثها وضحكاتها لا تزال ترن فى أذنى ..

وذهبت لزيارتكم .. كنت فى حاجة الى زيارتكم لأهرب من الملل الذى عشت فيه .. ذهبت بلا موعد فقد كنت انتهيت من اقناع نفسى واقناعكم بأنى صاحب البيت .. وتعمدت قبل أن أدخل الى العمارة أن اتلفت باحثا عن الشاب ذى القميص المفتوح

والشعر المنكوش الذى يتسكع على الرصيف المقابل .. فلم اره .. واحسست كأنى تجنبت معركة !

وفتحت لى الباب نفس الخادمة الصغيرة الغبية .. وقلبت شفتى امتعاضا ، وانا ازيحها من امامى ..

ولكنى ما كدت اخطو داخل الصالون حتى احسست أن « البجم » بدأ يتحرك فعلا ..

احسست ببعض انفاس خيرية ..

لم ار الوسائد والألحفة القديمة موضوعة فوق الأوبيسون ، ولم ار صفيحة الفطير تحت المقعد المذهب ..

انه تقدم كبير احرزته خيرية فى خلال اسبوعين فقط ..

انه نصر تستحق عليه التهنئة !

وجاءت أمك .. ان شيئا قد تغير فيها هى الأخرى .. ان خيرية استطاعت أن تتسلل اليها وأن تطبعها بأنفاسها ..

اى شىء تغير فى أمك ؟ !

واخذت اجهد ذاكرتى لأقارن بين أمك كما اراها الآن ، وكما رأيتها آخر مرة .. وانا احس احساسا عميقا بأن هناك تغييرا حدث لها ..

ثم اكتشفت الشىء ..

طرحتها .. الطرحة السوداء !

كانت أمك كما رأيتها آخر مرة تربط طرحتها فوق رأسها ربطا محكما ، بحيث تخفى تحتها شعرها كله ، وجزءا عريضا من جبينها ، ثم تنسدل الطرحة لتخفى تحتها العنق كله .. كانت تلف طرحتها على طريقة الندابات فى مآتم الأرياف ، ولكن وضع الطرحة تغير .. لم يعد كما كان .. انها الآن تضعها منسدلة فوق رأسها ، على طريقة هوانم القاهرة .. بحيث تكشف عن جبينها كله وعن جزء كبير من شعر رأسها .. ثم تقع فوق كتفيها دون أن تلتف حول العنق ..

ولأول مرة ارى لون شعر امك ..
انه فى مثل لون شعرك .. لون البندق !
ولأول مرة ارى عنقها .. انه فى لون العاج .. ان كان العاج يشوبه بعض الاصفرار كأنه اختزن طويلا فى مخزن تاجر العاديات ... وكنت اعتقد ان لون بشرتها يميل الى السمرة .. كانت الطرحة السوداء تلقى عليها ظلا قاتما .. ولكنى اراها الآن فى لون العاج المشوب ببعض الاصفرار !!

وابتسمت بينى وبين نفسى .. كأن ابتسامتى وسام اعلقه على صدر خيرية .

ولم تتقدم امك لترفع « الشيش » الذى ينسدل فوق باب شرفة الصالون ، كما تعودت كل مرة .. بل تكاسلت وهى متجهة اليه ، كأنها تدعونى لان اسبقها واقوم عنها بهذه المهمة ..
انه تقدم آخر .. الفضل فيه لخيرية !

وقد سبقتها فعلا الى باب الشرفة ، ورفعت عنه « الشيش » .. واتسعت ابتسامتى فى صدرى ، كأنى اضع على صدر خيرية وساما اكبر ..

وجلسنا .. والدتك وانا .. وقلت لها وقد قفزت ابتسامتى من صدرى الى شفتى :

— على الله تكونى راضية عن خيرية هانم .. مش لسه بتزوركم ؟ !

وقالت امك وهى تحاول ان تجمع طرحتها حول عنقها ، ثم لا تلبث ان تتركها تنسدل على كتفيها لتكشف عن العنق العاجى المشوب بالاصفرار :

— والنبى دى ست طيبة .. وباين عليها بنت اصل .. اول ما عرفت انى زهقانة وماعرفش حد من الجيران ، وهى ماتنسنيش .. كل يوم تفوت على ونقعد ندردش سوا ..
قلت وانا اشفق على سذاجة امك :

امال .. دى ست كريمة !

قالت ، وقد بدات الاحظ انها تحاول تقليد خيرية فى بعض حركاتها وكلماتها تقليدا ساذجا :

ــ لا .. وست بيت من كله .. ما فيش حاجة الا وتفهم فيها .. ده اول امبارح دخلت معايا المطبخ ، وعملت دقية مسقعة ترد الروح .. انما ما قدرتش تقعد لغاية ما تاكل منها .. كان لازم ترجع علشان تتغدى مع الافندى بتاعها .. قصدى البيه بتاعها !

وكدت اتهقه .

وضغطت على اعصابى بكل قواى حتى لا انفجر ضاحكا ..

لم اكن استطيع ان اتصور خيرية واقفة فى المطبخ تعد دقية مسقعة .. دون ان اضحك !

ولكن رغبتى فى الضحك ماتت سريعا وانا المح على وجه امك فرحتها بخيرية وسعادتها بها .. كأنها وجدت فيها دنيا جديدة .. دنيا لا تخافها ، ولا تحذرها .. وبدات اشفق على امك .. اشفق عليها من سذاجتها .. ان ذكاءها الساذج وحذرها الطبيعى .. هذا الحذر الذى تتميز به الطبقة الوسطى الصغيرة .. لن يستطيع ان يحميها من خيرية ..

ودخلت انت ..

ونظرت اليك نظرات سريعة متقطعة ، احاول خلالها ان اتفادى عينيك .. كنت ابحث عن تأثير خيرية عليك .. احاول ان اجد شيئا قد تغير فيك ، كما تغيرت اشياء فى امك ..

ولم يكن شىء قد تغير ..

انك كما انت .. وكما رأيتك آخر مرة .. ثوبك الأسود البسيط .. وشعرك الناعم المنسدل فوق كتفيك .. وشفتاك الرقيقتان .. وعيناك الهادئتان الثابتتان اللتان تثقبان صدرى

ولكن ربما قد تغير شيء .. ان وجهك النحيل اقل حزنا .. وبين شفتيك ابتسامة هادئة لا تفتر ..

انك سعيدة !!

لماذا انت سعيدة ؟

هل هى خيرية ، ام هو هذا الشاب المتسكع على الرصيف المقابل للعمارة ؟ !

وتضايقت لأنى اعتقدت انت سعيدة .. تضايقت .. لا ادرى لماذا .. ثم قلت لك وانا لا انظر اليك واحاول ان اضع فى حديثى لهجة الأب :

— عاملة ايه دلوقت يا هدى .. بتضيعى وقتك ازاى ؟

وانطلقت فى صوت فيه رنة شبابك وسعادتك :

— طنط خيرية جابت لى بترون جديد .. انما حلو قوى . وقاعده بافصله ؟

ولم افرح معك ..

احسست وقد بدأت خيرية تتسلل اليك وتخدعك ، انى اخدع نفسى .. واحترت .. هل كنت اتمنى أن يكون الفضل فى سعادتك يرجع الى هذا الشاب المتسكع ، لا الى خيرية ؟

واحنيت راسى كانى افكر .. وسقطت عيناى فوق ساقيك .. ساقيك المتسقتين كأن فنانا صنعهما من نور .. ومن خلال ساقيك رايت صورة هذا الشاب المتسكع مرة ثانية .. وحاولت أن ابعد هذه الصورة .. حاولت ان اسمو بنفسى عن هذا التفكير .. لماذا اتصور هذا الشاب كلما رايت قطعة من جسدك .. واذا كنت تحبينه ، فلم أربط هذا الحب بهذا الجسد .. لماذا لا اسمو بتفكيرى .. لماذا لا اضع نفسى فوق شهوة الامتلاك .. لماذا لا ارفعك عن مستوى الأسهم والسندات والعمارات وكل ما يمتلك .. كل ما ابيع فيه واشترى ؟

انى لا استطيع !

ورغم ذلك فانى اريد ان تحترمينى .. ان تعترفى بى كرجل شريف !.

وسمعت والدتك تقول :

ـ دى حتى خيرية هانم عازمانا بكره على الغدا .. علشان هدى تتعرف ببنتها .. والنبى الست دى تاعبة نفسها معانا قوى !!

وقلت انت ورنين السعادة لا يزال فى صوتك :

ـ دى عايزانى اعلم شوشت التفصيل .. بتقول ان مالهاش مولة بال على حاجة ابدا ..

قلت كأنى اتنهد :

ـ انا شايفكم مسوطين قوى من خيرية !

وقالت امك :

ـ آه والنبى يا اخويا .. دى ست ما تتعيبش .. وآهى خففت عنا غربتنا فى العمارة دى اللى ما حدش فيها عايز يعرفه حد !!

ونظرت اليك .. ان ابتسامتك فيها كثير من السخرية .. كأنك تسخرين من خيرية ومن امك !

وقلت وانا اهم بالقيام :

ـ على خيرة الله .. مش عايزه حاجه يا تفيده هانم .. مش عايزه حاجه يا هدى ؟

وقالت امك وكأنها نسيت نفسها فى محاولتها تقليد خيرية

ـ متشكرة قوى يا حسين ..

ثم استدركت بسرعة ، وهى تلف طرحتها حول عنقها كأنها تدارى غلطتها :

ـ متشكرة قوى يا سعادة الباشا !!

ونظرت اليها دهشا .. لقد نادتنى « حسين » .. بلا لقب

كما تناديني خيرية .. ولابد ان خيرية قد حدثتها عنى كثيرا ، وكان اسمى فى حديثها دائما ، بلا لقب !

وأخفيت دهشتى وقلت وانا اصافحها :

— أسناذن باه يا تفيده .. هانم !

وتعمدت ان أسكت برهة قصيرة سريعة قبل ان انطق بلقب « هانم » .. حتى اشجعها على ان نتبادل رفع الالقاب .. وصافحتك ..

وتعمدت هذه المرة ان انظر فى عينيك كأنى اسألك رايك فى .. ورايت فى عينيك نفس النظرة الهادئة الثابتة التى تعودت ان اراها فى عينى والدك .. كأنك تثقبين صدرى .. كأنك تعرفينني جيدا .. كأنى لن استطيع ان اخدعك عن حقيقتى !

وسحبت يدى من يدك سريعا ..

ونزلت من العمارة .. وخرجت الى الشارع فى خطوات مسرعة .. كأنى فى حاجة الى جرعة من الهواء ارطب بها الشىء الذى يتحرك فى صدرى ويكاد يكتم انفاسى .. وما كدت اهم بوضع قدمى داخل السيارة ، حتى لمحته ..

هذا الشاب الذى يتسكع على الرصيف المقابل للعمارة ..

ودققت النظر فيه كأنى انظر الى احد منافسى فى البورصة . لأكتشف نياته ، واختبر عوده ، قبل ان اسلط عليه ضرباتى ..

انه لا يزال يرتدى القميص والبنطلون .. نفس القميص والبنطلون اللذين رأيته بهما أول مرة .. وكأنه لا يملك غيرهما !

وقد ترك القميص مفتوحا عن صدر قوى زاخر بالشباب .. وشمر عن اكمامه ليكشف عن عضلاته .. وكأن كل ما يملكه ، وكل ما يحاول ان يغـريك به ، هو هذا الشـــباب ، وهــذه العضلات ..

ووجهه تلفحه سمرة تشتعل بدمائه ، فيبدو فى لون النحاس المصهور .. ولم أستطع ان اكذب عينى عن وسامته .. عن هذه

الخطوط القوية التى ترسم وجنتيه وذقنه وشفتيه .. وشعره الذى ترك خصلات منه تتطاير فوق راسه ، بلا تعمد .. كأنها رايات الثورة يلوح بها فى وجه الحياة .. وكان رافعا وجهه ينظر الى أعلى .. الى شرفتك .. ثم كأنه أحس بعدو يتربص به ، فأدار وجهه بحركة سريعة الى ناحيتى .. ونظر الى .

ورايت عينيه ونظرته ..

عيناه السوداوان كأنهما بحر صاخب فى ليلة حالكة . ونظرة شعرت خلالها كأن آلافا من الناس ينظرون الى .. كلهم شباب ، وكلهم غاضبون !

واحسست بالخوف ..

مر الخوف سريعا على قلبى .. دون ان يتوقف :

لحظة جبن .. لم تمر بى من قبل !

واسرعت واختفيت داخل السيارة .. كأنى اهرب .. اهرب من آلاف الناس .. ينطلقون كلهم من كمين نصب لى .. من عينين غاضبتين كأنهما بحر صاخب فى ليلة حالكة !

واحسست بنفسى اتجمع للانتقـــام .. الانتقـــام من آلاف الناس !!



وقضيت ليلتى وهذه النظرة الغاضبة معلقة فوق رأسى .. تطل على من السقف ، ومن فوق الجدران ، واراها بجانبى فوق الوسادة .. واضع راسى تحت الوسادة ، فأراها تحت الوسادة . ان هذه النظرة رايتها من قبل .. رأيتها فى عيون ناس كثيرين .. ناس كانوا يلتفتون حول سيارتى الكاديلاك الكبيرة ثم يطلقون على هذه النظرة .. وناس كانوا يمرون أمام قصرى ثم يطلقون على هذه النظرة .. وناس كانوا يسمعون عن ثرائى ثم يطلقون على هذة النظرة .. ناس من الشارع .. كأن عيونهم فوهات

مسدسات تطلق الرصاص على صدرى .. وقد استطعت أن اطفىء هذه النظرة فى عيون الكثيرين ممن الحقتهم بشركاتى وأفضت عليهم من نعمتى ومالى .. ولكن ، هل استطيع أن اطفىء هذه النظرة فى عيون كل الناس الذين يملأون الشوارع ؟ .. وهل أستطيع أن أطفئها فى عينى هذا الشاب المتسكع على الرصيف المقابل لعمارة شارع النيل ؟ !

وقمت فى الصباح وراسى ثقيل يحمل طنا من الصداع .. ولكى ذكائى ثائر ، وهو فى ثورته يجر راسى بعنف .. يجرها الى المعركة ، كأنه يجر مدفعا ضخما لينصبه فى موقع استراتيجى حصين .. استعدادا لاطلاق القذائف ..

وذهبت الى مكتبى مبكرا عن موعدى .. وجلست فى انتظار عبد العظيم ، وانا انظر فى ساعتى بين الحين والحين .. وخيل الى انه لن يجىء أبدا .. وبدات اثور .. ان اعصابى ليست كما تعودتها .. وخيل الى انى سأهب فى وجه عبد العظيم عندما أراه وأصفعه قلمين لانه تأخر فى المجىء الى .. ولكن عبد العظيم جاء أخيرا . ولم أهب فى وجهه ، ولم أصفعه .. بل بذلت كل جهدى لأسيطر على أعصابى ، واستقبلته بنفس الابتسامة المتعالية التى تعودت أن استقبله بها ..

وجلس عبد العظيم فى المقعد المريح قبالة مكتبى .. وكان يبدو هادئا مرتاحا ، كأنه لن يقوم من هذا المقعد ابدا .. ثم أخرج سيجارة وأشعلها ، وأخذ يشد انفاسه فى بطء وتلذذ .. كأننا نحن الاثنين جالسان فى مقهى ، وليس وراءنا ما نفعله الا أن نقرأ وجوه المارين من أمامنا .. كأنه لا يعرف انى ثائر . وكأنه لا يعرف أن لى أعداء كثيرين استعد للقضاء عليهم .. ثم تكلم ، وخيل الى انه يتكلم فى بطء شديد لا تحتمله اعصابى .. بدأ يعرض على اعماله القذرة .. وأنا أستعرض هذه الاعمال بعينين

قاسيتين .. كنت قاسيا فى هذا الصباح .. كنت احس بعداوة كل الناس ..

وقال عبد العظيم :

ــ مفتش الضرايب فى شركة المقاولات تاعبنا قوى .. عامل لنا مشكلة فى كل دفتر ..

وقاطعته ساخطا :

ــ وعملت فيه ايه ؟

قال :

ــ كلمت الوزير امبارح فى حفلة الجمعية الخيرية ، ووعدنى انه حينقله سوهاج ..

قلت غاضبا :

ــ مش كفاية .. لازم تفهم يا سى عبد العظيم ان مفتش الضرايب مش ممكن يتجرأ علينا الا اذا كان مسنود .. لازم المدير بتاعه يكون مشجعه على كده .. يبقى مدير المصلحة لازم ينشال .. دور له على فضيحة توديه فى داهيه !!

ونظر الى عبد العظيم فى اعجاب ، وكأنه اشتاق الى هذه القسوة منى ، وقال وابتسامته الملوثة قد اتسعت فوق شفتيه الغليظتين :

ــ حاضر !!

وقلت فى عجلة :

ــ فيه ايه كمان ؟

قال :

ــ وزير التموين عايز يصدر امر استيلاء على القمح اللى شترناه من كندا .. وحايدخله التسعيرة !

قلت وانا الهث كأنى اجرى مع عبد العظيم فى سباق :

ــ التسعيرة كام ؟

قال :

ــ اربعة جنيه للأردب !

قلت :

ــ وواقف علينا بكام ؟

قال :

ــ بتلاتة !

قلت :

ــ يبقى التسعيرة لازم تكون سته جنيه للأردب .. احنا مش بنلعب... كلم رئيس الوزارة ، واذا ما وافقش حول الشحنة للعراق .. وخلى البلد تقعد من غير قمح ، علشان الوزارة تسقط فى يومين ، ويحرموا يتجدعنوا علينا .. هو الشحنة مش لسه على المركب ؟ !

قال وقد وصل اعجابه بى الى حد ان بدا مبهوتا :

ــ لسه !

قلت :

ــ خلاص .. اعمل اللىَ باقولك عليه .. وادى امر لكابتن المركب انه ما يفرغش الا لما نقول له !

قال من خلال ابتسامته الواسعة :

ــ حاضر !!

وبدأ عبد العظيم يلهث معى كأنه لم يكن ينتظر ان يجرى معى هذا الصباح كل هذا المشوار الطويل ..

وانتهى من عرض كل ما عنده من اعمال شركاتى .. اعمال شركاتى القذرة .. ثم صمت فترة ، وعاد يخرج من جيبه سيجارة اخرى ويشعلها ، كأنه يترك لى الفرصة لأبدأ فى عرض اعمالى الخاصة عليه ..

وقلت وانا اميل الى الوراء كأنى استعد لموضوع اكثر خطورة :

ــ مافيش حاجة تانية ؟

قال كأنه يشجعنى على فتح الموضوع الأكثر اهمية :

ــ مافيش .. بس إسماعيل افندى عبد الجواد أخو الست نفيدة هانم ، له مشكلة صغيرة ..

وكنت قد نسيت خالك .. نسيت اسماعيل افندى .. فقلت كأنى اتذكر شيئا بعيدا :

ــ ماله ده كمان ؟

قال فى امتعاض :

ــ مش عاجبه التلاتين جنيه اللى بيقبضهم من شركة انسكندريه .. وكل يوم يبعت لى جواب .. عاوز يزود ماهيته !

قلت وانا أنظر فى وجه عبد العظيم .. وقد تذكرت الكراهية التى يحملها لخالك :

ــ وعملت له ايه ؟ !

قال :

ــ رفعت ماهيته لخمسين جنيه ، وعينته مدير خزنة فى الشركة !

ورايت الحبل الذى بدا عبد العظيم يلفه حول عنق خالك .. الخدعة القديمة التى تعودنا أن نلجأ اليها عندما نريد أن نذل احد موظفى الشركة .. أن نضع نقودا كثيرة بين يديه .. آلاف الجنيهات تملأ عينيه صباحا ومساء وتغريه بنفسها ، كأنها سيقان حسناء تتراقص أمام محروم .. ثم نهمل فى مراقبته .. حتى يطمع فى هذه الأموال .. أموال الشركة .. ويختلسها .. ونضبطه .. ونمسك به من عنقه .. ثم نصنع به ما نريد !!

هل اترك خالك يقع فى هذه الخدعة ؟

ونظرت الى عبد العظيم من تحت جفنى ، ورأيت فى عينيه نظرات تحفز كأنه يستعد ليثور فى وجهى اذا حاولت أن أصده عن اذلال غريمه .. وسمعت صوتا يتردد فى صدرى كأنه يقول لعبد العظيم : « يا شيخ حرام عليك » .. ولكن هذا الصوت لم يرتفع

الى شفتى .. لم اكن فى حالة استطيع معها ان اشفق على احد !!

وسكت برهة ، ثم قلت لعبد العظيم وانا لا انظر اليه ، كعادتى عندما اريد ان اوحى اليه بعملية خاصة :

— والله الجماعة دول تاعبنى قوى !!

قال فى شماتة :

— ليه .. حصل منهم حاجة .. عايزين اكتر من كده ايه ؟ !

قلت كأنى اؤنبه :

— لا .. مش عايزين حاجة .. انما ظهر انهم مش بالبساطة اللى كنت متصورها !

قال وقد خيل الى ان لسانه قد تدلى ليلعق فى دمائكم :

— ازاى ؟ !

قلت :

— انت عارف انى مهتم بالبنت هدى .. باعتبرها بنتى تمام انما لاحظت عليها شوية حاجات ما تطمنش !!

قال كأنه يتعجلنى :

— زى ايه ؟ !

قلت وانا اتنهد :

— مااقدرش اقول لك بالضبط .. يمكن البنت مظلومة .. انما كل مرة ازورهم فيها الاقيها واقفة فى البلكون ، والاقى شاب صغير واقف فى الشارع بيبص لها ويشاور ..

وقال عبد العظيم وهو يبتلع لعابه :

— وده يطلع مين ، الشاب ده ؟

قلت :

— والله مااعرفش !

قال ونظرته الخبيثة تملأ وجهه كأنه يهم بالتهام فريسة :

— ازاى الكلام ده .. لازم نعرفه .. يمكن يكون بيضحك

عليها .. لازم ناخد بالنا كويس .. دى تربية البنات مسئولية كبيرة !

قلت وانا ازفر انفاسى فى افتعال :

ـ فعلا .. مسئولية كبيرة .. ما كانش ناقصنى الا المسئولية دى !

قال وهو يهم بالقيام وقد دب فيه نشاط غريب :

ـ اطمئن سعادتك .. ولا يهمك !

وخرج من مكتبى فى خطوات واسعة ، وانا انظر وراءه فى تساؤل كأنى أنظر الى حصان املكه انطلق فى حلبة السباق .

وفى مساء هذا اليوم سهرت فى قصر الأميرة شويكار .. كانت هناك حفلة صاخبة جمعت كل المجتمع الراقى .. ولم اكن احب أن اتردد على هذه الحفلات .. كنت افضل دائما ان اقيم حفلة لنفسى ، اجمع فيها عشيقاتى ، واعدائى .. ولم يكن لى فى الحياة سوى عشيقات واعداء .. ولكنى فى تلك الليلة كنت فى حاجة لأن اكون بين ناس كثيرين .. الناس الذين يكونون هذا المجتمع الراقى .. انى فى هذا المجتمع أحس بقدرى ، واحس بانتصاراتى .. واحس بأنى سيد !

وخطوت بين الناس وصفوفهم تنشق أمامى .. كأنى النبى موسى اشق البحر بعصاى .. والهمسات تزفنى على الجانبين .. ونظرات فى عيون النساء تدللنى ، ونظرات فى عيون الرجال تخشع لى .. الى ان جاءت خيرية وجذبتنى من يدى واجلستنى على مائدتها .. وقالت وهى تهمس فى اذنى وبين شفتيها ابتسامة ، كأنها تلقى نكتة :

ـ الجماعة بيسلموا عليك !!

وبللت شفتى من كأس الويسكى الذى وضعته أمامى .. ولم ارد عليها !

ولصقت كتفها بكتفى واحنت راســها نحوى حتى اغرقت وجهى فى طبقات شعرها ، وقالت فى دلال :

— بلغنى انك كنت عندهم امبارح ؟

قلت ورائحة العطر تملأ انفى :

— ايوه .. ولاحظت أن البجم ابتدا يتحرك .. البركة فيك !!

قالت ضاحكة وهى ترفع كأس الويسكى الى شفتيها :

— ولسه .. انما لو كانت واحدة تانية ما كانتش تاخد منى يومين .. دى ست معقدة خالص .. وعلى فكرة .. النهاردة خدتها ورحنا شيكوريل .. وعلى اللى عملته هناك .. بقت خايفة تمسك القماش بصوابعها .. وعلى طــول تسأل عن التمن .. فضحتنى قدام البياعين .. وبالزور لما خليتها تشترى حاجات بعشرة جنيه .. ومارضيتش تشترى الا لما قلتلها ان لك خصم خمسين فى المية ، وانها تقدر ما تدفعش ، وتبعت لك الفاتورة ، وبعدين تحاسبك .. دى بخيلة موت !

قلت :

— أنا عارف انى تاعبك بالناس دول يا خيرية !!

قالت ضاحكة :

— تعبك راحة يا سعادة الباشا .. انما قوللى .. ايه رأيك فى أسهم الشركة المصرية ؟

وعرفت أن خيرية بدأت تقاضينى الثمن ، وقلت :

— مالهم ؟

قالت :

— مش عاجبنى .. نفسى اشترى اسهم فى شركة الغزل !!

قلت دون أن اهتز :

— حاضر .. بكره ابعت لك ميت سهم !

قالت وهى تربت على ساقى من تحت المائدة :

— ربنا يخليك لى يا حسين .. وفيه حاجة تانية !

ونظرت اليها نظرة غاضبة كأنى احذرها من ان تتمادى فى طمعها .. وتلقت النظرة باسمة وقالت :

ــ انت مش حتركب تليفون للست تفيدة .. انا تعبت من زيارتهم كل يوم .. على الأقل التليفون يساعدنى شوية !

قلت وانا ادير عينى عنها :

ــ ما اظنش ..

قالت فى تعجب :

ــ ليه .. خايف عليهــم من التليفــون .. ابتديت تغير يا حسين !!

قلت :

ــ انت عمرك ما حاتقدرى تفهمينى يا خيرية .. اغير ايه وبتاع ايه .. انا خايف على البنت الصغيره ..

قالت :

ــ خايف عليها من ايه .. دى ما حدش يخاف عليها ابدا .. دى ما بتتكلمش كلمتين على بعضهم ، وما تعرفش حاجة فى الدنيا الا الخياطة !

قلت وانا افمس ابتسامة ساخره

ــ ده بس متهيألك !

قالت :

ــ متهيأ لى ازاى ؟ !

قلت فى حسرة :

ــ دى طول النهار قاعدة فى البلكون وواحد واقف لها فى الشارع .. ساعة ما حيركب التليفون ، حاتسيب البلكون وتفضل تكلمه !

قالت فى دهشة :

ــ صحيح والنبى ؟ !

قلت :

— صحيح !

وضحكت ضحكة عالية وقالت :

— أما أنا عبيطة صحيح .. حتى البت دى كمان .. وده يطلع مين الواحد ده ؟ !

قلت فى اسى :

— ماعرفش .. انما انا خايف عليها قوى !

قالت :

— تلاقيه شوفير .. ولا مكوجى .. يعنى حايكون ايه ؟ !

قلت وقد اشتد بى الأسى :

— ماعرفش !

قالت :

— أنا اعرفة لك ..

قلت :

— حاتعرفى ازاى .. اذا كنتى بتقولى انها مابتتكلمشى .. ده تلاقى أمها نفسها ما تعرفش !!

قالت فى ثقة :

— مالكش دعوه .. بكره اجيب لك الأخبار كلها !

وتدخل بيننا الأصدقاء .. اقصد الأعداء .. وقطعوا علينا حديثنا .. واندمجنا فى حديث آخر .. وانطلقت من صدورنا ضحكات ننتزعها من صدورنا .. كأنها تخرج من مصانع حديد .. وتعمدت أن اطيل السهر . كنت لا اريد ان اعود الى البيت .. لا أريد أن أكون وحدى ..

ولكن عدت مرغما ..

عدت بعد أن احكمت الحصار حولك .. عبد العظيم وخيرية .. كلاهما يحاصرك .. عبد العظيم يحاصرك خارج البيت .. وخيرية تحاصرك داخل البيت !

.. وعشت فى انتظار ان تصلنى معلومات عن هذا الشاب الذى يتسكع تحت شرفتك .. وكان عبد العظيم قد نصب حوله شبكة هائلة ، ليصطاد بها كل شىء عنه ..

انك لا تتصورين ماذا يستطيع ان يفعله عبد العظيم .. ان تحت امره بوليسا خاصا ، اشبه بالبوليس السياسى .. وقد بدا هذا البوليس الخاص يعمل فى دائرة جديدة .. كانت اختصاصاته من قبل قاصرة على دوائر المال ورجال الأعمال وموظفى الحكومة .. لم يعمل من قبل فى دوائر الناس العاديين التافهين ، امثال هذا الشاب المتسكع !!

وقد تتبعه احد رجال عبد العظيم حتى عرف اين يسكن ، ومن هناك عرف عنه كل شىء ..

ان اسمه عادل فتح الله .. ويسكن فى حى شبرا قريبا جدا من بيتكم القديم .. وقد تخرج فى كلية التجارة ومضى عليه عام دون ان يجد عملا .. وهو من الشباب الوطنى المتحمس ، وسبق ان قبض عليه فى عدة مناسبات سياسية .. ودخل السجن مرتين .. ومعروف فى وزارة الداخلية بأنه من زعماء الطلبة .. ومن مثيرى الثورات .. و .. و ..وابوه يعمل موظفا فى الدرجة الخامسة بوزارة الأوقاف .. وله اخ لم يتم تعليمه ويشتغل كاتب حسابات فى ورشة .. واخت مخطوبة على وشك الزواج

.. وأمه سيدة طيبة معروفة فى الحى بالطيبة والورع .. والحى كله يعرف أن عادل يحبك منذ سنين .. وانك صديقة لأخته .. وأنه سيطلبك للزواج بمجرد أن يجد عملا .. ولم يجرؤ أحد من أهل الحى على أن يشوه هذا الحب ، أو يمسكما بكلمة جارحة .. ان عادل محبوب من كل الناس ، وعلاقته بك علاقة يحترمها كل الناس .. ولكن الناس يقولون انك منذ انتقلت من حيهم ، انقطعت عن زيارة أخت عادل .. وأن أمك أصبحت تعارض مشروع الجواز .. وقال الحلاق الذى يقع دكانه فى شارعكم القديم « بيقولوا ان فيه واحد باشا عايز يتجوز الست الكبيرة .. ياما فى الدنيا عجايب .. بأه حد يصدق ان الست تفيده مرات الرجل الطيب محمد افندى السيد .. تبقى مرات واحد باشا » !

وعادل لم ييأس ..

ان جابر بواب العمارة يراه بين كل يوم وآخر ، وهو يسير على الرصيف المقابل ويرفع عينيه الى شرفتك ، ويراك وانت واقفة فى استقبال عينيه .. وعم جابر يشهد بأنك لا تخرجين أبدا وحدك .. انك دائما مع والدتك .. ولم يحدث الا مرة واحدة أن رآك تخرجين وحدك من باب العمارة .. ثم تسيرين مسرعة الخطا على شاطىء النيل وعادل خلفك .. وظل عم جابر يتبعكما بعينيه حتى غبتما فى آخر الطريق .. ولكنك عدت بعد فترة وجيزة لم تستغرق أكثر من ربع ساعة .. عدت مسرعة الخطا أيضا ، وصعدت الى شقتك .. وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى خرجت فيها وحدك خلال الستة شهور التى انقضت على انتقالكما الى عمارة شارع النيل ..

ولكنكما تتراسلان ..

ان فتحية الخادمة الصغيرة الغبية ، تنزل كل صباح وتفتح صندوق الخطابات الخاص بالسكان ، وتفتش فيه عن خطابات ..

وفى فترات متباعدة تخرج فتحية من العمارة وفى يدها خطاب تلقيه فى صندوق البوستة القريب ..

هذه هى المعلومات التى عرفتها عن عادل .. وعرفت منها لماذا عارضت فى الانتقال الى شارع النيل .. ولماذا بكيت كثيرا أيامها .. وعرفت منها : لماذا تبدين حزينة يوما ، وسعيدة يوما .. وعرفت منها سر هذا الهدوء والاطمئنان والترفع .. انه الحب .. حب عادل ..

ماذا أفعل به ؟

ماذا أفعل بكما ؟

انى لا أستطيع أن أنافس عادلا فى حبك .. رجل فى الخامسة والخمسين ، ينافس فتى فى الرابعة والعشرين .. مستحيل !!

وانت بالذات .. انك لا تطمعين فى مالى ، حتى أغريك به .. ولست فى حاجة الى نفوذى حتى أغريك بنفوذى .. هل يمكن أن تحبينى هذا الحب المجرد النظيف .. كما تحبين عادل ؟!.

ووجدت نفسى أقف أمام المرآة وأطيل النظر فى وجهى .. ولأول مرة اكتشفت هذه الأخاديد السود حول عينى ، كأن عينى قد توسدتا ظلام القبر .. وقد كان غرورى وتهافت النساء على ، يجعلانى أعتقد أن هذا السواد فيه ما يفتن النساء .. كنت أعتقد انه كحل .. صنعته يد الله .. ولأول مرة أيضا أرى الشعر الأبيض يملأ رأسى كأنه رايات الاستسلام للزمن .. وكنت أعتقد — لغرورى — أن الشعر الأبيض فيه سحر يجذب النساء .. كالورد الأبيض ، وكثوب العرس .. ولأول مرة أرى خدى مهدلين .. وأرى شفتى باهتتين كأن الزمن قد امتص منهما لون الحياة .. وأرى جسدى منتفخا .. قصيرا .. كأنه كيس منتفخ بالذهب !

هل يمكن أن تحبى هذا الشىء الذى هو أنا ؟ !

هل يمكن أن تهجرى عادلا من أجلى ؟ ؟

ولكن .. كيف اجرؤ على هذا التفكير ؟

بأى حق ..

ولماذا لا اترككما لحبكما .. وابارك هذا الحب .. واجمعكما فى بيت سعيد .. لماذا .. لماذا ؟

لماذا لا احاول اسعادك ، بعد أن اشقيت الملايين ؟ !

لماذا لا اشبع من الدنيا ؟ !

لماذا لا احترم نفسى ؟!

لقد قاومت كثيرا .. ولأيام طويلة .. ولكنى فشلت .. فشلت فى احترام نفسى .. وكنت كلما اطلت التفكير فى عادل .. ازددت تمسكا بك .. وتطور تمسكى بك ، الى رغبة فيك .. ثم اصبحت رغبتى فيك شهوة .. اصبحت اشتهيك ، بكل ما فى الاشتهاء من دنس .. اشتهى جسدك .. واشتهى شفتيك .. واشتهى خصرك .. واشتهى ساقيك .. اشتهيك كما لم اشته امرأة من قبل .. انى دائما اشتهى الصعب .. اشتهى ما يملكه الآخرون ، اشتهيت عشيقات الآخرين ، وزوجات الآخرين ، وبنات الآخرين ، واموال الآخرين .. والآن اشتهيتك انت .. لانك لست لى ، ولا يمكن ان تكونى لى .. شيخ فى الخامسة والخمسين يشتهى فتاة فى الثامنة عشرة .. هل تدرين ما فى هذه الشهوة من عذاب .. انها اشبه بضرب السياط .. انها اشبه بلسع النار .. انها اكثر من ذلك .. انها الأرق !

ورغم ذلك فكان على ان اكبت شهوتى .. اكبتها بعنف .. فلم اكن استطيع ان اطلقها .. كانت هذه الشهوة كحيوان بشع احبسه فى صدرى واخاف ان اطلقــه امامك فتخــاف منى .. وتحتقرينى !

كنت اجبن من ان اريك حقيقتى ..

وكنت لا ازال اطمع فى ان انال احترامك يوما .. انال احترام نفسى !

فاكتفيت بأن احطم حبك لعادل .. ان امزق قلبك دون أن تدرى انى انا سر عذابك ، وانا السكين المغروز فى كبدك !

كيف ؟ !

لقد كان عبد العظيم يأتى الى كل يوم بخبر عن عادل .. وكان يلاحظ وقع هذه الأخبار على ، رغم المجهود الذى كنت ابذله لأبدو امامه هادئا .. وكان يفكر مثلى فى وسيلة يقضى بها على عادل .. وقال يوما وهو ينظر الى كأنه يشفق على :

ـــ انا مش عارف الحكومة سايبة الولاد اللى زى سى عادل ده ، ازاى ؟ !

قلت وانا لا انظر اليه حتى اترك له الفرصة ليسرد خطته :

ـــ ليه .. ماله عادل ؟ !

قال وهو يفتعل الغضب :

ـــ ده شيوعى .. ده شيوعى خطير .. ده طول الليل والنهار قاعد على قهوة فى شبرا وحواليه شوية عمال بيدرس لهم الشيوعية !

قلت وانا ابتسم ساخرا :

ـــ يا شيخ حرام عليك !

قال وقد ارتفع صوته :

ـــ حرام على ازاى .. ده شيوعى جدا .. ده عضو فى اللجنة المركزية .. ده متصل بستالين رأسا .. انا لازم ابلغ عنه مدير الأمن العام .. يمسكه ويوديه فى داهية .. انا عارف الحكومة بتعمل ايه .. دى حكومة نايمة ؟ !

وكنت أعلم أن عادل ليس شيوعيا .. وعبد العظيم أيضا كان يعلم انه ليس شيوعيا .. ولكن كانت تهمة الشيوعية فى ذلك الوقت يمكن ان توجه الى اى انسان تريد الحكومة ـــ او أريد انا ـــ ان نتخلص منه .. ورغم ذلك فقد استقبلت اقتراح عبد العظيم مبتسما كأنى ارتحت لمجرد تصور عادل فى السجن .. بعيدا

عنك .. وفكرت برهة .. برهة قصيرة .. ثم فجأة صرخت في وجه عبد العظيم :

— اوعى تبلغ عنه .. ولا تعمل فيه حاجة .. انت فاهم .. انا باقولك اهو .. مش عايز عادل ده يجرا له حاجة ابدا !!

وتراجع عبد العظيم الى الوراء وفي عينيه خوف اثارته فيه صرختي .. وقال ولسانه يرتج :

— ده .. ده .. ده شيوعى !

قلت وانا انظر اليه بكل عينى .. النظرة التى يعرف بها مدى سيطرتى عليه :

— بلا شيوعى ، بلا زفت .. اسمع الكلام من غير مناقشة !

وسكت عبد العظيم ، وتدلى راسه فوق صدره ، وتنهد كأنه يخرج من صدره ريح الشر ..

وكنت فعلا لا اريد لعادل ان يدخل السجن .. لم اكن مشفقا عليه .. ولم تنتبنى نوبة خير وشهامة .. ولكنى تنبهت الى انه لو دخل السجن مرة اخرى فسيزداد بطولة امامك .. يصبح بطلا جميلا يستحق مزيدا من الحب .. حبك .. وقد يدفعك الحب الى ان تقدمى على تضحية من أجله ، وتزدادى تصميما على انتظاره ..

ان دخول عادل السجن ، هو وسام يعلقه على صدره ، ويتباهى به امامك .. وانا اريد ان تكرهيه .. اريد ان تيأسى منه .. اريد ان اقنعك بأنه لا يستحق حبك .. واقنعك بأنه حبيب غادر .. واجعلك تتصورين انه هجرك .

وقال عبد العظيم بعد فترة صمت طويلة ، وكأنه يئس من ذكائه :

— امال تفتكر سعادتك نعمل فيه ايه .. نسيبه كده رايح جاى قدام العمارة ، وواكل عقل هدى ؟ !

وتململت عندما ذكر اسمك ، كأنه يعايرنى بعاهتى .. وقلت وانا اخفى عنه عينى :

ــ انا متهيألى ان عادل ده جدع ابن حلال .. انت مش بتقول انه عاطل ؟

ونظر الى عبد العظيم كأنه يستعد لأن يرى صاروخا ينطلق من راسى ، وقال :

ــ ايوه .. ما حدش عايز يشغله !!

قلت فى هدوء :

ــ شوف له شغلة !!

قال وكأن امله قد خاب فى ذكائى :

ــ اشوف له شغله فين ده كمان !!

قلت كأنى انهى عملا :

ــ شركة القصير للمناجم كانت عايزه موظفين .. ابعته هناك !

قال فى غيظ :

ــ اوديه البحر الأحمر يقعد هناك بين العمال علشان يعمل لنا ثورة !

قلت وانا ابتسم له لأهدىء من غيظه :

ــ ولا ثورة ولا حاجة .. الشبان اللى زى دول اول ما يلاقوا اكل عيشهم .. يبطلوا سياسة !!

قال وهو يمصمص شفتيه كأنه يلعن سوء حظه :

ــ انا مش مطمئن للمشروع ده !!

قلت :

ــ خليها على مسئوليتى .. واذا عمل حاجة نرجعه بعد شهر ولا شهرين !!

قال :

ــ واذا ما رضيش يشتغل ولا يسافر ؟

قلت :

— نبقى نفكر فى حاجة تانية !

وقام عبد العظيم ووجهه كتلة من القرف ، وما كاد يصل الى الباب حتى عاد والتفت الى قائلا كأنه ينبهنى الى شيء نسيته :

— انما ده أول ما حيلاقى شغل حايتلم على هدى ويتجوزها ..

قلت :

— ما يقــدرش .. انا دلــوقت ابوها .. وانا اللى لازم أوافق !!

قال :

— ده لسه باعت لها جواب امبارح :

قلت وانا اضع بين كلماتى مغزى يفهمه عبد العظيم :

— ما تشوف لك حل فى حكاية الجوابات دى .. اظن مافيش لازمة لها !!

قال وهو يفتح الباب ويخرج :

— حاضر !!

ولم يكن من الصعب على عبد العظيم ان يحول دون وصول خطابات عادل اليك .. كل ما حدث أن جابر البواب اصبح يفتح صندوق الخطابات قبل ان تفتحه خادمتك الصغيرة الغبية ..

وقرأت اول خطاب من عادل حصل عليه جابر البواب ..

ولم اكن ادرى ان الخطابات الغرامية بين حبيبين فى عمر الشباب .. يمكن ان تكون بمثــل هذه العفة .. وبمثل هــذه البساطة .. انه لا يتغزل فيك .. ولا يشكو .. ولا يتأوه .. انما يحدثك حديثا واضحا جادا عن مشروع الزواج .. عن بيتكما .. وعن الأبواب التى يطرقها باحثا عن عمل .. ثم يحدثك عن اخته ، وعن امه .. وعن ..

وهنا انطلقت عينى تلتهم السطور ، والكلمات تتنز فى وجهى

كأنها تصفعنى .. صفعات كثيرة ، قاسية مؤلمة .. انه يقول لك :

« انى لا استطيع الى الآن ان اقنع بما تقولينه عن هذا الباشا .. انك تقولين انه يرد جميل والدك عليه .. وتقولين انه لم يبد منه ما يسىء اليك ، أو الى عمتى تفيدة .. هذا كلام لا استطيع ان اصدقه أو اقتنع به .. انى أعلم أنك صادقة فيما تقولين .. ولكن هذا لا يعنى انك لست مخدوعة فى هذا الباشا .. ان هؤلاء الباشوات لا يردون جميل احد عليهم .. ولا يفعلون خيرا لوجه الله .. لابد أن هناك شيئا وراء كل هذا .. شيئا لم أكتشفه بعد .. وهم يقولون فى شبرا انه سيتزوج عمتى تفيدة .. ويروون حكايات أشبه بالأساطير ، يحاولون أن يفسروا بها هذه المعجزة التى حدثت فى حيهم .. وقد كدت اقاطع اهل الحى كلهم ، ولم أعد اذهب الى دكان الأسطى خليل الحلاق .. فانى لا أطيق أن أسمع حديثا عنكما .. انى واثق من ان عمتى تفيدة لا تفرط فى شىء يشينها ، ولكن المقاومة لها حدود ، والاغراء ليس له حدود .. ثم انى احس احساسا عميقا بأنك اصبحت تعيشين فى دنيا ليست دنياى .. دنيا بعيدة ، مخيفة ، تثير فى صدرى روح العداء .. وكم كنت أتمنى أن أراك ثانية فى شبرا .. فى بيتكم القديم .. أراك تعيشين مثلنا .. فى بساطة .. وتزورين أختى .. و .. ولكن ربما كانت عمتى تفيدة على صواب اذ قاطعتنا وقاطعت حينا .. انك لو جئت الينا الآن لالتف حولك الناس ، وأخذوا ينظرون اليك كمخلوق عجيب .. ولكن ثقى انى لم أيأس .. سأجد عملا .. وسنتزوج .. ولو اضطررت أن أحطم الدنيا .. »

واعدت قراءة السطور .. كأنى أعرض وجهى مرة ثانية للصفع .. ثم خبطت بيدى على مكتبى .. وقمت اروح واغدو فى الغرفة . كالأسد الغاضب ، وقد امتلأ صدرى بالثورة حتى

لم يعد فيه مكان لضميرى .. وانطلقت منه طاقة رهيبة .. تتحدى .. وتدمر ..

لم يعد عادل انسانا يحبك ..

ولكنه اصبح انسانا لا يحبنى !!

انه يريد ان يأخذك منى حتى لو كنت كريما معكما .. حتى لو اعترفت لكما بحبكما ..

ان المعركة اعلنت ..

معركة بينى انا ، بكل هيبتى ، ونفوذى ، وثرائى .. وبين هذا الشاب التافه الذى لا يدرى به احد ..

ورغم ذلك فقد كنت مضطرا ان اكتم غيظى .. وان اقود المعركة فى هدوء حتى لا اخطىء فأجعل من عادل شهيدا ، فيسمو فى عينيك وفى قلبك .. كنت اريد ان احطم حب عادل فى قلبك ، قبل ان احطم عادل نفسه !

وفى خلال اسبوعين ارسل لك عادل ثلاثة خطـــابات .. استوليت عليها .. وفى الأسبوع الثالث نزلت الخادمة الصغيرة الغبية من العمارة وفى يدها خطاب .. وتلقاها عم جابر البواب ، ليسألها فى لهجته الآمرة التى يخاطب بها كل خدم العمارة :

— رايحة فين يا بت !!

وقالت الصغيرة وهى ترتعد امامه :

— رايحة ارمى الجواب ده فى صندوق البوسته ..

قال :

— جواب لمين ؟

قالت :

— ده جواب من ستى هدى .. باعتاه لخالها فى اسكندرية !

قال :

— ورينى كده !

واخذ منها الخطاب ، وقرا عليه اسم عادل .. ثم نادى

أحد مساعديه من بوابى العمارة ، وأعطاه الخطاب . وامره أن يلقيه فى صندوق البريد .. ثم قال لفتحية الخادمة :

ــ ارجعى انتى يا بت ..

وقالت فتحية وهى ترتعد :

ــ دى ستى تموتنى .. دى موصيانى أرمى الجواب فى الصندوق بنفسى !

وصرخ فيها عم جابر :

ــ بلاش مرقعة بنات .. ستك موصياكى ، ولا انتى اللى عايزه تلعبى فى السكك .. على مين اللعب ده .. اذا كنتى خايفة من ستك ما تقوليش لها حاجة !!

وسكتت فتحية أمام سطوة جابر البواب .. وظلت تتلكأ ، ثم عادت اليك دون أن تقول لك شيئا مما حدث .. بل أقسمت أنها وضعت الخطاب بيدها فى الصندوق ..

وجاءنى خطابك ، ومعه تقرير بكل ما حدث ..

وقرأته .. انك تنادين عادل .. « عزيزى عادل » .. ولكن الحروف كلها تنطق بالحب .. أسمى مراتب الحب .. الحب العف الخجول الذى يلتف فى غلالة ، ويضن عن أن يعلن عن نفسه ولا يعرف الا طريقا واحدا .. طريق الزواج .. وفى الخطاب دموع تأبى أن تفصح عن نفسها فتختفى خلف السطور .. انك تشكين له من تأخر خطاباته عنك .. وتقولين ان خطاباته أصبحت النافذة الوحيدة التى تدخل منها الحياة .. وتروين له حلما خطر لك فى نومك ، وتتشاءمين منه .. ثم تقولين له :

« ان الناس الذين يحيطون بنا يثيرون دهشتى .. كأن ليس وراءهم هم الا اللبس والقلع ، واللهو ، وحضور الحفلات .. انى أحس انهم يسخرون منى عندما أحدثهم عن ثوب صنعته بنفسى .. أو عندما يروننى اكنس حجــرتى .. وقد حاولت « شوشت » ابنه طنط خيرية التى حدثتك عنها أن تعلمنى الرقص

فرفضت ، واخذت ترقص امامى وانا اشفق عليها .. انها عبيطة .. ليس فى راسها الا الرقص .. وقد تضايقت جدا ، جدا ، من هذه الحياة .. انى فى كل يوم اتمنى ان اعود الى شبرا .. وصورة طنط وبسيمة لا تغيب عن قلبى لحظة واحدة .. ودائما اذكرهما .. و .. » ..

الى هذا الحد تحبينه .. ؟

كل هذا الثراء الذى احطتك به ، لم يلهك عن شبرا وحنينك اليها ؟ .. انك كوالدك .. غاوية فقر !!

ورغم ذلك فلن اتركك لمصير والدك !!

وقد رايتك خلال هذه الاسابيع .. كنت ازوركما دائما .. وبدات المح غلالة من الحزن العميق الصامت تلتف حول وجهك النحيل .. لقد ازددت صمتا .. وانطواء .. وفى عينيك نظرات حائرة . كانك تتعذبين ولا تدرين سر عذابك .. وكنت لا تكادين تجلسين بيننا حتى تعودى الى غرفتك .. ثم تأتين الينا مرة ثانية .. ثم تعودين الى غرفتك .. والنظرات الحائرة فى عينيك .. نظرات متسائلة .. فى تساؤلها الم .. تسألين بها كلا منا .. وتسألين الجدران .. وقطع الاثاث .. وتسألين الله .. اين عادل .. اين عادل ؟!

ولم اكن استطيع ان اواجهك بعينى .. كنت كالمحتال الذى يخفى عينيه عن ضحيته حتى لا يفتضح احتياله .. وكان الشىء الذى فى صدرى يتحرك بعنف ، ويكتم انفاسى ويمزق رئتى ، ولكنى كنت احتمل ، وامنى نفسى بأنى بعد ان ابعد عنك عادل .. ستنسينه .. وستكون هذه آخر جريمة ارتكبها واوذيك بها .. وبعدها ستخلصين لى .. وسأستطيع ان اكبت اشتهائى لك .. وسأبدو امامك نظيفا نقيا لتتخذى منى والدا ، يشعر بحنانك .. واحترامك !

ولكن عادل لا يزال يتسكع امام الرصيف المقابل .. وهو يبدو

دائما غاضبا لا يرفع راسه اليك كما تعـود .. انه يشـكو فى خطاباته التى استولى عليها ــ من اهمالك له . وعدم الرد عليه .. ويتهمك بأن الحياة الجديدة التى تعيشين فيها قد اسرتك وانستك وعدك ..

وقد حاولت انت مرة ان تخرجى اليه . عندما مر يوما تحت شرفتك .. ولكن خيرية وامك حالتا دون خروجك من البيت ..

وكان يجب ان امنع عادل من تسكعه تحت شرفتك ..

كان يجب ان امنعه حالا قبل ان يفتضح بينكما امر الخطابات المسروقة !!

ماذا افعل ؟ !

ولم اجهد تفكيرى كثيرا .. انما وضعت خطه بسيطه تبدو من بساطتها كأنها خطة ساذجة !

اتفقت مع خيرية على ان تدعوك انت وامك لتمضية يومين فى عزبتها القريبة من القاهرة .. وكنت اقصد من ذلك ان ابعدك عن العمارة الى ان اتخلص من عادل .. وقد قبلت والدتك الدعوة ، وانقدت انت وراءها فى استسلام .. كنت يائسة الى حد لا تستطيعين معه الا ان تستسلمى ..

وبعد ذلك بدات انفذ بقية الخطة عن طريق الاتفاقات التى اعتقدها مع عبد العظيم .

جمع عم جابر البواب اعوانه وترصدوا لعادل حين يمر امام العمارة .. وانقضى يوم ويومان ، وثلاثة ايام ، وعادل لا يظهر .. وانا جالس فى مكتبى فى انتظار الأنباء ، كأنى أقود معركة حقيقية .. وخيرية تتصل بى بالتليفون وتسألنى :

ــ مش نرجع بأه يا حسين .. انا عندى مواعيد فى مصر ؟ !

فاقول لها فى رجاء :

ــ خليكو عندكم كمان يوم .. علشان خاطرى !!

وفى اليوم الرابع مر عادل امام العمارة .. ورفع رأسه الى

شرفتك ، فوجدها مغلقة .. وتعدى العمارة ، ثم رجع يسير امامها مرة أخرى .. وهنا انقض عليه احد أعوان عم جابر ووقف فى وجهه صارخا :

ـ انت بتعمل ايه يافندى انت ؟!

وقال عادل وعيناه تضطربان :

ـ وانت مالك .. باشم هوا !!

وصرخ فيه الرجل :

ـ بتشم هواء .. ده انت بقالك ست اشهر رايح جاى قدام العمارة .. ما شبعتش شم هوا .. يا فندى يا هزؤ .. يا ..

ورفع عادل يده ولكم الرجل فى وجهه .

وفى لمحة كان كل أعوان عم جابر ومعهم بوابو الحى ، فوق عادل .. وخرج من بينهم يعدو وقد تمزقت ثيابه وتورم وجهه .. وعدت انت من عزبة خيرية ..

ولم يعد عادل يمر من تحت شرفتك .. لم تقع عليه عيناك منذ ذلك اليوم .. ولكنه أرسل اليك خطابا استوليت عليه ، يروى لك فيه ما حدث له ، ويؤكد لك انه لم يعد يمر امامك لا خوفا من البوابين ولكن حرصا على سمعتك فى الحى ، وانه كان يستطيع ان يجمع اصدقاءه واهل شبرا وينتقم لنفسه من هؤلاء البوابين ، ولكنه لم يفعل .. حرصا على سمعتك ايضا .. ثم يقول لك ، وقد بدا اليأس يتسرب الى سطوره ، انه عرضت عليه وظيفة فى شركة القصير على ساحل البحر الحمر ، وانه يفكر فى قبولها .. ولكن قبل ان يقبلها سيقدم على محاولة اخيرة .. سيرسل لك والدته واخته ليخطباك اليه .. ليعرضا عليك الزواج .. ليأخذاك منى ؟ !

هل يستطيع ان يأخذك منى ؟ !

— ١٠ —

وفى خلال هذه الفترة الطويلة كانت مظاهر الحياة التى نقلتكما اليها قد بدأت تتسرب الى بيتكما .. كانت خيرية تدفع والدتك برفق ، ولكنها لا تكف عن دفعها .. وكان يخيل الى أن خيرية قد بدأت تتلذذ من هذه المهمة التى كلفتها بها .. أصبحت كالعالم الاجتماعى فى رواية « بيجماليون » الذى صنع من احدى بنات الشارع ، سيدة من سيدات الطبقة الراقية ..

وقد دعتكما خيرية لزيارة فى بيتها لتريكما كيف تعيش .. واخذت أمك فى زيارات لبعض صديقاتها لتريها أن البيوت كلها مفروشة بالمقاعد الأوبيسون المذهبة .. وكانت والدتك بذكائها تحاول فى كل مرة تزور فيها خيرية أو احدى صديقات خيرية ، أن تتعلم شيئا جديدا .. كانت تخطو بخطوات مترددة بطيئة ، ولكنها خطوات لا تتوقف .. وكانت ترهب هذه المظاهر الجديدة التى تواجهها ، ولكن الرهبة بدأت تخف يوما بعد يوم .

وكنت الاحظ كل تطور يطرأ على والدتك وعليك بدقة .. كأنى أرقب تجربة كيمائية مثيرة .. لاحظت أن كعب حذاء والدتك قد ارتفع قليلا .. ولاحظت أول مرة سقطت فيها طرحتها عن راسها .. ثم لاحظت أول ثوب ملون ارتدته .. وكان لونه رماديا .. ثم لاحظت أول مرة عادت فيها أمك من عند الحلاق الذى صحبتها اليه خيرية .. ولاحظت أول مرة نثرت فيها قليلا من

« أربيج » .. ولاحظت ضحكتها وهى تتسع يوما بعد يوم .. ودخل بيتكم أول سفرجى .. لقد كان يعمل عند خيرية وأهدته لكما .. ثم دخل أول طباخ .. ثم لاحظت أول ثوب ترتديه أمك وقامت بتفصيله نفس « الخياطة » التى تصنع ثياب خيرية .. وأول ثوب جاهز ترتدينه أنت .. لقـد قالت لى والدتك انك عارضت كثيرا ، لأنك لازلت تصرين على أن تصنعى ثيابك بنفسك .. وقلت لى أنت : « ده أنا اقدر اعمل بثمنه سبع فساتين » .. ووضعت تحت أمركما سيارة وسائقا .. وكان هذا السائق يبلغنى أخباركما أولا بأول ، وكان رسولا بينى وبينكما ، بدلا من التليفون الذى كنت أصر — حتى ذلك الحين — على عدم ادخاله فى بيتكما .. وأخيرا .. طردت أمك الخادمة فتحية .. الخادمة الصغيرة الغبية .. ويوم طردت احسست أن هذا هو اليوم الأول الذى انتقلتما فيه من حى شبرا .. واحسست أن أحدا لن يجرؤ بعد اليوم ، على أن يغلق بابكما فى وجهى ..

وكل هذه التطورات كلفتنى ثمنا غاليا ..

كانت والدتك قد اقبلت على الشراء ، بعد أن تعودت أن تحيل حساب ما تشتريه على .. وكنت أنا الذى ادفع أجر السفرجى ، والطباخ ، والسائق .. وثمن بنزين السيارة .. ورفعت المبلغ الذى أدفعه لكما كل شهر ، خمسين جنيها أخرى بعد أن شكت من مصروف المطبخ !!

ولم اكن سعيدا وأنا ادفع من جيبى كل هذه النفقات .. كنت كلما تسلمت فاتورة ، أو دفعت مخصصاتكما فى أول كل شهر ، أحس كأنى أقتطع من لحمى قطعة أرميها فى البحر ..

وكنت أسائل نفسى : لماذا .. لماذا .. وكان يخيل الى أحيانا انى جننت .. ولكن كان فى أعماقى دائما أمل يغرينى بأن أستمر فى هذا الجنون .. كنت أعتقد أحيانا أنه أمل فى أن اصبح

رجلا شريفا ، يعطى دون أن يأخذ .. وكنت احس احيانا أن هذا الأمل يخفى تحته دافعا خبيثا .. دافعا لأن أذل والدك فيكما .. أن أستولى على زوجته وعلى ابنته بعد أن عجزت عن الاستيلاء عليه .. دافع الآن امتلك كل الناس .. وأذلهم !!

ورغم ذلك .. رغم كل هذه التطورات التى خطرت على حياة والدتك .. فان طبيعتها لم تتغير .. تغير ثوبها ، وحذاؤها ، وتسريحة شعرها .. ولكنها هى نفسها لم تتغير .. رغم انها حاولت أن تتغير .. حاولت أن تغير عقليتها .. وحركات يديها .. ونظرات عينيها .. ولكنها لم تستطع .. لم تستطع ايضا أن تضيف الى بيتها هذه اللمســة التى تعــبر عن رقى الذوق النسائى .. فلا يزال فى الحمام طشت غسيل وقبقاب .. وقد وضعت فى الزهرية وردا صناعيا مما يباع على رصيف شارع فؤاد ، الى أن اقنعتها خيرية بأن البيــوت الراقية لا تدخلهــا الا الورود الطبيعية .. كانت أمك كالغراب الذى حاول أن يقلد الطاووس فى مشيته ، فلم يستطع ، ونسى مشيته الأصلية .. وأصبح يقفز قفزات مضحكة !!

وكنت قد تعودت أن اتناول طعام الغداء عندكما اغلب ايام الأسبوع .. وغالبا ما تكون معنا خيرية واحيانا كثيرة يكون معنا عبد العظيم .. ولم نكن ندعو والدتك الى سهراتنا .. كنا نتخلى عنها فى الليل ..

وكانت أحاديثنا قد تبسطت ، ووجدت منافذ كثيرة .. لم نعد نحس بالافتعال ونحن نتبادل الأحاديث معكما .. كان كل ما نحرص عليه الا نكون ماجنين .. الا نمس حياء والدتك أو حياءك .. كنا نعلم ان اكثر ما تحرصان عليه هو الشرف .. الشرف كما تفهمه الطبقة الوسطى .. هــذا الشرف المتعلق بالجسد .. وقد استطاعت خيرية ان تكتسب ثقــة أمك بأن

أقنعتها أنها امرأة شريفة ا لم يمسها رجل الا زوجها .. وأن كل نساء الطبقة الغنية شريفات .. جدا !

ولكنى بدأت ألاحظ أن والدتك تعـاملنى معـاملة أرق مما يقتضيه شرف الطبقة الوسطى .. كان وجهها يتهلل بمجرد أن ترانى ، كأنها ترى فى وجهى ليلة القدر .. وكانت عيناها لا تسقطان عنى فاذا التقت بهما عيناى تصاعدت الدماء الى وجنتيها ، وأرخت جفنيها كالعذراء .. وكانت عندما تصافحنى أحس بيدها ترتعش فى يدى .. وكانت تكاد تدللنى .

شكوت مرة من حذائى عقب الغداء ، وخلعته .. فاشترت لى فى اليوم التالى شبشبا واحتفظت به لى فى بيتها ..

وكنا نجلس على مائدة الغداء ، فلا تهتم الا بى .. كل من ده يا حسين .. ده انا اللى عملاه بنفسى علشان خاطرك .. كل يا خويا ده انت بتشقى ، وبتموت نفسك .. انا من يوم ما عرفت انك بتحب الويكة ، اديت أمر للطباخ ان ما حدش يعمل الويكة فى البيت ده الا انا .. الخ !!

وكنت ألتفت الى خيرية ، وأنا أسمع هذا الكلام ، فأجدها تبتسم ، وتخفى تحت ابتسامتها ضحكة كبيرة ..

وأعود أنظر الى والدتك .. الى عنقها العاجى المشرب بالاصفرار .. العاج الذى اختزن طويلا فى محل العاديات .. والى عينيها اللتين يطل منهما ذكاؤها الساذج .. والى وجنتيها المنتفختين كأنهما ثمرتا تفاح طابتا حتى بدأ العفن يدب فيهما .. والى شفتيها المضمومتين فى رفق كأن احداهما تحمى الأخرى ، من شفتى غريب .. وأتساءل :

— ماذا تريد هذه المرأة ؟ !

انى لا أريد شيئا .. مستحيل .. لا أريد شيئا أبدا !

ولكن المفاجأة الكبرى كانت يوم دخلت والتفت الى جدار حجرة الصالون .. فلم أجد صورة المرحوم !

وابتسمت فى صدرى ابتسامة خبيثة .

هل انتصرت عليه ؟ !

هل طردته ؟ !

هل عرف وهو فى قبره انى كنت على حق فى اختيارى الطريق الذى سلكته ، والذى رفض ان يسير معى فيه ؟ !

هل اقتنع بأنى استطيع ان اشترى كل شىء حتى زوجته وابنته ، واضعهما فى بيت ليس فيه صورته معلقة فوق الجدار ؟ !

ولاحظت أمك انى أطيل النظر الى مكان الصورة .. المكان الشاغر .. فقالت وهى تخفى عينيها عنى :

ــ أصلى بعت أغير البرواز .. ماكانتش ماشى مع الصالون !

وتدفقت الدماء الى وجنتيها .. الى التفاح الذى دب فيه العطن .. ثم تشاغلت عنى ، وتظاهرت بأنها تعدل من وضع أحد المقاعد لتدارى ارتباكها .. واخذت أرقبها بعين خبير .. خبير فى النساء !

ولكن ، ماذا تريد !

ماذا تريد امرأة من الطبقة الوسطى ، من رجل مثلى .. انى أعطيتها من مالى اكثر مما تطمع فيه .. فماذا تريد أيضا ..

وسألت خيرية على انفراد :

ــ انتى قلتى ايه عنى لتفيده !!

قالت وهى تضحك :

ــ ولا حاجه .. قلت لها انك معجب بيها خالص ، وانك بتعتبرها ست بيت ممتازة !

وسكت ..

انها الطريقة التى تعودت خيرية ان تقود بها النساء الى فراشى .. ان تسقط فى اذن كل منهن كلمة تثير بها طموحها .

وعادت خيرية تقول :

— على فكرة .. انا لسه مصممة ان ذوقك انحط قوى !!

— احلفلك بايه .. انا مش عايز منها حاجة ..

قالت :

— ما فيش لازمة .. انا عارفاك كويس !

***

.. وكنا مدعوين الى الغداء عند خيرية .. انا وامك وعبد العظيم .. ولم تكونى معنا .. تعمدنا أن نتركك فى البيت ، فقد كنت أريد ان احدث امك عنك .. كنت اريد ان اعدها لزيارة ام عادل وشقيقته ، اللتين قال عادل فى خطابه ، انه سيرسلهما ليخطباكِ اليه ..

وجاءت امك تتأرجح فوق حذائها العالى ، تميل احيانا الى الأمام كأنها تكاد تسير على ركبتيها ، وتميل حينا الى الوراء كأنها تكاد تقع على ظهرها ، وتضطر لكى تحفظ توازنها ان تثنى ساقيها وهى تسير ، فتبدو كشيخ يخب فى قفطانه ..

وقامت خيرية تستقبلها ، فانحدفت عليها امك وقبلتها فوق كل من وجنتيها ، بينما خيرية تنظر الى من وراء ظهرها كأنها تقول لى : « عاجبك المصايب دى ! » .. وتجاهلت نظرة خيرية ، وانحنيت اقبل يد امك ، وهى تصافحنى .. كانت المرة الأولى التى اقبل فيها يدها .. كنت فى حاجة يومها الى التودد اليها .. وقد حاولت أمك أن تسحب يدها قبل ان المسها بشفتى .. ولكنى امسكت باليد ، وضغطت عليها بأصابعى ضغطة خفيفة ، ثم ضغطت فوقها بشفتى .. احاول ان اثير معنى خاصا فى راس امكِ ، وقلبها .. واستسلمت هى .. لقد رأتنى اقبل يد سيدات كثيرات .. ورأت رجالا كثيرين يقبلون يد خيرية .. وعرفت إنها عادة يقرها مجتمعنا .. ورغم ذلكَ فقد غلبها طابعها — طابع الطبقة الوسطى الصغيرة — وقالت ويدها ترتعش بين اصابعى :

— العفو يا باشا !!

ورفعت راسى ونظرت اليها .. الى وجنتيها اللتين طابتا حتى بدأ العطن يدب فيهما ، وقد احتقنتا بدماء الحياء فبدت كل منهما كأنها دمل كبير .. ونظرت الى عينيها وقد أرختهما كأنها عروس تعيش فى حلم ليلة الزفاف .. وقلت :

ـ انتى النهارده شيك خالص ، يا تفيده !!

وازداد ارتباكها وهى تقول :

ـ كله من خيرك !

ثم سارت فى خطوات اكثر ترنحا ، ومدت يدها الى عبد العظيم الذى صافحها وهو يشيح عنها بوجهه ، كأنه يبتعد بأنفه عن رائحة كريهة .. ان عبد العظيم يكرهها .. ويكرهك .. ويكره خالك .. يكره المشروع كله الذى يدور حولكما .. لا ادرى لماذا .. ربما لأنه لا يستطيع ان يفهم هذا المشروع ، ولا ان يفهم مبرراته ودوافعه .. لا يستطيع ان يفهمنى !

وجلسنا نتحادث .. حديثا عاديا نحرص خلاله على أن ننافق امك ، وعلى أن نبدو شرفاء .. الى ان قالت خيرية :

ـ دى هدى اليومين دول بقت زى الورده .. ده انا اعرف شوية شبان معجبين بيها جدا .. ابن المرحوم شريف باشا ، وابن الأميرة انجى ، وابن خليل باشا عبد الله .. وغيرهم كتـير .. كلهم بيقـولوا انهم ما شـفوش بنت بالأدب ده ولا بالجمال ده ..

ولمعت عينا أمك ، كأنما انعكس عليها بريق فاترينة جواهرجى .. ثم أخفت نظرتها سريعا ، وقالت كأنها تحميك من الحسد :

ـ والنبى ده هدى هفتانة ومش عاجبانى اليومين دول .. بس لو كانت تسمن شوية !

وقلت قبل أن تفيق أمك من احلامها .. الأحلام التى تراك فيها زوجة لابن باشا أو ابن أميرة :

— الحقيقة احنا لازم نفكر فى جواز هدى من دلوقت .. مافيش حد يا تفيده تعرفه وينفع لها ؟

ومد عبد العظيم وجهه الى كأنه يحاول ان يقرأ عينى ، ثم كور شفتيه الغليظتين كأنه يبصق على الأرض ..

وقالت أمك وهى تضع اصبعيها تحت ذقنها .. لا تزال بنت بلد .. كأنها لا تجلس على مقعد أوبيسون مذهب ، ولا ترتدى ثوبا حاكته لها مدام « سلفانى » ودفعت ثلاثين جنيها ثمنا له .. وقالت :

— والنبى ما اعرف حد .. انما لما كنا ساكنين فى شبرا .. و ..

وصاحت خيرية تقاطعها :

— شبرا .. هدى تتجوز من شبرا ؟ !

وقلت معقبا كأنى أخبط أمك على راسها خبطة اخرى لافيقها من ذكريات شبرا :

— لا .. لا يا تفيده .. هدى لازم تتجوز واحد يعرف يعيشها زى ما هى عايشة دلوقت !

قالت أمك وهى تدير عينيها بينى وبين خيرية كأنها تعتذر لنا :

— ماهو انا كمان باقــول كده .. ده انا حتى بالأمارة ، لا باروح شبرا ولا بقيت اعرف اللى فيها !!

قلت وأنا أضغط على كلماتى :

— بكره يجروا وراكى .. ويطمعوا فى هدى !

قالت كأنها تطمئننى :

— ومين يديهم وش .. ده بعــدهم .. ده انا فاهماهم وعاجناهم وخابزاهم !

وابتسمت وانا اسمع اسلوبها فى الحديث .. انى احاول أن أفعل المستحيل ، اذ احاول ان ارتقى بها من طبقة لطبقة ..

واحسست كأنى اشفق عليها .. وفى شفقتى كثير من السخرية والازدراء !

وقمنا الى مائدة الغداء .. وطافت بنا الأطباق ، وأمك تعلق على كل طبق كأنها تخشى أن يعجبنى :

ــ تعرفى يا خيرية ، كان حق الطباخ يزود السمنة فى الرز شويه !

وقالت خيرية وهى تحاول أن تقلدها فى حديثها :

ــ لك حق يا تفيده يا اختى ..

وطاف الطبق الثانى ، وقالت والدتك عندما رأتنى مقبلا عليه :

ــ برضه اللحمة عايزه سـوا .. ده انا باعمل اللحمة ام شقشاق ، انما ترد الروح !

وقلت لأمك كأنى أريحها من مخاوفها :

ــ الحقيقة يا تفيده اللى ياكل من ايديك ، ما يقدرش ياكل اكل اى طباخ .. ده أنتى ست بيت عجيبه ..

وعادت الدماء تتصاعد الى الوجنتين اللتين دب فيهما العطن .. وسكتت وقد أرخت جفنيها كأنها اقتنعت بأنى أطلبها للزواج ؟

ونقل عبد العظيم عينيه بينى وبينها ، ثم كور شفتيه الغليظتين كأنه يهم مرة أخرى بأن يبصق على الأرض ، ثم عدل عن رأيه وابتلع بصقته !

وانتقلنا الى الصالون بعد أن انتهينا من الغداء ، وتعمدت أن اجلس بجانب أمك .. وهى تبتعد عنى ، ثم تقترب ، ثم تبتعد .. كأنها بندول ساعة خربة .. أو كأن أنفاسى تثير فيها رعشة ..

وطافت بنا كئوس « اليكير البيرمنت » وتناول كل كأسه ومدت أمك يدها .. ثم عادت وسحبتها .. وقلت لها مشجعا :

ــ ده نعناع .. مهضم !!

ورشفت من كأسى كأنى القى عليها الدرس الأول ..

ونظرت امك الى خيرية .. فتجاهلت نظرتها لتقنعها ان شرب « البيرمنت » امر عادى لا يستحق تبادل النظرات .

ولم تنظر الى عبد العظيم ، ولو نظرت اليه لرأت عينيه تبحلقان فيها ، وانفاسه تتهدج ، كأنه يرقب سيف الجلاد مرفوعا فوق رقبة برىء !

ومدت امك يدها والتقطت الكاس ، ثم عادت وترددت ، وقالت والكأس قريبة جدا من شفتيها :

— متهيأ لى انه خمره !!

قلت ساخرا ، هازئا بها :

— خمره ايه .. باقولك ده روح النعناع .. عمرك ما شربتى روح النعناع !

وجرحتها لهجتى الساخرة ، وكأنها ارادت ان تثبت لى انها ليست جاهلة ، فقالت :

— بس انا باحبه مغلى !

قلت :

— دوقى ده بس .. ده معمول فى فرنسا ، وبييجى جاهزا متعبى فى القزايز !

وعادت تنظر الى فى تردد .. ثم تغلبت على ترددها ، ورفعت الكأس وقذفت بكل ما فيها الى جوفها .. ثم ازدرد وجهها وسعلت سعالا حادا ، واخذت تضرب على صدرها بيدها ..

ولم يضحك احدنا .. كتمنا ضحكاتنا فى صـــدورنا ، حتى لا نجرح كبرياءها .. وقالت وهى لا تزال تسعل :

— يا .. ده تقيل قوى .. مش كنت تقوللى يا حسين .. اخص عليك !

وقالت خيرية :

— انتى اللى لازم عندك برد !

وقلت وانا اخبط بيدى على ظهرها لأساعدها على التخلص من نوبة السعال :

ــ عرفتى بأه انه نعناع ؟ !

قالت :

ــ بس تقيل قوى يا حسين .. دول زى ما يكونوا جابوا فدان نعناع وعصروه فى كبايه !

وضحكت .. وضحكت خيرية .. واكتفى عبد العظيم بأن يبتسم ابتسامة كبيرة ، كأنه يحيى الخطيئة وهى تسعى نحو جسد جديد !

كان هذا هو اول كأس فى حياة أمك ..

كأس من خمر النعناع ..

ولم أكن ادرى ان كأسا واحدة .. يمكن أن تجر وراءها بحرا من الخمر !

وقلت لوالدتك بعد ان استراحت من نوبة السعال ، قلت كأنى اذكرها :

ــ تفتكرى هدى تتجوز دلوقت ، ولا لسه بدرى ؟

قالت :

ــ والنبى ما انا عارفه يا خويا .. انما هى عدت الستاشر سنة !

قلت :

ــ على كل حال العريس تحت ايدى .. انما انا باشوف نستنى شوية .. يعنى حانستعجل على ايه .. انا حاجوزها احسن جوازة فى البلد !

قالت :

ــ اللى تشوفه يا باشا .. ما هى بنتك !

واطمأننت .. عرفت كيف اثير اطماع والدتك فى زوج ثرى مثلى ، لا يعود بك الى حى شبرا .. ولا يكون : عادل !

وبعد أن خرجنا ، اتصلت بخيرية فى التليفون ، واتفقت معها على بقية الخطة .. قلت لها ان والدة عادل واخته ستزورانكما يوم الخميس صباحا ، لتخطباك اليه وانها يجب ان تكون بجانب والدتك حتى تفسد هذه الزيارة ، بحيث لا تعود ام عادل تفكر فى زيارتكما مرة ثانية .. وحتى ييأس عادل من هذا الزواج .. واوصيتها ان تعمل على ابعادك عن البيت اثناء الزيارة ، وان تعمل على الا يصلك خبرها ..

وتم كل شىء كما اردته ..

وذهبت خيرية اليكما فى الصباح الباكر من يوم الخميس .. ولم تكونى ، لا انت ولا امك على علم بالزيارة المرتقبة .. فقد اكتفى عادل بتحديد موعدها فى خطابه .. الخطاب الذى استوليت عليه ..

واستطاعت خيرية أن تقنعك بأن تذهبى مع ابنتها الى الخياطة ، وهكذا اخرجتك من البيت .. وجلست مع امك فى غرفة نومها .. تتحادثان وتسلط عليها كل ذكائها ولباقتها الى ان ارتفع رنين جرس الباب كأنه يعلن رفع الستار عن الفصل الأول من المسرحية .. وجاء السفرجى يبلغ امك ان بالباب سيدة تقول انها « الست ام عادل » وكريمتها .

ورفعت امك حاجبيها فى دهشة وقالت :

— دى ست شفيقة جارتنا فى شبرا .. يا ترى ايه اللى جابها دلوقت .. ده انا ما صدقت انساهم !

وقالت خيرية :

— لازم وحشتيهم .. ولا عايزين يطمنوا عليكى .. ما هو بعد ما الخير ينزل على واحدة ، كل حبايبها يفتكروها .

وقالت امك :

— تكونش جاية تخطب هدى ، ما هى من زمان بتتكلم عليها !

وقالت خيرية :

ـ خصوصا ان هدى احلوت توى من بعد ما سبتم شبرا !!

وقالت امك كأنها تحاول ان تتخلص من عبء ثقيل :

ـ انا باقول بلاش اقابلهم .. السفرجى يروح يقول لهم انى خرجت ..

وقالت خيرية فى ذكاء :

ـ بالعكس .. انتى تقابليهم وتفهميهم انك فاهماهم كويس .. وان ما فيش لازمة للمرواح والمجى .. انا حاقوم اقابلهم ، واسيبك انتى تلبسى .. البسى احسن ما عندك ، علشان يفهموا انك ما بقتيش بتاعة زمان .. ويعرفوا مقامك كويس ..

واقتنعت والدتك ..

وخرجت خيرية لتلقى ام عادل واخته .. قابلتهما بأنف مرفوع ونظرت اليهما باحتقار .. ووجدتهما حائرتين .. تطوف اعينهما بين قطع الأثاث وجدران البيت ، كأنهما دخلتا قصرا مسحورا .. وبدأت تحادثهما باللغة الفرنسية والأم وابنتها تنظران اليها فى تعجب ، كأنهما تنظران الى مخلوق عجيب .. ثم قالت ام عادل وهى لا تزال فى ذهول :

ـ مش ست نفيدة ساكنة هنا ؟

وازدادت خيرية تعاليا .. انها عندما تتعالى تصبح كالسكين لا يتحرك الا ليجرح .. وقالت بالعربية المكسرة :

ـ أيوه .. نفيده هانم ساكنة هنا .. انتم مين ؟!

وقالت ام عادل وهى تتنهد كأنها تستعين بالصبر :

ـ احنا حبايبها من زمان .. من ايام شبرا ؟ !

وقالت خيرية فى برود :

ـ بتشتغلوا ايه ؟ !

وقالت اخت عادل فى حدة ، ودموعها تكاد تفر من عينيها :

ـ بنشتغل !! بنشتغل ده ايه ؟ !

وقالت خيرية وهى لا تزال محتفظة ببرودها :

— يعنى خياطة .. او ..

وقاطعتها ام عادل فى هدوء :

— لا يا حبيبتى .. احنا اصحاب ست تفيدة ، وجايين نزورها ؟

ثم نظرت الى ابنتها كأنها تأمرها بأن تهدأ وتتحمل ..

وعادت خيرية تقول :

— المدام فى الحمام .. تحب نقول لها حاجة ؟

وقالت ام عادل :

— لا .. نستناها !!

ونظرت اليهما خيرية ، وهزت كتفيها ، ثم قالت :

— طيب .. نديها خبر !!

ثم عادت الى والدتك ، وقالت ضاحكة :

— ده انا خوفتهم خالص .. يظهر انهم جماعة بلدى .. عمرهم ماشافوا واحده لابسه كويس ، دول كانوا حياكلونى بعنيهم ..

ولم تضحك امك ، كانت واقفة امام مرآتها مرتبكة .. واكثر من مرتبكة ، كانت خائفة من مواجهة ماضيها النظيف .. من مواجهة حى شبرا .. كانت تعلم انه رغم طهارتها ، فان شيئا ما فى حياتها الجديدة يمكن أن يعتبر خطيئة .. ورغم ذلك فقد كان ذكاؤها الساذج يلح عليها أن تدافع عن هذه الخطيئة .. عن حياتها الجديدة .. عن الأطماع التى الوح بها امام عينيها ..

وارتدت امك اغلى ثيابها ، رغم انه لم يكن ثوبا يصلح للصباح .. واكثرت من وضع البودرة على وجهها .. وصبغت شفتيها بالأحمر .. وارتدت حذاءها العالى .. وتحلت بكل ما اشترته — على حسابى — من الحلى .. وكانت تفعل كل ذلك ، كأنها تتحدى .. كأنها كانت تعلم ما يتناقله عنها اهالى شبرا ، فأرادت أن تتحداهم جميعا ..

وتركتها خيرية ترتدى ما تشاء ، وقالت لها بعد ان انتهت من زينتها :

ــ ده انا باينه جنبك زى ما اكون وصيفة !

وضحكت امك ، ضحكة جوفاء عالية ، كأنها تستجمع بها شجاعتها .. ثم خرجت فى خطوات مترنحة مترددة ، لملاقاة ضيوفها .. وخيرية وراءها ..

وقامت ام عادل فرحة ، واحتضنت امك بين ذراعيها .. وبدات تقبلها فوق وجنتيها .. وحاولت امك ان تقاوم ، ولكنها لم تستطع ، فاستسلمت لعواطفها ، وبادلت ام عادل القبلات ..

وكأن ام عادل لم تكن قد رات امك عندما دخلت ، وعندما احتضنتها وقبلتها .. فقد بدات تنظر اليها فى دهشة بعد ان انتهت من تقبيلها .. نظرت الى ثوبها .. والى البودرة التى تكسو وجهها كأنها طلاء رخيص سكبه مبيض فوق حائط قديم .. والى الصبغة الحمراء التى تكسو الشفتين كأنهما شربتا من دم قتيل ، ولم يجدا من يغسل الجريمة عنهما .. والى الكعب العالى الذى انخفض بصاحبته .. والى الحلى اللامعة كأنها قطع من زجاج فى صندوق زبالة .. نظرت ام عادل اليها طويلا ، ثم انقلبت دهشتها الى خيبة امل ، وانقلبت خيبة الأمل الى شفقة ، ثم الى رثاء صامت ..

واحتضت امك شقيقة عادل ، وضمتها الى صدرها ، وهى تقول فى لهفة :

ــ ازيك يا سعاد .. ازيك يا حبيبتى .. ده انتى وحشتينى قوى !آ

وقالت سعاد :

ــ الله يسلمك يا عمتى .. امال فين هدى !

وتجاهلت امك سؤال سعاد وجلست وهى تقول :

ــ وحشتينا يا ست شفيقة .. كده برضه لا تسألى ،

ولا يا ناس انتم فين ؟.. ده انا بقالى سنة ونص ما شفتش حد منكم .. وازاى سى فتح الله .. و ..

واحست خيرية ان امك بدأت تنسى نفسها فى غمار عواطفها .. تنسى حياتها الجـديدة واطماعها ، وتعود الى شبرا .. فواجهتها بنظرة قوية كأنها تفيقها وتذكرها بما اتفقنا عليه ..

وقالت ام عادل وهى لا تزال تنظر الى امك فى رثاء :

— انتى ياأختى اللى قطعت خبر ، ولا حد سمع عنكم .. ده لولا عادل ابنى دلنى على البيت ما كنتش عرفت آجى .. هى فين هدى امال ؟

وقالت امك فى خجل وهى تدارى عينيها عن خيرية :

— راحت للخياطة !

وقالت سعاد :

— هيه هدى بقت تروح للخياطة ، دى بتفصل احسن من ميت خياطة .. دى ماكنش حد فى شبرا بيتكلم الا عن خياطتها ..

وضحكت خيرية ضحكة عالية خليعة وقالت تحاول ان تعكر الجو بينكما :

— انا مش مصدقة ان هدى تعرف تمسك ابره .. دى بتروح لخمس خياطات .

ثم نظرت الى امك واستطردت :

— انتى عندك ميعاد عند الكوافير يا مدام .. تحبى نلغيه ؟

ونظرت ام عادل الى ابنتها كأنها تسألها عن معنى كلمة « كوافير » ثم التفتت الى امك وقالت فى لهجة جدية كأنها قررت ان تتحمل كل شىء فى سبيل ابنها :

— وياترى هدى حتتأخر عند الخياطة ؟

وقالت امك وهى تدير عينيها بين خيرية وشفيقة كأنها تختار بينهما :

— اظن كده .. اصلها بتعمل بروفة !!

وقالت خيرية لأمك :

ــ مش نقول للشوفير يروح للجواهرجى علشان يسأل عن الخاتم و ..

ثم مالت تهمس فى اذن امك امام الضيفتين ، همسا طويلا ، تذكرها فيه بما يجب عمله ..

وتضايقت شفيقة من هذا الهمس ، واخذت تتبادل النظرات مع ابنتها ، ثم قالت كأنها قررت أن تنهى هذه المهزلة :

ــ قوليلى يا تفيده .. انتى مش ناويه تجوزى هدى بأه ؟

وقالت امك وهى لا تنظر اليها :

ــ والله ابن خليل باشا عبد الله ، طالبها .. انما انا شايفه اننا نستنا شوية !

وصاحت سعاد كأنها لا تصدق اذنيها :

ــ ابن باشا !!

وقالت خيرية وهى توجه الكلام الى امك كأنها تستنكف ان توجهه الى الضيفتين :

ــ انما هدى تفضل تتجوز ابن الأميرة انجى !

وصاحت سعاد :

ــ ابن اميرة ؟ !

ولم تقل امك شيئا ، كأنها تعبت من تمثيل دورها ، وتعبت من حيرتها ، ولم تستطع الا السكوت ..

وقالت أم عادل وهى تضع فى حديثها لهجة ساخرة كأنها تنتقم لنفسها :

ــ نستأذن بأه يا مدام .. يوه .. قصدى يا تفيده .. والنبى اصلى اتلخبطت ، واحترت ..

ولم ترد امك على هذه السخرية ، وقالت فى صوت خافت وهى تقف مودعة :

ــ وازى سى عادل ؟

وقالت شفيقة :

— كويس يا اختى .. سألت عليكى العافية ..

وقالت سعاد كأنها تخرج لسانها لأمك :

— بس يا خسارة .. ماهوش ابن باشا !

ونظرت اليها أمها نظرة قاسية .. وتجاهلت أمك ما سمعته .. وادعت خيرية أنها لم تفهم شيئا ..

وخرجت الضيفتان دون أن تتبادلا القبلات مع أمك .. والقت أمك نفسها على مقعد بعد خروجهما ، ثم ألقت رأسها بين يديها ، وظلت ساهمة مدة طويلة . وخيرية توصيها الا تقول لك شيئا عن هذه الزيارة ، وهى تهز رأسها فى صمت كأنها لا تملك الا أن تطيع أوامر خيرية .. ثم أجهشت بالبكاء ..

وتركتها خيرية تبكى ، كمن يترك الدماء تسيل من عنق الدجاجة بعد ذبحها ..

***

وهكذا حققت ما أردته .. وأنت لا تدرين !

أبعدت عادل عنك .. مزقت أمله فى الزواج منك .. ومزقت أملك .. مزقت حبك .. ولكن هل انتهت جرائمى .. هل أصبحت لى .. هل تستطيعين الآن أن تحبينى .. أن تحبينى ولو كأب ؟ .

لقد رأيتك يومها .. جئت لأتناول طعام الغداء معكما بعد أن خرجت الضيفتان .. ورأيتك .. رأيتك أشد نحولا مما كنت بالأمس .. كأن البيت قد امتلأ برائحة الجريمة .. رائحة سامة تأكل من لحمك ، وتحرق دماءك .. وخيل الى أنه لم يعد فيك الا عينان تنظران الى نظرات غريبة .. نظرات أخافها وأحاول أن أتجنبها فتجذبانى اليهما بقسوة ، لتضعانى تحت شعاعهما ، كأنهما تتهمانى .. كأن هاتين العينين تعلمان أنى أنا المجرم .. أنا المتهم الوحيد ..

وكنت وأنا أرى نحولك ، أحس كأن شيئا فى صدرى يضمر

ويصيبه النحول هو الآخر .. شيء فى صدرى يمرض .. ويأكل فيه العفن .. واحاول ان اتخلص من هذا الاحساس .. احاول ان انسى جريمتى ، فأنقاد الى جريمة ابشع منها لعلها تغطى جريمتى الأولى ..

وخرجت من البيت ، كأنى أهرب منك .. أهرب من نفسى التى احتقرها .. وعندما احتقر نفسى ، أحتقر معها كل الذين حولى .. أحتقر هؤلاء الذين ينحنون تحت أقدامى ليجمعوا الذهب الذى القيه عليهم .. واحس بشهوة خبيثة الى التمادى فى اذلالهم .. والقسوة عليهم .. وذبحهم الواحد بعد الآخر .. انهم يعبدون حقيرا فلابد أنهم أحقر منه ..

وحضرت فى هذا المساء اجتماع مجلس ادارة شركة الخطوط المصرية ، وجلست على رأس مائدة الاجتماع ، وأنا أوجه نظرات الاحتقار الى حضرات الأعضاء الأفاضل .. ان بينهم رئيس وزراء سابق يبدو دائما جادا صارما كأنه يخوض معركة لا تنتهى .. وحاجباه معقدان دائما كأنه عبقرى الكون يبحث مشكلة القدر .. ويميل رأسه الضخم كرأس العجل فوق جسده الممتلىء القصير ، فلا تدرين أيهما المائل : رأسه أم جسده .. وبين الأعضاء الأفاضل اثنان من الوزراء السابقين .. وثلاثة من أعضاء مجلس النواب .. وأنا انظر الى كل هؤلاء باحتقار ، ان احدا منهم لا يستطيع ان يتجاهل هذا الاحتقار ، ولا يستطيع أن يعمى عن شفتى المقلوبتين اللتين أواجههم بهما كأنى أشمئز منهم .. ورغم ذلك فهم يقابلون هذه التعابير على وجهى بالابتسام .. كأنى اتعطف عليهم باحتقارى لهم .. ويخرج رئيس الوزراء السابق عن وقاره الكاذب ويلقى نكتة يفتتح بها الاجتماع ، لعلى اضحك لها .. فلا اضحك وارد عليها بمزيد من الاحتقار .. فتتسع ابتسامته !

وركزت نظرى على شاب يجلس فى آخر مائدة الاجتماع .. شاب له وجه مستدير كالقمر .. وجلده لامع مورد كأنه يغيره كل يوم بجلد جديد « اجلسيه » .. ويداه ناعمتان مصبوغتان بالمانيكير .. وهو يتمايل فى جلسته ، ويتأوه ، ويزفر ، كأنه امرأة بين عشرة رجال ..

هذا الشاب هو مدير الشركة !!

وكل كفاءته أنه نسيب رئيس وزراء اسبق .. وقد سقطت وزارة نسيبه .. ولكنه بقى فى منصبه لأنى كتبت معه عقدا مدته اربع سنوات ، يتناول خلالها مكافاة قدرها اربعة آلاف جنيه فى العام .

واحسست انى لا استطيع ان اطيق وجهه .. كنت ابحث عن فريسة التهمها فى هذا اليوم .. عن جريمة تقتل هذا الشىء المريض الذى يعيش فى صدرى .. وقررت أن يكون هذا الشاب هو فريستى وصرخت فى وجهه :

— انت قاعد فى الاجتماع ده بصفتك ايه ؟ !

وبوغت الشاب .. وكف عن التأوه والتثنى ، وازدرد وجهه ، وقال متلعثما :

— أنا .. انا مدير الشركة !

قلت صارخا :

— لازم تفهم يا افندى ان مدير الشركة مش من حقه يحضر اجتماع مجلس الادارة !

قال وقد بدا العرق يتصبب على وجهه :

— بس أنا مدير وعضو مجلس ادارة كمان !

وصرخت :

— مين اللى قال الكلام ده ؟

قال :

— العقد بتاعى بيقول كده !!

قلت :

ــ اتفضل قوم هات العقد ده ، لما اشوفه !

وادار الشاب عينيه بين الأعضاء الأفاضل الموقرين ، فلم يتكلم احد .. رغم انهم يعلمون ان عقده ينص فعلا على أن يكون مديرا وعضو مجلس ادارة ..

وقام الشاب وخرج ، ثم عاد بعد نصف ساعة يحمل العقد .. واخذته من يده وانا اقول :

ــ وريني لما اشوف !

ولم احاول ان ارى شيئا مما في العقد أو اقرأ حرفا منه .. كنت اعرف انه عقد صحيح ، وأن الشاب على حق .. ورغم ذلك فقد قلبت العقد بسرعة ، ثم امسكت بالصفحة الأخيرة منه التي تحمل توقيعي ، ومزقتها .. مزقت امضائي التي عليها ..

هكذا بكل بساطة .. ووقاحة !

ثم اعدت العقد قائلا :

ــ اتفضل .. خده واشرب ميته .. حضرتك ما بقتش عضو مجلس ادارة ولا مدير .. واعمل اللي عايز تعمله .. روح ارفع قضية !

وصرخ الشاب :

ــ يا لص .. يا مجرم .. انا حاوديك في داهية .. انت صاحب شركة انت ، ده انت زعيم عصابة ..

ثم حاول أن يهجم علي ، فهب الأعضاء الأفاضل الموقرون كلهم مرة واحدة ، وكل منهم ينافس الآخر في محاولة ابعاد هذا الشاب عني .. ثم اخرجوه عنوة من غرفة الاجتماع .. وانا جالس في مقعدي ابتسم في هدوء .. كانت شتائم الشاب لي كالمرهم على جرحي الذي ينزف من صدري .. كانت ترضي هذا الشيء المريض الذي يعيش في داخلي ..

وعاد المجلس الموقر الى الانعقاد ، وقال رئيس الوزراء السابق :

— يستاهل .. الحقيقة كان عبء على الشركة .

وقال عضو مجلس النواب :

— كان لازم سعادتك تعمل الحكاية دى من زمان .

والتفت الى عبد العظيم الذى يجلس دائما على يمينى فى كل اجتماع .. فرايته يبتسم .. ابتسامة كبيرة هادئة .. كأنه يبلغنى رضاء الشيطان عنى !!

وقد حاولت ليلتها أن اعيش فى رعاية الشيطان ..

قضيت ليلة عربيدة فى شقتى الخاصة .. كنت أحاول خلالها أن انسى .. انسى انى مزقت قلبك .. وحبك .. واملك .

ولكنى لم انس ..

كان بينى وبين النسيان بحر من الجرائم يجب ان اخوضه .. وبعد أن خضته ، وجدت على شاطئه الآخر جثة .. جثة فتاة ينزف منها دم الفتيات ..

- ١١ -

حاولت كثيرا أن أمتنع عن زيارتكم بعد أن حطمت حبك ، ومزقت أملك .. ولكنى كنت كالمجرم الذى ينساق الى مكان جريمته ، ليعذب نفسه بآثارها .. ليرى جثة القتيل — ويبكى عليها .. وكنت انت الجثة التى تجذبنى اليها .. جثة الحب الذى قتلته .. وكنت أغيب عنك أياما ، ثم أجد نفسى مدفوعا اليك ، كأنى أعلل نفسى بأن ليس هناك جثة .. وليس هناك قتيل .. وانى لست مجرما .. ثم لا أكاد أراك فى صمتك وهزالك . وعينيك اللتين تثقبان صدرى ، حتى أرى الجريمة .. أراها منتصبة أمامى واصبعها يشير الى كأنه يطالب بالثأر ..

هل كنت تحبين عادل الى هذا الحد ؟

الى حد أن تصمتى كل هذا الصمت ، ويذوب جسدك كأنه يتبخر فى آهاتك ؟

وهل هذا الحب موجود ؟

انى لم أعرفه .. لقد أحببت الثراء ، أحببت النفوذ ، أحببت النجاح ، أحببت العمارات والأطيان .. ولكنى لم أحب انسانا آخر لمجرد الحب .. ان الانسان شىء أشتريه ، أو يشتريه غيرى . أو شىء يشترينى اذا كان أقوى منى .. الرجال عمل أشتريه ، والنساء متعة أشتريها .. فهل أردت أن تشترى عادل ؟ ولكن . لماذا ؟ ان الدنيا مليئة بالشباب ، فلماذا تعذبين

نفسك كل هذا العذاب ؟ ثم لماذا الشباب .. انا مثلا ، الا استطيع ان اسعدك اكثر مما يستطيع عادل ؟ ! اسعدك بثرائى وفحولتى ؟! فلماذا لا تكونين ذكية كأمك ؟

لقد فكرت فى تلك الأيام ان اتزوجك !

لا تدهشى .. لقد فكرت فعلا ان اتزوجك .. خيل الى ان الطريق الوحيد للتكفير عن جريمتى ، ولانتزاع ابتسامة منك .. هو أن اعوضك عن عادل بنفسى .. ان امنحك آخر ما استطيع ان امنحه .. اسمى !

ولكنى لم اكن استطيع ان اتزوجك .. ولم اكن اجرؤ حتى على مجرد الاستمرار فى هذا التفكير .. انى لو حاولت ان اتزوجك فسأهدم كل ما بنيته .. سأفضح نفسى .. سأبدو امامك كأنى اطالب بالثمن .. وهذا ما لا اريده .. انى اريد ان ابدو امامك وامام امك ، وامام نفسى ، كأنى رجل شريف .. اريد منكما أن تحترمانى .. واريد ان احترم نفسى .. اريد ان اكون كأبيك .. واريدك ان تحبينى كأب .. وان تحترمينى كأب ..

وقد حاولت كثيرا ان ابدو كأب ..

ولكنى فى دخيلة نفسى لم اكن ابا .. كانت شهوة امتلاكك تلوث دمائى .. وكان الشىء الذى فى صدرى يتحرك كأنه يئن .. كأنه يتوجع .. كأنى احمل فى صدرى مريضا يلفظ انفاسه .. لا يريد ان يموت ، ولا يريد ان يصحو .

وكان يجب ان اسكت هذا الشىء المريض ، كان يجب ان اجد علاجا له .. ولكنى فشلت .. لانك لم تساعدينى على اخماد شهوتى .. لم تحاولى ان تقتنعى بى .. كنت دائما تنظرين الى من بعيد ، وتثقبين صدرى بعينيك ، ثم تتعففين عنى .. تتعففين عن كل النعم التى اسبغها عليك :: عن مالى ، وعن اسمى الكبير ، وعن نفوذى ، وعن نجاحى ، وعن كل هذه الفخامة التى احيطك

بها .. وقد حدثتك كثيرا عن نفسى لعلى اقنعك بها .. كنت اجلس معك ومع امك ، واقص عليكما أخبار تبرعاتى للجمعيات الخيرية .. وأخبار النوادى الرياضية التى اشجعها وأنفق عليها .. واخبار الوف العمال وللموظفين الذين أرزقهم وأرزق عائلاتهم .. وكنت أحرص على أن تصل اليكما الصحف التى تكتب عنى ، وتشيد بكفاءتى .. و .. و .. ولكن كل هذا لم يقنعك .. كانت أمك تستمع الى ، فتقفز الفرحة فوق وجنتيها ، كأن كل خلجة من خلجاتها تزغرد ، ثم تقول :

ـ ربنا يخليك للناس يا باشا ، ويزيدك من نعايمه .. ويا بخت من نفع واستنفع ..

أما انت فكان لا يبدو عليك شيء .. كأنك تستمعين الى كلام لاتصدقينه .. وتظل يداك تحيكان فى ثوب ، او تطرزان قطعة من قماش ، دون اهتزاز أو توقف تحية لجهادى الذى أسرده عليك .. واظل انا متربصا بعينيك حتى التقى بهما لعلى ارى فيهما اقتناعك ورضائك .. والتقى بهما ، فلا اجد فيهما شيئا سوى هذه النظرة الهادئة العميقة التى تثقب صدرى ، وابتسامة باهتة حزينة ، كأنك تستسلمين لمأساة كتبت عليك .

وفعلت اكثر من ذلك ..

حاولت أن أدفعك الى حياة مرحة لعلك تمرحين .. وحاولت أن احيطك بالشباب لعلك تحسين بشبابك .. وادخلت التليفون الى بيتكم بعد أن اطمأننت الى أن عادل قد سافر فعلا الى القصير .. لعلك تجدين فى التليفون شيئا يخرجك عن عزلته وعن صمتك ..

ولكنك لم تستعملى التليفون الا عندما كنت اطلبك او تطلبك خيرية أو ابنتها ، فتردين علينا كأنك تؤدين واجبا ثقيلا .. لم يكن يستعمل التليفون الا امك ، وكأنها وجدت فيه لعبة مسلية ، فلم تكف عن استعماله .. انه دائما مشغول ، كأنه تليفون فتاة

مراهقة .. ولم تكن تحادث الا خيرية ، وبعض صديقات خيرية اللاتى يتأففن منها .. ثم لما يئست من أن تشغل يومها كله بالحديث مع خيرية وصديقاتها بدأت تشغله بالحديث مع الخياطات ، والحلاقين ، وأصحاب الدكاكين التى تتردد عليها ..

ثم حاولت أكثر من ذلك ، فجعلت شوشت ابنة خيرية تصحبك الى نادى الجزيرة .. وقد عارضت شوشت فى أن تصحبك .. قالت لأمها ، انك لخمة ، وباردة ، وبلدى .. وان كل صديقاتها وأصدقائها سيهزءون بك .. وعارضت أنت أيضا .. كنت تعارضين فى كل مرة يدعونك فيها للخروج من البيت ، كأنك تخافين الدنيا ، أو كأنك تكتفين من الدنيا بهذه الجدران الأربعة التى تحيط بك .. أو كأنك تكتفين من الدنيا بنفسك .. ولكن أمك وأمها ألحتا عليكما الى أن ذهبتما الى نادى الجزيرة ..

وكنت أنا هناك ، جالسا بالقرب من حمام السباحة ..

ورأيتك تدخلين بوجهك الحزين النحيل .. وعودك الرقيق المنتصب .. وليس فيك من علامات الحياة سوى خطاك ، وابتسامتك الباهتة الضعيفة .. وثوبك الغامق البسيط .. لماذا اخترت هذا الثوب ؟ لماذا لم تنتقى ثوبا أبيض مرحا .. كالنهار .. كالشباب ؟ ! .. لماذا كل ما أراه فيك قاتم ، يكتم صدرى .. ويزهق أنفاسى ؟ ..

ولم ترينى وأنا فى جلستى أرقبك .. كنت بعيدا عنكما ، وعيناى قريبتان جدا منكما .. ورأيت « شوشت » وابتسامتها تبتلع نصف وجهها .. مرحة .. منطلقة .. تقفز فى خطواتها .. وتلتفت حولها ، وتطل فى وجوه الناس بجرأة .. وكل قطعة من جسدها تتحرك ، وتتكلم ، وصدرها لا يكتفى بالكلام ، فيهتف .. وأنت بجانبها كأنك فى عالم آخر .. كأنك الهدوء بجانب العاصفة .. الماء بجانب النار .. أنت الانسان الذى يعيش

فى قلبه .. وهى الانسان الذى يعيش فى جسده .. والقلب قنوع ، والجسد لا يشبع !!

وتساءلت من منكما الحياة ؟

أنت أم هى ؟

القلب أو الجسد ؟

لا أدرى .. ولكن الحياة التى عشتها أنا هى حياة شوشت .. حياة الجسد .. متعة الجسد ، والثراء الذى ينعكس على الجسد ، والعمارات التى تضم الجسد .. والنفوذ الذى يتباهى به الجسد ..

لم يكن لى نصيب من حياة القلب .. نصيب كنصيبك .. ولم أستطع يوما أن أجمع بين جسدى وقلبى .

وصاحت شوشت بمجرد أن دخلت الى النادى :

ـــ ديدى .. هشام .. مدحت .. هاى .. هاللو ..

والتف حولكما فريق من البنات والشبان يهللون فى وجه شوشت .. ثم نظروا اليك كأنهم ينظرون الى مخلوق طلع عليهم من عالم آخر .. عالم بعيد .. عالم الفقراء .. نظروا الى ثوبك البسيط .. ووجهك الخالى من المساحيق .. وشعرك الناعم المنسدل خلف رأسك فى بساطة دون أن تتدخل فيه يد الحلاق .

وقدمتك اليهم شوشت ، وفى عينيها نظرة أسف ، كأنها تعتذر لهم عن تقديمك اليهم ، وعن صحبتها لك ..

وجلستم حول مائدة ، وأخذوا جميعا يتحدثون ما عدا أنت .. ووجه اليك واحد منهم حديثا فلم تردى عليه سوى بكلمات مقتضبة .. لم أرك تضحكين ، كما يضحكون .. ولم أرك تتحمسين لشىء كما يتحمسون .. كنت كأنك سرحانة .. فيم سرح فكرك ؟ فى عادل ؟ ! الا تستطيعين نسيانه ، حتى وسط كل هذا الصخب الذى يملأ النادى ؟

وبدأ الشبان والفتيات ينصرفون من حولك الواحد بعد الآخر

.. ويتفرقون فى الملاعب .. لم يبق معك الا شوشت واحدى صديقاتها .. ثم انصرفت أيضا شوشت وصديقتها .. وتركاك وحدك .. دون أن تعترضى .. ودون أن تحاولى اللحاق بهما .. بل كأنك حمدت الله أن تركاك وحدك .. وعدت تسرحين فى خيالك .. ونظراتك تضيع فى الأفق ..

ولم تتخل عيناى عنك .. وكنت أحس بأنى أهم بالقيام من مقعدى وأهجم عليك ، وأحملك عنوة وألقى بك وسط الشبان والبنات .. وسط الحياة التى أحياها .. وسط الضجيج .. ضجيج الأجساد التى تلعب وتغرى وتهتف .. ضجيج حياتى !

وعادت شوشت بعد فترة ، وجلست معك ، وعلى وجهها طبقة سميكة من الامتعاض .. كأن مجرد جلوسها معـــك هم كبير !

ثم جاءت بنت أخرى ووقفت تحادث شوشت ، ولمحت انت أن ثوبها قد تمزق ذيله قليلا .. فقلت لها :

ــ ده فستانك مقطوع !!

سكت كل هذه الادة ولم تنطقى الا عنـــدما وجدت ثوبا مقطوعا !!

ونظرت الفتاة الى حيث أشرت لها الى مكان المزق ، ثم هزت كتفيها وقالت :

ــ ما يهمش .. عمرى ما جيت النادى بفستان الا وانقطع .

وقلت أنت فورا كأنك تقدمين خدمة جليلة :

ــ تحبى أخيطه لك ؟

وبدت الدهشة على وجه الفتاة ، وقالت فى تعجب :

ــ تعرفى ؟ !

وقلت أنت فى تباه :

ــ أمال .. ده قطع صغير ؟ !

وفتحت حقيبة يدك بسرعة ، وأخرجت فتلة وابرة ، ولضمتها

بسرعة عجيبة كأنك تعرفين الطريق الى ثقب ابرتك جيدا .. وامسكت بذيل ثوب الفتاة ، وأخذت ترتقين فيه ..

ووضعت الفتاة يدها على فمها حتى لا تسمعى ضحكتها الساخرة ..

وغطت شوشت وجهها بيدها كأنها تخفى خجلها منك ..

والتف الشبان والبنات حولك يرقبونك ساخرين ، ويكتمون ضحكاتهم .. ثم بدأ كل من فى النادى يرقبك من مكانه كأنه يرقب شيئا غريبا .. يرقب بهلوانة فى سيرك ..

وانطلقت النكات من حولك .. قال واحد :

ـ يظهر انهم جابوا خياطة مخصوص للنادى ..

وقالت سيدة :

ـ باين عليها شاطره .. انا حابعت لها هدوم الخدامين تخيطهم .

وقالت احدى الأميرات :

ـ ايه ده .. مين دى .. ما يصحش الدادات يقعدوا معانا .. فيه لهم مكان مخصوص .. هناك .. بعيد ..

وكل ذلك وانت منحنية على طرف الثوب منهمكة فى رتقه . دون أن تدرى ما يدور حولك .. دون أن تلحظى هذه الابتسامات الساخرة والضحكات المكتومة التى يسقطها فوق رأسك البنات والشبان الملتفون حولك ..

وفجأة أشارت صاحبة الثوب الى شـــاب يقف بعيـــدا ، وصرخت :

ـ شريف .. هاللو .. شريف ..

ويظهر أن شريف لم يسمعها ، فجرت اليه بعد أن شدت ثوبها من بين يديك وانت لا تزالين منحنية فوقه .. وشدت مع الثوب الابرة والفتلة ، فجرحت اصبعك ..

وضحك كل الناس .. كل أعضاء نادى الجزيرة .

ورفعت أنت رأسك فى دهشة .. لا تدرين لماذا جرت الفتاة ، ولا لماذا يضحك الناس .. ثم اكفيت بأن مصمصت بشفتيك قطرة الدم التى انبثقت من أصبعك ، وأنت تنظرين وراء الفتاة فى حنان ، وابتسامتك الحزينة فوق شفتيك كأنك تعذرينها ، وتصفحين عنها ..

وقمت أنا مغتاظا .

قمت كأنى أهرب من نفسى .. كأن هؤلاء الناس يضحكون على أنا .

انى لا أستطيع أبدا أن أنقلك الى دنياى ..

لن أستطيع أبدا أن أجعل منك الفتاة التى أريدها .. فتاة تؤمن بايمانى ، وتطمع فى مطامعى ..

ستظلين دائما ملتصقة بأبيك الموظف الصغير فى وزارة الأشغال .. ملتصقة بعقلية أبيك ، وقناعة أبيك .

ان أباك أقوى منى !!

وأنت أيضا أقوى منى !!

وانا انسان فاشل .. انها أول مرة أحس فيها أنى فاشل .. فشلت رغم الجرائم التى ارتكبتها فى سبيلك .. فى سبيل أن أربط حياتك بحياتى ..

وقد ارتكبت كثيرا من الجرائم قبل أن أعرفك ، وكان النجاح الذى تحققه لى هذه الجرائم يعوضنى عن الاحساس بالجريمة ، ويبرر ارتكابها .. ولكنى عندما أرتكب جريمة ولا أحقق من ورائها نجاحا أو نتيجة ، فانى أحتاج الى جريمة أخرى .. لعلى أنجح .. ولعلى اعطى احساسى بالجريمة الأولى ..

وأصبحت فى حاجة الى ارتكاب جريمة أخرى جريمة اكبر !

هل تفهميننى يا هدى ؟

ان المجرمين ليسوا دائما من هواة الجريمة ، انهم احيانا يحاولون الهرب من الجريمة ، فلا يجدون سبيلا للهرب الا بارتكاب جريمة اخرى .. وينساقون الى سلسلة من الجرائم كل جريمة اكبر من الأخرى .. كأنهم يتحدون ضمائرهم وهم فى تحديهم للضمير يحاولون خنقه .. يحاولون قتله .. ليستريحوا منه .. وتهدأ نفوسهم ، بلا ضمير !

وهكذا بدأت اندفع الى جريمة اخرى بعد جريمة تحطيم حبك .. وكانت جريمة اكبر .

وكنت مدعوا الى تناول العشاء عند خيرية .. كنا اربعة فقط .. خيرية وزوجها ، وانا وعبد العظيم .. مجرد سهرة خاصة نحتاج اليها بين الحين والحين ، عندما نريد أن نستريح من المجتمع ..

واستأذن زوج خيرية بعد العشاء ، ودخل الى غرفته .. ونام .. ولم يكن فى ذلك مفاجأة لى او لعبد العظيم .. او لخيرية .. فهذه عادته .. انه شخص يهتم كثيرا بصحته .. ونظام حياته .. ينام كل ليلة فى الساعة الحادية عشرة مساء بعد ان يشرب ثلاث كئوس من الويسكى بالضبط .. ويستيقظ فى السابعة .. ويذهب الى نادى الفروسية فى الثامنة والنصف .. ويركب حصانه حتى العاشرة .. ثم يعود الى بيته فى العاشرة والنصف ليتناول افطارا دسما يراعى فيه ان يضم كل انواع الفيتامينات .. ثم يذهب الى مكتبه — وهو مكتب شركة كبيرة لا يفهم من اعمالها شيئا الا انه عضو فى مجلس ادارتها ، ويبقى فيه نصف ساعة ، ثم يذهب الى نادى سليمان باشا ليلعب بلياردو ويشرب كأسا من « الأمريكانو » ثم يعود الى البيت فى الثانية تماما ليتناول غداءه ، ثم يذهب الى نادى الجزيرة فى الرابعة تماما ليلعب الجولف .. و .. و .. وهو دائما سعيد ، ما دام مطمئنا الى صحته ، والى لون وجنتيه ، والى سلامة عضلاته ، والى ان

وزنه لا ينقص نصف كيلو أو يزيد نصف كيلو .. وليس فى ذهنه ما يمكن أن يعكر صفاءه .. انه لا يقرأ كتبا أو مجلات يمكن أن تشغل ذهنه .. ولا يهتم بشىء صغير أو كبير يمكن أن يأخذ من تفكيره شيئا .. انه انسان سعيد .. سعيد بمجرد وجوده .. وليس بينه وبين خيرية ما يمكن أن يسمى حياة زوجية .. انه لا يحاسبها على شىء ، ولا يسألها عن شىء .. كل ما يطالبها به هو ألا تعكر هدوءه ، او تلقى عليه اى لون من مسئوليات الحياة ، أو تطالبه بشىء ، أو تربك نظام حياته .. وربما رآها يوما مخمورة ، أو رآها مرة تقبل رجلا ، فلا تثور اعصابه ، ولا يهتز شاربه الأصفر المرفوع الذى يتباهى به .. ان راسه يرفض أن يحتمل الشك فى تصرفات خيرية .. واعصابه أبرد وأقوى من أن تحاسبها .. وحتى لو غابت عن البيت أياما لا يكلف نفسه حسابها .. انه سعيد .. سعيد جدا .. ما دام مطمئنا الى لون وجنتيه ..

هذا هو شريف بك زوج خيرية ، كما يعرفه مجتمعنا .. انهم يعرفون كل مواعيده ، حتى المواعيد التى ينتقل فيها من غرفته إلى غرفة زوجته .. مواعيد محددة بالضبط ، محسوب حسابها حسابا علميا ، حتى لا تؤثر فى صحته !!

ولم يتغير الموقف بعد أن قام شريف بك لينام ، فان كل ما نستطيع أن نفعله فى غيبته نستطيع ان نفعله فى حضوره ، ونحن مطمئنون الى سعادته !

وقالت خيرية :

ــ تيجوا نلعب بوكر مكشوف ؟

ولم أسترح الى الفكرة ، لم تكن اعصابى ليلتها تحتمل ان اجلس الى مائدة البوكر .. كنت اريد شيئا عنيفا .. شيئا جديدا .. اريد جريمة تخرجنى عن احساسى بفشلى معك .. فقلت لخيرية كأنى القى اليها بمفاجأة :

ــ ايه رايك نبعت نجيب تفيده ؟

وقالت خيرية متأففة :

ــ دى زمانها نامت ، وشبعت نوم !

قلت كأنى الح عليها :

ــ جربى .. يمكن تكون لسه صاحية .. قومى اضربى لها تليفون !

وقال عبد العظيم وهو يكور شفتيه كأنه سيبصق على الأرض ، ثم يعدل ، ويبتلع بصقته :

ــ ما احنا اتفقنا على ان الجماعة دول يبقوا فى النهار بس .. خلينا نروق بالليل !!

وعادت خيرية تقول :

ــ والنبى عايز من تفيدة ايه دلوقت ؟ !

قلت وانا اخفى عينى عنهما :

ــ أهو نضحك عليها شويه .

قالت وهى تنظر الى كأنها تحاول ان تفهمنى :

ــ والنبى انا مش قادرة افهمك يا حسين .. بقالك سنتين وانت محيرنى .. ما تقول لى عايز منها ايه ، وتخلص .

قلت :

ــ وحياتك ولا حاجة .. اصلى كل ما اشوفها وهيه بتحاول تقلدك اموت على نفسى من الضحك .. قومى يا شيخة اضربى لها تليفون ..

وقامت خيرية واتصلت بأمك فى التليفون .. ووجدتها لم تنم بعد .. واستطاعت ان تقنعها بأن تأتى الينا .. ولم تكن فى حاجة لجهد كبير لاقناعها ، كان يكفى ان تقول لها اننى موجود .. وانها ستراني !

وقال عبد العظيم بينما خيرية تتحدث فى التليفون :

ــ نسيت اقول لك .. الجدع اللى اسمه عادل .. عامل

دوشه فى القصير .. وابتدا يلم العمال وعايز يعمل لهم نقابة ..

ونظرت اليه شذرا ، وقلت فى حسم كأنى أعنفه لمحاولته فساد سهرتى :

— مش وقته !

وارسلنا السائق الى أمك ، وعاد بها .. ودخلت علينا وهى تتأرجح فوق كعب حذائها العالى .. تميل الى الأمام حتى تكاد تسير على ركبتيها ، وتميل الى الخلف حتى تكاد تسقط على ظهرها .. وقد اهتمت كثيرا بزينتها ، أكثر من عادتها .. فقد كانت الليلة الأولى التى تجمعنا سويا .. ولم تكن خيرية بجانبها وهى تتزين ، فأكثرت من كل شىء .. أكثرت من الكحل حول عينيها ، ومن « الريميل » فوق جفونها ، ومن البودرة فوق وجهها وعنقها .. ورسمت بأصبع الأحمر فما آخر حول شفتيها ؟ ربما كانت تحاول أن تقلد به فم خيرية .. وبدت فى كل ذلك كأنها بلياتشو جاء الينا من السيرك قبل أن يمسح المساحيق عن وجهه .

ونظرت اليها فى شماتة ..

هذه هى زوجة محمد افندى السيد ..

هذه هى زوجة الزميل الشريف النزيه الذى رفض أن يتعاون معى منذ كنا معا طالبين فى مدرسة الفنون والصنايع ، والذى تحدانى بشخصيته .. فلم أستطع أن آخذه فى طريقى او أقنعه بنفسى .. الزميل الذى تعفف عنى طول حياته حتى انه رفض أن يحضر حفلة تكريمى ؟ .. لعله الآن يندم فى قبره .. لعله الآن يخضع لى وهو يرى زوجته وشريكة حياته العوبة فى يدى .. الهو بها .. وأضعها أمامى كالمسخ لتضحكنى .

وقالت أمك وهى تصافحنا :

— صحتونى من النوم يا جماعة .

وأمسكت يدها وانحنيت أقبلها ، وأضغط فوقها بشفتى ..

وأنا اخفى ضحكتى فى صدرى ، ثم رفعت اليها وجهى ، وقلت لها وأنا انظر اليها بكل عينى كأنى ابثها حبى :

ــ اصلك وحشتينا يا نفيده .. ما بقتش قاعدتنا تحلى الا بوجودك .

وتسلل العطر الذى سكبته على نفسها الى انفى .. لابد انها عطرت نفسها بكل انواع العطور التى اشتريتها لها ، فانى لم استطع ان اميز رائحة « الأربيج » من « جى رفيان » من « فام » ..

وقالت خيرية :

ــ احنا كنا ناويين نلعب كوتشينه ، قلنا تيجى تلعبى معانا .. بدل ما تنامى كل ليلة زى الفراخ ..

وقالت امك وهى تتلفت حولها :

ــ امال فين شريف بيه ؟

وقال عبد العظيم :

ــ نام .. انسم الله عليه ..

ونظرت اليه كأنى احذره من ان يتمادى فى افساد الجو الذى نحيط به امك .. ثم التفت الى خيرية قائلا :

ــ كوتشينة ايه يا شيخة .. دورى لنا شوية اسطوانات !!

ونظرت اليها نظرة تفهمها .. نظرة تفهم منها انى اريد تهيئة جو خاص .. وكنت قد قررت ليلتها ان اجر امك خطوة أخرى الى الفساد ، بحيث لا تشعر انها تنقاد الى فساد ، انما كل ما تشعر به انها تتلقى دروسا جديدة فى تقاليد المجتمع الذى انتقلت اليه ..

واعدت خيرية كأسا من الويسكى وقدمته الى امك ، فقالت فى شك :

ــ ايه ده يا خيريه ؟

وقالت خيرية فى بساطة :

ـــ ويسكى .

ثم رفعت كأسها الى شفتيها وقالت :

ـــ الا فوتر .

ونظرت اليها امك فى تعجب .. لم تكن قد رأتها من قبل وهى تشرب الويسكى .. وقالت :

ـــ لا يا اختى .. مابشربوش .. كفاية على البتاع اللى اسمه البيرمو اللى هو النعناع !

وقالت خيرية وهى تنزل الكأس عن شفتيها :

ـــ انا الحقيقة جربته قبل النوم استريحت فيه قوى .. كاس واحد ، يخلى الواحدة تنام مرتاحة ..

وقلت وانا انظر الى امك ساخرا ، واتناول الكأس من يد خيرية واضعه على مائدة صغيرة امامها :

ـــ اهو خلى الكاس قدامك ، علشنان تبقى زينا .

وقالت امك :

ـــ ده كان عندنا فى شبرا واحد صاحب كباية .. انما كانت حالته تقطع القلب ..

وقالت خيرية كأنها تؤنب امك :

ـــ يظهر شبرا دى حتفضل معششة فى دماغك على طول ... ما خلاص يا تفيده .. ما سبنا شبرا من زمان .

ونكست امك رأسها كأنها تعتذر عن ذكر شبرا ..

ووضعت خيرية فى « البيك آب » عدة اسطوانات راقصة .

ثم عادت متجهة الى عبد العظيم قائلة فى دلال وهى تفتح له ذراعيها :

ـــ قوم ارقص يا عبد العظيم !

وقام عبد العظيم وقد تهلل وجهه ، واحتضنها قائلا :

ـــ أوى .. ارقص ونص !

واخذ يراقصها ، وامك جالسة بجانبى تراقبها باعين مشدوهة

.. ثم قالت لى هامسة :

ــ اللى يشوف عبد العظيم بيه بيرقص مع خيرية ، يقول انه بيحبها .

قلت وبين شفتى ابتسامة ساخرة :

ــ ليه ؟ !

قالت :

ــ ده حاضنها قوى .

قلت كأنى اعايرها بتفكيرها :

ــ وماله . ماكل الناس بترقص كده .

ونظرت الى نظرات حائرة ، كأنها تتمنى ان تصدقنى .. ثم قالت فى ارتباك :

ــ يعنى تسمح للست بتاعتك ترقص كده ؟

قالتها فى صوت ضــــعيف ، والدماء تتصاعد الى وجنتيها المهدلتين ، كأنها كانت تعنى نفسها .

قلت وأنا احاول ان اشعرها بأنها متأخرة فى عقليتها :

ــ طبعا .. الرقص مش عيب .

قالت وهى لا تنظر الى واصابعها تعبث بحرف الأريكة التى نجلس عليها :

ــ يمكن علشان الست بتاعتك انجليزية .. انما لو كانت مصرية و ..

وقاطعتها قائلا :

ــ برضه كنت اخليها ترقص .. ما دام انا بارقص مع ستات اصحابى ، يبقى لازم هيه كمان ترقص معاصحابى .. انتى فاكره ان الرقص عيب .. ابدا ..

وتركت خيرية عبد العظيم فجأة ، ثم جاءت الينا وشدت تفيدة من يدها ، وهى تقول :

ــ تعالى لما اعلمك الرقص يا تفيده .. تعالى والنبى ..

وقالت امك وهى تتشبث بمقعدها :

ـــ لأ .. كله الا كده .

وقالت خيرية ، وهى لا تزال تشدها اليها :

ـــ تعالى يا شيخة .. ولا برضه حاتقولى شبرا .

ومست كلمة شبرا كبرياء امك ، فتراخت مقاومتها ، واسلمت نفسها لخيرية ، وهى تقول :

ـــ اصلى مش واخده على الحاجات دى !!

وقامت واقفة ، ولفت خيرية ذراعيها حولها ، وبدات تخطو بها على الأنغام .. وانطلقت منى رغما عنى ضحكة كبيرة .. وكتم عبد العظيم ضحكته فبدا كأنه يبكى .. وخيرية اذابت ضحكتها فى ابتسامة تقفز فوق شفتيها ، وهى تقول لأمك :

ـــ مش كده يا تفيده .. بصى .. اعملى زيى .. واحد ، اتنين ، تلاتة ..

وكانت امك حائرة مرتبكة .. تحاول أن تقف فوق كعب حذائها العالى .. فلا تستطيع ، وتحاول أن تنقاد الى خيرية فتكاد تقع من فوق الكعب العالى .. وفى عينيها نظرات مرتعشة ، وفوق شفتيها ابتسامة بلهاء .. والدماء تجمعت فى وجنتيها فبدت كل منهما كأنها دمل كبير .. كانت كطفلة تخطو خطواتها الأولى .. طفلة مسكينة اصيبت بتضخم فى الغدد فبدت كبيرة ..

وقالت خيرية :

ـــ خدى بالك من المزيكة .. امشى على حسب الطبلة .. بصى ..

وتركتها خيرية ، واخذت ترقص امامها وحدها .. وامك تقول :

ـــ والنبى بلاش الحكاية دى يا خيرية .. يعنى هو ضرورى الرقص ده .

وقمت أنا واقفا واقتربت منها قائلا :

— انتى مش عارفه تعلميها يا خيرية .. سبيها لى .. أنا حاعلمها !

وقبل أن تنتبه أمك الى ما أنويه ، أحطتها بذراعى .. وضممتها الى صدرى بقوة .

وبحركة لا ارادية أبعدت أمك نصفها الأسفل عنى .. عن جسمى .. فبدت كأنها رقم «٦» .. ثم نظرت الى بعينين مذعورتين كأنى سأذبحها .

وقلت لها وأنا أتجاهل نظرتها :

— اقفى كويس .. خلى جسمك دغرى !!

واهتزت شفتاها كأنها تهم بالكلام .. ولكنها لم تتكلم .. ونصفها الأسفل لا يزال منبعجا الى الوراء .. بعيدا عنى !

هذه عقلية نساء الطبقة الوسطى ..

كل ما يخافون عليه هو النصف الأسفل ..

كأن الشرف له مناطق محدودة .. وما يحدث خارج هذه المناطق مباح ، لا يمس الشرف .

وحاولت أن أخطو بها .. ولكنى لم أستطع ، فقد تصلبت قدماها ، كأنما سمرتا فى الأرض .. وعيناها لا تزالان مذعورتين كأنى سأذبحها .. وقالت فى صوت متهدج ، من بين أنفاسها المتلاحقة :

— بلاش يا حسين .. بلاش والنبى !

قلت وأنا لا أزال أضغطها الى صدرى :

— يا شيخة اتلحلحى .. امشى مع رجليه .

وملت عليها بوجهى ، ووضعت خدى على خدها .. وحاولت أن أجعلها تتحرك ، فلم أستطع .. قدماها لا تزالان مسمرتين فى الأرض .. ويداها أصبحتا قطعتين من الثلج فى يدى ..

ووجهها يتقد نارا .. وانا انفخ أنفاسى فى اذنيها كانى انفخ فى النار لتشتد .. وفجأة نزعت أمك نفسها من بين ذراعى بقوة .. قوة عجيبة لا قبل لى على مقاومتها .. وهرعت الى مقعد وجلست عليه ، وهى ترتعش .. وقالت فى حزم :

ــ لا .. لا .. مش عايزه اتعلم الرقص .. مش حاتعلم الرقص عمرى .

وتلفتت حولها ، كأنها تبحث عن ثقب تهرب منه .. ثم مدت يدها المرتعشة فى انفعال ، والتقطت كأس الويسكى من فوق المائدة الصغيرة .. ورفعته الى شفتيها .

كانت تريد أن تهرب من خطيئة ، فلم تجد مهربا الا فى كأس الخطايا .

وسكتنا جميعا ..

كانت خيرية تنظر الى كأنها تقول : عاجبك كده !!

وانا اتنحنح واحاول الا تلتقى عيناى بعينى امك حتى لا ترى فيهما سخريتى بها ..

وعبد العظيم يرفع كأسه الى شفتيه ويطل علينا بعينيه من فوق حافة الكأس ، ثم ينحنى ويلتقط قطعة من الخيار .. كأن ما يجرى حوله شىء عادى شاهده كثيرا ، وعرف نهايته ..

وقالت امك وهى تعيد الكأس من بين شفتيها :

ــ ياه .. ده مر قوى .

قلت فى غضب مفتعل :

ــ ما تشربيش منه .

ونظرت الى امك كأنها تلومنى على غضبى منها .. ثم كأنها تعتذر لى وقالت :

ــ انت زعلت منى يا حسين ؟

قلت وانا اهز كتفى :

ــ ابدا .. انتى على حق .. ما كنش لازم تتعلمى الرقص ـ

وقالت خيرية كأنها تقدم لنا شيئا جديدا :

— انا باقول نقوم نلعب كتشينه .

وقالت امك بسرعة كأنها تحاول أن تندمج فينا وتتقرب الينا :

— أنا ما اعرفش العب الا الشايب .

وقالت خيرية :

— فكره .. ياللا نلعب الشايب .. انا لسه فاكراها من يوم ما كنت بالعبها مع دادتى .

والتففنا حول المائدة ..

ودون سابق اتفاق .. التقط عبد العظيم ورقة « الشايب » وعلمها .. ثنى أحد اطرافها ثنية خفيفة .. واشار لنا بعينيه لنعرف انه علمها .. هكذا بحكم العادة .. عادة عبد العظيم .. ولم يعد بيننا من لا يعرف ورقة « الشايب » الا امك .

واتفقنا عن طريق تبادل النظرات على أن تقع ورقة الشايب فى يد خيرية .. ثم كتمنا ابتسامتنا فى صدورنا ..

وبدات الأوراق تطوف بنا ..

وقالت خيرية خلال اللعب :

— أنا مش عارفه شريفه هانم حتفضل تحب محمود باشا لغاية امتى .. ده مش سائل فيها خالص ..

وانتبهت امك ، وقالت :

— هو مش عايز يتجوزها ؟

قالت خيرية كأنها تتهم امك بالغباء :

— يتجوزها ازاى .. مش لازم الاول يحبها ، ويخرجوا سوا .. ويعرفوا بعض كويس .. دى ست عندها خمسة وتلاتين سنة .. ماهيش صغيره ، علشان ييجى واحد يتجوزها على طول كده !!

ونظرت الى خيرية كأنها تقول لى : « كويسه دى » !

وسرحت امك بأفكارها .. كأنها كانت تقارن بين حالها معى ،

وحال شريفه هانم مع محمود باشا .. وكأنها اكتشفت شيئا جديدا .. اكتشفت أنها لكى تتزوجنى يجب أن تخطو خطوات أخرى كثيرة ..

واضطررت ان اقول لها كى انبهها حتى تفيق من خيالها :

ـ ما تلعبى يا تفيده ..

واهتزت كمن تستيقظ من النوم على مفاجأة ، واخذت تلعب ..

وانتهى اللعب ، بأن سقط « الشايب » فى يد خيرية .. وكان على ان اصدر عليها حكما كما تقضى اصول اللعب ؛ فالتفت الى عبد العظيم وقلت له وانا اضحك :

ـ دبرنى يا وزير ؟!

وقال عبد العظيم فى منتهى انجد كأنه فعلا فى مجلس الحاكم :

ـ التدابير لله يا ملك !

وقلت بعد برهة كأنى افكر فى قضية عويصة :

ـ حكمنا عليكى يا خيرية يا بنت الناس .. بأن كل واحد نينا يبوسك بوسه .

وصفقت خيرية بيديها فرحة ، وقالت :

ـ مرسى يا مولاى .. ده حكم لذيذ قوى .

ونقلت امك عينيها بيننا فى دهشة ، ثم كأنها خافت ان تفسد علينا لهونا . فابتسمت ابتسامة مترددة ..

وقمت وقبلت خيرية فوق وجنتها قبلة سريعة .. بريئة !

وقام عبد العظيم فى منتهى الوقار كأنه يؤدى مهمة رسمية خطيرة ، وقبلها فوق رأسها ..

واتسعت ابتسامة امك .. لقد اطمأنت الى ان قبلاتنا بريئة .. واننا نلهو .. مجرد لهو برىء .. وقامت وقبلت خيرية قبلتين .. قبلة على كل خد !

وبدأنا نلعب دورا ثانيا ..

واتفقنا نحن الثلاثة ـ انا وخيرية وعبد العظيم ـ على ان نترك الشايب يسقط فى يد امك ..

وانتهى الدور . وامسكت امك بورقة الشايب فى يدها ، وقالت وهى فرحة،كأنها تنتظر امنية جميلة :

ــ يا ترى حتحكموا على بايه ؟

والتفت الى عبد العظيم فى وقار قائلا دون أن ابتسم :

ــ دبرنى يا وزير .

وقال عبد العظيم فى منتهى الجد :

ــ التدابير لله يا ملك ..

وفكرت برهة . ثم رفعت رأسى كأنى سأتكلم .. ثم خفضتها قبل أن اتكلم كأنى فى حاجة الى التفكير من جديد .. ثم قلت فى صوت عميق :

ــ حكمنا عليك يا نفيده يا بنت الناس ..

وسكت برهة ..

ووجه امك متهلل بالفرح ، وعيناها معلقتان بشفتى .. ثم استطردت :

ــ حكمنا عليكى بانك تقومى تجيبى كباية ميه ..

وانهارت خلجات وجه امك ..

وكست خيبة الأمل ملامحها ..

وقامت ، وعادت بكوب الماء .. وفى عينيها طبقة لامعة كأنها تهم بالبكاء !!

.. لقد كانت والدتك تحاول ليلتها ان تندمج فينا .. ان تشعرنا بأنها واحدة منا .. كانت مستعدة ان تذهب الى آخر الحياة ما دامت معنا ..

وكانت فى دخيلة نفســها تتمنى ــ ونحن نلعب بأوراق الكتشينة ــ ان تقع ورقة الشايب فى يدها كما وقعت فى يد خيرية . وأن نقوم ونقبلها كما قبلنا خيرية .. ولكنى تعمدت ان اصدمها فى امانيها .. وتعمدت ان احكم عليها ــ عندما وقعت ورقة الشايب فى يدها ــ بأن تقوم لتاتى الى بكوب ماء ، حتى

اشعرها بانها اقل منا .. بانها مجرد امراة نشفق عليها .. وان عليها لكى ترتفع الينا . ولكى تعيش فى مجتمعنا ، ان تضحى اكثر .. ان تتحرر .. وان تتخلص من معانى الشرف كما تفهمها .. هذه المعانى الضيقة ، التى تدفعها لأن تبعد عنى نصفها الأسفل وانا أعلمها الرقص .

لماذا افعل بها كل هذا ؟

لماذا اعذبها ؟

لا ادرى .. ولكن كانت بى رغبة عنيفة فى اذلالها .. فى ان اسحق منها كل المعانى الشريفة التى تخلفت عن الطبقة التى عاشت فيها .. الطبقة القنوع المستسلمة التى ضمتها مع زوجها محمد افندى السيد ..

انى لا استطيع ان اكون قنوعا ولا مستسلما ، فلأسحق القناعة والاستسلام ، ولأسحق معهما محمد افندى السيد ، ووالدتك ، وانت ..

وانتهينا من اللعب بأوراق الكتشينة .

وجلسنا نتحادث ، ونحن الثلاثة ــ انا وخيرية وعبد العظيم ــ نتعمد تجاهل امك .. وهى بيننا حائرة ، تبدو كالعبيطة ، وتدير عينيها بيننا فى بلاهة ، وتضحك عندما نضحك ، وتفتعل الاستماع عندما نتحدث .. وتحاول طول الوقت ان تقلد خيرية .. اذا قالت خيريةكلمة قالت مثلها ، واذا نظرت خيرية الى عبد العظيم نظرت اليه هى الأخرى ، واذا شربت خيرية من كأسها شربت معها امك .. وهى تنظر الى بين الحين والحين كأنها تسألنى رايى فى تصرفاتها . وهل تنفع زوجة لى ؟

رايى فى تصرفاتها ، وهل تنفع زوجة لى ؟ ! ش

وقد شربت خيرية ليلتها كثيرا .. وشربت معها امك كثيرا ، دون أن تشكو من مرارة طعم الويسكى .. فقد خافت ان تعيد شكواها ، فتبدو كأنها ليست من طبقتنا .. ثم بدات تبذل مجهودا كبيرا لتحتفظ بتوازنها ، وبدات تكثر من الحديث وهى تحاول ان

تسيطر على لسانها حتى لا تخرج كلماتها مترنحة .. وبدأنا نستمع اليها ، ونحن نكتم ضحكاتنا !!

وكنت أعتقد أن الخمر تطلق لسان شاربها بما فى أعماقه ، أو بما يعبر عن حقيقته .. ولكن الخمر فى هذه الليلة أطلقت لسان والدتك بما تحاول أن تدعيه .. أطلقت لسانها بأطماعها وبصور العالم الذى تتطلع اليه .. وقالت وهى تمسك لسانها بشفتيها حتى لا يتدلى من بينهما :

— الراجل الياكيم ده ما بيعجبنيش المنتور بتاعه .. الخاتم اللى شفته عنده ، بلدى خالص !

وكانت تقصد « المونتير » أى « الصياغة » .. وقد ردت عليها خيرية قائلة وهى تدارى عنها ضحكتها الساخرة :

— ما لكيش حق يا تفيده .. ده عامل خاتم للأميرة انجى ، انما جنان !

والتوى لسان والدتك وقالت وهى تخبط على المائدة بكفها :

— ايه يعنى الأميرة انجى .. طظ فى الأميرة انجى .. دى عامله زى الأموات .. ولا يعنى علشان ما هى أميرة .. ما أمير الا الناس الأمرا ..

ثم مالت على بجسمها واستطردت قائلة :

— بتعجبك الأميرة انجى يا حسين .. مش بالذمة زى الأموات .. ولا لازم الواحدة تكون أميرة علشان تعجبك !

قلت وأنا أهم بالقيام :

— أبدا .. بس قومى بأه علشان اوصلك !!

ونظرت الى فى جزع ، كأنها خافت أن تكون قد اغضبتنى .. وسكتت كأنها تحاول أن تسترجع كل كلمة قالتها لتكتشف أين اخطأت ..

وأشفقت عليها .. وابتسمت لها ابتسامة صغيرة كأنى أطمئنها الى انها لم تخطىء ، ثم وضعت يدى تحت ذراعها محاولا أن أرفعها عن مقعدها .. وجفلت قليلا عندما احست بيدى

تلامس جســـدها .. ولكنها عادت واستسلمت كأنهـــا تذكرت الحياة الجديدة التى تعيشها .. وتذكرت التقاليد التى تبيح للرجل أن يضع يده تحت ذراع امراة ، دون أن يعتـــبر ذلك ماســـا بشرفها ..

وقامت ، واستطاعت ان تكون اكثر توازنا .. وودعتنا خيرية حتى الباب ، وانا لا ازال اضع يدى تحت ذراعها ..

وخرجنا الى الطريق .. والساعة جاوزت الثانية صباحا ..

وركب عبد العظيم سيارته ، وهو يودعنا بنظرات تطل من بين جفنيه الملوثين .. نظرات تعبر عن خيبة أمله ، كأنه لم يكن ينتظر ان ينتهى تاريخه الطويل فى خدمتى .. وفى خدمة نزواتى .. بأن يرانى مع مثل هذه المرأة !!

وركبت أمك بجانبى فى السيارة ، وقد أطاح الهواء الطلق حدة الخمر من راسها ، وان كانت نشوتها لا تزال باقية ..

وبدات اتبع معها اسلوبا جديدا .. أسلوبا رقيقا يثير أطماعها من جديد .. وزحفت بيدى حتى لامست يدها ، وقلت وانا انظر اليها كأنى أطارحها الغرام :

ــ اوعى تكونى انضايقت الليلة يا تفيده ؟

واحسست بالرعشة فى يدها ، ثم سحبتها برفق ، وقالت :

ــ انا خايفه أنا اللى اكون ضايقتك .. أصلى والنبى لسه مش واخده على الرقص !

قلت كأنى أطمئنها :

ــ رقص ايه يا شيخه .. يعنى شايفانى بارقص كل يوم .. ده يمكن تفوت السنة ولا ارقصش ولا مره .. انما كلها مسألة مجاملات .. ساعات الواحد يضطر يرقص .. اعمل ايه .. اذا كان الناس كلها كده .. انما بينى وبينك ، أنا لا احب الرقص ولا اللى بيرقصوا ..

وقالت فرحة :

— والنبى جد يا حسين .. يعنى مش ضرورى اتعلم الرقص ؟

قلت :

— أبدا .. هوه اللى يقعد معاكى يفكر فى الرقص ؟

وابتسمت فى ارتياح كأنها أعفيت من عذاب كبير ، والتفتت الى وهى تميل برأسها نحوى كأنها تشكرنى فى دلال .. ثم تسللت بيدى مرة اخرى ، وامسكت بيدها ، فاستسلمت ، وتنهدت تنهدة كبيرة مفتعلة ، خيل الى معها أن بالونا ارتفع فوق صدرها وأفرغ ما فيه من هواء ..

ونظرت اليها بامعان .. الى وجنتيها اللتين طابتا حتى دب فيهما العطن .. والى عينيها وقد خبا ما فيهما من ذكاء ساذج ، ولمعت فيهما أحلام كبيرة .. والى شفتيها المضمومتين كأن كلا منهما تلتف بالأخرى ، وكلا منهما تشفق على الأخرى .. نظرت اليها طويلا .. ليس فيها قطعا شىء يغرينى بها .. ليس فيها شىء من صفات المرأة التى اشتهيها .. ولكن الدافع الخبيث الذى يتحرك بين جنبى يدفعنى الى أن انالها .. انها شىء امتلكه .. انها تعيش من مالى .. ثيابها ، وحليها ، وهذه الأصباغ التى تكسو وجهها .. كل شىء فيها دفعت ثمنه من جيبى .. فلماذا اتركها .. ولنفرض أنها لا تستحق .. لنفرض أنى كنت غبيا منذ أقدمت على هذه النزوة .. نزوة اعالة عائلة محمد افندى السيد .. فلماذا لا استفيد من غبائى .. استفيد — على الأقل — الاحساس بأنى امتلكت كل شىء فى هذه العائلة .. أنا لا احب الفجل ، ولكنى اذا اشتريت حزمة فجل ، فخير لى أن آكلها ، من أن اتركها لغيرى أو ألقى بها فى عرض الطريق ..

كنت أقول لنفسى هذا الكلام ، ثم اسمع صوتا آخر ينبعث من داخلى ، ويرد على قائلا : الا تستطيع أن تسمو بنفسك .. الا تستطيع أن تكون شريفا ولو فى هذه الحالة .. الا تستطيع

ان تكون فاعل خير .. اترك هذه المسكينة .. اتركها .. انه تقزز النفس .. انك تبدو معها ككلب يلعق فى صندوق زبالة .. اتركها لوجه الله .. اتركها لعلك ترضى عن نفسك .. لعل هذا الشيء الذى يتحرك فى صدرك ويكتم انفاسك ، يرتاح ؟!

ووصلت بنا السيارة الى باب العمارة .. وهذه المناقشة لا تزال دائرة فى نفسى .. ووجدتنى انزل مع امك من السيارة .. واسير معها حتى الباب .. ثم وصلت الى باب المصعد ، ثم قلت لها فجأة :

ــ تيجى تتفرجى على الشقة بتاعتى ؟ !

وقالت امك فى سذاجة :

ــ شقة !! شقة ايه ؟ !

قلت وانا ابتسم لأطمئنها :

ــ ما انا ليه شقة مخصوصة فى العمارة دى .. مخليها علشان الضيوف اللى بيجوا من بلاد بره ، ينزلوا فيها .. وساعات أتضايق من بيتنا ، آجى استريح فيها !

قالت فى دهشة :

ــ ده انا عمرى ما سمعت عن الشقة دى .. ده انا سألت عم جابر البواب عن السكان كلهم واحد واحد !

قلت :

ــ الشقة اللى فوق .. آخر شقة فى العمارة !

قالت :

ــ ده بيقولوا ساكنها واحد خواجه ، ومسافر ؟ !

قلت وانا اقترب منها خطوة :

ــ آهى الشقة دى تبقى بتاعتى .. تعالى افرجك عليها !

قالت فى تردد :

ــ بس الوقت متأخر يا حسين !

قلت :

— تعالى يا شيخه .. انا مش جاى لى نوم .. تعالى اعمليلى فنجان قهوة .. أصلى متعود اشرب القهوة قبل ما انام .

قالت وهى أكثر ترددا :

— طيب ما تيجى تشرب القهوة عندنا !

قلت :

— بعدين هدى تصحى .

وكأن ذكر اسمك قد نبه حواس والدتك ، واثار فيها حرصها ، فعقدت ما بين حاجبيها كأنها تستعين بكل ذكائها لترى موضع خطوتها التالية .. ولكن ذكاءها لم يستطع أن يتغلب على أطماعها .. على الحياة الجديدة التى تحاول أن تندمج فيها .. ثم انها مطمئنة الى .. لقد عشت فى حياتها عامين لم أحاول خلالهما أن انال منها .. وقد رات فى المجتمع الجديد مظاهر عدة كان يخيل اليها انها تجرح الشرف ثم اكتشفت أنها لا تخل بالشرف .. رات نساء فى أحضان رجال يراقصونهن بموافقة أزواجهن .. ورات نساء يشربن الخمر والسجائر .. وراتنى اقبل خيرية قبلات بريئة .. و .. و .. ولعلها تذكرت كلام خيرية عندما قالت ان المراة وهى فى الخامسة والثلاثين من عمرها لا تستطيع أن تتزوج الا اذا وجدت رجلا يحبها .. وهى تريدنى أن احبها .. وتريدنى أن اتزوجها .. لأنها لا تجد تعليلا لاهتمامى بها الا رغبتى فى الزواج بها ..

وطال ترددها .. تردد فيه خوف وفيه جزع ..

وظلت صامتة ..

وجذبتها من ذراعها الى ناحية المصعد الخاص الذى يصل الى « عش النسر » — كما كنت أسـمى شقتى الخاصـة — فاستسلمت ، وهى منكسة الرأس ، ساهمة العينين ، كأنها مستسلمة للذبح ..

وصعدنا ..

وفتحت الباب بمفتاحى الخاص ..

ودخلنا ..

وبذلت أمك مجهودا كبيرا لترفع رأسها وتفيق من استسلامها .. وقالت فى صوت ضعيف :

ــ دى باين عليها أكبر من شقتنا !!

وتركتها تدير عينيها فى أنحاء الشقة .. وتقترب فى احتراس من ابواب الغرف .. وتطل فيها .. واتجهت انا الى « البار » واعددت كأسا واحدا من الويسكى ، وضعته على مائدة صغيرة أمامه على مقعد مريح ، وقلت وانا اتنهد :

ــ انا يظهر عجزت يا تفيده !

قالت فى صوت مرتبك ، وهى واقفة بعيدا عنى ، تخاف أن تقترب :

ــ بعيد الشر يا اخويا .. ده انت لسه فى عزك .. اللى يشوفك ما يدكش أكتر من اربعين سنة ..

وسقطت عيناها على كأس الويسكى الذى امامى ، وارتعشت جفونها .. كانت تخاف أن أدعوها اليه .. كانت على حذر .. وقالت كأنها تذكرنى :

ــ مش اعملك القهوة ؟

قلت :

ــ بلاش .. أشربها أما ارجع البيت أحسن ..

ثم غيرت لهجتى واستطردت فى لهجة آمرة ، كأنها خادمة آمرها بأن ترتفع الى درجة الأسياد :

ــ اقعدى ..

وجلست طائعة كأنها لا تجرؤ على أن تخالف لى أمرا .. جلست بعيدا عنى .. فوق أريكة .. ويداها فى حجرها ، وبين شفتيها ابتسامة صغيرة حائرة تحاول أن تطمئن بها نفسها .. انها المرة الأولى التى تخلو فيها الى رجل ، فى شقة خاصة ، وفى

الساعة الثانية صباحا ، وبينها وبينه كأس من الويسكى .. وهى لا تدرى ماذا تفعل .. هل تضحك ، أم تستسلم لحيائها ؟ هل تقترب منى ، أم تبتعد على حذر ؟ هل تتكلم ، أم تتركنى أبدأ بالكلام ؟ !

وهى فى حيرتها .. وفى انتظارها لما يمكن أن يحدث ، تقوم بحركات غريبة تكاد تضحكنى .. فهى تنثنى حينا وتسند جذعها على مسند الأريكة .. ثم تعتدل ، وتميل الى الوراء .. ثم تتنهد ويرتفع البالون فوق صدرها ويفرغ ما فيه من هواء .. ثم تميل الى الأمام وتنظر بين قدميها وتعصر احدى يديها باليد الأخرى .. ثم ترفع الى عينيها فى لمحة سريعة كأنها تسألنى : ماذا تريدنى أن أفعل ؟ !

وأنا أطيل النظر اليها ، كالقط الذى يشفق على الفأر المسكين قبل أن يأكله ..

ولكن هذه الفأرة لا تفتح شهيتى ..

وأخذت أجمع أعصابى ، واضغط عليها ، حتى أثير شهيتى .. حتى أعد نفسى لأكل أمك ..

ولكنى لم أستطع ..

ان أعصابى فى هذه الليلة كانت باردة لا تتحمس ، ولا تسخن ، ولا تستطيع أن تهضم أمك ..

ان فحولتى تخوننى لأول مرة ..

وصــــببت كل عينى فوق ســــاقيها .. وارتفعت بهما الى فخذيها .. وطفت بهما فوق عجزها وصدرها .. وأنا أحاول أن أجد فيهما ما يثيرنى ، وما يساعدنى على اذكاء أعصابى ، وما يحرك فحولتى .. وكنت أهمس لنفسى كأنى أدعو الشيطان الى نجدتى . قائلا : ماله هذا الجسد .. انه جسد والسلام .. وأنت رمرام .. مشهور بالدناوة .. فلماذا لا تريد أن تأكل هذه الليلة .. جرب حزمة الفجل .. لقد مضى عليك زمن طويل منذ

كنت مقاولا صغيرا فى الجيش البريطانى ، لم تأكل فيه الفجل .. و ..

ولكنى لم أستطع ..

ان شهيتى لا تزال مصدودة ..

وانا جالس فى استرخاء ، لا أستطيع أن أتحرك ..

ويئست من نفسى ، وعندما يئست أخذت أحاول أن اخدع نفسى ، وأقول فى صدرى : « دعها هذه الليلة .. انها أول ليلة تخلو بها .. فدعها لتطمئن اليك .. لتزداد ثقة بك .. انك تستطيع أن تأكلها ليلة أخرى .. والليالى كثيرة » !!

وقررت أن أتركها هذه الليلة ..

ولم يكن فى ذلك فضل لى .. لم اتركهـا بناء على خطـة موضوعة ، ولا لأكسب ثقتها .. انما لمجرد أن معدتى لم تكن تستطيع أن تهضم حزمة الفجل .

وامك لا تزال تتثنى أمامى كأن جسدها يقفز تحت لسعات عينى ، بينما تقول كلاما سخيفا ..

وقلت لها وأنا أخفى عنها عينى كأنى أرحمها من لسع النار :

— نقوم نروح بأه يا تفيده ؟ !

ونظرت الى فى دهشة مشوبة بخيبة الأمل .. لعلها كانت تنتظر أن يحدث بيننا شىء .. شىء أكثر من أن نجلس هكذا قبالة بعضنا البعض ، وبيننا كأس من الويسكى أبلل بل شفتى ولا أدعوها اليه .. لعلها كانت تنتظر أن أصرح لها بحبى .. أو أن أعرض عليها الزواج .. أو أحاول معها أى شىء .. والا فما معنى أن تخلو بى فى شقة خاصة فى الساعة الثانية صباحا .. وما معنى هذا التردد والحيرة والخوف والحذر الذى عانته منذ خلوت بها ..

وقالت وكلماتها تقع من بين شفتيها ، كأنها كلمات تخرج ميتة :

— نقوم يا اخويا !!

ثم قامت من فوق الأريكة ، وهى تقول :

— أنا حقى كل يوم اطلع الشقة دى علشان انضفها لك ..

قلت وأنا أمد يدى اليها لتجذبنى من فوق مقعدى :

— اوعى .. ده ماحدش عارف خالص ان الشقة دى بتاعتى . ما حدش عارف دلوقت الا انتى ..

قالت وهى تجذبنى :

— ليه .. ودى فيها عيب كمان ايه ؟ !

قلت :

— مش حكاية عيب .. انما مش ضرورى الناس تعرف عنى كل حاجة .. ثم ان عم جابر البواب بيطلع ينضفها كل يوم ..

قالت وهى تمصمص شفتيها فى تعجب :

— أمرك ..

واتجهنا نحو الباب ، وقبل أن أفتحه ، استدرت لها مرة واحدة ، وأنا أحاول الا انظر حتى لا أعدل عما نويته .. ثم جذبتها الى صدرى ، وقبلتها فوق خدها .. قبلة تعمدت أن تطول على قدر طاقتى .. على قدر ما تحتمله أنفاسى ..

وارتعشت بين ذراعى .. وحاولت أن تدفعنى عنها .. ولكنها استسلمت سريعا لقبلتى .. وهدأت بين ذراعى ، كأنها استقرت بينهما الى الأبد ..

وابتعدت عنها .. وطعم قبلتها بين شفتى كطعم التفاح المعطن .. ورائحتها تملأ انفى .. رائحة عجيبة .. رائحة الطبقة الوسطى الصغيرة .. هل تعلمين أن لكل طبقة رائحة تميزها .. الطبقة الكادحة التى تضم الفلاحين والعمال لها رائحة خاصة يتميز بها كل أفرادها .. والطبقة الوسطى الصغيرة لها رائحة خاصة .. والطبقة الوسطى الغنية لها رائحة أخرى .. والطبقة العليا التى تبدأ من الملك وتجمع أصحاب رءوس الأموال

وأصحاب الأرض لها رائحة تميزها .. كل طبقة لها رائحة تنبعث منها دائما ، ولا تزول مهما تغيرت ظروف الفرد الذى ينتمى اليها .. ولو سكبت زجاجة من عطر باريس على احدى بنات الفلاحين فستظل رائحة طبقتهـــا تنبعث من وراء عطر باريس .. ولو تعطرت احدى الراقصات واحدى بنات الذوات بعطر واحد .. عطر « اربيج » مثلا .. فسيمتزج « الأربيج » برائحة الطبقة التى تنتمى اليها كل منهما فتختلف رائحته فى الراقصة ، عن رائحته فى بنت الذوات .. ولن تكون رائحتهما أبدا واحدة .. وقد مررت أنا بكل هذه الطبقات ، وعرفت رائحتها جميعا .. لم تستطع واحدة أن تخدعنى فى طبقتها ، بفضل أنفى ورغم ذلك ، فقد صمت عندما شممت رائحة والدتك .. تقززت .. ربما لأن أنفى كان قد تعود على رائحة معينة منذ زمن طويل .. منذ صنعت ملايينى ، ولم أعد أشم الا رائحة واحدة .. رائحة .. رائحة نساء الذوات !

وقلت لها ، وأنا أتحسس أنفى بأصابعى كأنى أتذكره بعد أن نسيته :

ــ أنا كان نفسى أبوسك يا تفيده من ساعة ما كنا بنلعب الشايب !

ولم تحاول أن تبتعد عنى .. ظلت فى مكانها ملتصقة بصدرى ، كأنها تنتظر منى قبلة أخرى ، ورأسها مدلى فوق صدرها فى حياء .. ودماؤها مكتنزة فى وجنتيها .. وأنفاسها تتلاحق كأن شيئا قد نشط بعد رقاد طويل .. وقالت فى كلمات خفيضة لا تكاد تسمع :

ــ يعنى ضرورى البوس ده !!

قالتها ورأسها يترنح فوق كتفيها ، كأنها تدعـــونى لأقبل خدها الآخر ..

وقلت لها ، وقد بدأت أحاول الابتعاد عنها :

ــ احنا خلاص يا تفيده .. ما بقاش بيننا تكليف !

قالت فى دلال سمج وكأنها غاضبة :

ــ ما انت بتبوس كل الناس .. لسه من شوية كنت بتبوس خيرية .. يعنى كل دول ما فيش بينك وبينهم تكليف ؟

قلت فى امتعاض :

ــ لأ .. انتى حاجة تانية !

قالت وقد تدفق مزيد من الدماء الى وجنتيها

ــ ازاى ؟ !

قلت وأنا افتح الباب كأنى لم أعد أطيقها :

ــ بأه يعنى مش عارفة ؟ !

وارتعش جسدها كأن كل خلجة فيه تزغرد .. ثم سارت نحو الباب وهى تتمايل فوق كعب حذائها العالى ..

وأنا خلفها اتعجب من نفسى ..

ماذا أريد منها ؟

ماذا يريد شيخ فى السابعة والخمسين من امراة فى الخامسة والثلاثين ــ ولعلها تعدتها نحو الأربعين ــ ليست جميلة ولا مثيرة ؟

وهل لا أجد وسيلة لاذلال محمد افندى السيد وعائلة محمد افندى السيد الا هذه الوسيلة .. الا ان احصل على جسد زوجة لا يستحق أن يستولى عليه أحد ؟!

وتذكرتك ..

لو كنت أنت .. لكان لى بعض العذر .. فان فى شبابك ما اشتهيه ، وما يثيرنى ، وما يستحق الامتلاك . ولكن هذه المراة .. أمك .. يا حفيظ !

ونزلنا وقد خيل الى انى انزل من شاهق .. انى أهوى .. وركبت أمك المصعد الآخر عائدة الى شقتكم .. وركبت أنا سيارتى وأنا اشعر بالخيبة .. خيبة فى رجولتى .. وخيبة فى احترامى لنفسى .. وطعم قبلة أمك لا تزال بين شفتى .. طعم التفاح العطن .. ورائحتها لا تزال فى أنفى .. رائحة الطبقة الوسطى الصغيرة !!

- ١٣ -

وذهبت الى مكتبى فى اليوم التالى ، وانا شرير .. اريد ان اسحق اول من يقابلنى .. اريد ان استعيض احساسى بقوتى وجبروتى ، عن احساسى بأنى لا استطيع ان احترم نفسى .. عن احساسى بالخيبة واليأس من نفسى ..

وجاء عبد العظيم ، وهو يضع على وجهه قناعا عابسا ، كأنه يحمل خبرا خطيرا .. انى اعرفه عندما يلبس هذا القناع .. ان هذا القناع معناه انه اتم تنفيذ احدى جرائمنا .. فاذا افلست شركة منافسة ، جاء لينعيها الى وهو يكاد يبكى .. كأنه ليس القاتل .. واذا مات عدو له وضع على وجهه هذا القناع العابس ، وهو يستعد ليمشى فى جنازته

وقلت له :

ـ خير على الصبح ؟

قال :

ـ والله حاجة مؤسفة يا سعاده الباشا !

قلت :

ـ ايه .. حصل ايه ؟

قال :

ـ اسماعيل افندى عبد الجواد اخو الست تفيدة ..

وابتسمت ابتسامة صغيرة لم استطع ان احبسها بين شفتى ،

ثم قلت مجاريا عبد العظيم فى نفاقه :

— ماله ؟

قال :

— بعد كل اللى عملته له سعادتك .. وبعد كل نعايمك عليه وعلى عيلته .. اتضح انه نازل اختلاس فى أموال شركة اسكندرية ..

قلت فى برود :

— وعملت فيه ايه ؟

قال وهو يخفى عينيه تحت جفنيه الملوثين ، حتى لا تفتضح شماتته :

— والله مستنى أمر سعادتك !

قلت فى اختصار قاس :

— بلغ النيابة !

وفغر عبد العظيم فمه دهشة ، ورفع يده كأنه يصد بها مصيبة ، وقال :

— ما بلاش النيابة .. ده برضه يبقى نسيب زميلنا المرحوم محمد افندى السيد ..

وكنت أعلم أن عبد العظيم لا يريد أن يسلم خالك الى النيابة حتى لا يفلت من يده .. انه يريد أن يحتفظ به ليذله .. ليعاقبه على مساومته له عند أول معرفته به .. وعبد العظيم هو الذى دفعه الى الاختلاس .. دفعه بقوة وبالحاح .. عينه صرافا فى الشركة حتى تتراقص أموال الشركة أمام عينيه وتحرضه على نفسها .. وقد حاول خالك أن يقاوم اغراء أوراق البنكنوت .. حاول أن يظل شريفا .. فسلط عليه عبد العظيم أحد أعوانه .. موظف آخر فى الشركة .. أخذ يغرى خالك بالاختلاس ، ويقنعه أن كل الصرافين يختلسون .. وأن أحدا لم يستطع أن يكتشف هذا الاختلاس .. وماذا يضير شركة تملك مليونا من الجنيهات اذا فقد منها ألف أو ألفان .. و .. و .. وبدأ خالك يضعف ..

وكانت القفزة التى تقفزها فوق كتفى .. قد اغرته بمزيد من القفزات .. لم يعد يكفيه مرتبه الذى لا يتجاوز الخمسين جنيها فى الشهر بينما آلاف الجنيهات تتراقص أمام عينيه كل يوم ..

واختلس ..

كان يكتب بمساعدة مندوب عبد العظيم ايصالات وهمية ، ويقبض قيمتها ..

وقلت لعبد العظيم :

ــ امال ناوى تعمل فيه ايه ؟

قال وشفتاه تنضحان بلعابه :

ــ اهو نسوى الحكاية بيننا وبينه ..

قلت ووجهى جامد لا يتحرك :

ــ اختلس كام ؟

قال كأنه يعلن انتصاره :

ــ الفين جنيه !

قلت :

ــ بس ؟ !

قال وهو يبتسم :

ــ كفايه عليه كده !

قلت :

ــ طيب اعمل اللى تشوفه !

قال :

ــ انا بعت اجيبه من اسكندرية .. انما خايف يروح للست تنيده علشان تتوسط له !

قلت فى ادعاء :

ــ مش ممكن اسمح لحد يتوسط لحرامى .. الحرامى لازم ياخذ جزاؤه ..

واتسعت ابتسامة عبد العظيم ..

لقد فهم شيئا كان يخشى الا يفهمه .. فهم انى لا زلت كما أنا .. لا زلت شريرا حتى فيما يختص بعائلة محمد افندى السيد ..

.. وجاء الى القاهرة .. جاء ذليلا مرتجفا ويداه مضمومتان الى صدره كأنه كبلهما باعترافه ..

انه لم يعد شريفا ..

انه الآن لا يستطيع أن يساوم .. ليس عنده ما يساوم عليه .. وقد كان يساوم من قبل لأنه كان انسانا شريفا .. كان شخصية مستقلة واقفة على قدميها .. وكان يستطيع ان يقول : لا .. ويخرج مرفوع الرأس .. اما اليوم .. فهو لا شيء .. انه مختلس .. لص .. لا يستطيع أن يرفع رأسه .. ولا يستطيع الا ان يتوسل ويرجو ، لعلنا نصفح عنه ..

وتركه عبد العظيم ينتظر على الباب ساعات ، ثم ما كاد يسمح له بالدخول ، حتى سقط على يديه يقبلهما وهو يصرخ :

— انا فى عرضك يا سعادة البيه .. اعمل فيه اللى انت عايزه بس استرنى ، واستر ولادى ..

وتركه عبد العظيم يقبل يده ثم سحبها منه فى قرف .. وأخذ ينظر اليه فى احتقار كأنه ينظر الى بعوضة .. ثم أخذ يدور حوله كأنه يتمعن فى جثة حيوان نافق .. وقال فى شماتة :

— ولما انت عايز تستر ولادك ، كنت بتسرق ليه ؟ ..

وانفجر الرجل باكيا ..

الرجل الذى كان يعتز بذكائه الريفى .. وبايمانه بالله .. يبكى الآن ، لا بين يدى الله ، بل يبكى بين يدى عبد العظيم .. وقال وهو ينحنى ليقبل طرف سترة سيده :

— أبوس رجلك يا سعادة البيه .. ارحمنى يا سعادة البيه .. أنا غلطان .. الشيطان .. الشيطان يا سعادة البيه .. و ..

وقاطعه عبد العظيم :

— ابقى خلى النيابة ترحمك . المسألة خرجت من ايدى

خلاص !

وصرخ اسماعيل افندى عبد الجواد :

ـ النيابة .. ده انا عمرى ما دخلت كركون .. النيابة .. ده انا اموت نفسى !

وانهار على مقعد وهو يجهش بالبكاء .. ثم استطرد قائلا :

ـ انا مستعد اكون خدامك لغـاية ما اموت .. اعمـل معروف ، بلاش النيابة .. ما تبلغش عنى .. واعمل فى اللى انت عايزه ..

وجلس عبد العظيم وراء مكتبه ، واخذ ينظر الى فريسته فى تلذذ كأنه يشهد ذبيحة تعد للشواء .. وقال فى تمهل :

ـ والالفين جنيه ودتهم فين ؟

قال الرجل بسرعة :

ـ فاضل معايا منهم خمسماية .. ومستعد ابيع عفش بيتى وصيغة مراتى ، واكمل عليهم ..

وقال عبد العظيم :

ـ ومش عاوزنى أوديك النيابة !

وقال اسماعيل افندى ودموعه تشق خديه :

ـ انا فى عرضك ..

وعاد عبد العظيم يقول فى تمهل :

ـ ومش عايزنى اطردك من الشركة !

قال الرجل وهو ينهنه :

ـ اللى تشوفه يا سعادة البيه ..

وصمت عبد العظيم قليلا ، كأنه يفكر ، ثم عاد يقول :

ـ اذا طردتك من الشركة يبقى مش حاقدر احصلك .. ماحدش حايشوف وشك بعد كده .. يبـقى لازم تفضـل فى الشركة ..

وقال الرجل فى ضعف :

— حاضر .. اللى تشوفه !

واخرج عبد العظيم ورقة معدة ، من درج مكتبه ، وقدمها الى اسماعيل افندى ، قائلا فى لهجة آمرة :

— خد .. امضى على الورقة دى !

وقام الرجل المنهار عن مقعده ، واخذ ينظر فى الورقة من خلال دموعه ، ثم ارتفع حاجباه فى ذعر ، وقال فى صوت محشرج :

— ايه ده ؟ !

وقال عبد العظيم فى هدوء :

— ده وصل امانة بأربعة آلاف جنيه .

وقال اسماعيل افندى :

— انما انا ما خدتش غير الفين !

وارتفع صوت عبد العظيم فى وجهه قائلا :

— انت فاكر احنا حرامية زيك .. حاتمضى ، ولا ابلغ النيابة ؟

وقال الرجل وهو يرتعش :

— بس يا سعادة البيه أنا ..

وقاطعه عبد العظيم قائلا :

— عارف انك ما خدتش غير الفين .. انما انت حاتفضل موظف فى الشركة ، ولازم اطمن انك مش حاتسرق تانى .. لازم يبقى فى ايدى سلاح اخوفك بيه .. ما تنساش انك راجل مش امين .. انك حرامى .. والحرامية اللى زيك ما يجوش بالذوق .. انما ييجوا بالخوف .

وانهمرت الدموع من عينى اسماعيل افندى ، وقال وهو يشيح بوجهه عن الورقة :

— يعنى بدل ما اروح فى داهية علشان الفين جنيه .. يبقوا اربعة آلاف !

وصرخ عبد العظيم :

ــ انت راجل غبى .. لازم تفهم انى لو كنت عايز أوديك فى داهية كنت وديتك من زمان .. انما أنا رحمتك علشان ما انت نسيب المرحوم محمد افندى السيد .. وعلشان خاطر الست أختك ، وبنت أختك .. حا تمضى ولا لأ ؟

وقال اسماعيل افندى وهو يتكىء على حافة المقعد حتى لا يسقط على الأرض :

ــ بس حاادفع الاربعة آلاف جنيه دول منين ؟

وقال عبد العظيم وقد هدا صراخه :

ــ مش حاتدفع .. الباشا مش عاوز منك حاجة .. حاتفضل الورقة دى فى مكتبى لغاية ما تختلس مرة تانيه أطلعها لك ..

وهز خالك راسه كأنه يريد أن يتخلص منها ، ثم أزاح طربوشه الى مؤخرة راسه ، وجفف دموعه بمنديله ، ثم أمسك بالقلم وقال :

ــ انا تحت أمركم اللى تعملوه فى اعملوه .. انا بين ايديكم !!

ووقع بامضائه على الورقة ..

وقع « وصل أمانة » بأربعة آلاف جنيه ، وهو لم يأخذ من أموال الشركة سوى الفين ، شاركه فيها الموظف الآخر الذى سلطه عليه عبد العظيم .. فلم يصله منها سوى ألف ومائتى جنيه ..

وهكذا ..

هكذا باع خالك حريته وحياته لعبد العظيم .. ولى !

ان هذه الورقة تكفى للزج به فى السجن ثلاث سنوات على الأقل .. يكفى أن يخرجها عبد العظيم من درجه ، ليدخل خالك الى السجن ..

وارتمى خالك على مقعد من شدة الاعياء ، بينما أحد عبد

العظيم يتمعن فى الورقة ، وابتسامته تملأ وجهه .. ابتسامة النصر ..

ثم أخفى ابتسامته سريعا ، وقال لخالك :

ــ وناوى تقول ايه للست اختك ؟ ..

وقال الرجل وأنفاسه تضعف كأنه يموت :

ــ حا اقول ايه ، واعيد ايه .. هوه بأه فيه حاجة تتقال !

وقال عبد العظيم :

ــ أفتكر بلاش تقول لها حاجة .. بلاش فضايح .. خصوصا ان الباشا يتضايق قوى لو جد جاب السيرة دى قدامه !

وقال اسماعيل افندى فى استسلام :

ــ حاضر !

وعاد عبد العظيم يقول فى هدوء :

ــ الموظف اللى اشترك معاك فى الاختلاس طـــردناه من الشركة ، وحرمناه من المكافأة .. وحضرتك مش ممكن ترجع فى وظيفتك .. حتتعين كاتب فى قسم الحسابات ومرتبك حاينزل شوية ، حيبقى عشرين جنيه بس ..

وقال خالك هامسا :

ــ حاضر ..

وقال عبد العظيم وهو يدير عنه وجهه :

ــ اتفضل حضرتك من غير مطرود .. وبحره الصبح تكون فى اسكندرية .. علشان تستلم الوظيفة الجديدة !

وخرج خالك يلهث ..

***

هذا ما حدث بين خالك وبين عبد العظيم .. بلا مبالغة .. ان كل ما احدثك عنه لا يثير معنى المبالغة الا فى رءوس السذج الأبرياء الذين لا يعلمون كيف نعيش ، وكيف نعمل .. الذين لا يرون الا ثيابنا الأنيقة ، وذقوننا الحليقة ، وأيدينا المضمخة

بالعطر ، واحاديثنا الناعمة وابتساماتنا الحلوة .. ثم لا يرون الابر المدببة التى حكنا بها هذه الثياب ، ولا الأمواس الحادة التى نحلق بها ذقوننا ، ولا الأظافر التى تطل من ايدينا ، ولا المعانى التى تختفى وراء احاديثنا ، ولا الأسنان التى تبدو من خلال ابتساماتنا ..

وقد استمعت الى ما جرى بين عبد العظيم وخالك ، وانا نشوان .. لم يتحرك فى عصب واحد ليرحم الرجل .. ولم احاول ان اسمو بنفسى عن ايذاء انسان ضعيف تافه لا يتحمل ضغط اصابعى عليه .. كنت احس بالنشوة وأنا اهبط .. اهبط .. اهبط الى الظلام ظلام الحقد والتشفى اللذين احسهما نحو الناس جميعا .. وكان منطقى يبرر لى هذا الظلام ، وهذا الظلم .. كان منطقى يقول لى : « لقد حاولت ان تشترى هذا الرجل بكرمك ، فساومك ، وطمع فيك .. ولو تركته لما وقف طمعه عند حد .. لطمع فى ان ينهش لحم كتفيك .. ولكنك بالخديعة . وبالسفالة ، اشتريته .. امتلكته .. انك تستطيع ان تفعل به الآن ما تشاء .. تستطيع أن تذبح أخته وبنت اخته امام عينيه ، دون ان يعترض .. انك لن تمتلك الناس بالكرم ، ولكنك تملكهم بالخوف .. ان الكرم ينتهى بالناس الى ان يحقدوا عليك .. والخوف ينتهى بهم الى احترامك » !!

وقد خرج خالك من مكتب عبد العظيم ، وذهب اليكم .. ولم يتكلم .. لم يرو لأمك شيئا مما حدث له .. وربما برر لها ذهوله والشقاء الذى يبدو على وجهه ، بالمرض او بالضيق .. ولكنه حرص على الا يروى قصته ..

وذهبت انا فى نفس اليوم لأتناول طعام الغداء عندكم ، والتقيت به .. ووقف امامى ذليلا ، لا يرفع راسه ، ولا يرفع صوته بالدعاء لى كما كانت عادته .. عيناه منكستان ، وشفتاه منكستان ، وقامته منكسة .. كأنه يكاد يقع على الأرض ..

ونظرت اليه باشمئزاز ، ولمست يده لمسة سريعة بدل ان اصافحه .. ثم جلست وأنا اتعمد أن اشعره بأنى صاحب البيت .. بأنى السيد .. فقد كانت هذه أول مرة نلتقى فيها منذ تسلم وظيفته فى الاسكندرية .

وناديت على الخادم ، وقلت له بلهجة آمرة :

— روح شوف الطباخ عامل ايه النهارده ..

وقالت أمك واحلام ليلة الأمس لا تزال تضحك فوق وجنتيها :

— انا موصياه يعمل الرز بالكبد والكلاوى ..

وقلت وأنا أمد ساقى أمامى :

— هاتى لى الشبشب يا تفيده ، أحسن الجزمة تعبانى ..

وقامت أمك ، وعادت بالشبشب ، وانحنت تضعه بجانب قدمى ..

كل ذلك وخالك صامت .. لا يتكلم .. ولا يثور .. ولا يبدى دهشة ، انه يرانى وأنا أعامل أخته كأنها عشيقتى .. او على أحسن الفروض كأنها خادمتى ، ورغم ذلك فهو لا يثور .. انه لم يعد له شىء يثور من أجله .. لم يعد شريفا .. أصبح قريبا جدا من عبد العظيم .. كلاهما مسلوب الشرف والكرامة .. ولكن عبد العظيم باع شرفه وكرامته بثمن مجز .. ثمن كبير .. لقد نال بدل الشرف والكرامة ، لقب بك .. ونال ثراء كبيرا .. ونال مكانة مرموقة بين رجال الأعمال .. أما خالك فقد باع شرفه بلا ثمن .. باعه بسذاجة ..

وجلسنا على مائدة الغداء .. وأنا لا ابادل خالك سوى كلمات مقتضبة ، دون أن أشير الى مأساته .. وهو يجيبنى منكس العينين كأنه يقف بين يدى ربه .. وأمك متهللة الوجه دائما ، لا تزال الأحلام ترقص فوق وجنتيها .. وتلح كعادتها فى تقديم الطعام الى .. دون أن تراعى وجود أخيها بيننا .. كأنه لم يعد له وجود فى الحياة الجديدة التى تحياها .. وتذكرت

..ول مرة رايتها فيها عندما اصرت على الا اقابلها مرة ثانية الا فى حضور أخيها .. هذا هو الأخ الذى ظنت انها تستطيع أن تحتمى به .. أو الذى فرضت التقاليد الشعبية الاحتماء به .. انه مستعد الآن أن يبيعها لقاء الورقة التى يحتفظ بها عبد العظيم فى درجه .. بل ربما بأقل من ذلك .. لقاء رفع مرتبه الى خمسين جنيها ..

ولم يكن حول المائدة من افراد عائلتك من لا يزال يحتفظ بشخصيته الا أنت .. أنت وحدك .. لم يتغير فيك شيء الا أنك تزدادين نحولا .. نفس حديثك الخافت الذى لم تتسع آفاقه ، رغم اتساع آفاق الحياة التى تحيط بك .. ونفس ابتسامتك الحزينة .. ونفس عينيك العميقتين اللتين تثقبان صدرى ، وقد استقر فيهما ألم دفين .. ألم يحيط بك كهالة الملائكة ..

وكنت أنت وحدك ، تمثلين الفشل أمامى .. فشلى !

انى لم استول عليكم بعد ، مادمت لم أستول عليك ..

انى لا أستطيع أن أحترم نفسى وارضى عنها ، ما دمت لاتحترميننى ، ولا ترضين عنى ، ولا تقتنعين بحياتى ..

انى لا استطيع أن أكون شريفا .. لأنك لا تعترفين بى كرجل شريف !

وكنت أدير عينى عنك ، الا فى فترات متقطعة أبادلك فيها بضع كلمات .. الى أن انتهينا من تناول الغداء ، وقمنا الى الصالون .. وجلست مرتاحا ، وامك تطوف حولى فى انتظار لمحة منى .. ودخلت انت الى غرفتك .. وتلفت خالك فى استخذاء ، ثم قرر أن يخلى لى الجو مع أخته ، فاستأذن فى الانصراف .. وقال وهو يمد يده يصافحنى :

— والله يا سعادة الباشا .. اصل .. يعنى .. كنت عايز اكلم سعادتك فى ..

واستنتجت أنه يريد ان يحادثنى فى مأساته ، فقاطعته وقلت بحدة :

— بعدين .. مش وقته ؟

وقال فى ضعف :

— حاضر .. أمرك ..

وقالت أمك وهى تودعه الى الباب :

— مش تقعد لما تستريح يا اخويا ..

قال ورأسه لا يزال منكسا :

— لأ معلهش .. ورايا مشوار ..

وقالت أمك بلا حماس :

— مش حاتبات هنا الليلة ؟

وقال وهو يهز رأسه :

— ما اقدرش والله يا تفيده يا اختى .. لازم أسافر الليه اسكندرية !

قالت بسرعة :

— مع السلامة يا اخويا .. ما تنساش السلام !!

وخرج خالك ..

وعادت الى أمك وجفناها يزغردان فوق عينيها ، كأنها تزف نفسها الى .. وقالت فى اغراء يثير الشفقة :

— مش حانسهر الليلة عند خيرية ؟

ونظرت اليها فى تعجب !!

انها تلح فى دعوة نفسها الى ليلة كليلة الأمس .. ليلة عند خيرية ، ثم فى شقتى الخاصة ..

وقلت :

— والله لسه مش عارف ، أما اشوف مواعيدى ايه الليلة !!

وقمت من مقعدى كأنى أقطع عليها أحلامها ، واتجهت الى الحمام .. وعند خروجى منه لمحت باب غرفتك مغلقا .. وتملكتنى

رغبة عنيفة فى أن أفتح هذا الباب المغلق .. وقد خيل الى أنى سأراك وراءه ، كما لم أتعود أن أراك .. خيل الى أنى قد أفاجئك وابتسامتك أكثر حياة .. وعيناك ضاحكتان .. ووجهك نضر ينبض بالنشاط .. كوجوه بنات نادى الجزيرة .. كوجه « شوشت » ابنة خيرية .. كوجه الطبقة التى أعيش فيها ..

ودون أن أنقر على الباب ، فتحته ..

ورأيتك ..

رأيتك تبدلين ثيابك ..

كنت قد خلعت عنك ثوبك ، ووقفت وسط الغرفة لا يسترك سوى قميصك الداخلى .. وكتفاك عاريتان .. وصدرك الصبى ينطلق فى كبرياء وغرور .. وساقاك مفصلتان من تحت ثوب الحرير .. و .. والنافذة الخشبية مغلقة .. والضوء هادىء خافت .. وأنت كغلالة من النور .. و .. وسقطت عيناى عليك ، والتصقتا بك .. التصقتا بجسدك .. عينان مبهورتان .. جشعتان .. مجرمتان .. تكادان تمزقان الثوب عنك ، ثم تمزقان الجسد ..

وذعرت أنت عندما فتحت الباب ..

وارتسمت على وجهك صرخة مكتومة .

ثم التقطت ثوبك وحاولت أن تخفى به جسدك عنى .. وقلت فى صوت مرتعش ضعيف كصوت ضميرى :

ــ ايه ده .. كان لازم تخبط على الباب ..

قلت فى صوت مبحوح ، وأنا أحاول أن أبتلع لعابى حتى لا يسيل من بين شفتى ، وعيناى لا تزالان ملتصقتين بك :

ــ ما خدتش بالى .. آسف ..

ولم أخرج من الغرفة .. بل تقدمت اليك خطوة ، وعيناى المجرمتان تتقدمانى ، واستطردت فى كلمات لاهثة ، وأنا أمد ذراعى كأنى أهم أن أربت على كتفيك :

— على كل حال انتى زى بنتى .. حد ينكسف من ابوه ؟ .. واصلى عايزك فى حكاية ..

قلت وانت تبتعدين عنى خطوة ، وقد استقرت عيناك ، فى نظرة ثابتة ، حملت كل شخصيتك القوية :

— اتفضل حضرتك ، وانا جايه وراك .

وخفت ..

خفت منك ..

لا ادرى لماذا ؟ !

ولم تشعرى انت بخوفى ، ولكنى كنت خائفا فعلا .. شىء فى صدرى حركته عيناك فأشاع الرعب فى قلبى .. وخفضت ذراعى المرفوعة .. واستعنت بكل ارادتى لأحول عينى عن جسدك .. وقلت بصوت حاولت الا يكون مرتعشا :

— بس ما تتأخريش ؟ !

وخرجت من الغرفة .. وانت ورائى تغلقين الباب على نفسك بالمفتاح ..

وسمعت صوت صرير المفتاح كأنه صوت اعصابى وهى تعصرنى ، وانا لا زلت فى شبه ذهول .. وجسدك لا يزال امام عينى يهتز كوشاح النور .

وحاولت ان اطرد هذا الجسد من امام عينى .. انه ليس جسدا جميلا .. انه جسد نحيل .. اكثر نحولا مما تعودت ان اشتهى فى الأجساد ، ان العظمتين اللتين يبدأ بهما صدرك ، ويحددان كتفيك ، بارزتان .. اكثر بروزا مما يتطلبه الجمال .. ولكنه ليس الجمال الذى يفتننى فيك .. ليس الجمال الذى اشتهيه منك .. انه الصبا .. صباك .. اننا فى عمرنا هذا .. عمر الشيوخ .. عمر السابعة والخمسين .. نحتاج الى الصبا اكثر مما نحتاج الى الجمال .. يفتننا الصبا اكثر مما يفتننا الجمال .. وقد نتنازل عن كثير من ملامح الجمال فى سبيل

مزيد من الصبا .. ان الصبا يعوض النقص فينا .. يبعد عنا شبح الكبر الذى يقترب منا .. يعيد الينا شبابنا .. يحقن دماغنا بنفحة من الماضى .. الماضى القوى الفحل ..

ولكن لماذا اقول هذا الكلام ؟ ..

لماذا افكر فيك كجسد ، وانا اريد ان اقنعك بانى بمثابة ابيك .. اريدك ابنة لى ..

لماذا ؟

لأنى لا استطيع ..

لا استطيع أن أحترم نفسى ..

وعدت فى خطوات يائسة ، والقيت بنفسى على الأريكة وانا الهث .. كل شىء فى يلهث .. وجاءت والدتك وجلست بجانبى ملتصقة بى .. ونظرت اليها فى قرف .. الى وجنتيها العطنتين .. والى شفتيها الملتفتين احداهما حول الأخرى .. والى الأخاديد تحت عينيها .. والجلد المهدل تحت ذقنها وحول عنقها .. والى لونها الذى يشوبه الاصفرار ، كأنه اختزن طويلا فى مخزن تاجر العاديات .. والى نهديها المهدلين كأنهما تعبا من الوقوف جيلا بأكمله .. والى جسدها الذى لا خطوط له .. ثم صحت فيها رغم ارادتى ، كأنى ابعد عنى شبحا مخيفا :

ـــ ابعدى عنى !

وانحدفت المسكينة الى الوراء مذعورة .. فعدت وتمالكت اعصابى ، وقلت فى صوت اكثر هدوءا :

ـــ اصلى تعبان شوية .. نفسى ضيق .. يظهر اكلت كتير !!

- ١٤ -

ومضت ايام طويلة تعمدت خلالها الا اراك ، او ازور البيت ..

وأمك تتصل بى بالتليفون كل صباح ومساء ، تدعونى اليها ، وتدعو نفسها الى ..

وانا اتعذب ..

اتعذب بحبك ..

نعم .. انه الحب .. نوع غريب من الحب .. ان تفاعل الشهوة ، مع غريزة الامتلاك ، مع الاحساس بالفشل ، مع محاولة مقاومة النفس .. كل هذا ، ينتج نوعا من الحب .. حب شرير قاس لا يرحمنى ، ولا يرحمك ..

وقد حاولت ان اقاوم هذا الحب ..

حاولت كثيرا ..

وكانت المحاولة ترهقنى ، وتحرك اعصابى .. وكنت ابدو كما لم يرنى احد من قبل .. ضيق الصدر ، لا احتمل الناس ، ولا احتمل العمل ، ولا احتمل نفسى .. وكنت انزوى بعيدا .. احبس نفسى فى بيتى . او اخرج فى سيارتى واقضى الساعات اطوف بضواحى القاهرة .. وانا هائم ، اخاطب نفسى ، واحاول ان اخدعها عن حقيقتها .. ثم افشل فى خداعها ، وافيق من هيامى ، لأحطم شيئا .. اى شىء .. احطم كوبا ، او احطم امراة او رجلا ممن يعيشون فى دائرة حياتى .. وفكرت فى ان

أسافر الى الخارج ، وكان لدى من شئون عملى ما يدفعنى الى السفر .. ولكنى لم اسافر .. احسست كأن هناك صفقة جب ان اتمها قبل السفر .. الصفقة التى تتمثل فيك ، وفى حبى لك .. فبقيت مع عذابى قريبا منك ، كأنى اجلس قريبا من البورصة ارقب تقلبات الأسعار ، لأضرب من خلالها ضربتى ..

ثم لجأت الى محاولة اخيرة .

لجأت اليك ..

هل كنت مخلصا فى الالتجاء اليك ؟؟ .. لا ادرى .. ولكنى كنت امنى نفسى بانك قد تساعديننى على حبى .. وانك قد تستطيعين ان تحررى هذا الحب من الشهوة ، ومن الفجور ، ومن رغبة التملك التى تسيطر على . وتجعلين منه حبا نقيا .. حبا ابويا مجردا من الأنانية .. انك انسانة نقية شريفة ، فهل للنقاء والشرف قوة تستطيع ان تهزم الدنس الذى يملأ نفسى ؟ !

لقد تمنيت ان تكون لك هذه القوة ..

القوة التى تستطيع أن تهزمنى ..

وذهبت اليك ..

وجلست معك ومع والدتك ، وانا ادير عينى عنك كأنى كنت اخشى اذا نظرت اليك ان اراك عارية مرتدية قميصك الداخلى ، كما رأيتك آخر مرة ..

وقامت والدتك تشرف على بعض شئون البيت ، وتركتنا وحدنا .. وقلت لك ، وانا انظر الى الأرض ، واحاول ان اضع فى صوتى نبرة حنان وتواضع :

ــ فيه حاجة مضايقاكى يا هدى ؟ !

وتنهدت فى هدوء وقلت فى صوت خفيض :

ــ لا .. ابدا !

قلت :

ــ متهيألى ان فيه حاجة مضايقاكى .. شايفك دايما مش

مبسوطة .. ومش عارف اعمل لك ايه علشان تنبسطى .. عمرك ما طلبتى منى حاجة .. وعمرى ما عرفت ايه اللى ناقصك .. انا زى ابوكى يا هدى ، ولازم تعامليني زى ابوكى ..

ورفعت رأسك لذكر والدك ، كأنك تبخلين على حتى بذكره .. ثم قلت :

— انا عمرى ما طلبت من المرحوم بابا حاجة ..

قلت فى تعجب :

— يعنى طول عمرك كنتى كده .. زهقانة .. وساكتة ؟ !

واجبت بسرعة :

— لا .. علشان كان بابا عايش !

ونظرت اليك ، وسقطت نظرتى على نهديك ، فرفعتها سريعا الى وجهك ، وقلت :

— وانا مش زى بابا ؟ !

واطلت من عينيك هذه النظرة الثابتة التى تثقب صدرى ، وابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة .. ولم تردى على .. فعدت أقول لك :

— يعنى كنت مبسوطة فى شبرا اكتر ؟ !

وعدت تتنهدين فى أسى ، وقلت :

— انا كل صاحباتى فى شبرا !

قلت :

— وهنا ما لكيش صاحبات .. ده النادى مليان بنات من سنك ، وكلهم تعرفيهم !

واجبت فى أسى جوابا بعيدا عن سؤالى :

— كل اللى يجيبه ربنا كويس !

قلت :

— واللى اجيبه انا ؟ !

واجبت كأنك تهربين منى :

ـ حضرتك جبت لنا حاجات كتير .. كتير قوى .. عن اذنك يا عمى ، اما اقوم اوضب السفرة !

وقمت من امامى ..

وكان هذا هو كل جهدك فى معاونتى على نفسى .. كلمات كأنها الصفعات ، وكأنك توجهينها الى سجانك .. الى رجل يحاول اغتصابك .. وقد كنت فعلا سجانك ، وكنت فعلا احاول اغتصابك .. ولكنك لم تحاولى أن تقدمى للسجان رشوة حتى يطلق سراحك .. ولم تحاولى ان تقدمى له شيئا يعوضه عن اغتصابك !

هل الشرف والنقاء يقفان دائما هكذا .. موقفا سلبيا .. ويتركان الناس تعتدى عليهما ؟ ..

لقد وقف منى ابوك موقفا سلبيا ، وتركنى أسير فى طريق الأعمال القذرة ، لم يحاول أن يقفنى او يقنعنى ، الا بهذه النظرة الساخرة التى كان يوجهها الى .. النظرة التى كانت تحرك شيئا فى صدرى ، ولكنها لم تكن ابدا تقفنى عن طريقى ..

وقد حمى ابوك نفسه منى بأن ابتعد عنى ..

ولكنك لن تحمى نفسك منى .. لأنك لن تستطيعى الابتعاد عنى !

ونظرت اليك وانت تطوفين حول مائدة الطعام ، وعيناك غائبتان عنى تحت جفنيك .. نظرت الى جسدك .. الى الجسد البكر الصبى .. انى اعرف سر عذابك .. انه هذا الجسد .. لقد اردت أن تمنحيه لحبيبك عادل ، فلما حرمتك من حبيبك ، وحرمت جسدك منه ، تعذبت .

هذا هو كل شىء ..

هكذا صور لى منطقى عذابك .. عذاب محصور فى جسد .. وما هو الحب ؟ انه تبادل اجساد لا اكثر .. فاذا لم تتبادلى جسدك مع عادل ، فيكفى ان تتبادليه مع اى رجل آخر ، حتى

تتخلصى من العذاب .. ان الأجساد كالبضاعة ، لا يهم من يشتريها ، ولكنها يجب أن تباع ..

هذا هو منطقى !!

المنطق البشع الدنس ..

وأنا لا زلت أنظر الى جسدك ، بعينين مجرمتين ..

ولكن ، كيف ؟

كيف أشترى هذه البضاعة ، وأحصل عليها ؟ !

وشعرت بأنفاسى تضيق .. وأعصابى تلتهب .. ورأسى يضج بأزيز كأن عشرات من الدبابير تملؤه وتلسعه .. وكلما ألقيت نظرة أخرى على جسدك ، ضاقت أنفاسى أكثر ، واشتد التهاب أعصابى ، وارتفع الأزيز .. وبدأت أخبط الأرض بقدمى كأنى ثور لا يطيق الحبل الذى يشده الى الوتد ، وأمسح على وجهى بكفى كأنى أرطب النار التى تندلع منه .. انى سأجن .. طاقة هائلة من الشر تتملكنى .. أريد أن أحطم شيئا .. أى شىء ..

وجاءت أمك ، وجلست بجانبى وهى تتمايل فى دلال ساذج ..

هذه هى ..

سأحطمها ..

وملت عليها وقلت هامسا فى كلمات متلاحقة كأنها ألسنة النار تنطلق من فوهة الجحيم :

— أنا حاطلع الشقة اللى فوق دلوقت ، وانتى حصلينى بعد شوية ؟

قالت وقد فوجئت بهذه الدعوة :

— دلوقت ؟ !

قلت :

— أيوه .. دلوقت حالا !

قالت :

ــ مش لما تتغدى ؟

قلت :

ــ لا .. ما ليش نفس .. اصلى تعبان ، وعايز استريح شويه !!

ثم قمت قبل ان اسمع ردها ، وخرجت من الشقة ونزلت الى اسفل العمارة ا ووضعت نفسى فى المصعد الخاص ، وصعدت الى شقتى الخاصة .. الى عش النسر .. وبسرعة خلعت سترتى واتجهت الى « البار » واعددت لنفسى كأسا ثقيلة من الويسكى ، ولم اضعها امامى لأبلل به شفتى كالعادة ، بل قذفت به الى جوفى .. واتيت عليه فى جرعتين ، كأنى اصبه على نارى .. ثم اعددت كأسا اخرى ، واحتفظت بها فى يدى ، وجلست فى انتظار امك ..

وجاءت ..

جاءت المسكينة ..

وكانت قد غيرت ثوبها بثوب خيل اليها انه اكثر اغراء ، واكثرت من البودرة فبدت بشرتها كحائط فرغ المبيض لتوه من طلائه بالياض ، واكثرت من اللون الأحمر فوق شفتيها فبدت كأنها اكلت ذبيحة بدمها ، ثم لم تغسل الدم عن شفتيها ..

وجرعت من كأسى كأنى خفت ــ بعد ان رايتها ــ ان افيق من شرى المجنون .. وقلت لها وانا ابتسم من بين اسنانى .

اعمل لك كأس ؟

قالت وهى تقترب منى متأرجحة فوق كعب حذائها العالى :

ــ ده احنا لسه نهار يا خويا !

قلت وانا اعد لها كأسا اثقل من كأسى :

ــ هوه يعنى حرام بالنهار ، وحلال بالليل .. خدى يا شيخه !

وناولتها الكأس ..

واخذتها وهى تبتسم فى زهو ، كأنها تعلن لى انها اصبحت لا تخاف الكأس ، وقالت فى جراة :

ــ الا فوتر !

قلت وانا اقترب منها حتى التصقت بها :

ــ فى صحتنا احنا الاتنين !

ولم احاول ان انظر اليها .. كانت عيناى تنظران الى داخلى .. الى وعاء الشر الذى يغلى .. وكانت الرغبة فى التحطيم تستبد بى .. الرغبة فى الانتقام .. الانتقام من نوازع الشرف التى تتملكنى بين الحين والحين ، والتى دفعتنى الى اعالة عائلتكم والصرف عليها دون داع .. ودون منطق يبرر لى هذا الشرف الموهوم !

سأنتقم لنفسى من الشرف !

سأنتقم منك ..

سأسترد مالى الذى انفقته عليكم ..

وتركتها تشرب جرعة كبيرة من كأسها ، ثم ابعدته عن شفتيها ، وشهقت فى حدة ، واخذت تسعل سعالا حادا ، وتخبط على صدرها بيدها وهى تقول بين حشرجات سعالها :

ــ ايه ده يا حسين .. الدور ده تقيل قوى ؟ !

قلت وانا اربت ظهرها :

ــ خليكى جدعه امال .. انتى حتفضلى خيبه طول عمرك يا تفيده ؟ !

ثم قبلتها فوق وجنتها . وذقت طعم التفاح العطن .. ورائحتها تملأ انفى .. رائحة الطبقة المتوسطة الصغيرة مختلطة برائحة عطور باريس ، وبرائحة الويسكى ..

وابتسمت لقبلتى ، كأنها تلقت منى وساما ..

وابتعدت عنها ، ورفعت كأسى الى شفتى ، كأنى احاول ان اغسلهما من اثر قبلتها ..

وتمايلت فى حياء ، كأنها فتاة تتلقى القبلة الأولى ، ثم قالت فى دلال :

ـ هو انت ما تبطلش بوس يا حسين !

ومالت بوجهها الى كأنها فى انتظار تلقى القبلة الثانية .. ثم رفعت كأسها ورشفت منها رشفة ثانية ، لم تسعل لها .. ثم رشفة ثالثة .. ثم اتت على الكأس .. واعددت لها كأسا ثانية .. وانا انظر اليها دون ان احاول ان اراها حتى لا أنفر منها .. انما عيناى تنظران الى داخلى .. الى وعاء الشر الذى يغلى ..

وحملنا كأسينا وجلسنا فوق الأريكة الواسعة ..

وبدأت تتكلم ..

ولكنى اقتربت منها ، واحطت كتفها بذراعى ، واطلت النظر اليها ، حتى سكتت عن الكلام .. احست ان هناك شيئا سيحدث .. ولم تكن تدرى ما هذا الشىء بالضبط .. ولكنها كانت تنتظره فى صمت ..

وفجأة سقطت على شفتيها ، وعصرتهما بين شفتى ..

واستسلمت وفى عينيها نظرة مبهورة خائفة .. ثم لما طالت القبلة اسدلت جفنيها فوق عينيها ، فاختفت نظرتها .. وتركت شفتيها بين شفتى .. تركتهما دون ان تضع فيهما حياة .. كأنهما قطعتان من لحم مذبوح ..

واحطتها بذراعى الثانية ..

وقالت فى صوت ضعيف مبهور ، ورائحة الويسكى مختلطة برائحة الطبقة المتوسطة الصغيرة ، تنفح فى وجهى :

ـ مش لما نتجوز يا حسين ؟ !

قلت ووعاء الشر فى نفسى يدوى بالغليان :

ـ الجواز بعدين يا عبيطه ..

وسكتت .. سكتت بلا حياة وبلا مقاومة .. كأنها ماتت بين ذراعى .. ثم ..

ثم تلمكتنى طاقة هائلة من الحقد .. انى احس بالحقد وبين ذراعى جسد امراة .. حقد اسود .. واحس كأنى انتقم فى هذا الجسد من الناس كلهم .. من الفقراء والأغنياء .. انتقم منك . ومن ابيك ، ومن عادل ، ومن خالك .. وهذا الجسد ليس جسد امك .. انه جسدكم جميعا .. جسدك انت .. وجسد ابيك ، وجسد عادل ، وجسد خالك .. ان صوركم تتراءى لى كأنها تنبعث مع انفاس امك .. وانا اتغالى فى انتقامى .. اطعن .. واطعن .. بلا رحمة .. وبلا نشوة .. سوى نشوة الانتقام ..

ثم ..

ثم تركتها ..

تركت الجسد المسكين ..

وقمت واتجهت الى البار وفتحت زجاجة صودا ورفعتها الى شفتى ، وسكبتها فى جوفى ، وانا مدير ظهرى الى امك ..

كنت لا أريد ان انظر اليها .. كأنى كنت اخاف اذا نظرت اليها ان ارى دم الذبيحة مسفوكا على الأرض .. ولكنى تحاملت على نفسى ، والتفت اليها .. ورايتها ..

رايت مأساة مكومة فوق الأريكة ..

— لم تكن نشوانة ، ولا خجولا .. بل كانت مذهولة .. كأنها غائبة فى عالم بعيد .. عالم كانت تعيش فيه يوما كزوجة شريفة .. وكان كل شىء فيها يسيل فى حزن كأنه الدموع .. شعرها يسيل فوق جبهتها . ووجنتاها تسيلان فوق وجهها .. وشفتاها تسيلان فوق ذقنها .. وراسها سائل فوق صدرها .

وانقبض صدرى حتى كاد يخنقنى ..

وبقيت صامتا لا استطيع ان احول عينى عنها .. انظر الى

جريمتى .. جريمة اخرى .. ولم اعد ثائرا .. ان وعاء الشر هدأ ولم يعد يغلى .. ولكنى اريد ان اهرب .. اهرب من امام جريمتى !

وناديتها فى صوت خافت :

ــ تفيده !

ولم ترد .. بقيت مستغرقة فى ذهولها ..

ورفعت صوتى وناديتها وقد بدأ الهلع يتسرب الى قلبى

ــ تفيده .. تفيده .. مالك ؟!

ورفعت راسها فى بطء ، وتلفتت حونها كأنها تبحث عن مصدر الصوت الذى يناديها ، ثم استقرت عيناها فوق وجهى ، وقالت وهى لا تزال فى ذهولها :

ــ هيه .. بتقول ايه ؟!

وصرخت فى وجهها :

ــ مالك ؟

قالت وراسها يعود فيسيل فوق صدرها :

ــ ماليش !!

ــ انها لا تحاول الآن ان تقلد خيرية .. ربما لانها لم تر خيرية فى مثل هذا الموقف .. ولا تحاول ان تتظاهر بالاندماج فى الحياة الجديدة التى تعيشها ، ربما لانها لم تكن تتصور ان هذه الحياة الجديدة تصل الى هذه الحدود .. وهى فى الوقت نفسه لا تستطيع ان تعود الى شخصيتها القديمة .. الى طبقتها .. انما هى الآن شىء لا طابع له .. شىء مكوم فوق الأريكة يمثل مأساة !

وتضايقت ..

زهقت من هذا الشىء !

ماذا حدث مما يحمل معنى المأساة .. امرأة اخرى فى فراشى سبقتها عشرات النساء !

فما هى المأساة .. اين هى المأساة ؟ هل هذه هى المراة الشريفة الوحيدة فى مصر حتى تحمل كل هذا الهم ؟ !

وقلت وانا ارفع زجاجة الصودا الى شفتى مرة اخرى :

— اظن تقومى تنزلى دلوقت يا تفيده .. احسن حد يسأل عليكى !

ولم تجب ..

انما قامت واقفة وهى تضغط على ركبتيها بكفيها ، كأن عمرها زاد فى لحظة ستين عاما .. وازاحت خصلات شعرها السائل فوق جبينها .. ثم انحنت تجمع بضعة مشابك للشعر سقطت من راسها فوق الأريكة .. ثم اتجهت فى خطوات بطيئة نحو الباب دون ان تنظر الى ..

وقبل أن تصل الى الباب ، التفتت ونظرت الى بكل عينيها ، ثم قالت فى صوت لا انفعال فيه .. صوت ذكرنى بصوتها عندما سمعته لأول مرة فى شبرا :

— انت حاتتجوزنى يا حسين ؟ !

قلت وزجاجة الصودا لا تزال فى يدى :

— مش وقته يا تفيده السؤال ده !!

وعادت تقول فى نفس الصوت الحازم :

— انت حا تتجوزنى ؟ !

قلت وانا احاول أن ابتسم لها :

— يا ستى اطمنى .. انا حاكلمك فى التليفون الليلة .. حاكلمك كتير !!

واحنت راسها كأنها مهزومة لا تملك الا الاستسلام ..

وفتحت الباب .. وخرجت !!

ووضعت زجاجة الصودا على البار فى عنف ، كأنى ادق بها عنق أمك .. واحسست برغبة شديدة فى أن ابصق ..

ابصق قبلاتها ، وابصق رائحتها ؛ وابصق جسدها .. ابصق كل ما لمسته منها ..

ثم دخلت الى حجرة النوم ، وخلعت بقية ثيابى ..

ونمت ..

وقمت من النوم فى الساعة السادسة مساء وانا احاول أن اقنع نفسى بأنى سعيد .. بأنى انتصرت .. بأنى قضيت متعة ..

ولكن لا ..

ان عينيك تلاحقانى .. وشىء يتحرك فى صدرى ويكاد يكتم انفاسى ، ويمزق رئتى .. وانا احس بالقرف .. القرف من نفسى .. احس انى قذر .. قذر جدا .. وفى حاجة الى حمام من الماء المغلى يغسل صدرى ، وقلبى ، وعقلى .. يغسل عنى الطين المكوم فى داخلى .

وفى الوقت نفسه أحس برعدة كأنى خائف .. خائف من عينيك .. خائف من هذا الشىء الذى يتحرك فى صدرى .. وخائف من عدو مجهول . .يتربص بى فى مكان ما .. ان كل هؤلاء الأعداء الذين قضيت عليهم ليسوا كل اعدائى ، بل يخيل الى انى كلما قضيت على عدو نبت فى مكانه عشرة اعداء ..

انى أريد أن أستريح ..

أستريح من أعدائى ..

انى لا أستطيع أن أستريح منهم .. انهم يعيشــون فى صدرى ..

وذهبت الى مكتبى فى المساء وانا يائس .. ان عشرات السعاة ينحنون أمامى .. وعشرات الموظفين يقفون بين يدى .. والدار الكبيرة تصمت تحت وقع خطواتى كأنها وقع خطوات القدر .. ورغم ذلك فانى يائس .. كل هذه المظاهر تحيطنى بهالة من الاحترام والتقديس .. وانا يائس !..

وجاء عبد العظيم يقول لى ، وبين شفتيه ابتسامة كبيرة كأنه يرشونى بها :

— الجماعة بتوع اتحاد المصدرين ، بقالهم اسبوعين بيلحوا علشان يعملوا حفلة تكريم لسعادتك .. ومستنيين ان سعادتك تحدد الموعد !!

وفكرت برهة .. انى فى حاجة الى حفلة التكريم هذه .. فى حاجة اليها لأقنع نفسى بأنى انسان محترم مكرم .. وقلت لعبد العظيم وانا ساهم :

— بكره !!

ودهش عبد العظيم ، وقال وهو يحدق فى بعينيه كأنه يحاول ان يكتشف سرى :

— بس الجماعة ما يلحقوش يوضبوا حاجة لبكره . على الأقل نديهم فرصة علشان يبعتوا الدعوات ..

ونظرت اليه كأنى لا أراه ، وقلت :

— طيب .. خليها بعد بكره !

قال وهو يبتسم فى بلاهة كأنه عجز عن ان يفهمنى .

— نخليها الجمعة الجايه !!

قلت فى حدة :

— بلاش .. هم عايزين يكرمونى على كيفهم .. انت عارف انى ما احبش حفلات التكريم .. ثم انى الجمعة الجاية مشغول !

قال وهو يهز كتفيه مستسلما :

— خلاص نخليها بعد بكره .. الحقيقة يا باشا دول لازم يعملوا لك حفلة تكريم كل يوم .. اللى عملته للبلد مش شويه !!

ولم ارد عليه .. وخرج من مكتبى وهو يلتفت وراءه ليعيد التحديق فى وجهى ، لعله يكتشف سرى ..

ولم احادث والدتك بالتليفون كما وعدتها .. كنت اريد ان اهرب منها .. من جريمتى .. وفضلت ان اذهب الى نادى

السيارات .. انى اجد نفسى هناك فى دنيا تبرر لى أعمالى .. تبرر لى كل مالا استطيع ان ابرره لنفسى فى ساعات ضعفى ، فى هذه الساعات التى يتحرك خلالها شيء فى صدرى .. ان الملك يذهب الى هناك ، والوزراء ، وكل رجال وسيدات الطبقة الأرستقراطية يذهبون الى هناك .. وكلهم يحترموننى ، لأنهم يعرفون انى اشدهم سفالة ، واقواهم اجراما .. وقد كنت ليلتها فى حاجة الى ان اشعر بقوتى .. كنت فى حاجة الى ان اشعر باحترام هؤلاء الناس .. واشعر بهم حولى ، حتى اقنع نفسى بأن هذه هى الدنيا .. كل الدنيا ..

والتقيت بشريف بك زوج خيرية جالسا على البار ، يضحك ضحكته الضخمة الفارغة ، ولا يضحك معه سوى شاربه المرفوع .. وخيرية جالسة على مائدة بعيدة تهمس فى اذن عبد الرحيم باشا وصدرها مستريح فوق ذراعه .. والسيدة شهيرة هانم رئيسة جمعية البر ، ترفع يدها بكأس الويسكى .. فى صحة الفقراء .. والأميرة الصغيرة شاهندا جالسة وحولها ثلاثة من الضباط فوق كتفى كل منهم اقة من اسلاك الفضة ، وشفتاها تحادثان واحدا ، وعيناها تحادثان الآخر ، وساقها تحادث الثالث .. وعارف بك بقامته القصيرة وكرشه المنتفخة وانفه الكبير يجوب بين الموائد ، وكلما حط على واحدة ارتفعت من حوله الضحكات .. انه مضحك الملك .. ويجب ان يضحك الجميع له ، ما دام الملك يضحك له .. وشديد باشا جالس على مائدة منعزلة مع وزير المالية .. لابد انه يسعى الى صفقة جديدة .. و ..

والتفت الأنظار حولى .. ومرت لحظة صمت سريعة حيا بها الحاضرون مقدمى .. وادرت عينى بينهم فى نظرة متعالية .. انى هنا السيد .. ان كل هؤلاء بين اصابعى .. كلهم اشتريتهم واشتريت زوجاتهم ..

وشددت ظهرى ، وفتحت صدرى ، لأبدو فى هيئة الأسياد ..
ولكن لا يزال فى صدرى فراغ كبير .. يدور فيه شىء حاد كأنه المنشار ..

وجلست على مائدة وحدى .. وجاء مضحك الملك ليضحكنى ، وقال وريحه الثقيل تحيط بى :

— سمعت آخر نكتة .. واحد مره راح يشترى علبة سجاير ملك مصر .. فالبياع سأله .. .. بدقن ولا من غير دقن !

وكان فاروق أيامها قد أطلق لحيته ، وأطلق الناس عليه هذه النكتة .. وعارف بك هو الوحيد الذى من حقه أن يحمل نكت الناس عن الملك الى الملك .. ومن حقه أن يطوف بها فى أنحاء النادى ..

وضحك عارف بك ضحكة كبيرة بعد أن أطلق نكتته ..
وربما أطلقها فى تلك الليلة الف مرة وضحك عليها الف مرة ..
وحاولت أن أضحك معه ، ولكنى لم أستطع الا مجرد الابتسام ..

وعاد مضحك الملك يقول :

— وفيه واحده أحسن منها .. اسمع .. كان مره واحد ...

ولم أحتمل ..

وقاطعته وأنا أقوم من مقعدى قائلا :

— عن اذنك دقيقة واحدة ..

وقمت ووقفت بجانب شريف زوج خيرية عند « البار » ، وتركت عارف بك يهز كتفيه ويبحث لنفسه عن مائدة أخرى يلقى عليها نكاته ..

ونظرت فى وجه شريف طويلا .. الى وجنتيه الموردتين ، وشاربه المرفوع .. انه الوحيد الذى أحسده هذه الليلة .. انه سعيد لأنه لا يحس .. لا يحس لأنه لا يعقل .. انه حيوان سعيد .. لا يشغل راسه هم .. ولا يحاول أن يفرق بين الخطيئة والشرف .. بين رضاء الناس عنه ورضائه عن نفسه .. بين

الزوجة المخلصة والزوجة غير المخلصة .. ان كل هذه معان لا وجود لها فى دنياه .. كل ما فى دنياه طعام جيد ، وشراب جيد ، وفراش وثير ، وبدن قوى .. وامرأة يستدعيها فى أوقات منظمة ، طبقا لأحدث التعاليم الطبية ..

ولكن شريف بك — للأسف — لا يستطيع أن يفيض بسعادته على أحد .. لا يستطيع أن يفسح فى دنياه مكانا لانسان غيره .. انك تجلس معه فتحس انك جالس مع حمار .. والحمار سعيد ، ولكنه لا يستطيع أن يشركك فى سعادته !

وتركت شريف ، وذهبت الى غرفة اللعب .. وجلست على مائدة البكاراه .. وجاء محمود الساعى يحمل الى « فيش » قيمته مائة جنيه .. ولكنى لو عددته لوجدته تسعين جنيها فقط .. ولم أعده ، فمحمود لا يسرقنى ، ولكنه اتفاق بينى وبينه ..

ولعبت ..

وكسبت ..

وكرهت أن اكسب فى هذه الليلة .. كنت اتمنى ان اخسر .. كنت اريد ان أحس بأنى اعاقب على جريمتى .. بأن شيئا ينقص منى حتى لو كانت هذه المائة جنيه .. ولكن احدا لا يستطيع أن يعاقبنى حتى الحظ .. حتى الله .. انى اكسب دائما .. اكسب كل جرائمى .. والنقود من كثرة ما عاشت معى ، أصبحت تكبر فى يدى من تلقاء نفسها .

وقمت عن مائدة اللعب .. وتركت « الفيش » الذى ربحته لمحمود ليصرفه من الخزينة ، ويعيده الى ناقصا عشرة جنيهات أخرى ..

وعدت الى منزلى ..

وانا لا زلت بائسا ..

والجسد المكوم فوق الاريكة .. جسد امك لا يزال يلوح أمام عينى ..

:

وانقضى اليوم التالى ..

واقيمت حفلة التكريم .. وجلست فى صدر الحفل استمع الى الخطباء بانتباه شديد .. كنت احاول ان أقنع نفسى بما يقولونه عنى ، كنت احاول أن اقنع نفسى فعلا بأنى اديت خدمات جليلة لمصر .. وللشعب .. وللعمال .. و .. و .. ولكنى لم اقتنع وشعور الاحتقار للمحتفلين بى يزحف على صدرى .. كيف احترمهم ، وانا لا احترم الشخص الذى يكرمونه .. لا احترم نفسى ..

وقمت بعد ان انتهى الخطباء لأقول كلمتى .. واخذت ادير عينى فى الجمع المحتشد امامى .. انى اراهم صغارا .. صغارا جدا .. وظلوا صامتين واعناقهم مشرئبة الى فى تطلع ، وفى شوق .. وفى ابتهال .. كأنى ربهم الأعلى .. وكأنهم ينتظرون الدرر من شفتى ..

وخيبت املهم ..

لم القِ خطابا طويلا كما كانوا ينتظرون ، انما قلت فى صوت محشرج :

ــ متشكر .. متشكر !!

ثم جلست ..

ودوت القاعة بالتصفيق ..

هؤلاء المنافقون ، لماذا يصفقون ؟

وقام رئيسهم وقال فى لهجة حارة :

ــ لقد اثبت حسين باشا شاكر مرة اخرى انه رجل اعمال .. لا رجل كلام .. انه درس بليغ القاه علينا ..

وكدت اتقيأ من كثرة ما شربت من نفاق ..

وخرجت وانا ادوس بحذائى عيون المنافقين ..

ولا زلت بائسا ..

انى لا ادرى ما اريد ان افعله .. لا ادرى كيف اتخلص من

شعورى بالتقزز من نفسى .. انى ابطش فى عملى .. انى اتمادى فى ظلمى وفى قسوتى .. ورغم ذلك فانى اريد شيئا اكثر لينسينى نفسى .. ليشغلنى عن نفسى .

ومر اسبوع او عشرة ايام ، واتصلت بى خيرية فى التليفون ، وقالت فى لهجة حادة كأنها تستنجد بى :

ـ انت تشوف لك حل فى الست تفيدة بتاعتك دى .. انا خلاص ، ما بقتش استحملها !

قلت فى هدوء :

ـ مالها ؟ !

قالت كأنها تصرخ :

ـ مالها .. مش عارف مالها .. دى ما بتفقش ليل ولا نهار .. من ساعة ما تصحى من النوم تبتدى تشرب ، وما تبطلش شرب الا لما تنام تانى .. باين عليها اتجننت ..

قلت وانا اتنهد كأنى اواسى نفسى :

ـ معلهش يا خيرية .. طولى بالك عليها .. وبطليها الشرب !

قالت وهى لا تزال محتده .

ـ ابطلها ازاى .. دى كانت تيجى تزورنى وتخلص على نص البار .. وبعدين دلوقتى بتيجى ، وتجيب قزازة الويسكى معاها وتفضل تهلوس ، وتقول كلام ما يتفهمش منه حاجة ..

قلت فى رجاء :

ـ علشان خاطرى .. خليكى معاها .. وشوفى لها دكتور .. انا اصلى مش قادر افهم الست دى ابدا ..

وقبل ان ترد خيرية ، استطردت قائلا :

ـ على فكره ، قبضت الكوبونات بتاعة اسهم التصدير ؟

وبسرعة اتجه عقل خيرية اتجاها آخر ، وقالت فى صوت هادىء :

— ودى كوبونات دى .. السهم يدفع خمسين قرش .. يعنى اللى عنده ألف سهم يموت من الجوع ..

قلت ضاحكا :

— يا شيخة حرام عليكى .. على كل حال انا حابعت لك كام سهم باركليز علشان تجربيهم ..

قالت كأنها تقفز فى سماعة التليفون :

— مرسى يا حسين .. طول عمرك حنين !

ثم استطردت :

— ما تحملش هم لتغيده ، انا حانوتها لك !

ووضعت سماعة التليفون ..

واخذت أتخيل امك وهى سكرانة .. اتخيل جسدها كله وهو يترنح كأنه مدلى من حبل المشنقة .. واتخيلك وراءه واقفة كالشبح ، وعيناك العميقتان مصوبتان الى صدرى .. تثقبانه .. وتنبشانه لتخرجا منه جثة ميت ..

ودق جرس التليفون فى ليلة تالية ، وسمعت صوتا مترنحا محشرجا كأنه خارج من تحت قبر .. صوتا يقول لى :

— مش حا تتجوزنى يا حسين ؟!

وبهت لحظة .. ثم صحت :

— تغيده ؟!

وعادت تقول فى صوتها المترنح المحشرج :

— مش حاتتجوزنى يا حسين ؟ !

ثم ضحكت ضحكة كأنها صرير الريح .. وألقت سماعة التليفون ..

***

واستمرت هذه المهزلة اياما طويلة .. كانت امك كلما استبدت بها الخمر رفعت سماعة التليفون وصاحت فى وجهى بصوت مترنح محشرج كأنه خارج من تحت قبر :

ــ مش حا تتجوزنى يا حسين ؟ !

ثم تضحك ضحكة كأنها صرير الريح وتلقى سماعة التليفون فى وجهى ..

وكدت أجن ..

انها تعذبنى ..

انها تطلق من مأساتها شبحا يلاحقنى .. وأصبحت كلما نظرت الى التليفون شعرت بالخـوف ، كأنى أنظـر الى آلة تعذيب ..

وغيرت رقم تليفونى الخاص فى مكتبى ورقم تليفون بيتى ، ولم تعد أمك تستطيع أن تتصل بى ، ورغم ذلك فانى لا زلت أسمع صوتها المترنح المحشرج ينبعث من تحت قبر ويصيح بى : « مش حا تتجوزنى يا حسين » ؟ ! ثم أسمع ضحكتها كأنها صرير الريح .. ولم أكن أسمعها عندما أخلو بنفسى فحسب ، بل كنت أسمعها فى كل وقت .. أجلس فى اجتماع مجلس ادارة احدى شركاتى ، وأكون منفعلا فى مناقشة حادة .. أو أكون فى حفلة منهمكا فى مغازلة امرأة .. وفجأة أسمت صوت أمك يملأ أذنى .. دون أن يكون هناك سبب يثيره .. وبلا ارادة منى أضع أصبعى فى أذنى وأهزه بعنف كأنى أحاول أن اقتل هذا الصوت .. وأحس بثقل يجثم فوق صدرى ، وأنفاسى تضيق .. ثم أجمع كل ارادتى لأضـغط بها على أعصـابى ، وأبعـد بهـا شـبح أمك ، وأعود الى مناقشة أعضاء مجلس الادارة ، أو الى مغازلة المرأة ..

هل تدرين ماذا يعنى هذا ؟

يعنى أنى بدأت أفقد القدرة على تركيز ذهنى فى موضوع واحد .. يعنى أنى بدأت أعيش بذهن مشتت !!

وقد كانت قدرتى على تركيز ذهنى فى موضوع واحد ، هى

سر نجاحى .. سر هذه الملايين التى جمعتها ، وسر هذا النفوذ الكبير الذى أتمتع به .. كنت دائما أستطيع أن أحصر ذهنى فى الموضوع الذى أختاره ، حتى لو كانت هناك عشرات المواضيع الأخرى التى يمكن أن تشغلنى .. كنت أستطيع أن أفكر فى شركة التعدين مثلا ، حتى لو كانت شركة أخرى من شركاتى على شفا افلاس .. وكنت أستطيع أن أحصر ذهنى فى جسد امرأة ، حتى لو كان ينتظرنى على الباب ضابط بوليس وفى يده أمر بالقبض على ..

وهذه القدرة على التركيز هى سر عظمة الرجال .. هى سر عظمة نابليون .. وكانوا يشبهون عقل نابليون بدولاب فيه عدة أدراج ، وفى كل درج موضوع .. وكان يستطيع أن يفتح أحد الأدراج وتظل باقى الأدراج مغلقة لا يشعر بما فيها .. يفتح درج الخطط الحربية فلا يفكر الا فى الخطط الحربية .. ويفتح درج التنظيم الحكومى فلا يفكر الا فى التنظيم الحكومى .. ويفتح درج مارى تريز وجوزفين ، فلا يفكر الا فى مارى وجوزفين .. وكان وهو فى ساحة القتال ، والمعركة مشتعلة ، يفتح درج النوم ، فينام ، دون أن تقلقه طلقات المدافع ، أو احتمالات الهزيمة والنصر

هذا هو سر عظمة نابليون .. ولو انه كان يفكر فى كل مشاغله فى وقت واحد ، ولو ان عقله لم يكن فيه هذه الأدراج ، وكان مجرد خزانة تتكدس فيها آراؤه واطماعه وخططه بلا ترتيب — لأصبح مشتت الذهن .. ولما اصبح عظيما ..

وقد كنت أفخر بأنى مثل نابليون .. وأن فى عقلى أدراجا أفتح منها ما أشاء فى الوقت الذى أشاؤه ، وتبقى باقى الأدراج مغلقة .. ولكنى بدأت أفقد هذه الميزة .. بدات افقد سر عظمتى .. انى كلما فتحت درجا ، انفتح معه درج آخر .. الدرج الذى يضم قصتى معك ومع أمك ..

وقررت ان انسى .. انساكما .. حتى استعيد عظمتى ، وحتى احتفظ لذهنى بالقدرة على التركيز ..

قررت ان اخلع من عقلى هذا الدرج الذى ينفتح من تلقاء نفسه ، ويخرج منه صوت امك ، وصورة خيالك النحيل ..

ولكى انسى ، كان يجب ان اعترف بفشلى .. فشلى فى ان اكون انسانا شريفا .. فشلى فى ان اسيطر عليكما واقنعكما بنفسى ..

وكدت استسلم للفشل ..

وامتنعت عن زيارتكما منذ تركت جثة امك مكومة فوق الأريكة العريضة تمثل مأساة ..

كدت ارحمكما ..

لولا عادل ..

حبيبك عادل ..

- ١٥ -

كان عادل قد سافر الى القصير ليلتحق بوظيفة فى شركة التعدين ، بعد ان يئس من مشروع زواجكما .. وبعد ان جاءت امه واخته لتخطباك اليه فاستقبلتهما امك وخيرية استقبالا أشبه بالطرد ..

واعتقدت انه خرج من حياتك وحياتى الى الأبد ، وان هذه هى نهاية قصته معى ..

ولكن عادل بدأ يتصل هناك بالعمال .. لم يكن عاملا .. ولكنه عين وكيلا لادارة الحسابات .. والمفروض ان يرتفع الموظفون بأنفسهم عن العمال .. اننا نحاول دائما ان نضع بينهما حاجزا طبقيا ، وان نقنع الموظفين بأنهم طبقة ارقى من العمال .. نقنعهم بأنهم « افندية » يرتدون الحلة والطربوش ، ويجلسون فوق مقاعد مريحة وراء مكاتب أنيقة . ولا يغمسون أيديهم فى التراب ، ولا يخوضون بأقدامهم فى التراب ، ولا يملئون صدورهم بذرات التراب .. انما التراب من نصيب العمال وحدهم ..

وحتى نبقى على هذا الحاجز بين الموظفين والعمال ، كانت الشركة تتعمد ان تبنى للموظفين بيوتا بعيدة عن عشش العمال ، وان تقدم لهم طعاما وشرابا ارقى من طعام وشراب العمال ، وان تخصص لهم ناديا لا يدخله العمال .

ليست شركاتى وحدها ، ولكن كل الشركات تتعمد الفصل بين الموظفين والعمال ، خوفا من أن تختلط ثقافة الموظفين بمجاميع العمال ، فيتفتح وعيهم ، وتتحرك أطماعهم . ويفلت زمامهم من بين أصابع الشركة ..

وكانت الشركات تفصل بين الموظفين والعمال لتستغل كل طائفة على حساب الأخرى ، وتضرب كل طائفة بالأخرى .. وأجدى وسيلة للفصل بينهما هى اقامة هذا الحاجز الطبقى بينهما .. هى اقناع كل طائفة بأنها تنتمى الى طبقة لا تشمل الأخرى ..

ولكن عادل حاول أن يحطم هذا الحاجز .. بل حطمه فعلا .. فكان ينتهى من عمله ليذهب الى العمال .. انه يختلط بهم فى المناجم .. ويقضى لياليه ساهرا معهم فى عششهم .. يغنى أغانيهم ، ويمرح مرحهم .. ويتعرف اليهم واحدا واحدا ، ويتعرف الى مشاكلهم مجتمعة ومشاكلهم فرادى .. بدأ يغمس يديه فى التراب الذى يغمسون فيه أيديهم ، ويخوض بقدميه فى التراب الذى يخوضون فيه بأقدامهم ، ويملأ صدره بالتراب الذى يملأ صدورهم ..

وكان هذا يكفى لكى تفصله الشركة .

ان اختلاط أحد الموظفين بالعمال ، سبب كاف للفصل من اى شركة ..

ولكن عادل لم يفصل ..

أنا الذى حميته من الفصل .. ولم يكن عادل يعرف أنى أنا الذى أحميه ، بل لم يكن يعلم أن هذه الشركة التى يعمل فيها أنا الذى أسيطر عليها ، وأنا الذى أملك أغلب أسهمها باسم شركة أخرى ..

وقد حميته من الفصل رغم الحاج عبد العظيم ، فقد كان أهون :

على أن يبقى بمتاعبه فى القصير ، من أن يأتى بمتاعبه الى القاهرة ..

ولكن عادل لم يقف عند حد .. لقد أصبح اختلاطه بالعمال يمثل نشاطا منظما .. ليس نشاطا شيوعيا .. انه لم يكن يحدثهم عن كارل ماركس ، ولا بمنطق كارل ماركس .. ولم يكن يثير فيهم كراهية الطبقات .. كان فقط يفتح وعيهم على حقوقهم ، ويفسر لهم أسباب متاعبهم .. كان يقول لهم ان هذا الماء العطن الذى يشربونه والذى تستورده لهم الشركة فى مراكب عبر البحر الأحمر .. يمكن أن يكون ماء صالحا لو تنازلت الشركة عن جزء من أرباحها ، وأقامت خزانات صحية ، وسيرت مركبين لنقل الماء بدلا من مركب واحد .. وأن هذا الطعام الجاف الخشن الذى يأكل منهم بقدر ما يأكلون منه ، يمكن أن يكون طعاما غنيا لو أقامت الشركة مطبخا كبيرا ومخبزا بجوار المنجم ، يقدم لهم طعاما ساخنا ، وخبزا طازجا .. و .. و ..

وبدأت نغمة جديدة تبدو فى أحاديث العمال ..

نغمة خطرة ..

لقد كانوا راضين بهذا الطعام وهذا الشراب ، لأنهم هم أنفسهم لا يستطيعون أن يحصلوا على خير منه ، ولكن عادل أقنعهم بأن الشركة تستطيع أن تقدم لهم ما لا يستطيعون أن يقدموه لأنفسهم .. أقنعهم بألا يكتفوا بالحياة التى عاشوها فى قراهم قبل أن يصبحوا عمالا .. وأن يسعوا الى حياة أرقى .. انهم يعملون ليرتقوا ، لا ليعيشوا ..

وبدأ التذمر ..

لم يكن تذمرا جماعيا ، ولكنه تذمر محصور فى بضع كلمات ينطق بها هذا العامل أو ذاك فى مناسبات عابرة ..

والشركات تحسب حسابا كبيرا لكل كلمة يتداولها العمال .. ان كلمة واحدة تكفى لتدل على اتجاه التيار ..

والتيار بدأ يتجه اتجاها لا تطمئن اليه الشركة ..

ان العمال يريدون طعاما افضل .. هؤلاء الكلاب .. ان اى طعام افضل مما عاشوا عليه فى قراهم ، وعاش عليه آباؤهم واجدادهم .. لقد جاءوا من قرى الصعيد قبل أن يدخل بطونهم شيء سوى قطع من الحجر يسمونها « البتاوى » وقطع من الملح اللزج يسمونها « المش » .. والآن لا يعجبهم الطعام المحفوظ .. يريدون طعاما ساخنا ، ولحما ، ولبنا .

والشركة ليست مستعدة لاجابة هذه المطالب .. ان اجابتها معناها أن تقل الأرباح ، وعندما تقل الأرباح ينخفض سعر الأسهم .. واصحاب الأسهم فى القاهرة لا يرضون بأن ينخفض ثمن اسهمهم .. ثم اننا لو حققنا هذه المطالب ، فهل يكتفى بها العمال ؟ ! من يضمن لنا انهم سيكتفون ؟ !

اننا لو حققنا هذه المطالب فسينتشر خبرها الى باقى العمال فى الشركات الأخرى التى تشمل القطر كله .. ان مطالب العمال لا تمس شركة واحدة او شركتين .. انها تمس نظاما اقتصاديا كاملا يشمل مصر كلها .. ونحن نقاوم هذه المطالب لنحمى هذا النظام .. النظام الذى يتيح لى أن أكون مليونيرا ، وان احتفظ بملايينى ونفوذى ..

ما العمل ؟

لقد كان يكفى أن انزع عادل من بين العمال حتى تهدأ بطونهم ويرضون بما نقدمه لهم من طعام ..

ولكنى لا زلت اصر على أن يبقى عادل فى القصير ..

وبدأت الشركة تتخذ الاجراءات لتهدم عادل وهو بين العمال ، نهدمه امام عيونهم .. والشركات لا تعجز ابدا عن هدم هؤلاء المغرورين الذين ينصبون انفسهم دعاة للانسانية ..

وكان الاجراء الأول الذى اتخذته الشركة هو انها بدأت تخلق طبقة ارستقراطية بين العمال ..

ان العمال أيضا يمكن تفتيتهم الى طبقات تحارب كل طبقة الأخرى ..

وخلق الطبقة الأرستقراطية العمالية لا يستلزم أكثر من أن تنتقى الشركة فريقا منهم ، وترفع أجورهم وتعينهم رؤساء على بقية العمال ..

وهذا ما حدث ..

انتقت الشركة خمسة أو ستة من العمال العاديين ورفعتهم الى طبقة الرؤساء .. رفعت أجورهم ، ومنحتهم امتيازات كثيرة .. ورفعت أيديهم من التراب ، وأصبحت مهمتهم أن يقفوا فوق رءوس العمال ، ويفتتوا تجمعهم ، ويثيروا بينهم روح النفاق ، والضعف ..

ان الشركات تسيطر على العمال من خلال أصابع هؤلاء الرؤساء .. من خلال الطبقة الأرستقراطية العمالية ..

وقد بدأ هؤلاء الرؤساء فعلا فى تشتيت العمال من حول عادل .. واجتذابهم الى صفوفهم بطريق الرشوة حينا ، والتهديد حينا .. ولكنهم لا يستطيعون رشوة كل العمال .. ان رشوتهم جميعا بمثابة رفع أجورهم .. والشركة ترفض أن ترفع أجورهم .. والتهديد أيضا لا يمكن أن يشملهم جميعا .. ان التهديد لو شملهم جميعا فسيزداد التفافهم حول عادل ، وسيصبح من السهل عليه أن يفجرهم فى ثورة ..

ولذلك لم تستطع طبقة الرؤساء أن تجتذب اليها الا قلة من العمال وظلت الأغلبية ملتفة حول عادل ..

وبدأت المعركة تشتد ..

وتولى عبد العظيم القيادة بنفسه ، وهو جالس خلف مكتبه الوثير فى القاهرة .. ان هذه المعارك لا تترك قيادتها للمرءوسين ، انما يتولاها أصحاب الشركة أنفسهم .. انها معارك يتوقف عليها كل كيان الشركة ..

وفى الناحية الأخرى كان عادل يدير معركته وهو جالس على الأرض بين العمال .. يغنى أغانيهم ، ويمرح مرحهم ، وينظم لهم مباريات فى التحطيب ، ويملأ صدره بالتراب الذى يملأ صدورهم ..

واطلق عبد العظيم طلقة ..

امر بأن يشاع عن عادل انه جاسوس ، يعمل لحساب البوليس السياسى ، ولحساب أصحاب الشركة ..

وبدا عملاء عبد العظيم يطوفون بين العمال ويثيرون الهمسات .. لماذا يختلط بكم .. ماذا يهمه اذا اكلتم او لم تأكلوا .. من امتى الأفندية بيقعدوا على الأرض .. ده جاسوس .. ده كل يوم يسهر فى اودته ويكتب عن كل واحد منكم تقريرا !!

وتشكك العمال فى هذه الهمسات .. رفضوا ان يستجيبوا لها ، وفى الوقت نفسه لم يستطيعوا أن ينزعوها من رءوسهم .. فبداوا ينظرون الى عادل بحذر ، وبداوا يغلقون فى وجهه جانبا من قلوبهم .. ويناقشونه كأنهم يختبرونه لا كأنهم يستشيرونه .

ولكى تثبت الشركة هذه الهمسات فى ادمغة العمال ، اصدرت قرارا بمنح عادل علاوة ، بلا سبب ، وفى غير موسم العلاوات ..

ثم لكى تزيد هذه الهمسات تأكيدا ، أصدرت قرارا بنقل خمسة عمال من أقرب العمال الى عادل ، الى فرع الشركة فى الاسكندرية ليعملوا كحمالين ، ثم اطلقت اشاعة بأن هؤلاء العمال قبض عليهم فى القاهرة ، بناء على التقارير التى يرسلها عادل الى البوليس السياسى .

وبدات جبهة عادل تتفتت ..

بدا العمال يديرون ظهورهم لعادل كلما مر بهم ، ويسكتون عن حديثهم كلما جلس اليهم ..

وكف العمال عن المطالبة بتحسين طعامهم ، وبداوا يضيعون كل حديثهم فى مناقشة ، هل عادل جاسوس ، او لا ؟

وابتسم عبد العظيم فى مكتبه .. ابتسامة النصر .. وجاء الى ليقدم تقريره ، قائلا :

ــ أهو دلوقت نقدر نخلى عادل فى القصير ، واحنا مطمئنين .. الولاد دول متعبين ، انما عضمهم طرى .. ما يستحملوش خبطة !

ولكن عظم عادل لم يكن طريا الى الحد الذى تخيله عبد العظيم ..

انه لم ييأس ..

احس بالاشاعات التى تدور حوله ، وعرف لماذا منحته الشركة علاوة ، ولماذا نقلت خمسة من أصدقائه ، ولماذا انصرف العمال عنه .. عرف كل ذلك ، وجمع كل ما استطاع أن يجمعه من تفاصيل ، ثم سار فى خط مستقيم الى عشش العمال ..

وطلب منهم أن يستمعوا اليه ..

ورفض العمال .. رفضوا أن يجلسوا حوله ، كما تعودوا .. .. رفضوا حتى أن يبادلوه التحية ..

وجلس عادل على الأرض بجوار احدى العشش ، وأعلن أنه لن ينتقل من مكانه الا اذا استمع له العمال ، ولو اضطر أن يقضى الليل كله جالسا فى العراء ..

ومرت ساعات والعمال لا يلتفون حوله ، ويرفضون أن يستمعوا اليه .. وواحد منهم يمر أمامه على عجل ، ثم يسرع لينضم الى زملائه بعيدا عنه .. وآخر يطل برقبته من وراء جدار عشته ، ثم يسحب رقبته ، ويهمس لزملائه : « ده لسه قاعد !! » .. وعامل صغير لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، يتسلل على أطراف أصابعه ، ثم يقف أمام عادل وينظر اليه كأنه ينظر الى حيوان عجيب .. ان قلبه يهفو الى عادل .. لقد لعب معه مرة البصرة .. وعلمه التحطيب .. وتبادل معه نكات كثيرة .. وظل العامل الصغير واقفا ينظر الى عادل ..

قلبه يهفو اليه ، ورأسه ملىء بالاشاعات التى سمعها ، الى أن أشار اليه عادل :

ــ تعال اقعد يا محمد ..

وقال محمد فى صوته الصبى :

ــ ماأقدرش يا سى عادل .. احنا متفقين اننا ما نقعدش معاك !

وقال عادل وهو يبتسم فى هدوء :

ــ طيب تعال علشان اقول لك حاجة تبلغها للجماعة !

وتقدم العامل الصغير فى خطا متلصصة وجلس بجوار عادل ، وما كاد يجلس حتى خرج عامل ضخم من وراء احدى العشش ، وصرخ فى وجه الصبى :

ــ قاعد تعمل ايه هنا يا وله .. قوم فز .. جتك النار !

وقام الصبى مذعورا .. وجذبه العامل الضخم من ذراعه واختفى به خلف العشش ..

ولم يتكلم عادل ..

ظل جالسا فى مكانه لا يتحرك ..

والساعة بلغت الواحدة صباحا ..

والعمال لا يزالون ساهرين فى مكانهم يتداولون فى أمر عادل .. وبدأ حماسهم فى مقاطعته يفتر خلال الساعات الطويلة .

وبدأ حب الاستطلاع يسيطر على بعضهم .. انهم يريدون أن يسمعوه .. يريدون أن يعرفوا لماذا جاء .. وهو مصمم كل هذا التصميم على التحدث اليهم .. وبدأوا ينقسمون ، بعضهم يطالب بالاستماع اليه ، وبعضهم يطالب بالاستمرار فى مقاطعته حتى لو ظل جالسا فى مكانه طول عمره ..

وأخيرا اتفقوا على أن يرسلوا الى عادل رسولا من بينهم ليستمع الى أقواله ..

ورفض عادل أن يقول كل ما عنده للمندوب ، انما اكتفى

بأن يقول له : ان من حقه أن يدافع عن نفسه أمام أصدقائه العمال ، قبل أن يصدروا حكمهم عليه .. وهم لن يخسروا شيئا بالاستماع اليه ..

وعاد المندوب الى زملائه ..

وتناقشوا طويلا .. ثم تغلب انصار الاستماع الى عادل .. انهم فعلا لن يخسروا شيئا بالاستماع اليه ..

وخرج العمال من مكانهم الواحد تلو الآخر .. وانعكست ظلالهم فوق الأرض وفوق جدران العشش ، كأنها جيوش من الوهم تزحف نحو أمل بعيد .. والتفوا حول عادل صامتين .. بعضهم جلس على الأرض ، وبعضهم ظل واقفا .. وعيونهم تلمع فى ضوء القمر من فوق وجوههم السمراء .. عيون تتحدى ، وعيون غاضبة ، وعيون مشفقة ، وعيون عابثة ضاحكة تستخف بالأمر ولا ترى منه الا موضوعا مسليا لتمضية سهرة المساء ..

وطال الصمت ..

صمت ثقيل ..

ثم تكلم عادل فى صوت بطىء هادىء :

ــ أنا سمعت انكم بتقولوا عنى انى جاسوس ..

وساد الصمت .. لم يكن العمال يتوقعون أن يواجههم عادل بهذه الصراحة ، والبساطة ..

وأخذوا يتبادلون النظرات .. وتنحنح بعضهم ، وسعل أحدهم سعالا حادا .. وطالت فترة الصمت .. ثم انطلق العامل عبد التواب محمود يصيح فى حدة ، وفى غضب مفتعل :

ــ ايوه انت جاسوس ..

ونظر اليه عادل ، وابتسم ابتسامة ساخرة ..

وقال الريس عبد الفتاح وهو عامل قديم ورع :

ــ الحقيقة الكلام ده سمعناه يا سى عادل افنــدى .. وماحبناش نصدقه .. انما ..

وسكت الريس عبد الفتاح ..
وقال عادل وهو ينظر اليه فى احترام :
ـــ انما ايه يا ريس .. ايه الدليل على انى جاسوس .
وانطلق العامل عبد التواب صارخا :
ـــ الدليل .. هو فيه دليل أكتر من كده ؟ .. ده انت وديت خمسة منا المعتقل .. سفرتهم من هنا ، وانقبض عليهم فى مصر ..
ونظر اليه عادل فى احتقار وقال :
ـــ الخمسة دول ما انقبضش عليهم .. دى اشاعة مطلعاها الشركة علشان تفرقنا عن بعض .. علشان تقنعكم بأنى جاسوس .. وآدى تلغراف جاى لى من زملائنا الخمسة ..
واخرج عادل ورقة برقية من جيبه ، وقرا فيها : « وصلنا الاسكندرية سالمين واستلمنا العمل ، تحياتنا الى جميع الاخوان » ..
ثم مد يده بالبرقية الى الريس عبد الفتاح قائلا :
ـــ خد يا ريس .. اقرا بنفسك .. واذا ما صدقتوش ، اسألوا مكتب التلغراف ، يوريكم الأصل ..
وسرت همهمات بين العمال .. وتجمعت رءوسهم فوق راس الريس عبد الفتاح ، يقراون معه البرقية ..
ثم قال الريس عبد الفتاح وهو يعيد البرقية الى عادل :
ـــ الحقيقة احنا صدقنا انهم انقبض عليهم ..
ورد عادل بسرعة :
ـــ يقدر اى واحد فيكم يبعت لهم جواب ولا تلغراف علشان يتأكد زيادة .
وقال احد العمال :
ـــ مصدقينك ..
وقال آخر :

— حقك علينا يا سى عادل .. الحقيقة الواحد مش عارف يصدق مين ولا مين .

وانطلق العامل عبد التواب وقد بدا صوته يرتعش فى انفعال :

— انت بتقول ان الشركة هى اللى بتشيع عنك انك جاسوس .. ولما الشركة زعلانه منك قوى كده ، كانت بتصرف لك علاوة ليه .. انت لسه قابض علاوة الشهر اللى فات ، وكلنا عارفين .. ولا ايه يا جدعان ؟ !

وهز العمال رءوسهم فى صمت ..

وقال عادل :

— الشركة صرفت لى علاوة ، علشان تخليكم تصدقوا انى جاسوس .. لو كنت جاسوس صحيح ما كنتش صرفت لى علاوة .. كانت غطتنى قدامكم ..

وقال عبد التواب :

— لا يا شيخ .. بأه كده ؟ !

وقال عامل من بعيد :

— سى عادل بيتكلم كلام معقول ..

وقال الريس عبد الفتاح :

— على كل حال .. احنا نفضنا من الموضوع ده ..

وقال عبد التواب :

— يعنى الشركة ما كنتش تقدر ترفدك بدل ما تصرف لك علاوة ؟ ..

— يعنى اقول لهم ارفدونى ؟ .. يمكن الشركة ما رضتش ترفدنى علشان خاطركم .. علشان ما تعملوش حركة ، لما تشوفونى اترفدت بسببكم ..

وقال احد العمال :

— والله انا شايف ان سى عادل مظلوم ، الراجل عايش معانا ، واكل ويانا عيش وملح ، وما شفناش منه الا كل خير ..

وباقى الأفندية اللى قاعدين على المكاتب نازلين فينا خصومات ..

وعاد الريس عبد الفتاح يقول :

ـــ أنا باقول نفضنا من الموضوع ده ..

وقال عادل :

ـــ انا عشت معاكم لأنى طول عمرى عايش مع العمال .. كنت عايش معاكم فى شبرا .. واخويا عامل .. وعمى عامل .. وابن عمى عامل .. انا تربية عمال .. وأنا مش عايز منكم حاجه .. كنت اقدر أوفر على نفسى التعب وما اجيش هنا الليلة .. انما ما هنش على انى أخرج من وسط عيلتى ، وانا متهم منهم .. متهم بتهمة حقيرة وسخة .

وقال عامل يقف بجوار عادل :

ـــ تعيش يا سى عادل ..

وقال العامل عبد التواب فى حقد .

ـــ احنا حنبتدى نخطب .. ياللا بينا يا رجاله .. الفجر قرب يطلع علينا ..

وهب عادل واقفا وصاح كأنه يسد بصوته الطريق :

ـــ استنا شويه يا عبد التواب .. الخطبة لسه ما خلصتش ..

ثم التفت الى باقى العمال قائلا :

ـــ أحب اقول لكم ان اذا ما كنتش أنا جاسوس .. ففيه بيننا جاسوس غيرى ..

وارتفعت الهمهمات ..

وقال الريس عبد الفتاح :

ـــ ما بلاش السيرة المقندلة دى ..

وقال عادل فى قوة :

ـــ لازم نعرف من دلوقت مين معانا ومين علينا .. احنا ما فكرناش نحارب الشركة .. انما الشركة هى اللى بدأت تحاربنا .. بتحاربنا علشان طلبتم أنها تصرف لكم أكل نضيف ..

والشركة لها جواسيس بينكم .. الجواسيس دول هم اللى اشاعوا انى جاسوس .. هم اللى حبوا يبعدونى عنكم .. فاكرين انى انا باحرضكم عليها .

صاح فريق من العمال :

ــ قصدك مين .. مين الجواسيس دول ؟ ..

وصرخ عبد التواب :

ــ اتكلم عن نفسك بس يا سى عادل .. مالكش دعوة بعيرك .. السلام عليكو .. الحكاية زادت قوى .. السلامو عليكو يا جدعان ..

ورفع عادل صوته :

ــ عندك يا عبد التواب .. اسمح لى بسؤال واحد .. انت يوميتك كام ؟

والتفت اليه عبد التواب ، وهو يخطو خارج الجمع ، وقال :

ــ وانت مالك .. ما انت عارف بتسأل ليه ؟ !

وقال عادل :

ــ بس ما تجريش .. اقف مكانك وجاوبنى !

وقال عبد التواب وقد بدا وجهه يمتقع :

ــ انت فاكرنى خايف منك ؟ ..

وبدا العمال يحيطون بعبد التواب ، وعيونهم تتحفز كأنها فى انتظار مفاجأة .. وقال واحد منهم :

ــ ما تجاوب امال ..

وقال آخر :

ــ مالك يا عبد التواب .. مال وشك اصفر كده ؟ ..

وقال عبد التواب وهو يرتعش :

ــ يا عالم .. يا هوه .. باه تيجوا مع الافندى على انا ؟ .. ده انا واكلها معاكم ..

وصاح فيه عادل :

ــ جاوب على سؤالى .. جاوب يا عبد التواب ..

واجاب عبد التواب فى صوت خفيض :

ــ يوميتى تلاتين قرش .. عايز ايه باه ؟ !

وقال عادل وهو يقترب منه فى خطا ثابتة :

ــ ومحوش اد ايه يا عبد التواب ؟ ..

وقال عبد التواب وقد بدا صوته يذوب فى رعشته :

ــ محوش .. هو حد يقدر يحوش .. احوش منين ؟

قال عادل :

ــ وما خدتش علاوة من الشركة ؟

وقال عبد التواب فى ذل :

ــ ما خدتش ..

ثم رفع صوته قليلا كأنه يتعلق بآخر خيط من كرامته :

ــ انت فاكرنى زيك ، باخد علاوات من الشركة ؟ ..

ومد عادل اصابعه بغتة وقبض على صدر جلباب عبد التواب وجذبه اليه ، وقال له فى صوت عميق وعيناه مركزتان فوق وجهه :

ــ امال التلاتين جنيه اللى انت مخبيهم فى حشية مخدتك ، جبتهم منين !

وارتفعت همهمات العمال ..

وصرخ عامل :

ــ ما تتكلم يا عبد التواب .. ما ترد !

وقال آخر :

ــ تلاتين جنيه حته واحده !

وقال ثالث :

ــ يابن الفرطوس .. ده انت لسه مستلف منى حته بخمسه أول امبارح !

وقال رابع :

— ما هوه اللى كان بيقول على سى عادل انه جاسوس .. والتفت اليهم عادل قائلا :

— ما تزعقوش يا جماعة .. بلاش صوتنا يوصل للمكاتب .. اتكلم يا عبد التواب .

وقال عبد التواب :

— انت كداب .. أنا ما عنديش .. ما عنديش فلوس .. عمرى ما شفت تلاتين جنيه .. ما ..

وقاطعه عادل قائلا :

— يا ريس عبد الفتاح ، اختار خمسة من الرجالة ييجوا معايا أنا وعبد التواب .. علشان يتحققوا من كلامى ..

وقال الريس عبد الفتاح ، وهو يمصمص شفتيه كأنه يترحم على أخلاق الناس :

— ما بلاش .. أنا باقول نفضنا من السيرة دى !

وصاح أحد العمال :

— بلاش ازاى يا ريس .. لازم نعرف الحقيقة !

وتقدم عامل آخر قائلا :

— أنا آجى معاك يا سى عادل ..

وصاح الريس عبد الفتاح :

— اخوانا لو المكتب خد خبر ، حيطبقها على دماغنا .. أنا باقول نفضنا من السيرة دى !

وتقدم عامل آخر :

— وانا آجى معاكم ..

وصاح عبد التواب وهو يحاول أن يتملص من قبضة عادل :

— سيبنى .. باقول لك سيبنى .. انت مالكش حق تفتشنى .. بأى حق تفتشنى .. والله لاشكيك .. والله ..

ورفع عامل ضخم كفه الغليظة وهوى بها على قفا عبد التواب ، وهو يقول :

ـــ ما تسكت يا وله ..

وصاح عبد التواب :

ـــ جاى .. الحقونى .. حايموتونى .

وكتم عادل صوته بكفه ، وقال ملتفتا الى العمال :

ـــ مش عايزين زيطة .. ما حدش يرفع صوته .. خللى الحكاية بيننا ..

ثم التفتت الى اثنين من العمال ، واستطرد :

ـــ امسكوا معايا الواد ده .. ما تخلهوش يرفع صوته .. يالله بينا .

وتقدم عادل نحو عنابر النوم ومعه خمسة من العـــمال يجرجرون بينهم عبد التواب .. وقد سدوا شفتيه بكف غليظة ..

واتجه عادل مباشرة نحو « الفرشة » التى ينام عليها عبد التواب وامسك بوسادته ، ومزقها بيديه ، وأخرج من بين خيوط القش المحشوة به . أوراقا قيمتها ثلاثون جنيها ..

وحاول عبد التواب أن يتخلص من أيدى زملائه ، ويهرب .. فهوت كف غليظة مرة أخرى على قفاه ..

وانهار عبد التواب ..

واجهش بالبكاء ..

وركع على قدميه ، وتعلق بساقى عادل متوسلا :

ـــ انا فى عرضك يا سى عادل .. المسامح كريم يا سى عادل .. الشيطان كان اشطر منى .. حتعملوا فى ايه ؟ .. ماتموتنيش ..

وقال عادل :

ـــ ما تخافش ، مش حانعمل فيك حاجة : كفاية اللى حصلك ؟

وعاد عادل ورفاقه الى بقية العمال وهم يجرجرون بينهم عبد التواب .. ولوحوا أمامهم بالثلاثين جنيها التى استولوا عليها

.. وثار العمال .. وحاولوا ان يفتكوا بعبد التواب .. ولكن عادل صدهم .. واجلسهم حوله وقد اقنعهم بالهدوء .. ثم بداوا يتداولون فيما يجب عمله .. وانتصر راى عادل .. وكان رايه الا يعملوا شيئا .. ان يكتفوا بفضيحة عبد التواب بينهم .. وان يردوا اليه الثلاثين جنيها .. وهو لن يجرؤ على الاستمرار فى التجسس عليهم بعد ذلك .. ولكن عبد التواب رفض ان يأخذ الثلاثين جنيها .. ربما لانه خاف من طمع بقية زملائه فيه .. واتفقوا على ان يسلمها امانة للأسطى عبد الفتاح ، على ان يستمر فى اقناع الشركة بانه يعمل جاسوسا لحسابها ويبتز منها مزيدا من المال ، يسلمه امانة للريس عبد الفتاح ..

ولكن عبد التواب لم يكن الجاسوس الوحيد للشركة بين العمال ..

كان هناك جواسيس آخرون ..

وقد بذل عادل جهدا كبيرا حتى اكتشف جاسوسا واحدا ، ولكنه لم يستطع ان يكتشف الآخرين ..

ان الآخرين يقفون بجانبه ..

- ١٦ -

.. وجاءنا تقرير بكل ما دار فى تلك الليلة بين العمال .. كل كلمة قيلت ، وكل همسة ، عرفناها فى الصباح التالى ..

وواجهت الشركة مشكلة العامل عبد التواب ..

ماذا نفعل به ؟

هل نطرده ؟

لا .. ان طرده معناه اننا نتخلى عن اصدقائنا .. معناه اننا نلقى درسا على العمال ، حتى لا يتجسسوا لحسابنا ..

هل نبقيه بين زملائه ؟

لا ايضا .. ان وجوده لم تعد له جدوى ، بل اصبح خطرا علينا .. انه قد يفضح غيره من الجواسيس الذين يعملون لحسابنا ، ثم ان أذلال زملائه له هو اذلال للشركة ، وسيخاف بقية الجواسيس ، ، ويترددون فى تادية مهامهم .

ورغم ذلك فقد كنا مضطرين ان نبقى عبد التواب فى مكانه مدة من الزمن حتى تهدأ نفوس العمال من حوله ، وحتى لا تبدو الشركة كأنها تعترف بأنه كان جاسوسا لها .. وقد عاش عبد التواب هذه المدة يخضع فى ذل لزملائه .. كان يخافهم ، ويخاف الشركة فى الوقت نفسه .. وكانوا يعاملونه فى احتقار قاتل .. يرفضون أن يجلس بينهم لتناول اقداح الشاى بعد انتهاء العمل .. ويرفضون أن يشاركهم طعامهم .. ويبصقون على الأرض كلما

مر بهم .. والبعض يحلو له أن يصفعه على قفاه .. ثم يلقون عليه بجزء من أعمالهم .. تعالى يا واد يا عبد التواب شيل المقطف ده .. يا واد يا عبد التواب تعالى شيل عنى الفاس .. شيل يا ابن الفرطوس .. ثم صفعة على القفا ..

وعبد التواب يهمس فى أسى : حاضر .

ثم يحنى قفاه ..

وفجأة ، وبعد مرور حوالى شهرين ، أصدرت الشركة قرارا بترقية عبد التواب الى درجة ملاحظ عمال ، ورفعت يوميته الى خمسين قرشا ! ثم نقلته الى منجم آخر يبعد عن المنجم الذى كان يعمل به ..

وارتفعت همهمات العمال ..

ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا .. وربما تمنى الكثيرون منهم فى دخيلة نفوسهم أن يحظوا بالترقية التى نالها عبد التواب حتى لو اشتغلوا جواسيس للشركة ..

وعاد الى العمال حديث التجسس .. كان هذا الحديث قد انتهى منذ أن افتضح أمر عبد التواب بينهم .. كانوا قد اقتنعوا بأنهم طهروا صفوفهم ، وأنه لم يكن بينهم جاسوس الا عبد التواب .. فلما أبعد عبد التواب عنهم ، بدأو يبحثون عن جاسوس آخر .. ان طبيعة البشر هى التشكك بعضهم فى بعض .. واذا لم يجدوا بينهم حقيقة ، اشتد هذا التشكك .. وقد كان عبد التواب هو الحقيقة التى اكتشفها العمال وحصروا حولها أذهانهم ، فلما أبعدت عنهم هذه الحقيقة ، بدأ كل منهم يبحث فى ذهنه عن جاسوس آخر بين زملائه .. عن حقيقة تصور شكوكه ..

والشركة ترحب بهذه الشكوك التى تثور بين العمال بعضهم وبعض ..

وقد يكون للشركة خمسة جواسيس ولكن الشكوك ترفع عددهم الى خمسين .. ويصبح كل عامل يشك فى زميله ،

ولا يطمئن اليه ، ولا يشركه فى سره وامانيه ، ولا يتعاون معه فى هدف .. وبذلك تتفتت وحدتهم ، وتسكت الهمسات ، ويضعف تبادل الآراء بينهم .. وتصبح الشركة هى الأقوى !

ان الجواسيس الذين يعملون لحساب الشركة فعلا ، أقل نفعا من الجواسيس الذين يخلقهم خيال العمال .. بل ان الشركة قد لا تكون فى حاجة الى جاسوس ، الا ليخلق حوله جوا وهميا من التجسس ، يخيف العمال ويشتتهم .

وقد حاول عادل أن يبدد هذه الشكوك التى تسيطر على أدمغة العمال .. كان يقول لهم انهم يجب أن يتحدوا وأن يطمئنوا بعضهم الى بعض ، والا يتهموا احدا الا اذا كان فى يدهم دليل الاتهام ..

ولكن العمال ظلوا رغم هذا يتبادلون الشكوك ، وان كانت شكوكهم قد تبددت من حول عادل ..

ماذا نفعل بعادل ؟

اننا لم نعد نستطيع أن نطرده من الشركة .. ان طرده معناه ان نجعل منه شهيدا .. بطلا .. وسيثير بين العمال معانى البطولة والزعامة .. وسيحاولون بعد طرده أن يبحثوا لأنفسهم عن بطل آخر .. عن زعيم آخر .. ان خيال الناس يبحث دائما عن جاسوس ، وعن بطل !!

والشركة لا تريد للعمال بطلا من بينهم .. ان عادل على الأقل ليس عاملا .. ووجوده يحجب ظهور بطل من العمال ..

ولذلك بقى عادل فى وظيفته .. واكتفى مدير الشركة بأن استدعاه ، وحذره فى رفق من اختلاطه بالعمال ..

وعبد العظيم فى مكتبه بالقاهرة يكاد يجن .. انه لم ينتصر على عادل .. انه لم يكسب المعركة بعد .. ان عادل أقوى منه ، واقوى من ذكائه ، واقوى من كل تجاربه ..

وانا شامت فى عبد العظيم .. واشعر بسعادة غامرة وانا

أراه حائرا فى محاربة عادل ، لا يعرف كيف يمسك بعنقه ..

وقلت له وهو يقدم لى تقريره عن الحالة فى شركة القصير ، وابتسامتى تكاد تفضح شماتتى فيه :

— يظهر ان الجدع عادل ده ، عضمه مش طرى زى ما كنت فاكر !

قال وهو يسدل جفونه على عينيه حتى يخفى هزيمته :

— انا ما كنش من رايى انه يتعين فى القصير خالص .. سعادتك اللى أمرت بكده !!

قلت وانا ادعى الغضب :

— يعنى ايه .. قصدك ايه .. يعنى نسيبه يبوظ الشركة ولا ايه ؟ !

قال :

— مش قصدى .. انما لو نقلناه مصر .. يبقى أريح لنا !

قلت وانا ابتسم فى سخرية :

— والله خسارتك يا عبد العظيم .. باه عايز تنقله مصر .. يعنى ما بقاش لنا نفوذ فى القصير .. ده احنا لو جبنا كل واحد تابعنا لمصر ، مش حيفضل فى الشركات كلها حد .. قوم اتجدعن ، وشوف لك طريقة معاه ..

ومط عبد العظيم شفتيه كأنه يهم ان يبصق ، وعقد ما بين حاجبيه ثم خبط مسندى المقعد بكفيه وقفز واقفا ، وسار نحو الباب يدق الأرض بقدميه ، كأنه فى طريقه لارتكاب جريمة قتل ..

وأطلقت وراءه ابتسامة كبيرة .. ابتسامة التشفى !

وقد تعمدت الا اضع لعبد العظيم خطة يسير عليها فى معاملة عادل .. تعمدت الا اشاركه بأفكارى .. فرجل الأعمال الناجح هو الذى يترك معاونيه يقدمون له افكارهم وخططهم .. هو الذى يلقى على اكتافهم المسئولية كلها .. ولا يتدخل بأفكاره الا عندما يفشلون .. عندما تعجز رءوسهم عن التفكير ، وتعجز

أكتافهم عن حمل المسئولية .. اننا نشترى من معاونينا أفكارهم وخططهم التى يخدموننا بها ، فاذا اعفيناهم من التفكير ، فكأننا لم نشتر منهم شيئا .. كأننا ندفع لهم رواتبهم بلا مقابل ..

والواقع انى لم اكن جزعا على حالة الشركة فى القصير .. والتقارير التى كانت ترفع الى عما يجرى فى القصير ، ليست أبشع من التقارير التى ترفع الى عما يجرى فى بقية الشركات .. ان فى كل شركة انسانا مثل عادل يحاول أن يكون بطلا ، ويتشدق بالكلمات الضخمة ، ويثير العمال .. والعمال فى كل الشركات لهم مطالب ولهم متاعب .. ان هذه المتاعب جزء من اعمال الشركات ، ولها فى كل شركة ادارة خاصة ، وميزانية خاصة ..

وقد استمر عادل فى نشاطه ، دون أن يأبه بتحذير مدير الشركة له ..

وكانت خطوته التالية أن اخذ يحض العمال على تكوين نقابة لهم ..

نقابة !!

اننا نكره النقابات ..

هل تدرين ما هى النقابة ؟ انها شركة تتكون داخل الشركة .. شركة ليس لى حق ادارتها ولا السيطرة عليها .. شركة كاملة لها مجلس ادارة ، ولها سياسة وأهداف ، ولها مصالح .. ورأسمالها يتكون من أذرع العمال وجهدهم وعرقهم ..

وكلما تكونت نقابة لعمال احدى شركاتى ، احسست كأن ذراعى انفصلا عنى ، ووقفا أمامى يناقشانى الحساب .. لماذا تحركنا هكذا .. لماذا ترفع احدنا وتخفض الآخر .. لماذا تجهدنا .. اننا اليوم لا نريد أن نعمل .. نريد اجازة .. و .. و .. ثم تواجهنى ذراعاى بعدة مطالب ، والا رفضتا العمل ، ورفضتا اطاعة أوامرى ..

هل تستطيعين تصور هذا الاحساس .. انه شىء أشبه

بمرض يسميه الأطباء « مرض الحساسية » واسمه باللاتينية « الرجى » .. ويشعر المريض به بحساسية مرهفة فى أحد أجْزاء جسمه .. كأن يحس دائما بأنفه .. أو بلسانه .. انك تعرفين أن انفك قائم فوق وجهك ، ولكنك لو احسست بوجود هذا الأنف ، واستمر احساسك به ، لأصبح هذا الاحساس مرضا .. مرضا فظيعا يسبب لك حالة عصبية تربك حياتك كلها ..

وعندما تتكون نقابة فى احدى الشركات ، يحس صاحب الشركة بالعمال .. انه يعلم أن العمال كانوا موجودين فى شركته قبل تكوين النقابة ، ولكنه لا يحس بهم الا بعد تكوين النقابة .. ويلازمه هذا الاحساس فى كل تفكيره ، وفى كل تصرفاته .. ما رأى النقابة فى كذا .. وما رأيها فى كيت .. وماذا سيكون موقفها ازاء هذا التنظيم .. و .. و .. ويصبح هذا الاحساس مرضا لصاحب الشركة ، يسبب له ولشركتـــه حالة عصبية مستمرة ، تحتاج فى كل يوم الى علاج ..

لذلك نكره النقابات العمالية .. ونحاربها ..

وليس فى العالم كله صاحب شركة ، يرحب بهذا المرض أو يستسلم له ..

وقد استطاع عادل أن يجمع توقيع عشرين عاملا على طلب تكوين نقابة باسم « نقابة عمال شركة مناجم القصير » .. هو الذى كتب صيغة الطلب ، ثم أعاد كتابته الريس عبد الفتاح بخط يده ، ثم طاف عادل بنفسه يجمع توقيعات العمال .. ثم أرســل الطلب فى خطاب موصى عليه الى وزارة الشــئون الاجتماعية .

ووصلت الينا هذه الأنباء ..

وكان من السهل علينا أن نترك هذا الطلب ينام فى درج الموظف المختص بوزارة الشئون .. اننا ندفع مكافأة شهرية

للموظف المختص حتى ينام فوق مكتبه ، وتنام معه كل الشكاوى والمطالب التى يرسلها اليه عمالنا ..

وكنا نعتقد أن اقامة عادل فى القصير ، ستحول دون ملاحقته لهذا الطلب فى وزارة الشئون ، ولكنه كلف صديقا له محاميا يعمل فى القاهرة ، بملاحقة الطلب ، وأرسل اليه توكيلا باسم العمال الموقعين ..

ولم يكن هذا المحامى أيضا يستطيع أن يوقظ الموظف النائم ، أو يوقظ الأوراق التى فى درجه .. ان ما ندفعه له يكفيه لأن ينام الى الأبد .. ورغم ذلك فقد كنا فى حاجة الى حجة قانونية نعرقل بها طلب تكوين هذه النقابة .. لا لنواجه بها وزارة الشئون الاجتماعية .. ان الوزارة كما قلت لك نائمة .. بل لنواجه بها العمال فى القصير حتى يسكتوا عن مطلبهم ، وحتى لا يتهموا الشركة بمحاولة عرقلة تكوين نقابتهم .

ولجأ عبد العظيم الى خطة قديمة ..

أوعز الى موظفى الشركة بأن يقدموا طلبا آخر الى وزارة الشئون بتكوين نقابة لهم باسم « نقابة موظفى وعمال شركة مناجم القصير » .. وقدم هذا الطلب فعلا الى الوزارة .. وعرف به العمال .. وانقسم الموظفون والعمال .. العمال يريدون نقابة لهم .. والموظفون يريدون نقابة لهم ينضم اليها العمال .

ومن خلال هذا الانقسام أصبحت الشركة بريئة .. لا يستطيع أحد أن يتهمها بعرقلة تكوين النقابة ..

وأصبح الموظف المختص فى وزارة الشئون ، بريئا أيضا .. فهو لا يستطيع أن يسمح بتكوين نقابتين يشترك فيهما عمال شركة واحدة .. ان القانون يمنعه من ذلك ..

وأصبح عادل حائرا .. حاول أن يوفق بين الموظفين والعمال ، فلم يستطع .. فقد كان الموظفون يكرهونه ، لأنه يتباعد عنهم ، ويتعالى على عقلياتهم ، ويعتبر نفسه أرقى ثقافة

منهم .. وكانوا يكرهونه على الأخص لالتفاف العمال حوله .. كانوا يكرهونه لأنه زعيم .. ولأنهم ليسوا زعماء !

ومضت شهور طويلة والموظفون والعمال يتحدثون فى موضوع النقابة . ويعقدون اجتماعا فاشلا بعد اجتماع فاشل .. والشركة مطمئنة هادئة .. لا احد يتهمها .. ولا أحد يشك فى نياتها ، وليس هناك ما يدعو الى التجمع فى وجهها .. انما الاتهامات والشكوك يتبادلها الموظفون والعمال .. ويتجمعون بعضهم فى مواجهة بعض ...

وعلى مر الأيام بدأ اليأس يدب الى قلوب العمال .. وبدأ حماسهم لنقابتهم يفتر ويتحلل وتذروه رياح البحر الأحمر .

لم يعد عادل يستطيع أن يحتفظ بحماس العمال .. ان كل ما يقوله لهم ليس فيه جديد .. ولا يثير الحماس .. ان العمال يريدون شيئا جديدا .. يريدون شيئا ملموسا .. يريدون أن ينجحوا فى مطلب من مطالبهم ، حتى يتحمسوا لمطلب آخر ..

لقد هزم عادل ..

هزمه عبد العظيم فى معركة النقابة .

ولكن عادل لم ييأس ..

سكت عن حديث النقابة ، ولكنه لم يسكت عن اثارة العمال .. انه لم يكف عن الاختلاط بهم .. انه دائما معهم .. يغمس يديه فى التراب الذى يغمسون فيه أيديهم ، ويخوض فى التراب الذى يخوضون فيه بأقدامهم ، ويملأ صدره بالتراب الذى يملأ صدورهم .. لقد اصبح جزءا من حياتهم ..

وقد مضت الشهور ، وهو هادىء .. يشرب مع العمال الشاى ، وينظم لهم مباريات التحطيب ، ويتبادل معهم النكات ، ويشترك مع الريس عبد الفتاح فى حل المشاكل الفردية التى تثور بينهم ..

وفجأة خرج عليهم بمشروع جديد .

ولم يبد حديثه فى مبدا الأمر كأنه يتحدث عن مشروع .. كان جالسا معهم بين عششهم يتناول معهم اكواب الشاى فى احدى الأمسيات .. وقال العامل حسنين ابو على وهو يصب الشاى :

ــ النهارده الكانتين رفع سعر باكو الشاى .. بقى بحته بخمسة ، حتة واحدة ..

وقال العامل عمران :

ــ يا سيدى ما تدقش .. يعنى هيه جت [illegible] اى !

ورد عادل بسرعة :

ــ باكو الشاى بيقف على الكانتين بتلاته تعريفه ، يعنى بيكسب منا فى الباكو الواحد تلاته صاغ ونص ..

وقال عمران :

ــ من حقه يتحكم .. ما هم عارفين اننا نموت لو ماشربناش شاى .. وحانجيب الشاى منين فى المنفى ده ، الا من عندهم ؟ ..

وقال الريس عبد الفتاح :

ــ حقهم يعملوا تسعيرة زى اللى فى مصر ..

وقال حسنين ابو على :

ــ وهيه مصر حاسة بينا .. لما حيعملوا زيها !

وقال عادل فى هدوء :

ــ ويعملوا تسعيره ليه ؟ .. ما احنا نبعت نجيب الشاى بتاعنا من السويس .. يوصل لغاية هنا الباكو بتلاته تعريفه ..

وقال عامل يجلس بعيدا :

ــ يعنى كل واحد يجيله الشاى فى جواب ؟

وقال عمران :

ــ انا حابعت لأمى اوصيها على شوية شاى ..

وقال الريس عبد الفتاح :

— وحانجيب الشاى ازاى يا سى عادل .. يعنى نفتح كانتين مخصوص على حسابنا ؟ ..

وقال عادل فى حماس :

— أيوه .. نفتح كانتين على حسابنا .. كل واحد فيكم يحط قرشين ، نبعت نجيب بيهم صندوق شاى .. واللى عايز ، يشترى من الصندوق ده .. بتلاته تعريفة الباكو .. ونلم الفلوس ونبعت نجيب صندوق تانى .. وبالشكل ده الكانتين بتاع الشركة ما يقدرش يتحكم فيكم ..

وقال حسنين ابو على :

— طيب والصابون .. ده الكانتين بيبيع الحته بسته صاغ ! ..

ورد عادل بسرعة :

— ونبعت نجيب صابون .. وسكر .. وقماش .. ولا الحوجة لحد !

وسكت العمال كأن الفكرة قد اصبحت اخطر من أن يناقشوها ..

ثم قال الريس عبد الفتاح :

— ودى تبقى ازاى الحكاية دى .. يعنى تتعمل ازاى ؟ ..

وقال عادل يوضح فكرته :

— نعمل جمعية .. لها مجلس ادارة منكم .. ونحط فى الجمعية دى خمسين جنيه مقسمة لميت سهم .. كل سهم تمنه خمسين قرش . يعنى لو كل واحد وفر من يوميته خمسة صاغ ، يقدر بعد عشر أيام يشترى سهم .. والجمعية دى تبعت واحد السويس يشترى البضاعة .. وتيجى تبيعها هنا بتمنها زائد المصاريف .. وماحدش له حق يشترى الا أصحاب الأسهم .. وبعدما نبيع البضاعة ، نبعت نجيب بالفلوس بضاعة غيرها .. وهكذا ..

وظل العمال ساكتين ..

لقد بهرتهم الفكرة ..

وقال الريس عبد الفتاح :

ــ والله كلامك معقــول يا سى عادل .. بس الرك على التنفيذ !

وقال عادل :

ــ التنفيذ سهل

وقال عمران :

ــ يعنى حا نفتح دكان ؟ ..

وقال عادل :

ــ مش ضرورى دكان .. البضاعة تنحط فى اى بيت .. وبعد ما الفكرة تمشى نبقى نطلب من الشركة تدينا حتة ارض تبنى عليها دكان ..

والتفت الريس عبد الفتاح وقال :

ــ ايه رايكم ياولاد ؟ ..

وقال حسنين ابو على :

ــ انا محوش خمسين قرش .. مستعد احطهم .. ويا راحم يا جم !!

وقال عبد الرحمن الحجاوى :

ــ مش بس نعرف البضاعة حاتيجى ازاى ؟

وقال عادل :

ــ تيجى زى ما اى حاجة بتيجى .. تتشحن على المركب !

وقال عبد العظيم مهران :

ــ والفلوس حتبقى مع مين ؟

ورد عادل بلا ملل :

ــ مع مجلس الادارة ..

وهم عامل آخر ان يتكلم ، ولكن عادل قاطعه قائلا :

ــ اذا كنتم موافقين انتخبوا مجلس الادارة دلوقت .

وقال عامل :

— مش بس لما نفهم الاول ..

ورد عادل :

— يبقى مجلس الادارة يفهمكم .. ما تدفعش الا لما تفهم !

واغرت كلمة الانتخاب عقول العمال ، فصاح واحد منهم :

— انا انتخب الريس عبد الفتاح ..

وقال آخر :

— وانا انتخبه مرتين .. تعيش يا ريسنا ..

وقال ثالث :

— مين المرشحين ؟

وقال عمران :

— كلنا مرشحين .. انتخب اللى يعجبك !

وفى نفس الجلسة تم انتخاب مجلس الادارة برياسة الريس عبد الفتاح .. وعين عادل مستشارا للجمعية .. وبدا فى جمع النقود مقابل اسهم ، وهى اوراق مكتوبة بخط اليد ..

هكذا بكل بساطة ..

انهم يكونون جمعية تعاونية .. دون أن يعرفوا ان ما يفعلونه هو تكوين جمعية تعاونية .. وان الجمعيات التعاونية انشئت للقضاء على طبقة الوسطاء .. على طبقة التجار .. وان التجار الذين يبيعون الشاى والسكر والصابون والقماش لعمال شركة القصير .. هم نحن .. اصحاب شركة القصير انفسهم ..

وكانت الشركة هى التى تملك « الكانتين » وهى التى تديره .. وكانت تربح من ورائه .. تربح ما يوازى اجور العمال كلهم تقريبا .. فالعمال هناك لا يفعلون بأجورهم الا ان يعيدوها الينا تقريبا .. فالعمال هناك لا يفعلون شيئا بأجورهم الا ان يعيدوها الينا عن طريق « الكانتين » ..

وكنا من خلال هذا « الكانتين » نزداد تحكما فى العمال ..

تتحكم فى مزاجهم بسيطرتنا على الشاى والسجائر التى نبيعها لهم .. ونتحكم فى راحتهم بسيطرتنا على الصابون وكل لوازم حياتهم التى لن يجدوها الا عندنا .. فى « الكانتين » .. وبفضل هذا الكانتين كنا نداين كثيرا من العمال ، وبفضل هذا الدين كنا نملى عليهم شروطنا ونقيد اقدامهم فى سلاسل الشركة .. ان هذا « الكانتين » هو اقوى مظاهر سيطرة الشركة على العمال ..

وعادل يريد ان يحرر العمال من سيطرتنا ..

هكذا ، وبكل بساطة ..

كأننا غافلون .. كأننا كونا شركاتنا بغفلتنا !!

وارسل مدير الشركة الى عبد العظيم تقريرا كاملا بكل ما دار فى هذا الاجتماع .. ارسله مع مندوب خاص .. وهو لا يهتم كل هذا الاهتمام الا اذا حدث حادث خطير .. وهذا حدث خطير !

وقرر عبد العظيم ان ينتظر ، الى ان يجد ثغرة ينفذ منها ليحطم هذه الجمعية الناشئة ، ويحطم معها عادل ..

كان يستطيع ان يفض هذه الجمعية باشارة من اصبعه ، فان انشاء مثل هذه الجمعيات يتطلب اذنا خاصـــا من وزارة الشئون ، والعمال لم يحصلوا على هذا الاذن .. ولكن عبد العظيم لم يكن يريد ان تقف الشركة موقفا صريحا فى محاربة هذه الجمعية .. لقد علمته التجارب ان محاربة العمال حربا صريحة تنتهى غالبا بخسارة الشركة ، حتى لو خسر العمال ايضا .. ان هؤلاء العمال عندما يثارون يصـــبحون كقطيع من الثيران الهائجة العمياء ، يحطمون فى طريقهم كل شىء حتى لو اصطدموا بحاجز من السكاكين ينحرهم جميعا .

وانتظر عبد العظيم ..

انتظر طويلا ..

وتم تكوين الجمعيه ، وغطيت اسهمها .. جمع العمال من

بينهم خمسين جنيها . وقرروا أن تكون أول أعمال الجمعية هى استيراد صندوق شاى . وصندوق سكر .. وبدأوا يتناقشون فى ارسال مندوب عنهم لشرائهما من السويس .. ولكنهم وجدوا أن نفقات سفر المندوب وعودته ، قد ترفع ثمن باكو الشاى الى أكثر مما قدروه .. كما أنهم لم يجدوا شخصا يطمئنون اليه يستطيع أن يحصل من الشركة على اذن بالتغيب عن العمل .. فاقترح عليهم عادل أن يرسلوا النقود الى صديق له فى السويس . وهو يتولى شراء الشاى والسكر ، ويشحنهما الى القصير .

ووافقت الجمعية ..

وتسلم عادل من الريس عبد الفتاح عشرة جنيهات ، قام بارسالها الى صديقه عن طريق البريد ، مع خطاب يشرح له فيه مهمته ..

وعرف عبد العظيم اسم صديق عادل .. عن طريق مكتب البريد .. فمكتب البريد فى القصير خاضع للشركة أيضا .

وفى السويس ، وضع هذا الصديق تحت رقابة أعوان عبد العظيم .. تتبعه الأعوان عندما اشترى صندوق الشاى وصندوق السكر .. وتتبعوه عندما قام بشحنهما على المركب المبحرة الى القصير ..

والعمال فى القصير ، يخرجون من المناجم ، ويجتمعون ليتحدثوا عن صندوق الشاى والسكر .. كأنهم يتحدثون عن أمل كبير .. عن كل آمالهم .. كأن كلا منهم فى انتظار حبيبه ..

لم يكن هذا الصندوق ، مجرد صندوق شاى وسكر .. كان أكثر من ذلك لقد جعل منه عادل شعارا للتحرر . شعارا للعمل الجماعى .. شعارا للزهو والاعتزاز بالنفس !

ووصلت المركب التى عينها عادل .. وذهب العمال فى موكب كبير يتقدمه الريس عبد الفتاح لاستقبال الصندوق .. كان بعضهم يرتدى أزهى حلله ، كأنه ذاهب فى استقبال عروسه ..

وكان بعضهم يحمل على وجهه امارات الجد والاهتمام . كأنه كبر فجأة واصبح انسانا مهما ..

وسألوا عن الصندوق ..

ولكن الصندوق لم يصل ..

مستحيل .. لا يمكن .. لابد أن هناك خطأ .. ان العمال لا يصدقون واخذوا يديرون أعينهم فى الصناديق التى تنزل من المراكب الى الرصيف ، لعلهم يعثرون على صندوق يحمل اسم الريس عبد الفتاح .. ولكنهم لم يجدوا .. كل الصناديق تحمل اسم الشركة .. شركتنا ..

وصعد عادل ومعه الريس عبد الفتاح واخذوا يدورون فى المركب كأنهم سيلتقون بالصندوق الضائع .. ثم تحدثوا الى القبطان .. وأطلعوه على بوليصة الشحن .. ولكن القبطان هز كتفيه بلا مبالاة .. انه لا يعرف قيمة هذا الصندوق .. ولا يعرف الآمال المتعلقة به .. وقال لهما فى برود : انه اذا كان لديهم شكوى فليقدموها فى مقر شركة البواخر ..

ونزل عادل والريس عبد الفتاح ..

وتطلع اليهما العمال فى لهفة .. وما كادت عيونهم تسقط على وجهيهما حتى ارتدت النظرات ، وارتخت الجفون ..

ان الصندوق لم يصل ..

لقد سرق خلال الطريق ..

سرقه عبد العظيم ..

سرقته أنا ..

وعاد الموكب ذليلا ورءوس العمال منكسة ، كأنهم يسيرون فى جنازة .. جنازة الأمل الكبير ..

ثم بدأت عيونهم تسقط فوق عادل .. عيون فيها يأس ، وفيها أمل خائب ، ولا تخلو من اتهام ..

وهمس عامل فى أذن زميله :

ــ آدى آخرة اللى يمشى ورا العيال .
وقال آخر فى صوت خفيض :
ــ تلاقى الجدع اللى فى السويس لهف القرشين ..
وقال ثالث :
ــ دى شغلانه كبيره .. ما احناش قدها .. ده احنا عمال غلابه ، ايه اللى فهمنا فى التجارة ..
وقال رابع :
ــ يكونش سى عادل بيضحك علينا .. ما هم الجماعة الأفندية دول مالهومش امان ..
ووصل الموكب الى مدينة العمال .. وجلس الريس عبد الفتاح على الأرض فى الفناء الواسع ، وجلس بجانبه عادل والتف حولهما بقية العمال ..
ومرت فترة صمت طويلة .. والعيون كلها تحط فوق وجه عادل كأنها جيش من الذباب ..
ومل العمال الصمت .. وبداوا يتنحنحون .. واصــوات سعال مفتعل ترتفع هنا وهناك .. والهمسات بدات تتجمع فى صوت كطنين الزنابير .. ثم ارتفع صوت عامل قائلا :
ــ يعنى الشاى ما وصلش يا جدعان .
ورفع الريس عبد الفتاح عينيه ونظر بهما الى الجمع الملتف حوله كأنه يأمرهم بالسكوت ، ثم مال بعنقه ناحية عادل وقال فى صوت وقور كأنه يفتتح جلسة التحقيق :
ــ تفتكر ايه اللى حصل يا سى عادل ؟
ورفع عادل راسه وقال فى قوة :
ــ حصل تخريب .. الشركة هربت الصندوق .. انتم ما تعرفوش الشركة تقدر تعمل ايه .. تقدر تعمل حاجات كتير .. والمشروع ده كان ضد صالح الشركة ، وكنت منتظر انها تحاربه .. انما مش بالطريقة الوسخه دى ..

وقال عمران وهو يدير وجهه عن عادل كأنه لا يريد ان يرى خيبة امله فيه :

ــ والشركة مالها فى الحكاية دى كمان .. هو كل حاجة نحشر فيها الشركه !

وقال آخر :

ــ احنا عايزين الكلام المفيد .. الصندوق ما وصلتش ليه ؟ !

وهب عادل واقفا على قدميه ، وقال فى حدة وقد شعر بالاتهام الموجه اليه :

ــ العشرة جنيه اللى استلمتهم من الجمعية ، حادفعهم من جيبى النهارده .. وحاسافر بنفسى اشوف ايه اللى حصل هناك .. وانما الجمعية لازم تفضل .. ولازم نحاول مرة تانيه .. لازم نكسب المعركة ..

ولم يجد عادل لكلامه صدى بين العمال ..

ظلوا ساكتين .. كأنهم يصفعونه بسكوتهم

وشق عادل طريقه بينهم ، وسار فى خطوات عصبية غاضبة الى بيته ..

وفى نفس المساء دفع للريس عبد الفتاح عشرة جنيهات ، ثم استأذن من الشركة فى اجازة عاجلة ، وسافر فى اليوم التالى الى السويس ..

ولم يجد هنـــاك اثرا لبصـــمات الشركة تدل على سرقة الصندوق ، وكل ما استطاعه ان رفع قضية على شركة البواخر .. باسم صديقه الذى تولى عملية الشحن ، مطالبا بالتعويض ..

وعاد عادل الى القصير يحمل صندوقا آخر .. صندوق شاى وسكر ..

ولكنه عاد متأخرا ..

لقد حل الريس عبد الفتاح الجمعية ، واعاد النقود الى

المساهمين .. وعاد العمال يخضعون لسيطرة « الكانتين » ..
وانتصر عبد العظيم مرة اخرى .. واستراح من شماتتى فيـــه ..

***

ومرت شهور ..

وجاءنى عبد العظيم يحمل فى يده خطابا ، وناوله لى وهو يقول فى سخرية .. كأنه يسخر منى :

ــ الأستاذ عادل ابتدا يبعت جوابات من جديد !!

واخذت الخطاب فى لهفة ..

انه خطاب من عادل اليك .. استولى عليه عم جابر البواب وسلمه لعبد العظيم .

وفتحته بأصابع مرتعشة ، واخذت اقرا سطوره بعينين ترتعشان .. بدقات قلبى .. انه لا يزال يحبك .. ولا يزال يأمل فى زواجك .. انه لا يستطيع ان يقنع نفسه بأنك تخليت عنه .. لابد أن هناك يدا ابعدت بينكما .. ويهدد ويثور ، ويعد بقطع هذه اليد .. ثم يقول لك فى اسلوبه العف الذى يلف به حبه :

« لقد هربت الى القصير لعلى انساك .. ولكنى وجدتك هنا .. وجدتك فى قلبى ، وفى الخلاء الواسع الذى اطلق فيه عينى ، وفوق قمة الجبل ، وبين أمواج البحر ، وعند الأفق ساعة الشروق وساعة الغروب .. لا .. انى لن استطيع ان انساك .. بل انى هنا اعمل من اجلك ، واحارب من اجلك .. ان الذى خدعك وخدع والدتك ليس فى القاهرة وحدها ، انه هنا فى القصير ايضا .. انه فى كل مكان من مصر .. وهو يخدع مصر كلها .. يخدعها فى أرزاقها وفى مستقبلها .. ان الذى فرق بينى وبينك ليس باشا واحدا .. انهم كل الباشوات .. وانى احاربهم هنا فى القصير ، وسآتى الى القاهرة لأحاربهم فى القاهرة ..

وسأصل اليك بعد ان اهزمهم جميعا ، واعود بك الى حينا .. الى شبرا .. و .. » ..

وعصرت الخطاب بين أصابعى ، كأنى أحاول ان اخنق كلماته .. ثم حاولت ان ابتسم ، ولكنى لم استطع ، وقلت لعبد العظيم فى صوت يحشرجه الغيظ :

ـ وايه أخبار سى عادل ؟ !

قال فى هدوء بعد ان لمح تأثير الخطاب على :

ـ عامل اضراب ..

وصرخت :

ـ اضراب .. اضراب ازاى ؟ !

قال وهو لا يزال محتفظا بهدوئه :

ـ حرض العمال على تقديم ثلاثة مطالب .. بيوت للعمال المتزوجين ، والسماح لهم باحضار عائلاتهم الى القصير .. ومنح كل عامل اجازة لمدة شهر ونصف فى العام بحجة ان الاجازة الاعتيادية تضيع فى الانتقال من القصير الى بلدة العامل .. ثم الخضار الطازج .. وقرر العمال منح الشركة مهلة ثلاثة اسابيع لاجابة هذه المطالب ، والا .. الاضراب .

قلت وأنا لازلت ثائرا :

ـ وناوى حضرتك تعمل ايه ؟

قال كأنه يغيظنى :

ـ أمر سعادتك ..

ـ يا اخى شوف لك طريقه تخلص من عادل ده .. اى طريقه !

ونظرت الى عبد العظيم بكل عينى .. نظرة هائلة !

ونظر الى عبد العظيم كأنه يحاول أن يكتشف ما وراء عينى ..

وفهم عبد العظيم ما اعنيه ..

وسكتنا نحن الاثنين . كأننا قد اتخذنا قرارا مخيفا . الجم السنتنا ..

هل فهمت ما فهمه عبد العظيم ؟

لقد فهم عبد العظيم انى آمره بقتل عادل ..

نعم .. القتل !!

لا تتعجبى .. ولا تصرخى هلعا .. ان الكثيرين من مثيرى الاضرابات يقتلون فى حوادث قدرية .. كأن تصدمهم سيارة .. او يسقطون من اعلى بناء .. او تفرم اجسادهم داخل آلة .. حوادث تبدو كمجرد قدر ظالم ، ولا يبدو من ورائها اثر للشركة .. بل ان الشركة عادة تقوم بدفع تعويض سخى لعائلة القتيل .. قتيل الشركة !

وللشركات منطــق انســانى يضطرها الى هذا الاجــراء العنيف .. ان قتل واحد يوفر قتل عشرات العمال .. فلو تم الاضراب فسيتدخل البوليس ؛ وتدور بينه وبين العمال معركة تنتهى بقتل اكثر من عامل .. ولكى ننقذ هؤلا العمال من القتل ، يجب أن ننقذهم من الاضراب ، يجب ان نقتل صاحب فكرة الاضراب والمحرض عليها ..

انه منطق .. منطق انسانى .

وقد كانت الاضرابات فى التصير اخطر منها فى اى مكان آخر .. فالحكومة لا تحس بما يجرى فى القصير ولو احست به لما اهتمت .. ان عقل الحكومات لا يستطيع ان يتسع ليشمل هذه المناطق النائية من ارض مصر .. ولو اعلنت القصير او واحة سيوه استقلالها لما عرفت الحكومة المصرية بالخبر الا بعد قراءة صحف الصباح .. ولذلك لم تكن الحكومة تستطيع ان تخيف العمال هناك .. انها لا تملك القوة الكافية لاخافتهم .. وما دام الاضراب ليس فى القاهرة ولا يثير بقية عمال الشركات ، فالحكومة سعيدة .. غاية السعادة .. والعبء كله يقع على الشركة فى

مقاومة العمال ، الى ان تصل قوات الحدود بعد اربعة او خمسة ايام ..

ورغم ذلك فلم تكن خطورة الاضرابات فى التصير هى التى جعلتنى اصدر امرى بالتخلص من عادل .. انما كان تحديه لى فى خطابه اليك .. احسست ساعتها ان المعركة اصبحت بينه وبينى شخصيا .. احسست فى كلماته بثورة كل الفقراء على .. احسست كأن كل الناس اصبحوا كعادل ، وكلهم يحتقروننى .. وكلهم لا يعترفون بقوتى ونفوذى .. فانطلقت فى صدرى طاقة الشر والبطش .. وقررت ان اقتله .. كأنى اقتل كل هؤلاء الناس الذين لا يحترموننى .. كأنى اقتل شيئا فى صـــدرى ؛ لا يحترمنى ايضا ..

امرت بقتله ..

وغادرت مكتبى قبل ان يغـــادره عبد العظيم ، وذهبت اليك .. كأنى خفت ان يأخذك منى عادل ، قبل أن يقتل ..

– ١٧ –

ودهشت عندما رايت امك .

ليست هذه هى تفيدة ..

ان المأساة حطمتها .. حطمت كل شىء فيها .. حطمت عظامها ، وحطمت كل خطوط وجهها وجسدها ، واصبحت كتلة ضخمة من العجين .. ليس فيها قطعة متماسكة ، وليس فيها قطعة صلبة .

وكانت جالسة على الأريكة تهتز وترتعش كالعجين الرخو .. وقد رفعت احدى ساقيها ووضعتها تحتها ، وانكشف عنهـا الثوب فبدا لحم الساق مهدلا كالعجين المسكوب .. عجين فى لون التراب .. وامامها على مائدة صغيرة ادوات الشاى .. ابريق صغير وفنجال ..

ورفعت راسها عندما احست بمقدمى .. ولمعت عيناها ببريق خاطف ، وهمت بالقيام من جلستها .. ولكنها لم تستطع ان تقوم ولم تستطع ان تحتفظ ببريق عينيها .. فعاد كل شىء فيها رخوا كما كان .. كل ما استطاعته ان جذبت طرف ثوبها فوق ساقها العارية ، وقالت فى كلمات مترنحة :

— انت جيت يا حسين .. وحشتنى !

واقتربت منها .. وجلست بجانبها على الاريكة .. وهبت على انفاسها مشبعة برائحة الخمر .. رائحة كثيفة كأنها شربت

برميلا كاملا .. ودققت النظر فيها ، كأنى افحص مريضا ..
ان وجنتيها ازدادتا عطنا ، اصبحتا كالبرقوق المعطن .. لا كالتفاح
المعطن .. وارتسمت فوقهما بقع غامضة سمراء .. ولاحت من
تحت الجلد شرايين رفيعة محتقنة كأنها شقوق فى حائط على
وشك الانهيار .. ليس وجنتاها فحسب .. بل ان انفها ايضا قد
احتقن من تأثير الخمر ، فبدا معطنا يكاد يسقط من فوق وجهها
.. وجفونها محتقنة معطنة .. وشفتاها معطنتان .. وذقنها
معطن .. واذناها معطنتان ..

واخذت اجيل عينى فوق الوجه المعطن ، وقلبى ينقبض ..
وشىء فى صدرى يتمزق .. لقد اشفقت عليها حقيقة .. شفقة
يشوبها كثير من التقزز والاشمئزاز .. كنت اتقزز منها ومن
نفسى .. ولكنى لم استطع رغم شفقتى ان افهم مأساتها ..
لم استطع ان اقدر ان هناك مأساة يمكن ان تحطم انسانا الى
هذا الحد .. هل الشرف له كل هذه القيمة عند هؤلاء النساء ..
نساء الطبقة الوسطى الصغيرة ؟

ربما ..

انهن لا يعتبرن انفسهن اكثر من متعة للرجل .. ليس
لديهن شىء يقدمنه سوى هذه المتعة .. فاذا قدمنها بلا زواج ،
اعتبرن انفسهن قد خسرن كل شىء .. خسرن الحياة كلها ..

ان حياتهن كلها معلقة بهذا المعنى الضيق للشرف .. ليس
للحياة معنى آخر .. ليس فيها شىء آخر .. ليس فيها سوى
امراة تعطى نفسها لرجل على يد مأذون ..

ربما كان هذا هو سر مأساة امك بعد ان عاشت طول
حياتها فى هذا المعنى الضيق للشرف .. فلم تعرف ان الحياة
اوسع من ذلك بكثير ، واجمل من ذلك بكثير .. وارحم من ذلك
بكثير .. لم تعرف ان الحياة تتسع لكثير من الخطايا .. بل ان
امك لا تعرف ان الخطيئة نفسها ليست معنى صارما محددا ..

انها معنى يضيق ويتسع حسب مقتضيات الحياة ، وحسب البيئة والمجتمع .. ان زواج الرجل من أربع نساء يعتبر خطيئة في بعض البلاد .. وفى بعض البلاد تستطيع المراة ان تحتفظ بخمسة ازواج دون ان يعتبر ذلك خطيئة .. ان الخطيئة فى مصر ليست خطيئة فى باريس .. والخطيئة فى حى شبرا ليست خطيئة فى حى الزمالك .. والخطيئة كما تفهمها امك ، ليست هى الخطيئة كما تفهمها خيرية ..

لماذا لا يتسع عقل أمك ليفهم هذا المعنى الواسع للحياة ؟

انها غبية ..

ان مأساتها ــ كما افهمها ــ ليست سوى مأساة غباء !

انها غبية كأبيك ، الذى فضل ان يعيش فقيرا بحجة انه رجل شريف !

وقد دفعها غباؤها الى ان تهرب من نفسها الى الخمر .. ان كل الناس يهربون من انفسهم .. ولكن الأذكياء لا يهربون الى الخمر .. يهربون الى نواحى اخرى .. يهربون الى زعامة سياسية .. أو يهربون الى الثراء والنفوذ ، او يهربون الى الفن .. انا أهرب من نفسى الى اطماعى ، ولو كنت فشلت فى تحقيق اطماعى لخنقتنى نفسى .. وعبد العظيم يهرب من سفالته الى اكتناز المال ، ولو لم يجد المال لما استطاع ان يستمر فى سفالته .. وزوج المراة التى اتخذها عشيقة يهرب من نفسه الى محاولة الاستفادة منى ، واذا لم يستفد منى ثار لشرفه .. كل الناس يهربون .. وامك الغبية اختارت ان تهرب الى الخمر ..

وقلت لها فى صوت مشفق يشوبه التقزز والاشمئزاز :

ــ مالك يا تفيده .. مالك عاملة فى نفسك كده ؟

وترنحت ابتسامة فوق شفتيها ، وقالت فى صوت اجش حشرجته أبخرة الخمر ، وهى تمسح بكفها فوق وجهها :

ـــ والنبى يا اخويا ماكنتش عارفه انك جاى .. لا اتزوقت ولا حطيت تواليت .. مش كنت تدينا خبر قبل ما تيجى ؟ .. ما انت اصلك بقالك زمان ما جتش ولا سالت ..

قلت وانا ادير وجهى عنها حتى اتقى رائحة الخمر :

ـــ كنت مشغول يا تفيده .. كنت مشغول قوى ..

قالت وهى تبتسم ابتسامة ساخرة كأنها تكذبنى :

ـــ عارفه يا اخويا .. كان الله فى العون !!

ثم مالت براسها نحوى وهمست :

ـــ تحب اعمل لك كاس ؟

قلت متقززا :

ـــ ده احنا لسه الظهر يا تفيده .. كاس ايه .. وده وقته ؟ !

قالت تكرر الكلمة التى سمعتها منى يوم كنت اعدها لفراشى :

ـــ يعنى هوه حرام بالنهار ، وحلال بالليل ؟ .. اشرب يا شيخ !!

قالتها وفى صوتها رنة خاصة كأنها تذكرنى بكل حوادث ذلك اليوم المشئوم .. واجبتها فى حدة :

ـــ لا .. مش عايز اشرب !

وضحكت ضحكة بلا صوت ، اهتزت لها كتلة العجين ، ثم رفعت ابريق الشاى وصبت منه فى الفنجال ..

انه ليس شايا ..

انه ويسكى ..

ونظرت اليها بعينين متسعتين ، وقلت فى دهشة :

ـــ ايه ده .. ايه ده يا تفيده ؟

وعادت تضحك بلا صوت ، ومالت بجسدها على حتى خيل الى ان العجين كله قد انسكب على صدرى ، وقالت هامسة :

ـــ انا اصلى باحط الويسكى فى ابريق الشاى ، علشان اخبيه

من هدى .. ما هو بنتى كمان بقت ضدى .. كل ما تلاقى قزازة تاخدها تدلقها فى الحوض .. وتكسرها وترميها فى صفيحة الزبالة .. انما ولا يهمك .. بقيت دلوقت باخبى القزازة فى حته مش ممكن هدى تعرفها ..

قلت وأنا ازداد اشفاقا عليها ، وازداد اشمئزازا :

— اعتنى يا تفيده .. انت بالشكل ده حاتموتى نفسك !

قالت فى اسى :

— يا ريت يا اخويا كان الويسكى بيموت .. انا نفسى اموت .. عايزه اموت ..

قلت اقاطعها :

— بلاش الكلام ده يا تفيدة .. بس بطلى شرب ، وانتى ترجعى كويسة زى ما كنتى .. ما حدش فى الدنيا بيشرب كده ابدا .. ما هى خيرية بتشرب ، انما ما بتشربش كده ..

قالت فى حدة وقد برقت عيناها بريقا مخيفا :

— ما تجبش سيرة خيرية .. خلاص انا ما بعرفهاش .. مش عايزه اعرفها .

قلت وقد بدات اضيق بها :

— علشان بتنصحك تبطلى شرب .. ما انا كمان باقولك ما تشربيش ..

قالت وهى لا تزال محتدة :

— انت كما بتكرهنى .. انت بتضحك على .. انت خدعتنى ..

واجهشت بالبكاء .. وحبست دموعها صوتها ..

وتركتها تبكى ..

وعادت تقول بعد ان هدات دموعها ، وبدأت تجففها بكم ثوبها كأنها طفلة صغيرة :

ـــ قولى يا حسين .. طمنى .. انت حا تتجوزنى ولا لأ ؟ .. ما تضحكش على اعمل معروف ؟ !

قلت وأنا أضبط أعصابى بقسوة حتى لا أنفجر :

ـــ الجواز مش سهل زى ما انتى فاكرة يا تفيده .. ما تنسيش انى متجوز .. وفلوسى كلها باسم مراتى .. لازم أشوف الأول حاخلص ازاى .. ولازم تستنى وتصبرى .. ولازم تفوقى من اللى انت فيه .. علشان ما اتجوزش واحدة سكرانة ليل ونهار ..

قالت وهى تنظر الى بعينيها كأنها تحاول أن تكتشف حقيقتى :

ـــ قلبى مش مصدقك يا حسين .. يعنى حا تتجوزنى على ايه .. لا جمال ولا مال .. غيرش انا اللى كنت مغفلة .

قلت وأنا أنتفض واقفا :

ـــ سيبك من الموضوع ده دلوقت .. هيه فين هدى ؟

قالت وهى تهز كتفيها وتبتسم كأنها تسخر من مصيبتها :

ـــ فى أودتها ..

وناديتك بصوت عال :

ـــ هدى .. هدى ..

ثم خرجت متجها الى غرفتك ، وأمك ترفع الى شفتيها فنجان الشاى ، وترشف منه الويسكى ..

اتجهت الى غرفتك محتدا . كنت أريد أن أصرخ فى وجهك كأنى ألومك على الحال التى وصلت اليها أمك .. كنت أريدك أن تنقذيها منى أو تنقذينى منها .. وهذه هى عادتى كلما واجهت جريمة من جرائمى .. أن أنسبها الى أقرب انسان الى ، وألومه عليها ، وأحمله مسئوليتها !

والتقيت بك خارجة من غرفتك بعد أن سمعت صيحتى وتغلقين بابها وراءك كأنك تحمينها من أن أدنسها بقدمى ..

ونظرت اليك ..

وواجهتنى عيناك الهادئتان العميقتان ، تثقبان صدرى ..

واحسست بشىء يكاد يكتم انفاسى ، ويمزق رئتى ..

احسست بنفسى اعود سريعا .. طالبا بمدرسة الفنون والصنايع .. وابوك امامى ، لا استطيع ان اثور عليه . ولا استطيع أن اسيطر عليه ..

وانسلتت منى حدتى .. وقلت فى هدوء وانا ادير عينى حتى لا تلتقيان بعينيك :

— انتى سايبه ماما بالشكل ده ليه ؟

واجبت وعيناك لا تزالان تنظران الى :

— ماما عمرها ما كانت بالشكل ده !

قلت وكأنى اؤنب نفسى :

— انما اهى بقت بالشكل ده .. ولازم نشوف لها حل .. لازم ننقذها !

واجبت وكأن صوتك ينبعث من داخلى :

— لما كنا فى شبرا .. ما كانش بيحصل ده كله !

وتململت .. احسست كأنك تغرزين فى صدرى سكينا ، وصرخت :

— يعنى حيطان البيت ده ، مش زى الحيطان اللى فى شبرا .. احنا حانفضل طول عمرنا نقول شبرا .. اللى عنده استعداد للفساد هنا . يقدر يفسد فى شبرا كمان ..

قلت فى هدوء كأن كلامى لا يصل اليك :

— الستات فى شبرا ما بيشربوش ويسكى !

ورفعت عينى اليك ، وقلت كأنى اتوسل :

— هدى .. احنا لازم نتعاون علشان ننقذ مامتك .. مش ممكن نسيبها بالشكل ده !

واطلت من بين شفتيك ابتسامة حزينة ضيقة ، كأنك تشكين في كلامي ، وقلت بلا مبالاة :

ـــ انا عملت كل اللي اقدر عليه .. الباقي على ربنا !

قلت وانا حائر ماذا اقول :

ـــ امنعيها من الشرب .. كسري كل القزايز .. مادخليش قزازة البيت .. انتي عارفه انها بتحط الويسكي في ابريق الشاي ؟ !

واجبت في هدوء :

ـــ عارفة .. وعارفة انها مخبية قزازة في مرتبة السرير .. قطعت المرتبة وعملتها مخزن للقزايز ..

قلت في دهشة :

ـــ وساكته على ده كله ليه ؟ .. ازاي تسيبيها تعمل في نفسها كده !

واجبت وانت لا زلت هادئة :

ـــ ما اقدرش اعمل غير كده .. لميت نوبه كل القزايز اللي في البيت ، راحت خارجة بالليل بقميص النوم علشان تشتري قزازة .. ولولا لحقتها ، كانت وصلت الشارع .. وفضلت تعيط وتصرخ لغاية ما اضطريت انزل بنفسي اشتري لها قزازة ..

وسكت .. ولم اتكلم ..

لم اكن اعتقد ان امك قد وصلت الى هذا الحد ..

ولم اكن اعتقد انك انت ايضا تصلين الى حد ان تخرجي لشراء زجاجة ويسكي تشربها امك .. ترى لو كان ابوك مكانك ، هل كان يفعل مثلك .. وهل لو كنت بكيت له ونحن طلبة ، كان اشفق علي ، وتركني اسرق وانهب في اموال الناس ؟ ..

لعلك اردت ان تنقذي امك من خطيئة كبرى ، بخطيئة اخف .. ولعلك عرفت ان امك ليست خاطئة ، ولكنها ضحية ..

وعدت انظر اليك ..

انك لا تبكين .. ان وجهك صامت خال من التعابير .. كأن المصيبة أخرست كل ملامحك ، ووقفت تحملينها فى استسلام .. استسلام الشرفاء .. وما أعجز الشرفاء عندما يستسلمون ..

وقد نحلت .. لم يعد فيك شىء ينحل . ورغم ذلك تزدادين نحولا .. عجيبة .. انى كلما تماديت فى جرائمى ، ازددت أنت نحولا .. كأن جرائمى تأكل منك .. كأن كل ضحاياى هو أنت .. أنت .. الشىء الذى يعيش فى صدرى .. أنت تضمرين ، والشىء فى صدرى يضمر معك .. انت تبتسمين ، والشىء فى صدرى يبتسم .. ولكنك لا تبتسمين ابدا ، ولا هذا الشىء .. أنت .. هذا الشىء .. ان هذا الشىء هو ضحيتى الأولى ..

وقلت لك فى خبث وفى صوت ضعيف كأنى تلميذ ارتكب جريمة ويريد أن يطمئن الى أن استاذه لم يعرف بها :

— يا ترى ايه اللى خلى ماما بقت كده .. ما تعرفيش ؟ !!

وأجبت فى اختصار :

— ما اعرفش ..

وفرحت .. فرحة التلميذ الصغير عندما يعتقد أنه خدع استاذه .. انك لا تعرفين ماذا حدث بينى وبين أمك .. انها لم تطلعك على شىء .. ان الخمر لم تفش سرها وسرى .. بل ربما كانت تستعين بالخمر على الكتمان ..

انك لا تعرفين ..

انى لا زلت بريئا ..

ولكن لا .. انى أحس فى أعماقى بأنك تعرفين .. ربما لا تعرفين التفاصيل ، ولكنك على الأقل تعرفين أنى أنا السبب ..

ولم أتوقف عند هذا الاحساس طويلا .. ان مصر كلها تعرف أنى السبب فى كثير من مصائبها .. ولكنها لا تعرف التفاصيل .. وما دامت لا تعرف التفاصيل ، فهى لا تستطيع ان تثبت على شيئا ..

وعدت انظر اليك ..

وبدات اتساءل : ماذا يعجب عادل منك ، الى حد ان يثير معركة بينه وبينى من اجلك .. بل معركة بينه وبين كل باشوات مصر ، كما قال فى خطابه الأخير اليك ؟ !

وطفت بعينى فوق وجهك النحيل .. وفوق صدرك البكر المتكبر .. وفوق جسدك الصبى النحيل .. وساقيك المتسقتين .. و ..

ماذا يعجب عادل منك ؟ هل هو فى حاجة الى صباك كما انا فى حاجة اليه ؟ لا اظن .. ان شبابه يغنيه عن صباك .

ربما يعجبه فيك الشرف ؟ !

لماذا لا يكون الشرف من نصيبى انا .. لماذا اتركه لعادل .. انه يحاول ان يصل الى هذا الشرف عن طريق كفاح يعتقد انه كفاح وطنى .. وانا سأحاول أن اصـــل اليه ايضا .. ولكن كيف ؟

لقد خيل الى ساعتها ان انسى حكاية امك ، ثم ابدا فى مطارحتك الغرام .. ان اقول لك انى احبك .. وانى اريدك .. وان كل ما بقى لى من حياة قد تجمع فيك .. لم اعد اريد الا ان آخذك .. الا ان تكونى لى .. ثم اروى لك القصة كلها .. واقول لك انى انسان ضعيف .. رغم كل ثرائى ونفوذى فأنا انسان ضعيف .. شىء فى صدرى يضعفنى ، ويجعل من ابيك رجلا اقوى منى .. وانت ايضا اقوى منى .. ربما لأن الشىء الذى فى صدرك لا يضعفك .. ربما لأنك راضية عن نفسك .. لانك تنوع ، لانك فى غنى عنى .. وانا اريد قوتك .. اريد ان اسيطر عليك .. اريد ان احطمك .. احطم هذا الشىء الذى يشعرنى بضعفى ..

ولكن كيف اقول لك هذا الكلام ؟

انى لا استطيع ..

انه كلام كتب عليه ان يظل حبيسا فى صدرى ، يغلى فى

أعماقى ، لأنى احاول ان اكون شيئا لا استطيعه .. احاول ان اكون منك بمثابة أب ، وان ابدو امامك انسانا شريفا .. انسانا محترما !!

وقلت لك وعيناى لا تزالان معلقتين فوق نهديك :

ـــ اطمنى .. انا حاعمل كل حاجة علشان مامتك تفوق من اللى هيه فيه ، وترجع زى ما كانت ..

ونظرت الى كأنك يائسة منى ، وقلت فى برود :

ـــ ربنا يشفيها ..

وتركتك ، ومررت بالصالون وامك لا تزال جالسة فى مكانها تشرب الويسكى فى فنجال الشاى ، وقالت عندما رأتنى :

ـــ انت خارج يا حسين ؟ !

قلت فى حدة :

ـــ ايوه ..

واشارت الى لأقترب منها كأنها تريد ان تطلعنى على سر خطير .. ثم قالت هامسة :

ـــ قول لى « طمنى » مش حاتتجوزنى يا حسين ؟ !

وقلت وقد ارتفع صوتى فى غضب :

ـــ ما قلت لك سيبك من الموضوع ده دلوقت ..

ورخجت من البيت وانا اصفق الباب ورائى كأنى اخمد به صوت امك .. خرجت حانقا .. ثائرا .. ماذا تريدون منى .. ماذا يريد الناس منى .. انى اجمع العمال من الأزقة وامنحهم عملا يتكسبون منه ، فيثورون على ويعتبروننى عدوا لهم .. واجمع خريجى الجامعات من فوق أرصفة المقاهى واعطيهم عملا ، فيثورون على ويطالبون بالمزيد .. وامتع امك برجولتى وفحولتى فتثور على وتطالبنى بالزواج .. وانقلك انت من حى شبرا واضعك فى عمارة انيقة على النيل ، فتثورين على وتكرهيننى .. ماذا تريدون لترضوا عنى .. لتعترفوا بنعمتى عليكم ؟ .. انى فى غنى عن

رضائكم .. لا اريد منكم اعترافا بفضلى .. ولكنى سأذلكم جميعا .. جميع الناس .. سأملككم بالذل !

ورغم هذا عدت اليكم ..

كان مجرد تصورى ان هناك شخصا آخر يطمع فيك . ويريد ان يأخذك منى .. يدفعنى اليك ..

كنت اعود كل يوم لأرى امك فى جلستها تشرب الويسكى فى فنجال الشاى .. لم تعد تخرج من البيت .. ولم تعد تحاول ان تندمج فى المجتمع الجديد الذى نقلته اليها .. ولم يعد لها احد من الصديقات اللاتى عرفتهن فى هذا المجتمع .. ان خيرية لم تعد تطيقها ، ولم تعد اطماعها التى تحققها عن طريقى تكفى لتحملها .. وبقية الصديقات طردنها من بيوتهن .. لقد حاولت عقب مأساتها ان تتردد عليهن لتأتنس بهن ، لترى فى خطاياهن ما يخفف عنها خطيئتها . ولكن افراطها فى الشراب ، كان يفقدها توازنها فى بيوت الصديقات ، وكان يكشف عن حقيقة الطبقة التى تنتمى اليها .. فتأففن منها .. وطردنها من بيوتهن .. طردنها بكل وقاحة .. فجلست فى البيت وأمامها الويسكى فى فنجال الشاى .. لم تعد لها الا الخمر .. الخمر فى الصباح والمساء .. فاذا ابعدت عنها الخمر جنت .. اصبحت مجنونة فعلا .. عينان مذهولتان مجنونتان .. وشفتان منفرجتان مرتعشتان .. وجسد يرتعش وينتفض .. وصراخ وعويل .. كأن قد حل بها شيطان لا يهدأ الا اذا جرع الخمر .. كثيرا من الخمر !

وانت بجانبها .. كل ما تحرصين عليه الا تخرج بفضيحتها الى الشارع .. فتتركينها للخمر تغرق فيها فضيحتها .. وتختبئين فى غرفتك . حتى توفرى عليها عــذاب رؤيتك وهى فى هــذه الحالة ..

واهمل البيت الذى تعيشون فيه .. لم يعد احد يهتم به .. ان الأثاث « الاوبيسون » قد كسته بقع كبيرة من آثار الخمر

وبقايا الطعام ، .. وأوانى الزهر ، والتحف والمنافض ، كسرت معظمها أمك فى ترنحها .. ومائدة صغيرة مرتكزة على ثلاث سيقان وضاعت الرابعة .. ورائحة التراب تفوح فى كل مكان .. والخدم لا يدخلون اليكم لأنهم يهربون من المرأة السكيرة ..

ان المأساة تطبع البيت كله ببصماتها .. وأنا أحاول انقاذ أمك ..

أحاول انقاذها لأنقذ نفسى من الجثة التى تلوح أمامى .. جثة جريمتى .. ولأرتاح من صوتها وهى تهتف : « مش حتتجوزنى يا حسين » .. ولأتقرب اليك بانقاذها .. من يدرى ، ربما بعد أن أنقذها أنال رضاءك واحترامك ..

واتيت لها بطبيب ..

وقال الطبيب انها وصلت الى قمة الادمان ، وأن علاجها يحتاج الى وقت طويل ، وعذاب طويل ..

ولم يفلح العلاج .. لأنك كنت أضعف من ان ترى بعينيك عذاب أمك . كنت كالطبيب الذى يقتل مريضه ليريحه من آلام مرض ميئوس من شفائه .

وكانت أوامر الطبيب تقضى بألا تشرب أمك الا كأسا واحدة فى اليوم ، ثم كثيرا من الأدوية والمسكنات .. ثم مراقبة دقيقة حتى لا تلجأ أمك الى خدع تشرب بها مزيدا من الخمر .. فالمدمن عندما يصل الى هذه الحالة يتركز ذكاؤه كله فى الحصول على مزيد من الخمر .. وقد يصل الى حد الاجرام .. قد يسرق .. قد يقتل .. فى سبيل كأس .. لم تحتمل أمك العلاج ، ولا أنت .. لقد جنت فى أول يوم .. وانتابتها أزمة عنيفة .. اخذت تصرخ وتصيح .. ثم تقع على الأرض تحت قدميك ، وتبكى وتتوسل اليك أن تحضرى لها ابريق الشاى .. ثم تتلوى كأن لسعات من النار تكوى جسدها .. وتضيق انفاسها .. ويخيل

اليك انها ستموت .. فتسرعين وتحضرين لها ابريق الشاى ، مليئا بالويسكى ..

وفى اليوم الثانى حاولت أن تخدعك ، حتى تخرجى من البيت وتتركيها تبحث عن الخمر .. ولكنك لم تخدعى ، وظللت بجانبها فى غرفتها والباب مغلق عليكما .. فانتابتها الأزمة العنيفة .. وخفت عليها مرة ثانية .. لم تحتملى عذابها .. واحضرت لها ابريق الشاى !

وفى اليوم الثالث .. حطمت كل ما فى الغرفة .. ثم نظرت اليك بعينين مجنونتين .. انها تكرهك .. انك عدوتها الوحيدة .. وفجأة ألقت جسدها كله عليك وحاولت خنقك .. وأنت مرتاعة .. خائفة منها .. خائفة عليها .. واستطعت أن تتخلصى منها قبل أن تصل يداها الى عنقك .. وأحضرت لها ابريق الشاى .. وهدأت ..

ويئست أنت ..

ولكنى أنا لم أيأس .. انى أكره اليأس .. وقد أصبحت أمك بالنسبة لى مشروعا يجب أن يتم .. صفقة أغامر فيها لعلى أنجح .. كنت كأنى اشتريت شركة على وشك الافلاس وأحاول أن أنقذها .. لا لحاجتى للمال ، وانما فقط لأجرب ذكائى .. لأتحدى الفاشلين .. لأشعر بقوتى ..

ولكن كيف ؟

ومضت أيام كثيرة ، وانقاذ أمك هو المشروع الوحيد الذى أفكر فيه ..

وبدأ تفكيرى يتخذ اتجاها جديدا ..

ان أمك وصلت الى حالتها هذه نتيجة أزمة نفسية ، عقب أن ضحت بشرفها ، دون أن تنتهى تضحيتها الى زواج .. فهل لو تزوجت أمك ، ترتاح من أزمتها النفسية ، وتقلع عن الخمر ؟

وهل يجب أن تتزوجنى أنا ؟ !

لماذا لا تتزوج غيرى ؟ !
ان أى زواج ستعتبره أمك ردا لشرفها !
ولكن من ؟
من تتزوج !!
لماذا لا يكون عبد العظيم ؟
هل يرضى عبد العظيم ؟

***

ودخل على عبد العظيم يقدم الى تقرير الصباح .. تقرير الأعمال القذره ..

وقلت له بعد أن انتهينا من مناقشة التقرير :

— وايه أخبار شركة القصير .. واخبار عادل ؟

قال فى هدوء :

— لسه ما وصلتنيش أخبار .. انما انا مطمئن .. كل حاجة حتمشى زى ما احنا عايزين !

قلت وانا أتنهد ، كأنى اشكو له :

— مين كان عارف ان عيلة محمد افندى السيد ، حتسبب لنا المتاعب دى كلها !

قال وهو ينظر الى من تحت عينيه كأنه يشعر بأنى أجره الى شىء أريده :

— سعادتك اشفقت عليهم .. والشفقة دايما تجر وراها المصايب !

قلت فى تأثر :

— دى الست تفيده حالتها بقت وحشه قوى .. سكرانه ليل مع نهار .. مش عارف اعمل لها ايه ..

قال كأنه يتخلى عنى :

— ما تعملش لها حاجة .. ما فيش فايدة .. دول ناس مايستهلوش .. اخوها حرامى .. وهى سكيرة .. وسى عادل

بتاع اضرابات .. احسن حاجة اننا نرجعهم شبرا زى ما كانوا ..

قلت وانا انظر اليه نظرة قوية كأنى آمره بأن يخضع لى :

ــ مش ممكن بعد اللى عملناه ده كله نتخلى عنهم .. انا كان نفسى اشوفهم ناس كويسين وعايشين كويس ..

وكور شفتيه كأنه يهم ان يبصق على الأرض ، ثم هز كتفيه وقال فى اسلوبه المنافق :

ــ والله كلك خير يا باشا .. انما مين يقدر !

قلت بعد برهة :

ــ تعرف ايه اللى خلى تفيده بقت كده ؟

قال وهو يبدى اهتماما مفتعلا ليرضينى

ــ ايه ..

قلت وانا ابتسم ابتسامة هادئة :

ــ عايزه تتجوز .. وكانت فاكره انى انا اللى حاتجوزها .. ما قدرتش تقدر ولا تفهم انى اشفقت عليهم وانى باحاول ارد جميل زميلى محمد افندى السيد .. انما افتكرت ، زى ناس كتير ما افتكروا ، انى معجب بيها وعايز اتجوزها ..

قال وهو يدير راسه عنى :

ــ مغفلة !

واستطردت متجاهلا تعليقه :

ــ انما انا متأكد انها لو اتجوزت حاتبطل سكر وترجع زى ما كانت !

قال فى برود :

ــ ودى مين يتجوزها ؟ .. ده شكلها يسد النفس !

قلت وانا اتجاهل تعليقه ايضا :

ــ والله انا نفسى تتجوز واحد مننا .. واحد مش غريب علينا .. علشان ما ندخلش بينا غريب !

وعاد ينظر الى ، وقد بدأت عيناه تضيقان كأنه ينظر بهما من خلال ضباب :

ــ مش فاهم .. تفتكر سعادتك مين يرضى يتجوزها . ده الساعى اللى على باب مكتبى ما يرضاش ..

قلت وقد بدأت أضع فى صوتى رنة الجد كأننا نبحث عملا خطيرا :

ــ لا .. يرضى .. انما يوم ما يتجوزها حيذلنا .. واذا كنا بنصرف على تفيده ميتين جنيه دلوقت ، الساعى بتاع حضرتك حيخليهم خمسماية .. وحايبتز أموالنا .. وحايعمل لنا فى كل يوم فضيحة ..

وسكت عبد العظيم .. واتسعت عيناه كأنه بدأ يلمح من خلال الضباب شيئا .. واستطردت قائلا فى كلمات بطيئة كأنى أعنى كل حرف اقول :

ــ اذا كانت تفيدة حتتجوز يبقى يا تتجوزنى أنا ، يا تتجوزك انت !

وسكت عبد العظيم ..

لم يثر ..

أشعل سيجارة واخذ ينفث دخانها فى الهواء ، وعقد ما بين حاجبيه كأنه يحاول أن يجد معى حلا .. يحاول أن يكون اقذر منى .. ثم التفت الى وقال فى حدة :

ــ اعفينى أنا يا باشا من الموضوع ده !

ونظرت اليه وبين شفتى ابتسامة تستخف به ..

ان عبد العظيم رغم كل قذارته ، وكل سفالته ، وكل جبروته ، يحتفظ فى حياته بقطعة نظيفة ، لم يحاول أن يدنسها ، ولم يعرضها أبدا للدنس .. زوجته وعائلته .. لقد تزوج منذ أكثر من ثلاثين عاما .. بعد أن نقلنا مركز أعمالنا من بورسعيد الى القاهرة .. وكان زواجه هو مشروعه الوحيد الذى لم يشركنى فيه .. بل

لم أعرف أنه تزوج الا بعدها بشهور ، ومن خلال حديث عابر .. وحتى هذا اليوم لم ار زوجته .. ولم أر ابنه الكبير الا فى مناسبة أو مناسبتين ، ولم ار بناته ابدا .. ولم يدعنى أبدا الى بيته .. انه لا يدعو احدا الى بيته ، وعندما تضطره أعماله الى اقامة مأدبة فهو يقيمها دائما فى النادى ..

هذا الجانب من حياة عبد العظيم ، ظل الى الآن سرا مغلقا على .. سرا لم احاول اكتشافه ، انما كنت اتركه له ، دون أن احاول ان اتدخل فيه .. كرما منى .. فلم اكن ابخل عليه بأن اترك فى حياته قطعة نظيفة .. وربما اثارنى يوما هذا السر .. كنت أعجب من هذا الانسان الذى يفرط كل هذا التفريط فى أعراض الناس .. ويبخل كل هذا البخل بعرضه .. ربما كان هذا نوعا من مركبات النقص .. انه وهو يقود زوجات الآخرين الى فراشى ، يحاول أن يضع نفسه فوق الجميع ، فيضن بزوجته ، لا على فراش الآخرين فحسب ، بل على عيونهم ايضا ..

وقلت له وقد عرفت أن مشروعى يمس عقدة النقص فيه .. يمس القطعة الوحيدة التى يحتفظ بها نظيفة !

ــ اعفيك ازاى يا عبد العظيم .. يعنى اروح اتجوزها انا .. وتبقى فضيحة واسمنا ينزل فى السوق ؟ .. ثم مين حايعرف .. ده حتى المأذون مش ضرورى يعرف !

وابتسمت له ابتسامة فهم منها ما أعنيه ، وقال وهو يقوم واقفا :

ــ حاضر .. امرك !

واستوقفته قبل أن يصل الى الباب قائلا :

ــ يعنى ما تلتش حاجة النهارده عن شركة البنجر ..

قال :

ــ ما حصلش حاجة جديدة ، والحكومة لسه مصممة على موقفها من موضوع الضرائب ..

قلت :

— انا مش عاجبنى الحال فى الشركة دى .. لازم يمسكها واحد قوى .. واحد يعرف يمشيها ..

وابتسم عبد العظيم ابتسامة كبيرة وقال :

— والله ده رايى من زمان !

وشركة البنجر كانت دائما المطمع الكبير لعبد العظيم .. كان يريد ان يعين نفسه عضو مجلس الادارة المنتدب لها .. وكنت اضن عليه بهذا التعيين ، لاحتفظ به كسلاح اثير به اطماعه ..

وقلت وانا ابتسم له ، ابتسامة امنيه فيها بالمنصب الكبير :

— نبقى نتكلم فى الموضوع ده بكره !

***

وخرج عبد العظيم ..

واتصلت بعدها مباشرة بخيرية .. وذهبت اليها فى بيتها .. واطلعتها على مشروعى الجديد .. مشروع زواج تفيده بعبد العظيم .. وقالت خيرية كأنها تشهق :

— يا خبر ! .. وعبد العظيم رضى ؟

قلت مبتسما :

— ما هو مش حيتجوزها قوى ..

قالت وقد فهمت :

— قول لى كده .. اما انت مفترى صحيح .. انما والنبى تفيده ما تستاهل التعب ده كله .. دى وليه خرفانه !

قلت :

— اصلى خايف تعمل لنا فضيحة وهى سكرانه .. اهى حاجه نسكتها بيها والسلام .. وعليكى انتى تقنعيها بالجوازه دى !

ولم تكن مهمة خيرية سهلة ..

لقد انقضت ايام وليال طويلة ، وهى تحاول ان تصل الى عقل امك من خلال ابخرة الخمر لتقنعها بالزواج من عبد العظيم

.. وكانت امك تتنبه كلما رنت فى اذنيها كلمة الزواج .. كأنها ترى من خلال هذه الكلمة نور الأمل الكبير ..

وقالت لخيرية فى احدى فترات انتباهها :

ــ ده انا كنت فاكره حسين هو اللى عايز يتجوزنى !

وقالت خيرية وهى تحاول ان تنقذ بقية من عقل امك :

ــ ولسه يا اختى عايز يتجوزك .. انما مش قادر .. دى مراته انجليزية ، وماسكاه من زوره .. لو اتجوز عليها يفلس تانى يوم !

وقالت امك وهى ترفع الى شفتيها فنجان الشاى :

ــ ما اتجوزش الا حسين .. ماليش دعوه .. انتى اصلك مش عارفه .. ده وعدنى بالجواز ..

وقالت خيرية وهى تزيح فنجان الشاى عن شفتيها :

ــ والنبى بطلى شرب يا تفيده يا اختى .. ده انتى عدمتى .. ومافيش حاجة حاتبطلك الشرب الا الجواز .. هيه الست لها ايه الا الجواز .. يعنى فاكره انى باحب جوزى .. ابدا والنبى .. انما هو اللى سترنى .. ومخلينى ست ..

وبدت امك كأنها تفكر ..

ان الجواز بالنسبة لها هو الكرامه ، وهو الستر ، وهو البيت السعيد الذى قضت فيه شبابها ، ومعظم حياتها .. وعادت تقول :

ــ انما ده عبد العظيم بيه كان عارف أن حسين بيحبنى ..

قالت خيرية :

ــ ابدا .. ولا عارف حاجه .. وهو لو كان عارف كان بعتنى لك ..

قالت امك :

ــ مش عارف حاجه ابدا ؟

قالت خيرية :

— أبدا .. ولا حاجه !

ومدت أمك يدها الى فنجان الشاى ، ثم عادت وسحبتها ، وقالت :

— بس سى عبد العظيم بيه عايز يتجوزنى ليه .. لا مال ولا جمال ؟

وقالت خيرية وهى تستعين بالصبر :

— يا ستى .. كل فولة ولها كيال .

وقالت أمك :

— أنا مش مصدقة .. مش مصدقة أبدا !

وقالت خيرية :

— صدقى يا اختى .. بس وافقى انتى ، وكل حاجة تتم .. وافقى علشان خاطر هدى .. دى هدى اتمرمطت معاكى .. ولا يستركم الا راجل يملا عليكم البيت ..

وتأثرت أمك عندما سمعت اسمك .. وصمتت طويلا .. ثم جرت دموع صامتة فوق وجنتيها .. وخيرية تنظر اليها بلا تأثر .. انها تقوم بعمل تقبض عليه اجرا .. عمل لا دخل للعواطف فيه ..

وقالت أمك وهى تمسح دموعها بكم ثوبها :

— تفتكرى يوم ما اتجوز ، ربنا حايتوب على من الهباب ده ؟

وقالت خيرية :

— طبعا .. هوه انتى بتشربى الا من ضيقتك ..

وقالت أمك فى لهفة :

— صحيح والنبى يا خيرية .. صحيح مش حارجع اشرب .. صحيح ؟

وقالت خيرية :

ـــ انا أعرف أكتر منك يا تفيده .. ده نوبه جوزى ساب البيت ، ومن يوم ما سابه فضلت أشرب لغاية ما رجع تانى ..

ورفعت أمك عينيها ، وصاحت فى حرقة :

ـــ يا رب . يا رب توب على !

***

واقتنعت أمك بالزواج من عبد العظيم .

هل اقتنعت أنت أيضا ؟ ..

لا أظن .. ولكنك كنت يائسة .. كان أى شىء يحدث لأمك أهون عليك من الحالة التى تعيش فيها .. كنت كأبيك تنظرين الى الأشياء نظرة سلبية .. تفهمينها .. وتحسين بكل ما فيها من دنس .. ولكنك لا تقاومينها الا بالنأى عنها ..

وحدد يوم عقد القران ..

واستطاعت أمك أن تقاوم نفسها ، فخففت من اقبالها على الخمر قبل الموعد بأيام .. وبدأت كتلة العجين تتماسك شيئا ما .. بدأت عيناها تستقران ، وشفتاها المنفرجتان فى بلاهة تنطبقان ، وجسدها المترنح يستند على عظامه ..

لقد بدأت التجربة تنجح ..

وأردت أن أحضر بنفسى نجاح التجربة .. وزرتكم قبلها بأيام .. واستطعت أن اقنع أمك بسهولة بظروفى الكاذبة التى تمنعنى من الزواج بها .. وأن أقنعها بأن ما حدث بيننا كان خطيئة سيغفرها الله .. وانى مضطر أن أحضر عقد القران لأنى صديق عبد العظيم وأقرب الناس اليه ، فاذا لم أحضر ربما ساورته الشكوك ..

وحل اليوم ..

واجتمعنا ..

أمك وقد ارتدت ثوبا محتشما ساعدتها فى اختياره خيرية .. ولم تضع من المساحيق الا القليل .. ان قدسية الزواج جعلتها

تحتشم .. جعلتها أقوى من المجتمع الجديد الذى دخلت فيه .. ان الزواج فى نفسها شىء كبير .. شىء بأمر الله .. وهى تحاول أن تبدو نظيفة محترمة وهى تتلقى أمر الله .. وجلست فى صدر الصالون .. ووجنتاها المعطنتان ترتعشان فى حياء يثير الشفقة . وقد أرخت جفنيها فوق عينيها فبدت كمريض يجتاز دور النقاهة ، ويحمد الله على شفائه .. وأنت بجانبها ترتدين ثوبا رمادى اللون .. صنعته يداك .. انسدل على جسدك النحيل فى بساطة أخفت كل خطوطه .. وكنت تبدين شاحبة .. أكثر مما تعودت أن أراه فيك من شحوب .. ضعيفة ، أضعف مما انت .. وجاء خالك من الاسكندرية .. ذليلا .. لا يستطيع أن يرفع رأسه .. بل لا يحاول أن يفهم ما يدور حوله .. آن أخته تتزوج من عبد العظيم .. لا يدرى لماذا .. ورغم ذلك لا يتساءل .. وخيرية .. وانا .. و .. وجاء عبد العظيم .. العريس .. جاء وهو على عجل .. جاء متأففا ، كأنه يريد أن ينتهى من اقذر عملية فى حياته .. وجاء معه المأذون !

المأذون !!

هل تذكرين هذا المأذون ؟

انه أحد أعوان عبد العظيم .. ارتدى جبة وقفطانا وحمل تحت ابطه سجلا .. فأصبح مأذونا ، بأمر عبد العظيم .

انه مأذون وهمى ..

انه خدعة ..

وبدأ المأذون الكاذب يتلو صيغة العقد .. وسعلت انت .. ثم انتابتك نوبة سعال حادة .. وشعرت أن شيئا فى صدرى يسعل معك .. شيئا يكاد يختنق !

وانتهى المأذون من تلاوة صيغة العقد .. وكتب وثيقتى الزواج .. وقعتهما انا وخالك كشاهدين ..

ثم أعطى المأذون الورقتين لعبد العظيم ..

وطافت علينا أكواب الشربات ..

وقامت خيرية وقبلت أمك .. وهمت بأن تقبلك ، فانتابتك
بة السعال من جديد .. لماذا تسعلين .. ان سعالك مخيف ..
نه يمزق صدرى !

واقترب خالك من عبد العظيم وقال فى ذل :

— أقدر أشيل الورقة بتاعة اختى معايا ؟

وقال عبد العظيم وهو ينظر اليه فى صرامة :

— لأ .. الورق كله أنا اللى باحتفظ بيه .. والا ايه ..
يا اسماعيل افندى ؟

وتراجع خالك سريعا .. انه يعلم أن عبد العظيم يحتفظ
بورقة أخرى .. يحتفظ بوصل أمانة قيمته أربعة آلاف جنيه
موقعا عليه من خالك .. ولهذا تراجع .. وسكت ..

ونظر الينا عبد العظيم ، وركز عينيه على وجهى برهة فى
نظرة لم يجرؤ عليها من قبل ، كأنها نظرة احتقار ، ثم قال :

— عن اذنكم يا جماعه .. انا مضطر انزل .. عندى ميعاد !

ونزل ..

هكذا سريعا . دون أن ينظر الى عروسه ، أو حتى يقول
لها « مبروك » ..

واشتدت بك نوبة السعال .. وقمت تلهثين الى غرفتك ..
وقامت وراءك أمك .. وشعرت بالضيق ..

شىء يكتم أنفاسى ، ويمزق رئتى ..

لماذا أتضايق ؟

لقد دبرت زواجا وهميا .. وماذا فى هذا .. انى انشىء
شركات وهمية .. وأرفع الأسعار فى البورصة رفعا وهميا ..
وأخفضها خفضا وهميا .. وأعين الوزراء والكبراء فى مجالس
ادارة شركاتى ، وأجعلهم أوهاما .. وأتبرع للجمعيات الخيرية

تبرعات وهمية .. واعد وعودا وهمية .. و .. و ..! فلماذا اتضايق كل هذا الضيق من زواج وهمى ؟

لقد انقذت امك انقاذا وهميا .. لتشفى الى حين .. لتسكت الى حين .. ومصر كلها ينقذونها بالأوهام .. وتعيش بالأوهام .. ويسكت شعبها بالأوهام .

فماذا حدث اكثر مما يحدث كل يوم وكل ساعة ؟!

ولكن الضيق يشتد بى ..

وروحى تكاد تزهق ..

وصوت سعالك يصلنى من غرفتك كأنه طعنات مصوبة الى جنبى ..

انى اريد ان اهرب من نفسى ..

اريد شيئا يلهينى عن هذا الضيق ..

شيئا عنيفا .. كبيرا .. مثيرا ..

اريد جريمة ..

- ١٨ -

وبدا احساسى بالضيق يفقدنى توازنى .. توازن عقلى !

وقد كان عقلى يعمل دائما كالآلة المنتظمة الدقيقة ، وينتج صنفا واحدا من البضاعة .. المال .. ومزيدا من المال .. ولم تكن عواطفى تستطيع ان تصل الى عقلى ابدا ، او تحيد به عن طريقه .. لم يكن للكراهية ، او الحب دخــل فى حكمى على الأشخاص ، او فى تعاملى معهم .. وقد اتعاون مع رجل اكرهه ، واضرب بالشلوت رجلا احبه .. ان العواطف اشبه بقطع الحجارة التى تقع بين تروس العقل فتحطمها ، وتفسد الآلة المنتظمة الدقيقة .. ومعظم مصائب الناس تقع من تأثير العاطفة على العقل .. ان العقل وحده لا يخطىء الا نادرا .. والناس الأغبياء فى نظرى هم العاطفيون !!

وليس من السهل على كل انســـان ان يحمى عقـــله من عاطفته .. انها عملية شاقة تحتاج الى ارادة قوية ، والى اعصاب لا تلين ، والى قسوة ، والى شخصية عارمة .. وقد كنت دائما افخر بارادتى ، واعصابى ، وقسوتى ، وشخصيتى .. ولكنى بدات افقد كل ذلك .. بدات عواطفى الخاصة تتغلب على ارادتى واعصـــابى ، وبالتالى تؤثر فى عقـــلى ، ثم تؤثر فى تصرفاتى ..

واذكر انى التقيت فى هذه الأيام بحسنين باشا شهاب :

انه عضو مجلس ادارة فى كثير من شركاتى ، ومحترف رياسة وزارة ، وانا اكرهه .. اكرهه كالعمى .. انه شىء قصير عريض اشبه بالفنطاس الفارغ .. ويضع على وجهه دائما قناعا من الجد والحزم ، فيبدو كأنه رجل خطير ، ويبدو كل شىء يعمله كأنه عمل خطير .. اذا جلس على مائدة الطعام يبدو كأنه يضع تصميم مصنع ، واذا جلس فى السينما يبدو كأنه يقرأ تقريرا سياسيا ، واذا سار على قدميه ليشم الهواء يبدو كأنه يقوم بعملية جراحية .. ورغم ذلك فوراء هذا القناع شخصية ضعيفة دنيئة تباع فى اسواق السياسة والاقتصاد بأرخص الأسعار ..

وقد كنت دائما فى حاجة الى هذا الفنطاس الفارغ .. فان شخصيته الضعيفة الدنيئة كانت ترشحه دائما لرياسة الوزارة فى كل ازمة .. اذا اراد الانجليز تنفيذ سياسة لهم ، جاءوا به رئيسا للوزارة .. واذا اراد الملك تحقيق بعض اطماعه جاء به الى الوزارة .. وكنت اضعه فى شركاتى انتظارا لهذه الفترات التى يتولى فيها الوزارة ، حتى اذا تولاها حقق فى سرعة عجيبة تبع د. الوقاحة كل ما اريده وتريده شركاتى .. ومن اجل ذلك كنت اخفى عنه كراهيتى ولا ادعها تتسرب الى عقلى فتفسد تعاونى معه ..

ولم يكن حسنين باشا شهاب يكتفى بالمكافآت التى يتناولها نظير عضويته فى مجالس الادارة ، بل كان يطلب منى دائما « نصيحة » .. ونصيحتى تساوى فى الأسواق المالية الوفا من الجنيهات .. يكفى ان انصح اى مضارب فى البورصة بأن يشترى او يبيع ، فيصبح من الاغنياء ..

وجاءنى حسنين باشا شهاب فى ذلك اليوم يطلب منى نصيحة .. وكنت جالسا على البار فى نادى السيارات ، وامامى كأس ابلل بها شفتى .. ورفعت اليه عينى ، فأحسست بموجة طاغية من الكراهية لم استطع ان احول بينها وبين التأثير على

عقلى .. كانت ارادتى ساعتها اضعف من ان تقف حاجزا بين عقلى وعاطفتى ، فأخفيت عنه عينى ، وقلت فى لهجة جادة :

ــ اشتريت اسهم شركة الطوب الحرارى ؟

قال وهو يحاول ان ينظر فى وجهى :

ــ لا ..

قلت فى همس وحزم :

ــ اشتر !!

وانفرجت اسارير حسنين باشا شهاب ، وانصرف عنى وهو يسير على اطراف اصابعه كأنه لص .. كأنه استولى على حافظة نقودى ..

وكانت شركة الطوب شركة وهمية ، اسسها جماعة من الاجانب واليهود ، وطرحوا اسهمها فى السوق بسعر رخيص ، ثم قاموا لها بدعاية واسعة ، واستطاعوا ان يجلبوا لها مساهمين معظمهم من اصحاب الأراضى الذين يقيمون فى القاهرة ، والذين لا يفهمون شيئا من شئون الشركات انما يدعون الفهم ليتخذوا من ادعائهم دليلا على مدنيتهم وثقافتهم .. بل استطاعت الشركة ان تبيع اسـهمها الى بعض اقطـاب الاحـزاب ، الذين تلح اطماعهم على رءوسهم ، فيقعون فى عمليات النصب ..

كنت اعرف كل هذا عن شركة الطوب وقد اشتريت اسهمها عندما كانت رخيصة ، واذاعت الشركة خبر دخولى مساهما كنوع من الدعاية تجتذب به الاغبياء .. فان اسمى يكفى دائما لنجاح اى شركة .. ثم انتظـرت الى ان ارتفعت الاسـعار وبعت ما اشتريته .. بعته للأغبياء .. وربحت .. ربحت نقود الاغبياء .. وكنت انتظر بعد ذلك ان يفر الاجانب واليهود بالأموال التى جمعوها ، وتسقط الشركة وتعلن افلاسها .

واشترى حسنين باشا اسهما بما لا يقل عن خمسين الف جنيه . وبعد اسبوع واحد حدثت الكارثة ، وفر المؤسسون ،

ومعهم اموال المساهمين .. وقامت ضجة فى مصر كلها .. ولكن ضجة حسنين باشا كانت اكبر من الضجة التى قامت فى مصر .. وقد صب ضجته كلها على .. وكنت استطيع ان اواجه ضجته وأن اقضى عليه ، ولكن عقلى تنبه ، وابتعد عن عاطفتى .. ان حسنين هذا اداة نافعة لشركاتى ، ومن الخطأ ان احطمه أو أخسره ، فاستجمعت كل ارادتى لأبتلع ثقل ظله وسخافة مظهره الخطير .. وارسلت له عبد العظيم ليسترضيه ويعوض له خسارته .. لم ادفع له خسارته من جيبى ، بل عوضته عنها « بنصيحة » اخرى استرد بها كل ما فقده ..

استرده من اموال الأغبياء !

وترك هذا الحادث اثرا كبيرا فى نفسى .. لقد زعزع ايمانى بارادتى وعقلى .. اصبحت اخاف من نفسى على اعمالى ..

واخذت اتساءل مرة اخرى عن سر هذه الأزمة النفسية التى تضعفنى ؟

ماذا أريد حتى أرضى نفسى ؟

لا شىء .. لا شىء اطلاقا استطيع ان اعطيه لنفسى اكثر مما أعطيتها .. انى انسان شبع .. وربما كان الشبع يسبب نفس الأزمة النفسية التى يسببها الحرمان .. وربما كان شبعى هو الذى يثير فى هذه الدناءة الى حد ان تصبحى انت شيئا اريده .. فتاة ليست اجمل من عرفت ، وليس فيها شىء اكثر اغراء مما لدى ، ولكنى رغم ذلك اريدها .. اريدها الى حد ان اصبحت شيئا هاما كبيرا تصوره لى اطماعى .. انها مجرد دناءة .. الدناءة التى تعقب الشبع ..

وقد اصبحت ازوركم دون ان تزعجنى كثيرا رؤية امك .. كانت قد انصرفت بمعظم تفكيرها الى اعداد نفسها للزفاف الى عبد العظيم .. وكانت قد اعتدلت فى حياتها .. كانت تقاوم ادمانها للخمر مقاومة شديدة لتصنع من نفسها زوجة كاملة كما

كانت فى حياتها الاولى .. ولكى تشغل نفسها عن الخمر عادت تهتم ببيتها ، وعادت تتودد الى خيرية ، واخذت تعد ثيابا جديدة كثيرة .. ثياب الزوجية .. وكانت تضعف أحيانا فتمتد يدها الى كأس .. ثم الى كأس اخرى .. ثم تفر من الكأس ، وتدخل غرفتها وتغلق على نفسها البــاب ، وتنتابها نوبة هستيرية قاسية ، تتحمل عذابها فى صمت ، حتى تزول عنها .. واحيانا كانت تهرع اليك ، وتنام بجانبك حتى تحميها من عطشها الى الخمر .. وكنت تفهمين حالتهـــا ، دون أن تصـــارحيها بها ، فتأخذينها بين ذراعيك ، وتضمينها الى صدرك .. كأنك تحمينه من شيطان كبير فى صورة كأس تنسكب فوق جسدها .

ولم اتأكد من ان امك بدات تعود الى حالتها الطبيعيـــة الا عندما سألتنى مرة عن حالة عبد العظيم المالية ..

لقد عادت الى ذكائها الساذج ..

عادت الى أطماعها الغبية .. اطماع الطبقـــة الوسطى الصغيرة .. نفس الأطماع التى قادتها الى ..

وقلت لها وانا ابتسم واحاول ان اخفى عنها ابتسامتى :

ــ اطمنى .. اللى اعرفه ان عبد العظيم غنى جدا .. واللى مش متأكد منه ، انه يمكن يكون اغنى منى !!

قالت وهى تبتسم فى حياء كأنها تخجل من أطماعها :

ــ يا خبر .. هو فيه حد أغنى منك ابدا ؟ !

قلت :

ــ مين عارف .. أصل عبد العظيم ما يحبش يتكلم عن نفسه كتير !

قالت وهى تتنهد :

ــ انما ده يظهر مشـــغول قوى .. ده انا ما بشـــفوش الا معاك ..

ونظرت اليها فى عجب .. هل احبت عبد العظيم ايضا .. كما

أحبتنى ؟ .. وهل هو الحب ، أم الطمع فى حياة أفضل ؟ .. ربما كان كل نساء هذه الطبقة لا يحببن .. انهن يقسن الرجال بما يستطيعون أن يوفروه لهن من أسباب الحياة .. كم مرتبه .. وماذا يملك .. ولا شىء آخر .. ان محاولة التخلص من الفقر ومن الضيق الذى يحيط بنساء هذه الطبقة يجعلهن يخلطن بين الحب وبين الرغبة فى حياة أكثر راحة وهناء .

ولكن ليس كل النساء ..

انت مثلا .. انك تحبين عادل .. ان أى حياة مرفهة لا يمكن أن تغنيك عن عادل .. ربما لأنك — كأبيك — ليس لك هذا الذكاء الساذج الذى تتميز به أمك ..

وقلت لأمك وأنا أحاول أن اصبرها :

— أصل عبد العظيم راجل محافظ .. تلاقيه مستنى الدخلة !!

وهزت رأسها فى صمت ، كأنها لا تصدقنى .. ثم قالت بعد برهة :

— اذا كان راجل محافظ ، يبقى لازم زعلان وهو شايفك داخل خارج عندنا كل يوم ..

قلت بسرعة وقد فوجئت :

— يا شيخة حرام عليكى .. دا راجل متأكد انك زى أختى وهدى زى بنتى .. ما هو حضر الموضوع من أوله ..

وعادت تسكت ، وتنقل عينيها حولها كأنها تبحث عن كأس ..

ولم يحدث أبدا بعد أن تم هذا القران الوهمى بين أمك وعبد العظيم أن حاولت أن تذكرنى بما كان بيننا .. بل لم أر فى عينيها نظرة تنم عن أنها تذكر شيئا مما كان .. كانت تحرص فعلا على أن تغسل خطيئتها بالنسيان .. وكانت تريد بكل ارادتها أن تعود امرأة شريفة ..

ولم يحاول عبد العظيم أن يبذل جهدا لارضاء أمك ، أو حتى لتغطية الخدعة التى أقنعها بها انه تزوجها .. وكان يخاف أن

تتسرب اخبار هذا الزواج الوهمى الى المجتمع ، كان يخاف جدا ، وابعده خوفه عنها وعن زيارتها ، لم يذهب اليها الا معى ، وبعد الحاح منى .. وكان يجلس بيننا كأنه يؤدى واجبا ثقيلا قذرا .. ولا ينظر اليها الا ممتعضا .. ولا يحادثها الا بوقاحة .. حتى اضطر ان الكزه فى جنبه ، لينتبه الى تأدية دوره .. فيبتسم لها ابتسامة كريهة كأنه يعضها بأسنانه ..

وهى تحتمل كل هذا فى صبر صامت .. كأنها تستطيع ان تحتمل اى شىء ما دامت قد اصبحت زوجة ..

وانت ساكتة دائما .. لا تفعلين شيئا الا ان تنظرى بعينيك وتزدادين هزالا .

ربما اسعدك شفاء امك من ادمانها ، ولكن سعادتك لم تغير منك شيئا ..

وربما كنت تشعرين بكل ما يدور حولك .. فلم تطمئنى الى زواج امك من عبد العظيم .. بل ربما احسست بأن هذا الزواج خدعة .. مجرد زواج وهمى .. ورغم ذلك فانك لا تفعلين شيئا .. انك كضميرى .. كلاكما يقف منى موقفا سلبيا .. لا يستطيع أن يحطمنى ، ولا يستطيع ان يقومنى .. ولكن فقط يعذبنى !

وقلت وانا انظر اليك بعينين ضيقتين كأنى احاول ان اصل الى اعماقك ، كما تحاولين ان تصلى الى اعماقى :

ــ انت صحتك مش عاجبانى ابدا يا هدى !

قلت فى هدوء اشبه بهدوء ثلوج القطب الشمالى :

ــ ابدا .. صحتى كويسه !

وقال عبد العظيم وهو يحاول ان يبدو كزوج امك :

ــ دى محتاجة لتغيير .. لازم تخرج من البيت وتشم هوا .. طول ما هى قاعدة القعدة دى صحتها مش ممكن تتحسن !

وقلت كأن خاطرا طرا على راسى فجأة :

ـ لك حق يا عبد العظيم .. قومى يا هدى البسى ، وتعالى معايا افسحك فى العربية شويه ..

قلت وانت تنظرين الى :

ـ لا .. متشكره !

وقال عبد العظيم كأنه يستعمل سلطانه عليك :

ـ قومى يا هدى مع عمك الباشا ..

ونظرت اليه كأنك تتوسلين اليه ان يرحمك ..

وقالت امك ، وقد خطر لها اننا سنتركها وحدها مع عبد العظيم :

ـ ما تقومى يا بنتى .. ده حرام كمان تحبسى نفسك الحبسة السوده دى !

وقلت كأنك تهمين بالبكاء :

ـ مش عايزه أخرج يا ماما ..

وقالت امك وهى تحاول أن تسترد سلطانها القديم عليك :

ـ لا .. قومى .. علشان خاطرى ؟

وقمت الى غرفتك وانت تزفرين ، وتتبعت جسدك بعينين نهمتين تخلعان عنك الثوب وتفتشان فيما تحته ..

وعدت ترتدين ثوبا بسيطا فى لون سماء الصيف .. واحد من تلك الأثواب التى تصنعينها بيديك وتخفين بها خطوط جسدك ، فلا تضيق مع خصرك النحيل ، ولا ترتفع مع نهديك ، ولا تستدير مع ساقيك ، انما تنسدل فى خطوط مستقيمة كأنها خطوط ستار ينسدل فوق كنز حى تضنين به على اعين الناس ..

وابتسمت لك فى حنان كأنى احاول ان اطمئنك على نفسك منى ..

ونظرت الى بعينيك العميقتين .. النظرة التى تثقب صدرى ..

وهممنا بالخروج من البيت ، وقال عبد العظيم وهو يهم معنا :

ـ خدونى معاكم يا جماعة ..

وقفزت رأس امك كأنها تكاد تنفصل عن جسدها ، ونظرت اليه فى دهشة ، ثم تهدلت نظرتها وكست وجهها سحب من خيبة الأمل .. واحنت رأسها ، وسكتت ..

وقلت له كأنى الومه :

ـ ما تخليك انت يا عبد العظيم .. مش تقعد مع العروسة شوية !

وقال عبد العظيم وهو يبتسم ابتسامة باهتة :

ـ ما اقدرش والله يا باشا .. ورايا ميعاد ..

ثم نظر الى امك فى تأفف وقال وهو ينظر اليها من عل :

ـ العروسة عارفه ظروفى ، والايام قدامنا كتير !

وخرجنا .. وتركنا امك وحـدها .. وركب عبد العظيم سيارته ، وركبت انت بجانبى ، وقلت للسائق :

ـ اطلع على الجزيرة يا اسطى ..

وسادت بيننا فترة صمت طويلة كنت خلالها انظر فى قفا السائق ، كأنى استوحيه كلاما اقوله ..

واشتدت حيرتى ..

ماذا اقول لك ؟ فيم نتكلم ؟ اى موضوع يمكن أن يجمعنا ؟

لو كانت بجانبى « شوشت » ابنة خيرية لوجدت الف موضوع اتحد ثفيه معها .. كنت استطيع ان احدثها عن افلام السينما ، وعن امهات صديقاتها ، وعن الحب والزواج ، وعن فضائح المجتمع و .. و .. ان شوشت فتاة تعيش .. وعقلها وقلبها يسعان الدنيا كلها .. اما انت فلا تعيشين .. لا تعيشين الا فى صدرى !

بل لو كانت شوشت بجانبى ، لاستطعت ان امد يدى واتحسس نهديها وانا اقول لها :

— والله كبرت يا شوشو .. انا حادور لك على عريس بكره الصبح !!

ثم أعود واضغط على نهدها ، وارتفع بكفى الى عنقها . والتقط بأصابعى من فوق جسدها نشوة تهزنى وتلهينى عن اعمالى التى تضج فى راسى .. دون أن احس فى كل ذلك بالحرج ، ودون أن تحس هى الأخرى بالحرج .. دون ان تحس بأنى آخذ منها شيئا ، او ان شيئا نقص منها .. فتقابل اصابعى التى تتحسسها بابتسامة كبيرة ، وتميل على وتقبلنى قبلة سريعة فوق وجنتى وهى تقول :

— انا زعلانه منك يا اونكل .. فين المايوه اللى قلت لى انك حا تبعت تجيبه لى من امريكا ؟!

كان هذا يحدث لو كانت بجانبى شوشت .. اننا فى مجتمعنا لا نعقد الحياة ، ولا نضع حول انفسنا قضبانا من التقاليد والمعانى الضيقة تحول بيننا وبين متعة الحياة .. ان حياتنا فسيحة منطلقة ، نشرب منها بقدر ما تسع افواهنا ، ونسير فيها بقدر ما تطيق انفاسنا .. اما حياتك انت .. يا حفيظ .. انكم تعيشون فى قمقم تسمونه الشرف .. كل حركة ، وكل كلمة ، وكل لفتة ، لها قيود من حديد تصلها بوتد ضخم اسمه الشرف .. وتنتهى حياتكم ، تماما كما تنتهى حياتنا .. انكم لا تعيشون اكثر منا .. ولا يحتفل الشرف بتشييع جنازاتكم ، ويرفض ان يشيع جنازاتنا .. الفرق الوحيد .. انكم تموتون محرومين من الحياة ومتعتها ، ونحن نموت متخمين بالمتعة ..

واطلت النظر فى قفا السائق وانا لا زلت ابحث عن موضوع احدثك فيه .. وانت تنظرين الى الطريق من خلال نافذة السيارة ، ولا ادرى هل كنت تستنشقين الهواء ، ام تزفرين ما بقى من انفاسك ..

واخترت الموضوع الذى احدثك فيه ..

موضوع والدك ..

انه الموضوع الوحيد الذى يثير اهتمامك ، ويفتح قلبك ، ويطلق لسانك ..

وقد حدثتك عنه كثيرا .. عن طفولتنا ، وعن زمالتنا فى المدرسة ، وعن ذكائه ، وسمو خلقه .. و .. و .. حديث معظمه كاذب ، ومعظمه لا يعبر عن حقيقة رأيى فى والدك ، ولا حقيقة رأيه فى ..

وانطلقت أنت أيضا تحدثيننى عنه .. عن حنانه ، وحبه لك ، ومثاليته ، ونوادره فى البيت .. ثم قلت لى ونحن نمر فوق كوبرى قصر النيل ، وبين شفتيك ابتسامة كبيرة حالمة :

ـــ كان بابا بياخدنى فى الصيف كل يوم خميس نتمشى على الكوبرى ده ..

وقلت بلا تفكير :

ـــ تحبى ننزل نتمشى شوية ؟ !

ونظرت اليك أرجوك أن ترفضى اقتراحى ، ولكنك قلت بسرعة وبفرحة :

ـــ ايوه ..

كانت المرة الأولى التى أرى فيها مثل هذه الفرحة على وجهك ، والمرة الأولى التى تستجيبين فيها لى بمثل هذه السرعة ..

ولم اكن استطيع ان اتراجع ، فأمرت السائق بالوقوف ، ونزلت معك نسير على كوبرى قصر النيل .

انى لم أمش على قدمى فوق كوبرى قصر النيل منذ سنين طويلة .. لا أذكر متى مشيت فوقه .. ربما قبل أن أولد .. قبل أن أصبح غنيا .. بل إنى لا أسير على قدمى فى أى مكان الا عندما يأمرنى الأطباء ..

وحاولت أن أمتع نفسى بالسير بجانبك فوق الكوبرى .. حاولت أن أتخفف من ثقل مركزى الاجتماعى ، ومن فخامة مظهرى :

.. ولكنى لم استطع .. خيل الى وانا اسير بين بقية الناس انى غريب بينهم .. وخيل الى ان كل من يمر بى ينظر الى كأنه ينظر الى مخلوق عجيب هبط من عالم آخر .. وخيل الى انى اسير فوق أرض لا اعرفها ، وبدأت خطواتى ترتبك فعلا ، وشعرت ان كل الناس لاحظوا ارتباك خطواتى .. ان الارتباك الذى يحس به الفقير وهو يدخل قصرا من قصور الاغنياء ، هو نفس الارتباك الذى يحس به الغنى وهو يدخل شارع الفقراء ..

وبدأت احس بالضيق ، والخجل من نفسى .. احسست بياقة قميصى تكاد تخنقنى ، وبكرشى التى احملها منذ سنوات كأنى لم اعد استطيع حملها .. واحسست بالخجل من الدبوس الماسى الذى ارشقه فى رباط عنقى ، ومن الخاتم الكبير الذى اضعه فى اصبعى .. وتمنيت لو نزعت الدبوس والخاتم والقيتهما فى جيبى كأنى اخفى عن الناس فضيحة ، واخذت — بلا ارادة منى — رفع يدى واضعها فوق صدرى لاخفى بها هذا الدبوس ، ثم أنزلها واضعها فوق الخاتم لأخفيه ، واخفى بريقه عن اعين الناس ..

وكرهتك فى هذه اللحظة ..

كرهتك لانك تحاولين أن تنزلى بى الى طبقتك .. الى دنياك .. كرهتك كما تكرهيننى وانا احاول ان ارتفع بك الى طبقتى .. الى دنياى ..

وكلانا فشل مع الآخر ..

انا فشلت فى ان اجعلك تسعدين فى دنياى ، وانت فشلت فى أن تسعدينى فى دنياك ..

ولكنك كنت لاهية عنى ، ونحن نسير فوق الكوبرى .. كنت كالعصفور الذى خرج من القفص وعاد الى سمائه .. كنت تبتسمين وتكادين تضحكين ، وكنت تعرضين وجهك للهواء كأنك تستقبلين قبلات حبيب اشتقت اليه ، وكنت تميلين فوق حاجز

الكوبرى وترقبين المراكب وهى تسرى فوق صفحة النيل ، كأنك طفلة ترقب مركبا صغيرا صنعته من الورق والقت به فى الماء ..

وانا بجانبك ، مرتبك ، انظر من تحت جفنى الى الناس فى نظرات مسكينة كأنى اعتذر لهم عن دخول دنياهم ..

وانتهينا الى آخر الكوبرى ، ووقفت فجاة امام عربة يد محملة بالترمس .. وامتدت يدى بسرعة وقبضت على ذراعك ، وشددتك الى كأنى احميك من الموت ..

ونظرت الى فى دهشة ، وقلت فى صوت له رنين وابتسامتك لا تزال بين شفتيك :

ـ بابا كان دايما يشترى لى ترمس لما نيجى هنا ..

ونظرت الى كوم الترمس .. انه فى لون الذهب .. ولكنه اشد اغراء لك من الذهب .. الذهب الذى اعرضه عليك ..

وقلت لك ، وكأنى خائف من هذا الترمس :

ـ بس احنا كبرنا على الترمس يا هدى !

قلت فى بساطة :

ـ ابدا .. كل الناس بتاكل ترمس .. شوف .. اهو فيه راجل عجوز بيشترى !

قلت :

ـ بس خايف ما يكونش معايا فكة ..

وارتخت عيناك كأنك صدمت ، واختفت ابتسامتك ، وقلت فى صوت فاتر :

ـ بلاش !

وترددت .. وظللت واقفا وعربة اليد قريبة منى وفوقها كوم الذهب وقلت لنفسى : « لماذا لا تشترى لها ترمس ؟ .. انها ترفض كل ما قدمته لها من ذهب حقيقى ؛ لعلك ترضيها بالذهب الزائف .. ان هؤلاء الناس لا يتعلقوا الا بالزيف » ..

واقتربت خطوة من عربة الترمس ، ثم ارتفع فى صدرى صوت يسخر منى : « تصور لو لمحك الآن احد اعضاء النادى ..

انه سيفضحك منك .. وسيفضحك .. وسيذيع عنك فى كل مكان أنه شاهدك على كوبرى قصر النيل تشترى قرطاسا من الترمس .. انها اهانة لك .. اهانة لمركزك .. بل انها خيانة للطبقة التى تنتمى اليها .. الطبقة التى لا تأكل الترمس فى الشارع » !

ورغم ذلك فقد اقتربت خطوة أخرى من الذهب الزائف ، وانا أقول لنفسى : « ماله الترمس .. لقد كنت تحبه فى صباك .. كنت تسرق من نقود أمك لتشترى الترمس .. هل نسيت ؟ .. ان الترمس لا يزال يقدم لك الى اليوم فى نادى السيارات ، بجانبه كأس الويسكى .. ان العيب ليس فى الترمس ، ولكن فى طريقة تقديمه .. ان الترمس طبقات أيضا .. ترمس فقير يقدم على عربة يد تجرها أيد قذرة فى الشارع .. وترمس أرستقراطى يقدم فى نادى السيارات فى أطباق من الفضة وبأيد داخل قفازات بيضاء .. الترمس كالبشر .. كلنا بشر .. ولكن هناك بشر يرتدون جلابيب قذرة ، وبشر يرتدون حللا أنيقة ويرشقون فوق صدورهم دبوسا من الماس » ..

واستمرت المعركة فى صدرى ، واحتجت لجهد كبير حتى أخطو خطوة أخرى نحو عربة الترمس .. ولو كنت طلبت منى سيارة كاديلاك لما تعرضت الى هذه المعركة ، ولما احتجت الى كل هذا الجهد ، لانتصر على نفسى ..

ومددت يدى الى عربة الترمس ، وأنا أنظر حولى كأنى لص ، ثم اختطفت قرطاسا وقلت للرجل بسرعة وكأنى أنهره :

— بكام ؟ !

وقال الرجل وهو ينظر الى فى دهشة ، وكلماته تخرج بطيئة كقطرات من صنبور مخروب :

— قرش يعريفه يا سيدنا لفندى ..

وأسقط فى يدى ..

انى لا أحمل قروشا .. منذ أكثر من ثلاثين عاما لم تقبض

أصابعى على قرش .. ان القروش مجرد أرقام فى دفاترى تنتهى الى جنيهات .. ملايين الجنيهات .. وحتى الجنيهات لا امسكها ، ولا احملها فى جيبى .. انى لا احمل ابدا الا اسمى ، وأوقع به على وقة فتصبح نقودا تخرج من البنك .. انى أدفع كل شيء بتوقيعى .. بل انى أضن بتوقيعى على المبالغ الصغيرة ، واترك الموظفين يوقعون عليها بدلا منى ..

ماذا أفعل الآن ؟ ..

هل أعطى لبائع الترمس شيكا بنصف قرش ؟

وارتبكت .. وازداد ارتباكى .. وأخذت اتحسس جيوبى .. والبائع رفع ساقه وارتكز بقدمه على ذراع العربة ، وأخذ ينظر الى بوقاحة ، وبين شفتيه ابتسامة ساخرة ، ثم قال :

— جرى ايه يا افندى .. المحفظة لامؤاخذة اتنشلت ولا ايه ؟ !

قلت فى خوف :

— لأ .. أبدا .. بس يظهر ما عنديش فكة !

وقال وهو يكاد يقهقه :

— ربنا يفكها عليك .. رجع القرطاس محله وحياة ابوك !

وقلت أنت :

— أنا معايا فكة !

ثم فتحت حقيبتك ودفعت للرجل ثمن القرطاس .. فأخذه وهو ينظر الى ساخرا ، ثم صاح ينادى على الترمس وكأنه يصفعنى بندائه : اللذيذ قوى !!

وأعطيتك قرطاس الترمس ، ثم قلت لك بحدة :

— اظن نرجع بأه ..

وسرت فى خطوات سريعة ، وعرق بارد ينضح فوق جبينى .. لم أخجل ولم أرتبك فى حياتى ، قدر ما ارتبكت وخجلت يومها ..

وانحسر خجلى وارتباكى عن حقد وغل .. حقدت عليك ، وعلى بائع الترمس ، وعلى الناس الذين يتنزهون فوق الكوبرى .. ان لكم دنيا كاملة .. دنيا كنت قد نسيتها .. دنيا تمتعون فيها أنفسكم بشم الهواء وقزقزة الترمس .. انكم سعداء .. سعداء .. ربما كنتم سعداء أكثر منى .. سعداء دون أن تكونوا أغنياء مثلى .. ولستم فى حاجة الى الأسعدكم .. انى أريد أن أحطم هذه السعادة أريد أن أعصرها بين يدى .. أريد أن أقبض على أعناقكم جميعا حتى لا تستنشقون الهواء الا من فضلى ، ولا تأكلون الترمس الا اذا أردت لكم أن تأكلوه ..

وأسرعت فى خطواتى أكثر ، وأنت بجانبى تكادين تجرين لتلحقى بى .. ووصلنا الى السيارة .. ودخلتها بسرعة كأنى كنت أريد أن أحتمى فيها من هؤلاء الناس الذين يتنزهون على الكوبرى ويقزقزون الترمس .. أحتمى فى قلعتى .. أحتمى وراء نفوذى وثرائى ..

وقلت للسائق فى حدة :

— سوق .. سوق يا أسطى .. سوق قوام !

وسارت بنا السيارة .. وبدأت أهدأ شيئا فشيئا .. وعدت أنظر اليك .. وخيل الى انك استرددت كل صحتك .. أن حمرة خفيفة بدأت تتسلل الى وجنتيك .. والسعال قد كف عنك .. وخيل الى انك لم تعودى هزيلة ، ونظرت أنت الى نظرة لم أرها من قبل فى عينيك .. نظرة رضاء .. انك راضية عنى .. أخيرا رضيت عنى .. كأنى أصبحت رجلا شريفا ، لمجرد أنى اشتريت لك قرطاس ترمس ، وتركتك تدفعين ثمنه ..

وسمعتك تقولين فى صوت رائق كرنين البلور :

— أنا متشكرة قوى على الفسحة الجميلة دى !

وقلت وأنا أبتسم لك :

— انبسطت يا هدى ؟

قلت :

ــ قوى .. قوى .. زى ما كنت بانبسط مع بابا !!

وابتلعت ذكرى والدك بصعوبة ، ثم قلت :

ــ اهو كل يوم نبقى نخرج مع بعض !

قلت :

ــ باذن الله ..

ومددت يدى ، وربت بها على يدك .. ثم حاولت ان اتركها فوقها .. وقد تركتها برهة .. ولكنى لم اشعر بنفس ما اشعر به وانا اضع يدى فوق يد شوشت .. لم اشعر بتيار المتعة يسرى منك الى .. لم ينبعث من يدك شيء يسرى فى يدى ويهزنى .. انما انبعث منها تيار هادىء ضعيف تلاشى قبل أن يتعدى يدى الى بقية حبال اعصابى .. كأن يدك تتنفس فى رقة وضعف .. أنفاسا طاهرة لا تثير فيمن يلمسها الا حنانا ..

واوصلتك الى بيتك ..

وعدت الى مكتبى وانا اسخر من نفسى ومن احساسى .. وأتخيل نفسى واقفا أشترى قرطاسا من الترمس .. فتشتد سخريتى .. كأنى أنظر فى خيالى الى رجل آخر .. رجل ليس محترما ، ولا مهابا ، ولا جبارا .. رجل ليس حسين باشا شاكر ..

ــ ١٩ ــ

ودخل على عبد العظيم مساء اليوم التالى ، وهو مكفهر الوجه ، وجلس على المقعد المواجه الى مكتبى دون ان يتكلم .

ونظرت اليه نظرة متشائمة ، وقلت كأنى اتوقع شرا كبيرا :

ــ مالك .. مالك معقد كده .. حد مات لك ؟ !

قال وهو ينظر الى من تحت جفنيه نظرة متوسلة كأنه يطلب منى المغفرة :

ــ لا .. ما ماتش ..

قلت وانا احاول ان افهم :

ــ مين هوه اللى ما ماتش ؟ :

قال على عادته فى حمل الأنباء السيئة الى :

ــ عادل .. حصلت له حادثة خطيرة فى القصير ، انما الحمد لله نجى !!

وسكتنا نحن الاثنين ..

كانت نجاة عادل مصيبة لنا .. فشل لخطة وضعناها .. وقد كانت خطة محكمة .. خطة جربت من قبل ، وافلحت فى خلق حوادث مؤسفة لبعض الموظفين من العمال .. وبالصدفة كان كل هؤلاء الموظفين والعمال ممن تريد الشركة ان تتخلص منهم !!

كانت خطة بسيطة ..

ففى القصير نوع من العربات المعلقة تسير على اسلاك

ممتدة فى الهواء وتنقل الفوسفات بين المناجم والمصنع الذى تطحن فيه احجار الفوسفات وتغسل وتعد للشحن ..

هذه العربات أشبه بالمقاعد المعلقة التى تنقل الناس الى قمم الجبال فى أوروبا .. وهى تندفع عندما تصل الى المنجم ، داخل نفق صغير خافت الضوء ، اندفاعا قويا خطيرا ، واحيانا لا يحترس العمال من هذا الاندفاع ، ويقفون فى طريقها فتصدهم وتقتلهم .

وقد اضطرت الشركة الى ان تضع حاجزا حديديا يحمى العمال ، وان تعلق يافطة كبيرة مكتوب عليها : « احترس — خطر » ، ورغم ذلك فلا تزال بعض الحوادث المؤسفة تقع ..

وصدر الأمر لعادل بأن ينتقل للعمل داخل هذا النفق ، ليراجع حساب العربات التى تنقل الفوسفات كل يوم ..

وكان عادل يذهب الى هناك كل صباح ، ويبقى حتى انتهاء العمل .. وكان يقف مرتكزا على الحاجز الحديدى .. والعربات تندفع داخل النفق فى سرعة مخيفة وبصوت مزعج ، وهو مطمئن ما دام بينه وبينها هذا الحاجز الحديدى ..

ولو استطاع اى عامل ان يدفع عادل دفعة خفيفة لخرج من وراء الحاجز ، وصدمته العربة .. ومات .

والعمال الذين يعملون فى هذا النفق ، لا يزيد عددهم على اثنين .. يبدلان كل ثمانى ساعات بعاملين آخرين ..

وكان هناك عامل معين سيأتى عليه الدور ليعمل فى النفق الصغير المظلم ..

عامل يفهم المطلوب منه جيدا ..

وجاء هذا العامل ..

وكانت مهمته أن يفتح طاقة فى اعلى سقف النفق ينحدر منها الفوسفات ويملأ العربة ، لتعود الى المصنع .. وتأتى عربة أخرى ليحملها بالفوسفات .. وهكذا ..

وفجأة صرخ العامل ووضع كفيه على وجهه ، مدعيا ان حجرا من احجار الفوسفات سقط عليه واصاب عينيه .. وخرج عادل من وراء الحاجز ، وهرع اليه .. فمال عليه العامل بجسده كله كأنه يستند عليه ، ودفعه وراء الحاجز الحديدى بينما كانت العربة مندفعة داخل النفق بسرعتها المخيفة وصوتها المزعج ..

وقفز عادل وتعلق بذراعيه فى الحاجز الحديدى ، واخرج راسه منه .. وصدمت العربة ساقيه ..

وهكذا نجا ..

لم يتحطم راسه ..

لم يمت ..

لم يقتل ..

انما فقط كسرت ساقه ..

وتوقف العمل لحظات اكراما لعادل .. وارسلت الشركة طبيبها لاسعافه .. وحمله العمال الى خارج منطقة المناجم وهو شبه مغمى عليه ..

ولكى تثبت الشركة براءتها امام العمال ، وتبدو كأنها شركة من الملائكة ، قررت نقل عادل فى طائرة خاصة ليعالج فى القاهرة على حسابها ..

وقلت لعبد العظيم وانا ابتلع خيبتى :

— الحكاية دى حصلت امتى ؟

قال وهو يتنهد فى مرارة :

— النهارده الصبح ..

قلت فى حدة :

— وايه اللى خلاكم تنقلوا عادل لمصر .. ما يتعالجش هناك ليه ؟ .. الشركة ما فيهاش استعدادات كفاية ولا ايه ؟ .. انا عايز كل شركاتى تكون دايما مستعدة .. احنا مسئولين عن ارواح العمال والموظفين دول ..

ونظر الى عبد العظيم يهنئنى على وقاحتى ، وقال وهو يبادلنى نفس الأسلوب الملتوى :

ـــ الشركة فيها كل الاستعدادات .. والعمال والموظفين بيدعوا لسعادتك .. لو كانت الحادثة دى حصلت فى شركة تانية ، كان العمال اتهموا بيها الشركة .. انما العمال بتوعنا عرفوا ان قلبنا عليهم .. خصوصا بعدما نقلنا عادل فى طيارة مخصوصة علشان يتعالج فى مصر ..

وفهمت ما يريد أن يقوله عبد العظيم .. انه يريد أن يقول انه نقل عادل الى مصر حتى يبعد جسم الجريمة عن محيط العمال ، فلا تثور بينهم الشكوك التى قد تنتهى الى اتهام ..

وقلت فى غيظ :

ـــ والاضراب .. عملتم فيه ايه ؟ !

قال :

ـــ المدير لسه بيتفاوض مع العمال .. واظن دلوقت بقت المسألة أسهل بعد ما جه عادل مصر ..

ولم أرد عليه ، وتركته ينصرف عنى وهو لا يزال ينظر الى كأنه يستغفرنى .. أو كأنه مشفق على من فشله ..

واشعلت سيجارا كبيرا ، وحاولت أن أهدأ ، ولكنى لم أستطع .. ان الجريمة الفاشلة تترك فى نفس المجرم اثرا أحد واقسى مما تتركه الجريمة الناجحة ..

وذهبت اليك ..

ذهبت اليك وكلى حقد وغيظ ، أدرس بثيابى تضيق على ، واحس بأنفاسى تتحشرج فى زورى .. كنت أريد أن أنفس عن فشلى .. أريد أن أحاول مرة ثانية أن أقتل عادل .. اقتله فيك !

ووجدت البيت هادئا ، والأضواء خافتة ، وسألت الخادم الذى فتح لى الباب :

ـــ فين الست الكبيرة ؟

قال :

— فى أودة الست هدى .. يظهر الست الصغيرة غيانة قوى !!

.. ودخلت أخب فى الضوء الخافت ، متسللا على أطراف أصابعى ، وقد انطفأت صواريخ الحقد التى كانت تفرقع فى صدرى .. أطفأتها ريح باردة من الرهبة والجزع ..

انك مريضة ..

مريضة جدا ، كما يقول الخادم ..

وانا أحبك .. هذا النوع من الحب الذى وصفته لك ..

ولكن كل ذلك لا يستدعى هذه الرهبة ، وهذا الجــزع الذى أحس بهما .. انى لا أستطيع أن أفسرهما ، ولا أستطيع أن أجد لهما سببا .. وربما كان السبب الوحيد هو أنى أخاف عليك أن تضعفى أكثر من ضعفك .. ان ضعفك يجعلنى أقوى منك .. وانا أخاف من نفسى اذا قويت عليك ..

ان كل ما يحميك منى هو القوة التى أتوهمها فيك .. قوة شخصيتك ، وقوة نظراتك التى تثقب صدرى ، وقوة تعففك عنى وتمردك على سلطانى .. فاذا ضعفت هذه القوة فلا شىء يحميك منى .. ولا شىء يقيد شرى أو يردعه . .

وكان باب غرفتك مقفلا ، ففتحته فى هدوء واحتراس .. ودخلت اليك كاللص .. كالشبح .. والتفتت والدتك وهى جالسة فوق فراشك عند قدميك ، وشهقت شهقة حادة ، ثم قالت فى صوت هامس ، وهى تضع يدها على قلبها ، وتتفتف فى عبها :

— خضتنى يا حسين ..

قلت هامسا وأنا أقترب من فراشك :

— مالها هدى .. عندها ايه ؟

قالت وفى عينيها بقية من دموع :

— والنبى ما انا عارفه يا خويا .. مسكتها السخونية من

النهارده الصبح .. ومن ساعتها وهى بتفرفر ذى الفرخة المدبوحة .. أنا عارفه ايه اللى حصل لها ..

قلت كأنى اطمئن نفسى :

ـ يمكن خدت برد امبارح واحنا بنتمشى على الكوبرى ..

قالت وهى تلتقط بأصبعها دمعة سالت فوق خدها :

ـ دى رجعت زى الوردة .. عمرى ما شفتها فرحانة وبتضحك زى ما رجعت امبارح .. وقعدت طول الليل أدعى لك علشان خاطرها ..

وأدرت عينى اليك ..

ان وجهك باهت .. وأنفاسك هافتة .. وجسدك ممدد كالخيط الرفيع تحت ملاءة بيضاء .. خلتك ميتة ..

وأطلت النظر اليك ..

انى أستطيع أن انظر اليك الآن طويلا دون أن أخاف عينيك فقد خبا نورهما القوى تحت جفنيك المسدلين ..

وعدت اهمس لأمك :

ـ هى نايمه ؟

قالت فى أسى :

ـ من صباحة ربنا وهى تفتح عينها شوية ، وترجع تنام .. يا رب استر يا رب ..

قلت وأنا لا زلت أنظر اليك :

ـ جبتى الدكتور ؟ ..

قالت وهى تهز رأسها يمنة ويسرة كأنها تعدد مآثر ميت :

ـ جبت يا خويا .. قال ان صدرها تعبان .. واداها حقن وادوية .. ورجع بعد الضهر اداها حقنة تانية ..

وجلست على مقعد مواجه لفراشك وأنا منقبض .. كل شىء فى ينقبض .. صدرى ، وقلبى ، واعصابى ، وعضلات وجهى .. لماذا مرضت ؟ ..

هل بلغك خبر محاولة قتل عادل ، فمرضت من أجله .. هل تعاقبينني بمرضك !!

واحسست بالثورة عليك ..

نعم ، ثرت عليك ..

انى لا أشفق على المرضى .. انى أمقتهم ، وأكره أن أراهم .. أكره الضعف ، وأكره الشكوى والأنين .. ان المرضى قطع متآكلة فى عجلة الحياة ، أفضل أن اتخلص منها واستبدل بها قطعا جديدة قوية تحتمل الحياة .. ولا شىء يغيظنى أكثر من موظف أو عامل يمرض واضطر أن أدفع له أجره خلال مدة مرضه ، كأنى أكافىء الضعفاء .. كأنى أشترى ضعفا .. ولا شىء أمقته أكثر من « الاجازات المرضية » .. انى أحس أن هذه الاجازات تقتطع من لحمى .. كأن المرض انتقل الى أنا ..

ولكن احساسى بمرضك كان أكثر من ذلك ..

أحسست كأنك تتخلين عنى .. كأنك تتركيننى وحدى لعبد العظيم ، يسيطر على بعقليته ، ويقودنى فى طريق الأطماع بلا شىء يقيد من خطواتى ويجعلنى أسير متزنا .. أحسست أن الشىء الذى يعيش فى صدرى قد مرض هو الآخر .. أصبح باهتا كلون وجهك .. مطفأ كنور عينيك .. ضعيفا .. ضعيفا جدا .. أضعف من أن يحمى الناس منى ..

ولم أكن وأنا جالس فى مواجهة فراشك أفكر فيك .. كنت أفكر فى نفسى : « لعلها تموت فأتخلص منها ، وأتحرر من هذا الشىء الذى يكتم أنفاسى ، ويتحرك كالسكين بين رئتى .. لعلها تموت ، فتموت معها نزوتى التى تدفعنى الى محاولة أن أكون رجلا شريفا ، والتى تصور لى أنى لن أكون شريفا الا اذا رضيت عنى ونلت احترامها .. لعلها تموت فيموت معها كل الشرفاء .. يموت الشرف نفسه .. وانطلق معربدا فى أطماعى وشرى » ..

كنت أقول لنفسى هذا الكلام ثم لا يلبث صوت آخر أن يرتفع من صدرى .. صوت ضعيف مريض كأنه صوت بكاء وتوسل .. صوت يقول لى « تمن لها الحياة .. انها تستحقها .. وهى تستطيع أن تجعل منك رجلا شريفا .. تستطيع أن تريح صدرك من القلق والحيرة .. لقد استطاعت أمس ان تقنعك بأن تسير معها على كوبرى قصر النيل .. وأن تدع انفك يشم هواء نقيا نظيفا ليس كهواء النادى المشبع برائحة الدخان والخمر والأطماع .. وقد ابتسمت لك ، ورضيت عنك .. واحسست بالراحة لابتسامتها ورضائها .. أحسست انك أصبحت فعلا رجلا شريفا لفترة قصيرة .. ومن يدرى ، ربما لو عاشت لاستطاعت أن تجعل منك دائما رجلا شريفا .. وجعلتك تحس باحترامك لنفسك .. ولأكملت النقص الذى تحس به ، نقص احساسك بأنك رجل شريف » !

وتمنيت لها الحياة .. ثم ما لبث الصوت اجول أن بدأ يرتفع فى صدرى من جديد .. وبدأت اتمنى لك الموت ..

وقمت واقفا ، واقتربت منك ، وعدت أطيل النظر اليك .. ثم خرجت دون أن أحيى أمك ..

خرجت ثائرا ..

وعدت الى بيتى وانا لا زلت ثائرا ..

لم أحاول أن أذهب الى النادى ، أو الى شقتى الخاصة لأرفه عن نفسى ، كأنى كنت أريد أن أعيش مع ثورتى ..

لم أكن حزينا . ولم اكن مشفقا .. ولكنى كنت ثائرا .. ثائرا عليك .. وثائرا على نفسى .. وثائرا على الحياة كلها .. ثائرا على الخـــير والشر معا .. نفس الثـــورة التى تجتاحنى عندما أخدع فى صفقة من صفقاتى ..

وقضيت الليل ثائرا .. ليل طويل ثقيل ..

ثم ذهبت اليك فى الصباح قبل أن أذهب الى مكتبى ، كأنى

أريد أن أطمئن الى أنى لم أخسر الصفقة بعد .. وكان المرض قد اشتد بك .. والحمى تأكلك .. وبدأت تخطرفين .. تقولين كلاما عجيبا لا أفهمه .. ثم تسكتين طويلا ، وتعودين تخطرفين ..

ونظرت اليك كأنى أدرس مشكلة اقتصادية أبحث عن حل لهـــا ..

ثم خرجت ..

وذهبت الى مكتبى ، وثورتى تعتمل فى صدرى كالزوبعة .. ولم أحيى أحدا فى طريقى ، كنت أنظر الى كل من يصادفنى كأنى أخنقه بعينى .. كنت أريد أن أحطم شيئا .. أى شىء !

ودخل على عبد العظيم ، وما كدت أرى وجهه حتى صرخت فيه :

— انت راجل قليل الادب .. بقالى تلاتين سنة اربى فيك ما فيش فايده .. ازاى تدخل على بالشكل ده ؟ .. انت نسيت مركزك ؟ .. نسيت أصلك ؟ ..

وبوغت عبد العظيم ، وفتح شفتيه ليتـــكلم ، فقاطعتـــه مستطردا :

— اتفضل ارجع مكتبك .. مش عايز اشوف خلقتك .. ما تورنيش وشك الا لما انده لك ..

ونظر الى فى دهشة ، ثم تراجع دون أن يتكلم ..

وجلست وحدى ، كأنى سجين ثورتى وأحاول ان أفر منها .. وأمسكت بالقلم الموضوع على المكتب وحطمته بين أصابعى كأنى أحطم قضبان سجنى .. وأمسكت بالسكين الذى أفتح به الورق ، وهو من الصلب ، وضغطت عليه بكل قوتى حتى ثنيته ، كأنى أثنى ضلوعى لأطلق من بينها ثورتى .. ثم وقعت عيناى على قائمة أسعار بورصة الأوراق المالية ، ولمحت فى نظرة خاطفة أن أسهم شركة الصناعات فى هبوط ، فرفعت سماعة التليفون واتصلت بعبد العظيم ، وصرخت :

— مدير شركة الصناعات يترفد حالا .. النهارده !

وحاول عبد العظيم أن يرد ، فصرخت :

— ارفده .. بقول لك ارفده .. مش عايز حد يناقشنى !

ثم لم أعد أطيق أن أظل سجين ثورتى ، فتركت مكتبى .. وعدت اليك .. ولكنى لم أدخل الى حجرتك .. كأنى كنت أخاف أن أطلق ثورتى فى وجهك .. وبقيت جالسا فى الصالة الخارجية ورائحة الحمى تملأ البيت كله .. كأنها ريح الموت ..

وخرجت ، وانا لا زلت أحمل ثورتى بين جنبى ..

وعدت اليك فى المساء ..

الضوء خافت .. والهواء ثقيل يكاد يكتم الأنفاس .. وأمك جالسة فوق الفراش عند قدميك ، وقد سقط جنفناها فوق عينيها فبدت كالنائمة .. وتعلقت بقايا دموع فوق رموشها كأنها قطرات الندى حطت فوق وردة ذابلة .. وانت ممددة كالخيط الرفيع تحت الملاءة البيضاء .. ووجهك باهت .. وانفاسك تفح بالحمى ..

ورفعت أمك جفنيها ورأتنى داخلا ، ثم أرختهما .. وسكتت ..

وقربت مقعدا من فراشك ، وجلست بجانبك ، وملت اليك بوجهى كأنى أشرب من الحمى التى تنطلق مع أنفاسك .. ثم مددت يدى والتقطت يدك .. ان يدك مشتعلة .. قطعة من نار .. ورغم ذلك ظللت محتفظا بها .. وشعرت فى تلك اللحظة انى أستطيع أن أهبك الحياة ، والشفاء .. أنى لو جمعت ارادتى .. كل ارادتى .. فانى أستطيع أن أسيطر بها عليك ، وآمرك بالشفاء ، فتشفين .. كما يفعل المنوم المغناطيسى .. انى رجل قوى .. أقوى منك .. أقوى من الناس جميعا .. وأستطيع أن أهبك شيئا من قوتى لتشفى ..

وضغطت على يدك .. ضغطت عليها بقوة .. كأنى أنقل ارادتى من خلالها اليك ..

وفى هذه اللحظة فتحت عينيك ونظرت بهما الى .. فتركت يدك بسرعة .. القيتها بعيدا عنى .. كأنى لم اشعر باشتعالهما الا عندما نظرت الى ..

كانت نظرة غريبة ..

نظرة لم ارها فى عينيك من قبل ..

انها نظرة لا تكتفى بأن تثقب صدرى ، ولكنها تحمل معنى الاحتقار والاستهانة .. احتقارى انا ، والاستهانة بى انا .. لا .. لست اقوى منك .. انك لا زلت اقوى منى .. حتى وانت بهذا الضعف أقوى منى ، ولا زلت تستطيعين احتقارى والاستهانة بى ..

وعدت تغمضين عينيك ، كانك قتلتنى وأمنت شرى ، وانتهيت ..

وعادت الى ثورتى ..

كل ثورتى ..

وقمت واقفا وانا أكبت هذه الثورة حتى لا تنفجر ، والتفت الى أمك قائلا :

— قومى نامى انتى يا تفيدة ..

وقالت أمك وهى ترفع جفنيها كأنها ترفع ثقلا من حديد :

— أدينى قاعدة ..

قلت ملحا :

— قومى يا شيخة ، ده انت بقالك يومين صاحيه ..

قالت وهى تتنهد :

— معلهش يا خويا .. ربنا يقدرنى !

قلت :

ــ انا مصمم انك تقومى تستريحى شويه .. هدى نايمة ، وحرارتها بدات تنزل ، وبكرة تكون كويسة باذن الله ..

قالت والتعب يكاد يقتلها ، وهى تنظر الى كانها ترجونى أن استمر فى الحاحى عليها :

ــ وانا حا يجيلى نوم ، طول ما هدى بالشكل ده .. دى ما بقاش فيها يا حبة عينى !

قلت :

ــ طاوعينى بس .. وانا بعد ساعتين اضربلك تليفون واصحيكى من النوم ..

ثم جذبتها من ذراعها ، فقامت معى وهى تقاوم فى استرخاء .. وخرجنا من غرفتك ، وصحبت امك الى غرفتها ، وقلت وانا واقف عند الباب :

ــ تصبحى على خير .. انا نازل دلوقت وبعد ساعتين حاضرب لك تليفون ..

قالت وهى تكاد تقع من فرط التعب :

ــ متشكرة يا باشا .. تصبح على خير !

لقد عادت تنادينى بلقب « باشا » ..

كانى ابتعدت عنها جدا .. كانى خرجت من حياتها ، وكأنها عادت الى شبرا ..

واغلقت عليها بابها ..

واتجهت الى باب الشقة متسللا على اطراف اصابعى .. وفتحت الباب .. وقبل أن اخرج ترددت .. ترددت طويلا .. لا ادرى لماذا ..

كل ما اذكره أن نظرتك التى تحمل احتقارى كانت تلوح امامى ..

ثم اغلقت الباب بصوت مسموع .. اغلقته دون أن اخرج .. ووقفت فترة فى البهو الخارجى ، وقد بدا شىء فى يلهث ، كأنه

كلب عطشان .. واخذت احاول أن أكتم انفاسى ، وقد خيل الى أن لها صوتا مسموعا ..

وانتظرت الى أن قدرت أنه مرت فترة كافية لتنخرط أمك فى النوم .. ثم أخذت أتسلل الى غرفتك ، وأنا أحاول أن ارفع نفسى عن الأرض حتى لا يصدر صوت عن وقع قدمى ..

ووصلت الى غرفتك ..

وأدرت مقبض الأكرة فى احتراس كأنى لص .. والقيت نظرة على غرفة أمك كأنى كنت أخشى ان تنطلق منها وتنقذك .. ثم فتحت بابك .. ودخلت .. وأغلقت الباب ورائى ..

ووقفت فوق رأسك كأنى أسألك عن سر نظرتك التى لطمتنى بها .. ثم شددت مقعدا ، وجلست ملتصقا بفراشك .. وأخذت أطيل النظر اليك .. كأنى أتشفى فيك .. أتشفى بضعفك ومرضك .. وأحسست بلذة التشفى .. انها لذة أقرب الى لذة الراحة .. ليس هناك علاج للحقد الا التشفى .. وقد عالجت حقدى ، وبدأت ثورتى تهدأ ..

وجلست بجانبك طويلا .. لا أدرى كم من الوقت مر وأنا جالس بجانبك .. ربما ساعة أو ساعتان .. وأمواج الحمى تغرق وجهك فيحتقن ويشتعل بلون النار ، ثم تنحسر عنه فيعود باهتا لا لون له ، كأنما انحسرت عنه الحياة ..

وتعلقت عيناى بك ..

لم أعد أستطيع أن أحولهما عنك ..

وشعرت من كثرة تحديقى ، أنى على وشك البكاء ..

أنا أحس برغبة فى البكاء !!

أنا الجبار الذى لا يرحم احسست برغبة فى البكاء .. كأنى اريد أن أبكى نفسى ، أبكى ضعفى أمام الشر ، أبكى تقززى من حياتى كلها ..

وفى لحظة الضعف هذه أحسست أنى اريد أن احتمى بك ..

اريد أن أضع رأسى بجانب رأسك لتغسليه من قذارته ، وأضع صدرى بجانب صدرك لتحيى فيه شيئا على وشك أن يموت ..

وملت برأسى نحو وجهك ..

انك الآن لا ترينني .. ان عينيك مغمضتان .. ولن يخجلنى أن أبدو أمامك ضعيفا ، لن يخجلنى أن أعترف أمامك بحقيقتى ، وأسألك الصفح .. واتوسل اليك أن تنقذى نفسى ، واتوسل بك لانقاذ هذه النفس ..

واقتربت بشفتى من خدك ..

وقبلتك ..

كانت قبلة هادئة بريئة ، لم تنبض بها شفتاى من قبل .. ربما لم يكن فى قبلتى احساس الأبوة .. لم أقبلك كأب .. ولكنى قبلتك كرجل معذب .. رجل حائر معك ، وحائر من نفسه ..

وانتفضت أنت لقبلتى انتفاضة خفيفة ، وسمعتك تهتفين وأنت غائبة فى متاهة الحمى :

ـ عادل ..

لا .. لست عادل .. انا حسين .. ارجوك .. اهتفى باسمى .. أسمعينى اسمى ينطلق من بين شفتيك لأول مرة .. انى أحس بأن اسمى لم ترتعش به شفتان طاهرتان أبدا ..

وعدت أضع شفتى فوق خدك .. وأضغط بهما .. وانفرجت الشفتان انفراجة خفيفة كأنهما تهمان بأن تشرباك ..

وارتفع صوتك أكثر من الأول ، وعدت تقولين كأنك تستغيثين :

ـ عادل .. عادل ..

أستحلفك الا تنطقى هذا الاسم .. انى أكرهه .. أكرهه .. انطقى باسمى أنا الذى بجانبك ..

اسمى فقط .. انا الذى احبك ..

وعدت أقبلك أكثر .. واتسعت انفراجة شفتى كأنى بدأت

اشربك .. انى عطشان .. عطشان جدا .. لن اكف عن شربك .. سأشربك كلك ..

واهتزت راسك وانت لا زلت مغمضة الجفنين ، تائهة فى بيداء الحمى .. وارتفع صوتك عن ذى قبل ، وبدأت تصرخين :
ـــ عادل .. عادل .. عادل ..

اخرسى .. قلت لك : لا تنطقى هذا الاسم .. انى سأجن .. انطقى باسمى انا .. انا حسين .. حسين باشا .. انا الذى أنفق عليك .. انا الذى أسكنتك هذه العمارة الفخمة .. أنا الذى رفعتك من الفقر .. ماذا تساوين من غيرى ؟ .. لا شىء .. ماذا يساوى الناس كلهم من غيرى ؟ .. لا شىء .. انا الذى أوجد لهم عملا .. انا الذى أرزقهم .. انا ربهم الأعلى .. وبعد هذا تستغيثين بهذا الصعلوك الفقير الذى تسمينه عادل ؟ .. اخرسى .. لا تنطقى بهذا الاسم .. نادينى انا .. حسين .. حسين .. حسين ..

وراسك لا يزال فوق الوسادة كأنك تحاولين خلعه من فوق رقبتك .. ولا زلت تصرخين فى صوت ضعيف .. عادل .. عادل ..

واهتز راسك مرة ، فلامست شفتاك شفتى .. فالتقطتهما .. التقطتهما بشفتى ..

هكذا استطيع اسكاتك ..

انك الآن لا تنطقين ..

انك لا تستطيعين الآن الاستغاثة بعادل .. لا أحد يستطيع انقاذك منى .. انك لى .. كلك لى .. انا القوى .. انا المسيطر .. انا السيد ..

وشفتاى فوق شفتيك ..

لم أعد أسمع منك سوى صوت ضعيف كأنين عصفور جريح ، ينطلق بين شفتى ، وينزلق الى صدرى فيدوى فيه دويا رهيبا ،

.. وعيناى جاحظتان .. انى أحس بهما جاحظتين .. وصوت كدوى طبول الحرب تطلقها قبيلة من الزنوج تقف بعيدا عند الأفق الأحمر ..

انى أحس بالجنون يزحف على رأسى ويعمى عينى ..

ورجل آخر فى نفسى يحذرنى من هذا الجنون ، ويحاول أن يشدنى بعيدا عنه .. ولكنه لا يستطيع .. ان الجنون أقوى منه .. ان قبائل الزنوج تقترب .

وتحاولين أن تتملصى من بين شفتى .. تهزين رأسك فى يأس .. فأضغط على شفتيك بشفتى ، وأرمى ثقل رأسى فوق وجهك ، فلا تستطيعين حراكا .. والجنون يشتد بى .. ان هناك جزءا من عقلى انفصل عنى ووقف يرقبنى ويتهمنى بالجنون .. انى أعرف ما أفعله .. أعرف انى جننت .. ولكنى لا أستطيع أن أصد عنى الجنون ..

ومددت يدى ونزعت عنك الملاءة البيضاء ..

كشفت عن جسدك المحموم ..

وتحسست نهدك .. النهد الصبى المتعجرف الذى طالما أثارنى بعجرفته ، ثم طافت يداى ترتعشان ، وقد انتفضت فوقهما عروقهما ، تبعثان عن كنوز مخبأة ..

وشفتاى لا تزالان فوق شفتيك .. ورائحة الحمى تنفح فى وجهى ، كأنها تنفخ فى نار الجنون .. وأنت تئنين كالعصفور الجريح .. وقد ضعفت مقاومتك .. أصبحت لا تستطيعين شيئا وعيناى جاحظتان . انى أحس بهما جاحظتين . وصوت يقهقه فى أذنى ، ويصرخ فى شماتة ، وحقد ، وغل .. انها لك .. انها لك .. أخيرا .. انها لك .. اقتلها .. اقتل الشىء الذى يعذبك ويقلق حياتك .. اقتل ضميرك .. انك ستعيش سعيدا بلا ضمير ..

وامتدت يدى المجرمة ورفعت عنك الثوب ..

وارتفع جفناك فجأة وبدت فى عينيك نظرة رعب ..

رعب مخيف ..

لقد خفت من رعبك ..

وقهقه المجنون فى صدرى ليعيننى على رعبك .. وانطلق صوته يملأ أذنى : خير لك أن تثير فيها الرعب ، من أن تثير فيها احتقارك .. ان الذين يثيرون الرعب هم الأقوياء .. هم الأسياد .. هم المسيطرون ..

وسقط جفناك فوق عينيك ..

واختفى رعبك ..

وقهقه المجنون .. انظر .. لقد أجمدت رعبها .. انها لا تستطيع حتى أن ترتعب ..

لماذا لم تبق نظرتك بعض الوقت .. لعلنى كنت أرتدع .. لعلنى كنت أفيق من جنونى !!

ولكنك كنت أضعف من أن تطيلى نظرتك ، فاختفت .. وتركت المجنون وحده .. ويدى المجرمة لا تزال ترفع عنك الثوب ..

وأعصابى كلها منتفضة ..

انى حيوان ..

حيوان مجنون ..

ويدى المجرمة ترفع بقية الثوب ..

انى لا أستطيع أن أسيطر على جنونى .. لا أستطيع أن أقيد نفسى .. لقد انطلقت من عقالها .. لا شىء يستطيع أن يصدها .. لا شىء يستطيع أن ينقذك وينقذنى منها .. لماذا لا يدخل الناس الآن لينقذونا نحن الاثنين .. كل الناس .. الناس الذين يسيرون فى الشارع .. الناس الذين رأيناهم سويا على كوبرى قصر النيل .. الناس الذين يعملون فى مصانعى ..

والمجنون يقهقه فى صدرى ..
انه اقوى من كل الناس ..
وملت بجسدى نحوك ..
اصبحت بجانبك فوق الفراش ..
و ...

وانت راقدة كالجثة الهامدة .. لعلك مت .. لعلك قد اغمى عليك .. لا ادرى ، كل ما ادريه انك بين يدى .. بين يدى المجنون .. والنار تنطلق من جسدك وتثيرنى .. نار الحمى ..

و ...

واحسست كأنى اقتل .. لا اقتلك انت .. بل اقتل شيئا فى صدرى .. شيئا عذبنى طويلا .. عذبنى منذ كنت فى مدرسة الصنايع زميلا لمحمد افندى السيد .. وانا اتلذذ من قتل هذا الشىء .. اتشفى فيه .. اطلق عليه كل طاقتى المدمرة .. انى احس كأنى انتصر .. انتصر على نفسى .. وقهقهة رهيبة تنطلق فى صدرى ، وتنطلق من عينى الجاحظتين ، وتنطلق مع سيل لعابى من بين شفتى ، ومع قطرات العرق المتفصدة من جبينى ..

و ...

وقمت عنك ..
وانت لا حراك بك ..

واخذت اتلفت حولى فى انحاء الغرفة وفى عينى نظرة خبيثة جبانة .. خبث المجنون وجبنه .. وبين شفتى ابتسامة بلهاء .. وقلبى يدق بعنف .. انى احس بهذه النظرة وهذه الابتسامة ، واحس بدقات قلبى .. كأن هذه النظرة وهذه الابتسامة على وجه غير وجهى .. وكأن هذا القلب ليس قلبى ..

ثم التفت اليك ، وبدأت اعيد عليك وضع ثيابك ..
وفجأة توقفت ..

وازداد جحوظ عينى ..
انها نقطة صغيرة حمراء ، فوق الملاءة البيضاء ..
انها دم ..
دم الفتيات ..

وارتبكت ، وعدت اتلفت حولى كأنى خفت أن يكون أحد معنا يرى ما أراه ..

وخيل الى انى أرى نقطة الدم تكسو الجدران .. ملايين من نقط الدم فى كل مكان .. على الأرض .. وعلى السقف .. ومعلقة فى الهواء .. تكسو ثيابى .. وتنطبع على وجهى ..

وانقلب الحيوان المجنون ، الى مجنون جبان .. أنا خائف .. خائف جدا .. أتوهم ان عشرات الأيدى تمتد فى الهواء وتقودنى فى طريق طويل مفروش بنقط الدم ، فى آخره مقصلة معدة لى ..

واكملت وضع ثيابك عليك ، بيدين مرتبكتين ترتعشان .. ثم غطيتك بالملاءة كما كنت .. وعدلت وضع راسك فوق الوسادة .. وساويت شعرك المهدل فوق جبينك ..

ونظرت اليك فى بلاهة .. وخوف ..
انك لا زلت تتنفسين ..
الحمد لله ..
الحمد للشيطان ..

وتسللت على أطراف أصابعى ، وفتحت الباب فى حرص .. ثم مددت رقبتى لأطمئن الى ان ليس هناك أحد فى طريقى .. ثم خرجت ، واغلقت بابك ورائى دون أن يصدر عنه صوت .. وسرت وانا اكاد أرفع نفسى عن الأرض .. ومررت على حجرة امك ، وسمعت شخيرها ينبعث من خلف بابها ..

وفتحت باب الشقة .. فى حرص ايضا ..
وخرجت ..

واغلقت الباب ورائى .. بلا صوت ..
ووقفت برهة امام الباب ..
ان احدا لم يرنى ..
ان احدا لم يعرف بجريمتى ..
ولا انت ..
وتحركت فجأة ، يدفعنى قلبى الواجف .. ولم انتظر المصعد ، بل هرولت على السلالم .. هرولت كما لم اهرول من قبل .. كأن جيشا من الشياطين يلا حقنى ..
شياطين جنونى ...

- ٢٠ -

حبيبتى هدى

ماذا جرى لك وانت تقرئين خطابى .. ماذا جرى لك عندما كشفت لك عن سرك .. عندما رايت بصماتى فوق جسد الجريمة .. جسدك ؟ !

هل صرخت .. هل جننت .. هل اغمى عليك .. هل فكرت فى الانتحار تخلصا من جسدك الذى تعيشين فيه وتتقززين منه ؟

لا تعذبى نفسك طويلا يا احب الناس ..

لقد انتقم لك الله ..

انا انتقمت لك من نفسى ، فحطمتها أو ان نفسى انتقمت لك منى ، فحطمتنى .

لقد اصبحت بعد ان تركتك ممددة فوق السرير ، ونقطة الدم فوق الملاءة البيضاء ، اصبحت انسانا مجنونا ..

لم يكن يبدو على الجنون .. انى لا زلت محتفظا بمظهرى المهاب الذى يحترمه الناس ، ولا زلت محتفظا بنظرتى القوية التى تخيف الناس ، ولا زالت خطواتى متزنة متئدة ، وكلامى قليلا حازما كأنه اوامر برقية .. ولكن الجنون فى راسى .. والجنون فى صدرى .. وهو جنون شرير ، ينطلق كالاعاصير .. لا شىء يحده ، ولا شىء يقف فى طريقه .. جنون لا يفرق بين الناس . انما يصيب كل من يقترب منى .. كل الناس اصبحوا حطبا حتى

خيرية ، وحتى عبد العظيم .. انى لم أعد ارتكب الشر سعيا وراء كسب لى .. بل اصبحت ارتكب الشر حبا فى الشر ، وتلذذا به ..

وقد تركتك ليلتها والمجنون لا يزال يقهقه فى صدرى .. قهقهة خافتة كالفحيح ، وفى عينى هذه النظرة الخبيثة الجبانة .. نظرة المجنون عندما يخيل اليه انه انتصر على شخص آخر يعيش فى نفسه .. وذهبت الى النادى ، وجلست على « البار » وطلبت كأسا من الويسكى شربتها فى جرعتين ، ثم كأسا أخرى .. ثم كأسا ثالثة .. والمجنون لا يرتوى .. وتلفت حولى فرأيت خيرية جالسة مع عرفان باشا وزير المالية ، تميل عليه ، وصدرها راقد فوق ذراعه .. واحسست برغبة جامحة فى أن انقض عليها واعريها من ثيابها .. لا ادرى لماذا .. انها لم تعد تثير فى رغبة منذ زمن طويل .. ولكنى فى هذه الليلة لم اكن ارغبها ، ولكنى فقط كنت اريد أن أعذبها .. نعم ، اعذبها .. وأن اضحك من عذابها .. كنت أريد أن انزع عنها هذا القناع الجميل الذى تضعه على وجهها ، وأن يراها كل الناس على حقيقتها .. امرأة عارية .. تنزع ثيابها باشارة من أصبعى ..

ونحن فى مجتمعنا نحرص كثيرا على الأقنعة .. اننا يعرف بعضنا البعض جيدا ، وكل منا يعرف بالضبط كمية القذارة التى يحملها الآخر .. ولكننا نحرص جدا على الأقنعة التى يضعها كل منا على وجهه .. الأقنعة التى تغطى قذارتنا ، اننا نقبل يد السيدات اللاتى يبعن لنا اجسادهن .. ونبتسم فى وجوه الرجال الذين نقتلهم .. ونبدو دائما خلف أقنعتنا فى منتـــهى الرشاقة ، وفى منتهى الأناقة ، وفى منتهى الأدب .. وكل من ينزع قناعه عن وجهه ، او يحاول أن ينزع قناع غيره ، يطرد من مجتمعنا ، ويصبح « بلدى .. فلاح » ..

وهذا ما حاولت أن افعله ليلتها مع خيرية .. أن انزع عنها :

قناعها .. أن اراها بين الناس مجرد امراة تبيع كل شيء بالثمن ..

واشرت اليها من بعيد لتأتى الى جانبى ..

وهزت رأسها تستمهلنى ، فانتظرت قليلا ، ثم ثرت .. كيف تستمهلنى ؟ . كيف تتأخر فى تلبية اشارة منى .. وفجاة صحت اناديها :

— خيرية .. تعالى هنا !

وبوغت كل من فى النادى لصرختى .. ومرت بهم برهة صمت كأنهم صعقوا ، ثم تبادلوا الغمزات والابتسامات وعادوا الى ما كانوا فيه ، وقامت خيرية وجاءت الى وهى تسير مرتبكة وتتلفت حواليها كأنها تعتذر لكل من تمر به عن سوء سلوكى .. ثم قالت لى هامسة :

— جرى ايه يا حسين ، ايه الفضايح دى ؟ !

قلت وانا أدعى الغضب :

— انتى اللى نرفزتينى .. تسيبينى علشان خاطر النطع ده اللى قاعده معاه ؟ !

قالت وهى تنظر الى فى عينى :

— انت الليلة دى مش طبيعى .. ايه اللى حصل ؟

قلت وانا أدعى الأسى .

— عايزك ضرورى يا خيرية .. انا تعبان جدا !

قالت :

— خير .. تعبان من ايه ؟ !

قلت :

— ما اقدرش اكلمك هنا .. حصلينى على الشقة !

قالت :

— ما اقدرش يا حسين . ده جوزى هنا ومتفقة معاه نروح سوا !

قلت :

ـــ خليه يروح لوحده .. الساعة بقت حداشر وزمانه بينام ..

قالت وكأنها تدافع عن زوجها :

ـــ اخص عليك يا حسين .. ما تقولش عليه كده .. اكمنه يعنى راجل طيب ؟

قلت فى حدة :

ـــ حاتيجى ولا لا ؟

قالت :

ـــ حاضر .. بس ما تزعلش قوى كده .

قلت :

ـــ بعد ربع ساعة ..

قالت :

ـــ طب اسبقنى ..

وتركتنى وانا ابتسم فى صـــدرى هذه الابتسامة الخبيثـــة الجبانة .. ابتسامة المجنون ..

ثم قمت واشرت لعبد العظيم ، ثم اخذته بعيدا ، وهمست فى أذنه :

ـــ هات الشلة كلها وتعال على الشقة .. انا نفسى افرفش الليلة .. وماتنساش تعزم عرفان باشا ، بس ما تخليش خيرية تعرف ، أصلى موضب لها مفاجأة ..

وارتفع حاجبا عبد العظيم ، وفغر عينيه ، ولكنى لم انتظر حتى اجيب على دهشته ، وخرجت من النـــادى وذهبت الى الشقة ..

وجلست اشرب كأسا اخرى .. انى اشرب كثيرا ولا ارتوى . ولا احس بالخمر .. ان جنونى اقوى من الخمر ..

وجاءت خيرية .. دقت جرس الباب ، وفتحت لها بنفسى ، ثم تركت الباب وراءها مفتوحا نصف فتحة ..

وقالت وهى تنزع تفازها الأبيض من فوق أصابعها :

ـ ايه الحكاية يا حسين .. خضتنى عليك ؟

قلت وانا ابتسم ، وفى صدرى قهقهة :

ـ استنى بس اما تشربى كاس معايا ..

واعددت لها كأسا .. وهى لا تكف عن الكلام .. ثم اقتربت منها حتى التصقت بها ، وقلت وانا اقدم لها الكأس :

ـ تعرفى انك وحشانى قوى !

قالت وهى تأخذ الكأس من يدى وتنظر الى كأنها تتعرف على من جديد :

ـ بأه جايبنى هنا علشان تقول لى انى وحشاك ؟

قلت وكأنى اتنهد :

ـ وحشانى موت .. تعرفى انى اكتشفت النهاردة انك اهم ست فى حياتى .. ما فيش واحده تانيه تدرت ... لا ... ارحك ابدا ..

قالت وهى تنزل كأسها من فوق شفتيها :

ـ الله .. الله .. ده ايه الغزل ده كله .. تكونش اتجننت ؟

وانتفضت لكلمة « اتجننت » .. انى قطعا جننت .. ان رجلا آخر فى نفسى يصفنى بالجنون .. وهذه خيرية تصفنى ايضا بالجنون .. انى قطعا مجنون .. ولكنى لا استطيع ان اقاوم جنونى ..

واقتربت منها والابتسامة الخبيثة تلمع فى صدرى ، واحطتها بذراعى وضممتها بقوة .. وقلت :

ـ صدقينى يا خيرية .. انا عايزك الليلة تصدقينى .. صدقى كل حاجة !

قالت وهى تميل بصدرها الى الوراء فى دلال :

ـ مصدقاك يا حسين .. هوه انا اقدر اكدبك ابدا ؟ .. بس لو كنت تقول لى ايه اللى حصل لك ..

قلت وانا امد شفتى اليها :

— ماحصلش حاجه .. هو لازم يحصل حاجة علشان توحشيني ؟

قالت وهى تنظر الى فى امعان :

— عجايب ..

ومددت شفتى اكثر ، واطبقت على شفتيها .. ولم تقاومنى .. تركت لى شفتيها وهى لا تزال تنظر الى بعينين مفتوحتين ..

ولم تثرنى قبلتها ..

انى اعلم انها لا تثيرنى .. وانى لا ارغبها .. فقط اريد أن اعذبها .. اريد ان انزع عن وجهها القناع ..

ومددت يدى وبدأت افك ازرار ثوبها .. فازاحت يدى فى قوة ، ونزعت شفتيها من بين شفتى ، وقالت وهى لا تزال محتفظة ببعض ابتسامتها :

— ايه اللى بتعمله ده يا حسين ؟ ..

قلت وانا امد يدى الى ثوبها مرة ثانية :

— اخص عليكى يا خيرية .. علشان خاطرى .. انتى عمرك ماكسفتينى !

قالت وقد بدا السخط المكتوم يبدو على وجهها :

— بس مش بالشكل ده يا حسين ..

قلت وانا ابحث بأصابعى عن أزرار الثوب :

— معلهش .. طاوعينى .. ما تزعلنيش !

وجذبت الثوب بيدى جذبة قوية .. فتمزق عن جسدها ، ثم اطبقت عليها واخذت انزع باقى الثوب وهى لا تزال واقفة تصرخ :

— يا مجنون .. يا مجنون ايه ده .. جر ايه فى عقلك ؟ !

واصبح نصفها الأعلى عاريا ..

وانسكبت كأس الويسكى من يدها على بقية الثوب ، وسقط الكوب على الأرض كأنما سقط القناع عن وجهها .. واخذته

تنظر الى حالها ، ثم رفعت راسها ونظرت الى طويلا ، ثم قالت كأنها قررت أن تنتهى منى بأسرع وقت :

ــ تعال .. تعال اما اشوف وحشاك اد ايه ؟ !

وجذبتنى من يدى تحاول ان تأخذنى الى غرفة النــــوم ، فقاومتها ، وشددتها الى قائلا :

ــ لا .. خلينا هنا شويه !

ثم اخذتها بغتة بين ذراعى ، وعدت اقبلها .. بلا احساس .. واطياف من الخطة الخبيثة تملأ راسى ..

وفى هذه اللحظة فتح الباب ..

ودخلوا ..

دخل نصف اعضاء النادى يتقدمهم عبد العظيم ، وبينهم عرفان باشا ..

وضحكت ضحكة كبيرة .. ضحكة مجنون .. وانا ادعى انى لم الحظ بعد دخول هؤلاء الناس ..

ثم رفعت كأس الويسكى واخذت اسكبه بين نهدى خيرية .. ولم تحس بالخمر وهو يجرى فى نهر صغير بين نهديها ، واطلت من عينيها نظرة رعب ، وهى ترى الناس داخلين ، الى جسدها العارى .. ثم صرخت صرخة حادة عندما رات بينهم عرفان باشا .. واخذت تحاول ان تخفى نهديها بكفيها .. ثم تحاول ان ترفع ثوبها لتستر جسدها .. ثم جرت نحو غرفة النوم ، ولكنها قبل أن تصل اليها اســـــتدارت وعادت تجرى نحو البـــــاب .. وهى تصيح :

ــ ده مجنون .. ده اتجنن خلاص ..

ولحق بها عبد العظيم ، وهو يخلع سترته ، ويضعها فوق كتفيها ليغطيها بها .

ووقفت انا ادعى الارتباك .. ارتباك الرجل الذى ضبط

فى حالة تلبس بجريمة لا تشينه ولا تنقص من رجولته .. ثم قلت فى صوت متزن عميق :

ــ انا آسف يا جماعه .. ما كنتش فاكر انكم حاتيجوا بدرى كده .. اتفضلوا .. اتفضلوا !

وبدأ الجماعة يتحركون ، وارتفعت من بينهم الضحكات ، وقال أحدهم :

ــ احنا اللى آسفين يا باشا .. حلال عليك !

وقال آخر :

ــ شبابك يا باشا غطى على الكل !

وقال ثالث :

ــ أهو احنا كده ، يا فيها يا نخفيها !

وتعالت الضحكات ، وانا اضع على وجهى قناع التواضع :

ــ مش كنتم تضربوا الجرس قبل ما تدخلوا ؟ ..

وقال عبد العظيم وهو ينظر الى كأنه يشمئز منى :

ــ احنا لقينا الباب مفترح ، رحنا داخلين ..

وارتفع صوت أحدهم :

ــ دى جنة من غير بواب !

وبقى عرفان باشا صامتا .. ووجهه محتقنا كالجزرة ..

وربما لو كان كل اعضاء النادى قد راوا خيرية عارية ، لما همها .. اما ان يراها عرفان باشا بالذات ، فقد كانت هذه مصيبتها .. فعرفان باشا وزير جديد شاب ، دخل الوزارة بعد ان اقفرت الأحزاب من رجال الصف الأول نتيجة انقسام بعضها على بعض ، فلم يعد لكل حزب ما يكفى من رجاله القدماء لتولى مناصب الوزارة ، فبدأت ــ اى الأحزاب ــ تدفع الى مناصب الوزارة برجال الصف الثانى ..

وقد كان عرفان بالذات من زعماء ثورة ١٩٣٥ ، وكان يتمتع بسمعة شعبية نظيفة .. وكان يبدو فى مشيته ونظرات عينيه

كأنه يحمل الشعب كله على كتفيه .. وكان يتكلم دائما فى صوت غليظ جاد كأنه يلقى دروسا على الشعب ، او يهتف بشعارات الشعب .. كان كلامه براقا ، ولكنك لو بحثت تحته لما وجدت شيئا .. مجرد كلام فارغ ..

واستطاع عرفان ان يتاجر بثورته فى سوق الأحزاب ، وخرج من حزب ، والتحق بحزب آخر ، فطفا على السطح واصبح من رجال الصفوف الأولى ، ثم صبر قليلا حتى اصبح وزيرا ، واصبح باشا .. أصغر الباشوات سنا ..

ووجد نفسه فجأة عضوا فى نادى محمد على ، وعضوا فى نادى السيارات وعضوا فى نادى الجزيرة ..

وجد نفسه فجأة فى عالم براق .. بريقه امضى من كل بريق الشعارات الشعبية .. ووجد نفسه فجأة بين سيدات جميلات .. السيدات اللاتى لم يكن يراهن الا من بعيد ، ويتتبع انباءهن فى الصحف ، كأنه يتتبع انباء الجنة .. ان كلهن يتهافتن عليه .. يتهافتن على شبابه ، وعلى مركزه ، وعلى مستقبله العريض ، ويتهافتن على عقله المغلق عن فضائحهن ، وعينيه المغمضتين عن حقيقتهن ، وعلى رائحة الزبون الجديد الوافد على سوق اللحوم .. زبون ساذج لم يتدرب بعد على عمليات البيع والشراء .. زبون لقطة !

وكانت خيرية فى الأيام الأخيرة قد القت كل شباكها لتستولى عليه وحدها .. راهنت عليه بكل حيلها وكل ذكائها .. انها لو كسبته لاستطاعت من خلاله ، ومن خلال منصبه كوزير ، ان تحقق أطماعا لا تنتهى ، ولاستطاعت بجانب ذلك أن تشبع جسدها بشبابه .. الجسد الذى ابتذله الشيوخ امثالى .

وكان عرفان يعاملها باحترام كبير تشوبه الرهبة والوجل .. انه لا يعلم عنها الا انها ابنة فلان باشا ، وزوجة فلان بك ، وانها صديقة للأميرات ، وان صورتها تنشر فى الصحف ، وانها

جميلة ، ثرية ، فاتنة . وهو لا يستطيع ان يصدق نفسه وهى تغازله ، لا يستطيع ان يصدق انه يستطيع ان ينالها .. ينال كل هذا الشرف ، والمجد ، والجمال ..

وكانت هذه الرهبة والبهرة التى يحس بها عرفان هى سلاح خيرية فى الاستيلاء عليه . تركته يقتنع بأن الوصول اليها شرف كبير له ثمن كبير ، حتى لو دفع الثمن نزاهته ..

وقد خسرت خيرية ، عرفان ..

انا الذى افسدت عليها الصفقة عندما تركته يراها فى شقتى الخاصة ، عارية ونهر صغير من الخمر يجرى بين نهديها ..

ولم يمكث عرفان طويلا بعد أن خرجت خيرية .. خرج وراءها ووجهه لا يزال محتقنا كالجزرة ..

وانتهت السهرة ..

امتلأت البطون بالخمر ، وتراكمت القبلات العربيدة فوق الشفاه حتى لم تعد تحتمل مزيدا من القبلات .. فخرج الناس والسنتهم تترنح بسيرة خيرية .. وخرج عبد العظيم وبين شفتيه بصقة من الاشمئزاز يكاد يبصقها فى وجهى ..

وعدت الى قصرى ، ونمت ..

نمت نوما ثقيلا لم انمه ابدا فى حياتى .. كأن المجنون قد تعب منى ، فتركنى استريح ريثما استرد قواى فيعود الى ..

وقمت فى الصباح ، واستعدت ما فعلته بك ، وما فعلته بخيرية .. ولم اشعر بالندم .. صدقينى .. لم أندم .. ليس فى صدرى شىء يقلقنى ويكتم انفاسى ويمزق رئتى .. ان فى صدرى فراغا تدوى فيه قهقهة مجنون .. قهقهة تطغى على كل ما كنت احس به من عذاب ..

وذهبت الى مكتبى وفى عينى هذه النظرة الخبيثة الجبانة .. ربما لم تكن هذه النظرة تبدو فى عينى .. ربما كانت لى عينان اخريان خلف جبهتى تنظران هذه النظرة التى احس بها ..

وجلست انتظر انباء خيرية .. كنت انتظر ان تبدا معى معركة . ولم تكن هذه المعركة على خير وجوهها فى صالحى .. يكفى ان اخسر خيرية .. لأخسر معها أداة نافعة لأعمالى .. ورغم ذلك فكنت ارحب بالمعركة ، وكنت احس برغبة عنيفة فى تحطيم خيرية .. تحطيم اداة نافعة طالما استعملتها ضد خصومى . وطالما رفعت بها رصيدى من المجد والثراء ..

ولم افكر فيك .. كنت فى هذا الصباح بعيدة عنى ، كأنى قتلتك وانتهيت ، دون ان يترك قتلك سوى نقطة من الدم عالقة بحذائى .. انما كنت افكر فى خيرية ، وكنت اجد لذة مثيرة فى ترقب المعركة ..

ولم تبدا خيرية معركتها مباشرة .. وربما قدرت انها قد تخسر عرفان باشا الى الابد ، فأرادت ان تحتفظ بى ، على الأقل لتقاضينى ثمن فضيحتها .. فاتصلت بى بالتليفون وسمعت صوتها كأنه يخرج من بين اسنانها ، وقالت وهى تحاول ان تبدو هادئة :

— كويس اللى عملته امبارح ده يا حسين ؟ .. يعنى اعمل فيك ايه .. اودى وشى من الناس فين ؟ .. زمان البلد كلها مالهاش سيره الا سيرتى ..

قلت وابتسامتى الخبيثة تنطلق فى صدرى :

— انا آسف يا خيرية .. مش عارف كان مالى ليلة امبارح ..

قالت وهى تتنهد :

— وانا حاعمل بأسفك ايه .. شوف لى طريقة تسكت بيها عنى كلام الناس .. مش بس الناس . ده زمان الراجل الكبير خد خبر هو كمان ..

قلت وقد بدأت اثيرها :

— يعنى الناس تسكت بكام ؟

قالت :

— تصدك ايه ؟

قلت وانا افتعل الضيق :

ــ وحيــاة ابوكى انا زهقــان .. قــولى لى عايزه كام وخلصينى ..

ولم يكن هذا هو اسلوب التعامل بينى وبين خيرية .. انى ادفع لها فعلا ولكنى كنت ادفع لها فى اسلوب مهذب وفى عبارات ملفوفة لا تجرح ..

وصاحت خيرية وقد فقدت اعصابها :

ــ انت فاكر انك حاتشترينى بفلوسك ؟ .. فلوسك كلها على جزمتى يا باشا .. لازم تفهم ان الفلوس ما تهمنيش ، انا يهمنى سمعتى .. يمكن انت مالكش عيلة تخاف عليها ، انما انا بنت سليمان باشا .. ويهمنى اسم عيلتى قبل اى حاجة .. فاهم ؟ ..

وقلت وانا اسخر منها :

ــ ماتزوديهاش قوى يا خيرية .. احنــا عارفين بعض كويس .. سمعتك لا حاتزيد ولا حاتنقص .. واللى حايتقال عنك النهارده مش اقل من اللى اتقال امبارح .. وابوكى الناس عارفاه كويس .. تبقى تسكتى وتقولى انتى عايزه كام ؟ .. والا اقول لك : ما فيش ولا مليم !

وصرخت خيرية كأنها جنت :

ــ يابن الكلب .. يا وسخ .. يا واطى .. انا حاخرب بيتك .. انا حاوديك فى داهية .. انا حاوريك خيرية تبقى مين .. كوشون .. ميرد .

وتوالت شتائمها باللغتين العــربية والفرنسية ، ثم القت بسماعة التليفون فى وجهى ..

وامتلأ فراغ صدرى بقهقهة المجنون ، وفركت كفى كأنى مقبل على لعبة مثيرة ..

ودخل على عبد العظيم ، ونظرت اليه .. وفى عينى هذه

النظرة الخبيثة المجنونة .. ولكنى احسست بأكثر من هذه النظرة .. انى اكرهه .. اكرهه جدا .. لم اكرهه قط الى هذا الحد .. انى اريد ان احطمه هو الآخر .. احطم الشيطان نفسه .. انى شيطان اكبر ، وسأقضى على كل الشياطين الصغار ..

وبدأ عبد العظيم يعرض على أعماله القذرة ، وانا القى عليه بأوامرى دون ان انظر اليه .. خفت ان انظر اليه فتنطلق عيناى وتخرمش وجهه ..

ثم قال عبد العظيم فى صوت يحاول ان يتسلل به الى ، وبين شفتيه ابتسامة يحاول ان يطرق بها باب عطفى :

— زمان خيرية زعلانه قوى من الفصل بتاع امبارح ..

وصرخت فى وجهه مرة واحدة :

— انت فاكر اننا قاعدين فى النادى ولا فى كباريه علشان تكلمنى عن خيرية ؟ ! الحاجات اللى تتعمل بالليل ماتجبش سيرتها هنا فى المكتب .. فاهم ؟ .. اتفضل قوم شوف شغلك ..

وتركنى عبد العظيم وبين شفتيه بصقة لا يقذفها .. وصفق الباب وراءه فى عنف كأنه يصفعنى به ، فصرخت :

— عبد العظيم ..

وعاد من وراء الباب ونظر الى صامتا ، فقلت فى حدة :

— اقفل الباب كويس .. اتعلم الأدب ..

وسحب نفسه من فتحة الباب وصفقه مرة ثانية وراءه .. لقد بدأ يتحدانى هو الآخر ..

***

ومرت أيام قبل ان تهب على ريح المعركة التى اثارتها خيرية .. وفى خلال هذه الأيام زرتك ..

لم ازرك نادما .. ولم ازرك لانى اتعذب بجريمتى .. زرتك جبنا .. دفعنى الجبن اليك ، كان المجنون يخاف ان تكون جريمته قد اكتشفت ، وكان يريد ان يتأكد من انتصاره على

الشخص الآخر الذى يعيش فى نفسه .. كان يريد ان يتلذذ بخبثه يهنىء نفسه عليه ..

واستقبلتنى امك ، وبين عينيها سحب قاتمة من الحزن .. ونظراتها تضطرب وسط هذه السحب ، حائرة ، مبللة ببقايا دموع ، كحمامات تائهة فى ليلة سوداء ممطرة ..

وقلت لها وانا اجلس فى الصالون ، كانى قررت ألا ادخل الى غرفتك :

ــ ازاى هدى دلوقت ؟

قالت كانها تنعيك الى :

ــ كويسه ..

ثم تنهدت وقالت :

ــ الحمد لله .. حكمتك يا رب ..

قلت وقلبى واجف :

ــ مالها ؟ ..

قالت وهى ترتكز براسها على اصبعها :

ــ ولا حاجه ياخويا .. كويسه والحمد لله ..

قلت :

ــ الحرارة نزلت ؟

قالت وهى تتنهد ..

ــ نزلت ..

قلت :

ــ والدكتور قال ايه ؟

قالت وهى تشد نفسا عميقا من صدرها :

ــ قال انها خفت .. وبكره حاتنزل من السرير ..

قلت :

ــ امال مالك زعلانه كده ؟ ..

قالت :

— أبدا .. مش زعلانه .. دى بس ضيقه وتروح !

لابد أنها عرفت .. عرفت أن ابنتها لم تعد فتاة .. أن ابنتها اضاعت كل ما تملكه فتيات الطبقة التى تنتمى اليها .. الطبقة المتوسطة الصغيرة .. اضاعته .. حيث لا تدرى .. سقط منها دون أن تشعر ..

ودققت النظر فى عينى أمك حتى أتأكد من أنها لا تعرفنى .. لا تعرف أنى أنا المجرم .. أنا الذى أخذت شرف ابنتها .

وتأكدت ..

تأكدت أنها لا تعرفنى ..

وقلت لأزيدها يقينا بأنى لا أعرف أسباب هذا الحزن القاتم الذى يحيط بها :

— هو عبد العظيم ما جاش

قالت فى قرف :

— لأ .. ما شفتوش .

قلت وأنا أحاول أن أضحك :

— أتاريكى زعلانه .. انما الراجل معذور .. ده وراه بلاوى كتــير .. أنا نفسى كنت عايز أجازة من أربعــة أيام وماقدرتش ..

قالت فى يأس كأنها قد أخرجتنا أنا وعبد العظيم من حياتها :

— ربنا يعينكم !

وقمت لأنصرف .. قررت أن أنصرف دون أن أراك .. ولكن المجنون كان يريد أن يتلذذ برؤية جريمته .. وكان يريد أن يطمئن الى انتصاره .. فالتفت الى أمك وقلت :

— أقدر أشوف هدى ؟

قالت بلا مبالاة :

— اتفضل .. أهى راقدة فى سريرها !

ودخلت اليك ..

ورايتك فى نظرات مترددة جبانة ..

كان وجهك قد استرد بعض لونه .. لم يعد باهتا كما كان .. كأنه التقط نقطة الدم التى عصرتها منك وتركتها تقع فوق الملاءة البيضاء ، وخبأها تحت وجنتيك .. ولكنه كان وجها مكفهرا ، متقلصا ، كأنك تعانين الما حادا يمزق أحشاءك .

وقلت وصوتى يحشرجه انفعالى :

ــ ازيك يا هدى ؟ .. شدى حيلك امال !

والتفتت الى .. ورفعت الى عينيك .. نفس العينين الهادئتين العميقتين اللتين تعودتا أن تثقبا صدرى وتحركان فيه شيئا يكتم انفاسى .. ولكنهما فى هذه المرة لم يثقبا صدرى .. ان صدرى فراغ ليس فيه شىء يثقب .. فراغ تدوى فيه قهقهة مجنون ..

ولم تجيبى بشىء .. اكتيفت بالنظر الى ثم أدرت وجهك عنى ..

لماذا لا تصرخين فى وجهى كما صرخت خيريه ؟ .. لماذا لا تتحديننى وتثيرين فى وجهى معركة كما تفعل خيريه ؟

لانك لا تدرين ..

الشعب كله لا يدرى .. ولا يحاول أن يدرى .. انما يكتفى بالسكوت ، وبهذه النظرات العميقة الهادئة ..

ووقفت فوق رأسك ككبير الشياطين فوق رأس الضحية التى قدمت على مذبحه ، وقلت وأنا أحاول أن أخفى عنك نظرتى الخبيثة المجنونة :

ــ مش عايزه حاجه منى ؟

وهززت رأسك .. لا ..

قلت وأنا أضع على شفتى ابتسامة :

ــ بكره أول ما تنزلى من السرير ، حابعت لك العربيه ، تخرجى تتفسحى شويه .

وهززت رأسك .. لا ..

ونظرت اليك نظرة اخيرة ..
انك بقايا ..
بقايا شيء مضغته ..
وتركتك .. والمجنون فى صدرى يهنىء نفسه ، ويخرج لسانه . ويقفز قفزات بهلوانية ، كأنه يقيم لى حفلة تكريم ..
وخرجت امك توصلنى حتى الباب ..
ونظرت اليها هى الأخرى نظرة اخيرة ..
انها ايضا بقايا ..
بقايا شيء مضغته ..
انطلقت ابتسامة خبيثة واسعة فى صدرى .. انى امضغ الناس والقيهم بقايا .. كل الناس ..
وخرجت .. ولكن كان هناك شيء آخر اريد ان اتأكد منه ..
كنت اريد ان اتأكد من انكم عرفتم بالجريمة ، وان لم تعرفوا المجرم .. فصعدت الى شقتى الخاصة ورفعت سماعة التليفون واتصلت واتصلت بالطبيب الذى يعالجك ، وقلت له وانا ادعى
واتصلت بالطبيب الذى يعالجك ، وقلت له وانا ادعى اللهفة :
— انت آخر مرة شفت هدى امتى يا دكتور ؟
قال وفى صوته رنة اسى :
— امبارح ..
قلت :
— وحالتها ازيها ؟ ..
قال :
— كويسه .. الحمى راحت . واعتقد أن الخطر زال وتقدر تخرج بعد يومين ..
قلت :
— لكن انا شايف حالتها النفسية غريبة ، هى وامها .. زى ما يكون المرض اشتد عليها ..

قال :

ـــ أصل حصلت حاجه غريبة .. غريبة جدا !

قلت فى لهفة :

ـــ ايه .. حصل ايه ؟

وتنحنح الطبيب .. ثم همس فى ســـماعة التليفون بأنك فقدت الشيء .. الشيء الذى تستحقين عليه لقب فتاة :

وصرخت صرخة مفتعلة :

ـــ ازاى ده ! .. حصل ازاى !

قال :

ـــ والله دى حالة غريبة .. يمكن تكون من تأثير شدة الحمى .. انما دى تبقى حالة شاذة عمرى ما صادفتها فى حياتى .. وانا دلوقت باكتب بحث عن الحالة دى وحابعته لجمعية الأطباء فى لندن ..

قلت فى حماس :

ـــ أنا مستعد أمول أى بحث عن الحالة دى ، بس من غير ذكر أسماء ..

قال وأنا أكاد أرى ابتسامته :

ـــ متشكر يا باشا .. طول عمرك نصير العلم

قلت :

ـــ واعمل معروف بلاش تقول لهدى ولا أمها انك قلت لى حاجة ..

قال :

ـــ طبعا .. طبعا يا باشا ..

وضعت سماعة التليفون .. القهقهة العالية تملأ صدرى .. لقد قال الطبيب ان ما حدث لك كان من تأثير الحمى .. ان كل جريمة يمكن أن يكون لها غطاء يخفيها .. حتى هذه الجريمة .. لقد ارتكبت عشرات الجرائم ، وخرجت منها والناس تصفق

لى ، وتسبغ على القاب المجد والشرف .. وهذه الجريمة ايضا خرجت منها بلقب « نصير العلم » .

وعاد المجنون فى صدرى يهنىء نفسه ويخرج لسانه ، ويقفز قفزات بهلوانية .

ونزلت من العمارة . وهممت بأن اركب سيارتى ، وفجأة تعلقت عيناى بعربة حنطور تقف بجوار الرصيف المقابل ، وقد جلس فيها ثلاثة شبان .. احدهم يمد امامه ساقا مجبسة ..

انى اعرف هذا الشاب ذا الساق المجبسة ..

رايته مرة واحدة ، ولكن يخيل الى انى اعرفه جيدا ..

نعم ، انى اعرفه ..

انه عادل ..

ورفعت اليه عينين خائفتين .. هذا الشاب لم امضغه .. انه ليس بقايا .. انى لم امضغ كل الناس بعد .. لا يزال هناك ناس اقوى من اسنانى ..

ولم استطع ان انظر اليه طويلا .. خيل الى ان ساقه المجبسة كسيف من نور مشرع فى الهواء يذبح به نظرتى اليه ..

واختفيت فى سيارتى كانى احتمى بها ..

والمجنون خائف ..

٢١

لم تبدأ خيرية معركتها فى هدوء ، بل اثارتها فى عنف وفى غل ، وانطلق لسانها يعلنها فى كل مكان ..

وكان اول ما فعلته أن انضمت الى معسكر عبد العزيز باشا مبارك ، عدوى ومنافسى القديم .. الديك الرومى النافش .. وبدات تبيع له اسرارى .. ولم تكن تعلم كل اسرارى ، فانى لم أتعود ان اضع كل البيض فى سلة واحدة كما يقول المثل الانجليزى .. ولكن ما كانت تعلمه من اسرار كان يكفى ليضع فى يد عبد العزيز سلاحا حادا يطعننى به ..

اطلعته على اسماء الشخصيات التى تعمل لحسابى فى الخفاء .. كلها اسماء كبيرة .. اسماء رجال فى القصر ، ورجال فى المناصب الحكومية الكبيرة ، واسماء اميرات ، وزوجات زعماء ووزراء .. شخصيات كثيرة تعمل لى وتقبض منى اجرا سخيا فى صورة هدايا .. وكانت خيرية نفسها هى الرسول بينى وبين هذه الشخصيات .. هى التى تحمل اليهم مطالبى ، وهى التى تحدد قيمة « الهدية » التى يريدها كل منهم ..

وبدأ عبد العزيز يحترس فى معاملاته من بعض هذه الشخصيات ، بعد ان كان يلجأ اليها وهو لا يدرى انها تعمل لحسابى .. وبدأ يحاول ان يشترى البعض الآخر منها ويغريه بأن يعمل لحسابه .. وبدأ يهدد افرادا آخرين بأن يفضحهم

ويشهر بهم .. وخيرية تساعده فى كل ذلك .. انها تقيم له حفلات فى بيتها تدعو اليها كل من يستطيع ان يستفيد منهم .. وتسعى لدعوته فى حفلات الأميرات وتقف بجانبه لتساعده فى التحدث عن نفسه .. لقد أصبحت عميلة له !

ولكن عبد العزيز ليس انا !

ولا يكفى أن تعمل خيرية لحسابه حتى يحتل مكانى .. ينقصه شىء كثير .. ينقصه ذكائى ، وجراتى المالية ، واعصابى ، واسلوبى ..

ثم ان خيرية اخطأت خطأ كبيرا ، فقد جعلت المعركة بينى وبينها معركة علنية .. والمعارك العلنية تنقلب دائما على من يثيرها .. لقد عرف كل الناس فى مجتمعنا انها تحاربنى .. عرفوا أنها توجه كل سمومها وحبائلها لقتلى .. واثار الناس عنفها وغلها وحقدها الذى لا منطق له ، فبدأوا ينفرون منها ، وبدأوا لا يصدقون ما تذيعه عنى .. بل بدأ بعضهم يشفق على ويتساءل فى ازدراء عن سر هذه الحرب .. هل كل هذا لأن الباشا مزق ثوبها فى حفلة خاصة .. وماله يا سيدى .. كان سكران .. ما هى طول عمرها فى رجليه .. وكلنا عارفين خيرية .. و .. و .. ولم يكن على بعد ذلك الا ان اضبط اعصابى ، وابدو أمام اعضاء النادى فى صورة الرجل المظلوم المعتدى عليه ، حتى اكسب السنتهم الى جانبى .. لم أكن أتحدث عن خيرية .. ولم أكن أشينها بكلمة .. ولم أكن اتحداها .. واذا ذكر اسمها أمامى ، دافعت عنها .. واذا ذكر أحد حديث الحفلة الخاصة ، أملت راسى على صدرى وأسدلت جفنى وقلت وكأنى اتألم : « أنا غلطان .. أعمل ايه .. كنت سكران » !!

أما العملاء الذين افشت خيرية أسماءهم لعبد العزيز ، فقد جمدوا موة مؤقتا .. ابتعدوا عنى خوفا من أن يقعوا ضحايا الم وبدأوا يلاينون خيرية ويستقبلونها بنفس

الترحاب .. ولكنى كنت أعلم ما فى دخيلة نفوسهم .. انهم يخافونها ، وهم يتربصون بها .. ان العميل عندما تكشف سره يصبح كالذئب الجريح .. يخفى نفسه بين حشائش النفاق الى ان يستطيع أن يتمكن منك ، وينقض عليك بكل ما بقى فيه من قوة ..

ولم يتخل الوزير الشاب الأبله عرفان باشا عن خيرية كما كنت أعتقد .. لم يكن يكفيه أن يراها عارية فى شقتى الخاصة ليعرف حقيقتها .. وكان يكفيها لكى تجره من انفه ان تكون ابنة باشا ، وزوجة بك ، حتى لو سارت بعد ذلك عارية فى الشارع .. وقد جرته من انفه .. استطاعت أن تقنعه بأنى حاولت أن أعتدى عليها ، فلما قاومتنى مزقت عنها الثوب ..

واقتنع المغفل .. اقتنع انها امرأة شريفة ، كل جريمتها انها حاولت الدفاع عن شرفها .. وبدأ هو الآخر يحاربنى .. وبدأت تدفعه ليثير مسائل فى مجلس الوزراء ، ومجلس النواب ، تعلم أنها تضايقنى .. مسائل الضرائب المتأخرة ، ومسائل التسعيرة .. و .. و ..

ورغم كل ذلك كنت أستطيع ان اكسب خيرية من جديد ..

لو كنت عاقلا لعرفت انى يجب أن أعيدها الى .. انى لا زلت فى حاجة اليها .. بل انى لا أستطيع الاستغناء عنها .. انها قطعة منى .. قطعة من قذارتى ومن أطماعى ، ومن قوتى ..

ولكنى لم اكن عاقلا .

كنت قد فقدت توازنى نهائيا .. كان المجنون الذى يقهقه فى فراغ صدرى ، قد انتصر على .. وكان هذا المجنون يريد أن يعذب خيرية ، وأن يشمت فيها ، وان يضحك لانهيارها .. كأنى كنت اعذب نفسى بها ، واشمت فى نفسى بشماتتى فيها ، نعم .. انى لم اكن اسعى لعقاب خيرية وتعذيبها .. بل كنت أعاقب نفسى وأعذبها ..

وقضيت أياما طويلة أفكر فى خطة واســعة للقضاء على خيرية .. لأفلسها .. آن افلاسها قضاء عليها .. انها لن تركع على قدميها الا اذا افلست .. انى أعرفها جيدا .. لا شىء يخيفها ويذلها الا أن تخسر أموالها .. لو فقدت ابنتها أو زوجها فقد تظل واقفة على قدميها .. أما أن تفقد ثروتها التى جمعتها بكل دقائق عمرها ، وبكل عصارة ذكائها ، وبكل عرق جسدها .. فستموت .. ستنتهى !

ولن أقضى عليها وحدها .. سأقضى معها على عرفان باشا .. سأقضى على مستقبله ، والوث ماضيه .. وأحطم آماله .. ليس عرفان فحسب .. بل كل هؤلاء الذين يمثلون قطع الطين العفن الذى بنيت به مجدى ..

وبرقت الخطة فى رأسى ..

وقهقه المجنون فى فراغ صدرى ، وفرك يديه كأنه مقبل على لعبة مثيرة ، انها خطة واسعة تحتاج الى صبر طويل .. وقد بدأت أنفذها وحدى .. والنظرة الخبيثة الجبانة تطل من وراء رأسى .. نظرة المجنون .. ولم أشرك معى عبد العظيم فى اعداد هذه الخطة .. ان عبد العظيم لا يزال عاقلا .. انه لم يعد يستطيع أن يتفاهم معى .. انه لا يزال يلح على لأكسب خيرية من جديد وأكسب معها عرفان باشا ، وأتقى شرهما ..

ان عبد العظيم شيطان .. والشيطان فى حاجة الى انسان عاقل ليتعامل معه .. والشياطين لا تتعامل مع المجانين .. وأنا مجنون ، لا أتعامل مع الشياطين ولا الملائكة ..

واهملت كل أعمالى ما عدا هذه الخطة التى أضعها للقضاء على خيرية ..

ثم لاحظت فجأة أن خيرية بدأت تغير أسلوبها فى حربها لى .. ابتعدت عن عبد الرحيم باشا ، ولم تعد تشهر بى ، ولم

تعد تكشف اسرارى للناس .. انما صمتت .. وعادت الى ليونتها المريبة .. كأنها اكتفت من الحرب ، واعلنت هزيمتها .

وكان هذا التغيير مفاجئا ، كأنها تلقت وحيا من السماء ..

ثم فجاة ..

ضربتنى ..

ضربتنى ضربة افقدتنى حوالى خمسين الف جنيه ..

وكنت فى هذه الأيام العب فى بورصة الأوراق المالية لعبه مزدوجة .. كنت ابيع بعض الأسهم والسندات بكميات ضخمة حتى ينخفض سعرها .. ويخاف المضاربون على اسهمهم وسنداتهم ، فيتبلون على البيع مثلى .. ثم اعود انا نفسى واشترى ما بعته مضافا اليه ما باعه باقى المضاربين .. وبهذا اكسب مئات من الأسهم والسندات بثمن بخس واستطيع بها أن احكم من قبضتى على الشركات مصدرة هذه الأسهم والسندات .. وطبعا كنت ابيع باسم واشترى باسم آخر .. وكان المفروض ان تحاط هذه اللعبة بالسرية التامة ، وان تتم فى ثلاثة او اربعة ايام على الأكثر قبل أن تنفضح .

وبدأت العملية ..

القيت بألفى سهم مرة واحدة للبيع فى البورصة ، باسم سمسار يهودى .

وانخفض السعر ، بعد نصف ساعة

وكان المفروض ان يقبل الناس على بيع اسمهمهم فى نفس الجلسة ، خوفا من أن ينخفض السعر اكثر ..

وفعلا بدأ البعض يبيع...

وانخفض السعر اكثر بعد نصف ساعة اخرى ..

ثم كان المفروض أن اشترى كل هذه الأسهم فى ختام جلسة اليوم التالى ، ولكن قبل ختام الجلسة الأولى بربع ساعة تقدم

سمسار ، واشترى كل الأسهم التى القيت بها ، والقى بها الخائفون ..

وذعرت ..

وحاول اعوانى ان يعرفوا اسماء العملاء الذين اشترى هذا السمسار لحسابهم ، ولكنه اصر على الاحتفاظ بسره .. اصر اصرارا يدعو الى الريبة ..

وقضيت ليلى والمجنون يصرخ فى صدرى ، مطالبا بالانتقام .. الانتقام ممن ؟ . لا ادرى .. ولكن هناك شخصا يتحدانى .. قد يكون عبد العزيز باشا .. وقد يكون غيره ..

وفى اليوم التالى تأكدت أنه ليس هو عبد العزيز ..

انه عدو آخر .. مجهول ..

وحاولت أن اجازف ببضعة آلاف سهم اخرى لأنقذ الثلاثة آلاف سهم التى فقدتها فى اليوم السابق .. ولكنى قبل ان اعطى أوامرى للسمسار توقفت .. لابد ان احدا قد افشى سر اللعبة .. من هو ؟ .. لابد ان يكون شخصا يعرفنى جيدا .. شخصا يعيش فى اعمالى .. هل يكون السمسار ؟ .. مستحيل ، ان السمسار ليست له مصلحة فى افشاء العملية ، ان مصلحته فى نجاحها ..

وناديت عبد العظيم ، وفاجأته قائلا :

ــ تفتكر مين ؟

ولم يهتز عبد العظيم ، وقال فى هدوء :

ــ افتكر مين ايه ؟

قلت :

ــ عملية امبارح انكشفت .. مين إللى كشفها ؟

قال وهو لا يزال محتفظا بهدوئه :

ــ دى عايزه تحقيق ..

قلت وأنا اكاد اتهمه بعينى :

ـــ طب اتفضل اعمل تحقيق ، ووريني شطارتك !

وخرج دون أن ينظر الى ..

واصدرت اوامرى الى السمسار بالتوقف عن العملية .. وجلست احسب خسارتى .. انها تصل الى حوالى خمسين ألف جنيه .. وهذا المبلغ ليس ثمن الأسهم التى بعتها .. اننا لا نحسب خسارتنا بالنقود التى تخرج من جيوبنا فعلا ، بل نحسبها بقيمة العملية كلها .. اى بقيمة راسمالى مضافا اليه قيمة الأرباح التى كانت منتظرة ..

وبعد اغلاق البورصة بساعة واحدة ، دق جرس التليفون فى مكتبى .. واذا بصوت خيرية ينبعث ناعما ساخرا يقطر سما :

ـــ متشكره قوى يا باشا على الهدية بتاعة امبارح .. الفين سهم انما ينقطوا سكر .. مرسى قوى .. اوريفوار !

ثم القت بسماعة التليفون فى وجهى

انها خيرية التى اشترت ..

ولكنها لا تستطيع ان تشترى وحدها .. لابد ان معها شريكا اطلعها على سر العملية وموّلها ..

من يكون هذا الشريك ؟

وفكرت طويلا .. ودمى يغلى ، واعصابى تتمزق ..

واخذت استعرض صور الناس المحيطين بى .. صور السماسرة ، ومديرى شركاتى ، واعضاء مجالس الادارة .. وكلما تقفزت امامى صورة ، استبعدتها .. ان الذى يتحدانى ويذيع اسرارى يجب ان يكون انسانا شره اقوى من شرى .. انسانا شبع منى ، فبدأ يبعثر فىّ .. انى لا ارضى ان اتهم احد هؤلاء السماسرة او هؤلاء المديرين ، انهم احقر من الاتهام .

اذن من يكون ؟

لابد ان يكون شخصا يعلم بسر العملية ..

ثم لابد أن يكون على علم بأسلوبى فى عمليات البورصة ..

ثم لابد ان يكون صديقا لخيرية صداقة وطيدة تجعله يطمئن الى التواطؤ معها ..

هل يكون عبد العظيم ؟

نعم ..

لا يمكن ان يكون الا عبد العظيم .. هو وحده من بين من حولى الذى يستطيع أن يتحدانى فى تذارتى .. لقد شرب معى الطين جرعة جرعة ، وتلوثت دمائى ودماؤه بسم واحد ..

وهو منذ ان اغضبت خيرية وهو غاضب على ، كأنه احس بأنه سيكون الفريسة التالية لجنونى .. بل انه بدأ يتمرد على قبل ذلك ، ومنذ ان اكتشف نزوتى فى الانتقام من محمد افندى السيد بعد أن مات .. الانتقام من عائلته .. منذ هذه الأيام وهو يتحدانى .. لم يعد طيعا كما كان .. لم يعد يحتمل صفعاتى وشلاليتى .. لقد احس انى لم اعد مأمون الجانب ، فبدأ يعد نفسه للاستقلال عنى ، والعمل لحسابه الخاص ..

وربما شيء آخر ..

ربما اراد ان يخبطنى على راسى حتى افيق من جنونى .. لعله بعد أن يئس من ان يحد من تصرفاتى المجنونة ، اراد ان يوقعنى فى خسارة حتى انتبه الى نفسى والى تصرفاتى ..

ربما ..

ولكنه قطعا عبد العظيم ..

اذن ، فقد تضامن عبد العظيم وخيرية ضدى .. وهو تضامن خطير ، اخطر من تضامن خيرية مع عبد العزيز باشا .. ان عبد العظيم يعرف كل اسرارى .. كلها .. ويعـــرف عقليتى واسلوبى فى العمل .. انه يستطيع .. من طول ما عاش معى .. أن يقرأ افكارى وينطق بلسانى .. والفرق الوحيد بينى وبينه هو فرق فى الشخصية .. هذا الاطار الذى يحيط بالفرد ويحدد قيمته فى أعين الناس ويسمى الشخصية .. وهناك شخصيات

تستطيع ان تندفع وتشق طريقها حتى تصل الى الصف الأول .. الى زعامة ، او الى مجد .. كشخصيتى .. وهناك شخصيات لا تستطيع ان تتعدى الصف الثانى ابدا ، مهما كانت قيمة ذكاء صاحبها ! وعبقريته ، او شجاعته ، ومهما حاول صاحبها ودفع فى سبيل محاولته .. انها شخصيات تحتاج لمن يكمل نقصها .. شخصيات لا تحتمل مواجهة الناس وحدها ، ولا تكفى لمرء متعد فى الصف الأول .. وهذه هى شخصية عبد العظيم .

ولم اكن استطيع ان اواجه عبد العظيم باتهامى له ، فليس عندى دليل ضده .. واتهامه سيكون بمثابة اصابة الوحش بجرح دون قتله .. والوحش المجروح اشد خطرا .. انما كان يجب ان اعد له ضربة قاتلة .. تقتله هو وخيرية معا ..

وبدات افكر فى خطة جديدة .. خطة اوسع واقسى من الخطة التى كنت افكر فيها للقضاء على خيرية واعوانها .. وبدات احترس من كل من حولى .. حتى سكرتيرى الخاص لم اعد اطمئن له .. انهم كلهم مرءوسون لعبد العظيم ، وكلهم يخضعون لعبد العظيم .. لقد منحت عبد العظيم سلطات واسعة فى مكتبى حتى اصبحت انا نفسى سجين هذا النفوذ .. واصبحت كل الأداة التى اعمل بها خاضعة له .. اداتى لا امسكها الا بيده ، وهذا خطأ كبير وقعت فيه ، فلم احسب حساب اليوم الذى يمكن ان يتمرد فيه عبد العظيم ..

وبدات ارى تصرفات عبد العظيم حيالى ، بعين جديدة .. عين السخط .. كل حركة منه بدات افسرها تفسيرا عدائيا .. نظراته .. لفتات وجهه .. انه يتعمد ان يختصر مقابلته معى كل صباح .. انه لا يبلغنى كل شىء ، لعله يخفى عنى اشياء كثيرة وخطيرة .. انه لا يتلهف على قضاء الليل معى كما كانت عادته .. انه يتصل بمديرى الشركات من وراء ظهرى .. و .. و ..

وبدات العلاقة بيننا تتخذ شكلا رسميا منفرا .. علاقة

رئيس بمرءوسه .. وبدا العداء بيننا يتكشف ، ولكن شخصيته الضعيفة امامى كانت تجبره على ان يخفى هذا العداء تحت مظهر ذليل خانع كريه ..

ولم يعد عبد العظيم يذكر خيرية امامى او يثير موضوعها ، رغم انى كنت اعلم انه يقابلها .. ويتعمد ان يقابلها سرا .

ولم يعد يثير موضوعك وموضوع امك .. لم يحدث الا مرة واحدة ان سألنى وهو يخفى عداءه وراء ذله :

ــ المبلغ بتاع ست تفيده نخليه زى ما هو الشهر ده ؟

وقلت وانا اطل عليه بعينين ملؤهما الاحتقار :

ــ تفتكر ايه ؟

قال :

ــ اللى تشوفه سعادتك ..

قلت وانا لا ازال احتقره :

ــ سعادتى عايز يسمع رايك ؟

قال فى نفاق ذليل :

ــ والله انا باشوف نخلى المبلغ زى ما هو .. زمانهم خدوا على العيشة اللى هم عايشين فيها ..

قلت فى هدوء :

ــ ولما ده رايك ، بتسألنى ليه ؟ .. ايه اللى اثار الموضوع ده دلوقت ؟

قال وكأنه يرد طعنتى :

ــ انا كل شهر باسأل سعادتك السؤال ده ، قبل ما نصرف لهم حاجة ..

وفعلا كان عبد العظيم يسألنى هذا السؤال كل شهر ، ولكن كراهيتى له جعلتنى اشك فى سؤاله ..

انه لا يخطىء ..

انه لا يترك لى مكانا لثغرة اطعنه .

وكان هذا يغيظنى منه اكثر ..

وفى هذه الأثناء جاء خالك من الاسكندرية وقابل عبد العظيم بناء على طلب امك ، ليحادثه فى موضوع الزواج .. زواجه المزيف من امك .. وكان عبد العظيم قد امتنع عن زيارتكم ، ولم احاول انا ان ادفعه اليكم .. حتى يئست امك ، وبدات تشك فى امر هذا الزواج ، ثم علقت يأسها بخيط ضعيف من الوهم ، فطلبت من اخيها ان يذهب لمقابلة عبد العظيم .. وما كاد يفاتحه فى الموضوع ، حتى صرخ فيه عبد العظيم :

ــ انتم صدقته ان الجواز ده صحيح ؟ ! انتم مجانين ؟ ! اتجوز اختك علشان ايه ؟ .. فيها ايه علشان اى راجل يتجوزها .. جمالها ولا عينيها المعمصين ؟ ..

وفتح عبد العظيم خزانة فى جدار مكتبه ، واخرج وثيقتى الزواج المزيف ، وعاد يصرخ :

ــ اتفضل يا سيدى ، وآدى ورقة الجواز ..

ثم اخذ يمزق الورقتين بيديه فى حقد وعصبية ، كأنه يمزق وجهى .. وخالك واقف امامه كالأبله لا يستطيع ان ينطق .

وعاد عبد العظيم يقول

ــ اظن فهمت دلوقت .. الجواز ما كانش جواز .. ده كان نكتة .. كان الباشا ايامها نفسه يضحك .. والمأذون اللى شفته حضرتك ماكانش مأذون .. كان ممثل .. ولو كنتم عاقلين كنتم فهمتم كده من الأول .. كنتم فهمتم ان عبد العظيم ما يتجوزش واحدة زى تفيده ..

واحنى خالك راسه ، وهم ان ينصرف .. ولكن عبد العظيم استوقفه ثم جلس وشد نفسا عميقا من الهواء ، كأنه يطفىء لهيب حقده الذى انفلت منه رغم انفه ، ثم قال فى هدوء :

ــ الكلام اللى سمعته ده مش عايزك تقوله لحد .. لا لاختك .. ولا للباشا ..

وقال خالك وهو يقاوم ذله :

— ازاى يا بيه .. لازم اقول لها .. ده حرام عليك .. دى ست غلبانه .

قال :

— لو قلت لها حاتلاقى النيابة وراك .. انت عارف كويس، انى اقدر اوديك فى داهيه ..

وانتفض خالك وقال وكلمته ترتعش :

— ودينى فى داهية .. الداهية اللى حاروحها ارحم من اللى باشوفه منكم .. انتم .. انتم ..

وابتسم عبد العظيم وعاد يقول

— هدى نفسك بس .. انا اصلى كنت عصبى النهارده .. انما ما تجبش سيره ، والدور الجاى لما تيجى حاقطع قدامك ورقه تانية .. ورقة تساوى اربعة آلاف جنيه .. وما تنساش انك محتاج لوظيفتك .. والدور عليك علشان تترقى :

وهدأ خالك .. لقد تهدم حتى لم يعد يستطيع ان يحتمل كرامته ، وقال :

— ده حرام .. حرام يا بيه ..

واتسعت ابتسامة عبد العظيم ، وقال :

— خلاص اتفقنا يا اسماعيل افندى ، وباذن الله حاعوضك خير .. صدقنى .. واول ما حاترجع اسكندرية حتلاقى الترقية مستنياك ..

وخرج خالك ، ولم يبلغ امك بما سمع او راى .. سكت حتى عن هذا ..

ولم اسمع انا بهذا الحديث الا بعد فترة طويلة .. بعد ان كانت قصتكما تنتهى .. ولو كنت سمعت بها فى حينها لما فعلت شــيئا .. لما همنى .. لم يعد يهمنى منكم شىء .. لا انت ،

ولا امك ، ولا خالك .. لقد سكت الشيء الذى كان يتحرك فى صدرى ويربطنى بكم .. سكت .. مات .. وترك مكانه فراغا يقهقه فيه مجنون ..

***

واخذت اعمل فى تنفيذ خطتى .. وكنت ذكيا فى غاية الذكاء .. ولكنى لم اكن عاقلا .. لو كنت عاقلا لما فكرت فى هذه الخطة اطلاقا ، بل فكرت فى القضاء على خيرية وعبد العظيم وبقية اسلحتى التى اعمل بها ، لقد كنت مجنونا .. وكان ذكائى ذكاء المجانين ..

وقررت ان اسافر الى الخارج لتنفيذ الخطة من هناك .. كنت استطيع ان انفذها وانا فى مكتبى فى القاهرة .. ولكنى — كما قلت — لم اعد اطمئن الى احد فى مكتبى ..

وفى جنيف استطعت ان اتفق مع احد كبار الماليين هناك .. ان الفرق بين كبار الماليين والنصابين فرق ضئيل جدا ، كالفرق بين اليد اليمنى واليد اليسرى .. كلاهما يد ، ولكن احداهما فى اليمين والاخرى فى اليسار .. كبار الماليين فى اليمين وفى حمى القانون ، والنصابون فى اليسار وضد القانون ..

وكانت الخطة التى عرضتها على المالى الكبير خطة نصب .. خطة انشاء شركة عالمية وهمية لاقامة مصنع للسيارات والثلاجات وآلات الراديو فى مصر يغطى سوق الشرق الأوسط كله .

واى مالى كبير لا يتردد فى انشاء أى شركة وهمية ما دامت ليست فى بلده ، ولا فى البلاد التى يحتفظ فيها برءوس امواله .. ان النصب على الدول الصغرى — كمصر — يعتبر شطارة مالية فى قاموس الماليين الكبار .. واذا كان هذا المالى الكبير يهوديا ، فان العملية فى هذه الحالة تصبح بالنسبة له عملا وطنيا فى خدمة اسرائيل ..

وكان على أن أتخذ كل الاحتياطات لتبدو هذه الشركة صحيحة ، فان عبد العظيم ليس فريسة سهلة .. انه تربيتى ، وهو يعلم فى الشئون المالية وشئون النصب قدر ما أعلم ..

ولذلك بدأنا فى تأسيس الشركة فى جنيف .. دون أن يبدو فيها اسمى .. وأصدرنا أسهمها ، واشتريت ثلاثين فى المائة من هذه الأسهم بأسماء مختلفة .. أنا اشتريت من نفسى ، ومن أموالى المهربة الى الخارج .. ان خمسين فى المائة من اموالى مهربة فى الخارج .. انى أستطيع أن اترك مصر فى اى لحظة وأعيش فى اى بلد فى العالم عيشة أصحاب الملايين .

وطبعا لم تعلن هذه الشركة فى الخارج ، حتى لا يتقدم أحد للمساهمة فيها ثم تقع تحت طائلة القانون بعد أن تنكشف لعبتنا .. انما أعلنا عنها فى مصر .. اعلانات صغيرة .. مجرد اخبار .. حتى تبدو شركة محترمة ليست فى حاجة الى دعاية ..

ووصل مندوب الى القاهرة ، وأنا لا أزال فى جنيف .. وصل يحمل تعليمات مفصلة دقيقة عن الضحايا الذين وكل بافتراسهم ..

واتصل المندوب برجال البنوك فى القاهرة .. ثم اختار أحد كبار المحامين كمستشار له .. وبدأ يتصل بدوائر الأعمال ، ويسهر فى نادى السيارات .. وبدأت الصحف تتحدث عنه كثيرا .. بعضها يتحدث عنه بالثمن ، وبعضها يتحدث عنه بسلامة نية ، وبلا ثمن .. خدمة للقراء .. هذا النوع من الصحف الذى يهب صفحاته لبعض الناس لمجرد انهم أغنياء !

وعرف الرجل خيرية ..

وكانت خيرية على رأس قائمة الضحايا ، فأولاها كل ثقته ، وكل اهتمامه ، واعتمد عليها فى تقديمه الى الماليين المصريين !!

وفرحت خيرية بهذا الاهتمام .. واعتبرت نفسها قد وقعت على صيد جديد .. وتطوعت بالدعوة للشركة ، وتأييد مطالبها ..

وعن طريق خيرية عرف الرجل عبد العظيم .. ولكن عبد

العظيم لم يتهافت عليه كما تهافتت خيرية .. انما أخذ الموضوع بحرص .. وارسل الى مكتبنا فى باريس يطلب معلومات دقيقة تفصيلية عن الشركة ، وعن مموليها ، وعن البنوك التى تتعامل معها .. و .. و ..

واجبت انا بنفسى ــ وانا فى جنيف ــ على خطاب عبد العظيم ، دون ان يدرى .. ارسلت له كل البيانات التى تطمئنه ، وكان اكثر ما طمأن عبد العظيم ان الشركة قد اسست فعلا فى جنيف ، وان اسهمها قد غطيت .. بما قيمتــه عشرون مليــون فرنك سويسرى ، اى حوالى مليونين من الجنيهات المصرية ..

واقتنع عبد العظيم بالشركة ..

اقتنع الى حد ان فكر فى ان يأخذ الصفقة كلها وحده دون أن يشركنى فيها ..

والح عبد العظيم على المندوب ان يعمل على نقل مركز الشركة الى القاهرة .. وكان يلح حتى تكون له الفرصة ليحتل مقعدا فى مجلس الادارة .. وتظاهر المندوب بالتردد .. ثم تظاهر بأنه على اتصال بجنيف لأخذ موافقتهم على اقتراح عبد العظيم .. ثم تظاهر بأن المؤسسين يرحبون بنقل مركز الشركة الى القاهرة ، ولكن بعد فتح باب الاكتتاب وتغطية الأسهم بواحد وخمسين فى المائة على الأقل من الأموال المصرية كما يقضى القانون المصرى ..

وفتح باب الاكتتاب .. والشركة قانونية لا شائبة فيها ..

وغطى الاكتتاب فى أيام ..

دفع عبد العظيم نصف مليــون جنيه .. اى نصــف ثروته تقريبا ..

ودفعت خيرية حوالى ربع مليون جنيه .. اى كل ثروتها بعد ان باعت كل ما تملكه من أسهم أخرى ..

ودفع عبد العزيز باشا .. ودفع حسنين باشا شهاب .. هذا الفنطاس الفارغ .. ثم دفع عرفان باشا أيضا .. و .. و ..

وهللت الدوائر المالية كلها ..

وهللت الصحف ..

وهنأ رئيس الوزراء نفسه ، واصدر تصريحا قال فيه ان حكومته بدات أولى الخطوات الايجابية نحو تصنيع مصر !

لم يداخل واحدا من كل هؤلاء العباقرة اى شك فى ان كل الأوراق سليمة .. حتى الاتفاقات مع المصانع الأوربية التى ستقوم باقامة المصنع قد أعدت ، ولا لبس فيها ..

وبدات بعد ذلك اجراءات لنقل مركز الشركة الى القاهرة ، واعلانها شركة مصرية ..

وبمجرد أن تمت هذا الاجراءات على الورق ، حلت الشركة التى اقمناها فى جنيف ، واصبحت انا والمالى الكبير بعيدين عن اى مسئولية أمام القانون السويسرى .. واستردت ثمن الأسهم التى اشتريتها .. واصبحت أسهما لا تساوى ثمن الورق الذى كتبت عليه .

ثم عدت الى مصر ..

عدت بعد أن بقيت فى أوربا اكثر من ستة شهور ، اشرفت على تنفيذ الخطة التى لم يبد فيها اسمى !

واستدعيت عبد العظيم بمجرد وصولى وقلت له قبل أن يهنئنى بسلامة الوصول :

ــ اشتريت اد ايه من اسهم الشركة الجديدة ؟

وارتج لسانه ، وقال متلعثما :

ــ والله انا اشتريت لنفسى بس ..

وصرخت :

ــ لنفسك .. لنفسك ازاى .. انت بتشتغل لحسابك ولا ايه .. ازاى ما تشتريش باسم الشركة ؟ !

قال وهو لا يزال يتلعثم :

ــ والله أصلى كنت مستنى سعادتك تيجى .. وبعت لك

خمس تلغرافات ما ردتش على .. ماكانش ممكن اتصرف لوحدى فى مسألة زى دى .. وللأسف ان سعادتك اتأخرت ..

وادعيت الهدوء والأسى وقلت :

ــ زى بعضه .. انما انت اتغيرت يا عبد العظيم .. عمرك قبل كده ما اشتغلت لحسابك .. طول عمرك مخلص للشركة .. انما زى بعضه ، انا اعتبر الأسهم اللى اشتريتها لحسابك كأنها بتاعتى ..

وقال وهو يحاول أن يخفى خبثه :

ــ دول تحت أمرك .. وانا مستعد ابيعهم للشركة دلوقت حالا ..

قلت :

ــ لا .. خليهم لك ولأولادك .. بس احب اقول لك انهم اسهم كويسين .. والشركة دى شركة قوية .. انا سمعت عنها فى كل حتة فى اوربا ..

وخرج عبد العظيم وهو يخفى شماتته تحت ابتسامته ..

وبدات بعد ذلك عملية تهريب الأموال لحساب المندوب ..

ولم تنقض ستة اشهر اخرى حتى كانت كل اموال الشركة الجديدة قد هربت فى صورة تحويلات على البنوك الأجنبية بأسماء عملاء وهميين فى الخارج .. ومجلس الادارة يجتمع وينفض ويقر تحويل هذه الأموال ، دون أن يفهم شيئا .. والمندوب اليهودى يتلاعب برءوسهم ، ويربكهم بمجموعة ارقام واسماء واصطلاحات ، فلا يملكون الا الموافقة حتى لا ينفضح غباؤهم ..

وفجأة اختفى المندوب من مصر ..

واختفت معه كل اموال الشركة ..

وقامت ضجة ..

ضجة أطاحت بالوزارة .. فسقطت .. وتناقلتها صحف العالم ، واضحكت قراءها على اغبياء مصر ..

وأعلن المالى السويسرى انه لم يسمع بهذه الشركة ولم يشترك فيها وان التوكيل الذى يحمله المندوب موقعا باسمه ، كان توكيلا مزورا .. وفعلا كان مزورا ..

وحاولت خيرية الانتحار ، وانقذتها ابنتها شوشت ..

وانكمش عبد العظيم .. صغر .. وصغر .. حتى اصبح يدخل مكتبى منحنيا كأنه يسعى لتقبيل حذائى ..

ودارى حسنين باشا شهاب وعبد العزيز باشا فضيحتهما ، وحاولا ان يدعيا اللامبالاة ، ثم اخذا يبحثان عن مصدر لابتزاز الأموال يعوضان به خسارتهما ..

وابتعد عرفان باشا عن الجو السياسى ، وافتتح مكتبا متواضعا للمحاماة ..

وأطلق خليل بك الرصاص على نفسه .. ومات ..

وقهقه المجنون فى صدرى ..

قهقه فى صوت مدو .. فظيع .. كصراخ آلاف من النساء اجتمعوا ليشيعوا آلافا من الرجال بعدد الجنيهات التى هربت من مصر ..

- ٢٢ -

وخفتت الضجة التى اثارتها فضيحة الشركة العالمية الوهمية .. وبدأ الضحايا يلعقون جراحهم ، ويبحثون عن اى باب يطرقونه ليعوضوا خسائرهم .. ثم تنبهوا فجأة الى انى الوحيد الذى لم اقع فى الخدعة الكبرى .. انا الوحيد الذى لم تصبنى جراح .. فالتفوا بعيونهم حولى .. عيون الشك ، والحقد ، والكراهية ، والاتهام .. وانا اشرب من هذه العيون ليرتوى المجنون الذى يقهقه فى صدرى .. يرتوى من حقدهم ، وكراهيتهم ، ومن الدماء التى تنزف من جراحهم ..

وقلت لعبد العظيم صبيحة يوم اعلان الفضيحة :

ـــ انا آسف يا عبد العظيم .. ما كانش حد ممكن يعتقد ان شركة زى دى تطلع شركة نصابين ..

ورفع الى عبد العظيم وجهه .. وكان اصفر فى لون الموت ، وقد تهدمت ملامحه وتساقط بعضها على بعض حتى بدا ككتلة مجمدة من الدموع الصفراء .. ثم رفع الى عينيه .. عينين ملؤهما شك يحاول عبثا أن يخفيه ، وقال فى صوت ضعيف :

ـــ الحمد لله ان سعادتك فضلت بعيد عن المصيبة دى ..

قلت وانا أحاول أن أدارى شماتتى :

ـــ مسألة حظ .. مجرد حظ ..

قال ، وقد طاف بعينيه بريق عابر يفضح حقده :

— فعلا .. سعادتك طول عمرك محظوظ ..

قلت :

— وانت كنت محظوظ معايا يا عبد العظيم ، ويوم ما اشتغلت لوحدك سابك الحظ .. بعد كده ما تشتغلش لوحدك ابدا .. آدى انت شفت اللى بيجرالك من غيرى .

وسكت طويلا ثم قال وهو يتنهد كأنه يلفظ آخر انفاسه :

— لك حق يا باشا ..

وهم ان يقوم من مقعده ، ثم عاد وجلس قائلا :

— سعادتك مش كنت قلت انك سمعت عن الشركة دى فى اوربا .. سمعت عنها ايه ؟

قلت وانا اواجهه بعينى كأنى اعرف الشك الذى يراوده . ولا اخافه :

— سمعت انها شركة جامدة .. كان فيها اسماء جامدة . ورءوس أموال جامدة .. انا عمرى ما شفت عملية نصب اتعملت بالشكل ده ، وبالدقة دى ..

وعاد عبد العظيم يتنهد ، ثم قال وهو يقوم من مقعده :

— انما برضه انا كنت مغفل ..

قلت وانا ابتسم له :

— بكره تتعوض يا عبد العظيم ..

قال فى اسى :

— العمر كله ما بقاش يكفى للعوض ..

وخرج وهو يترك وراءه ريحا ثقيلة من الاتهام .. اتهامى .. وكان لدى عبد العظيم اكثر من دليل يؤكد له هذا الاتهام .. أقربها انى لم ارسل له برقية وانا فى اوربا آمره بأن يشترى لى اسهما فى هذه الشركة ، ما دمت قد سمعت عنها وآمنت بسلامتها .. ولكن كل هذه الادلة ليست قابلة للاثبات .. ان عبد العظيم لا يستطيع ان يعلنها ، ولا ان يواجهنى بها ..

وقد انحرفت علاقتى بعبد العظيم بعد ذلك انحرافا حادا .. لقد اصبح ذليلا كالكلب ، ولكنى لم أعد أعتمد عليه .. لقد احسست بانى تحررت منه .. احسست بانى استطيع ان اعيش دون حاجة اليه .. احسست ان فى داخلى شيطانا اكبر من شيطانه ..

ثم انى لم اعد آمن له بعد ان طعنته فى جنبه هذه الطعنة الحادة .. انه لا بد يفكر فى الانتقام منى ، واذا لم يحاول أن ينتقم منى ، فسيحاول — على الأقل — ان يعوض خسارته على حسابى ..

وبدات اقرب الى شخصا آخر .. مدير مكتبى .. انه رجل متمصر .. ولد فى لبنان ، وعاش فى مصر ، ويحمل الجنسية الفرنسية ، وكانت له نفس عقلية عبد العظيم ، ولكنه كان اقل منه جراة ووقاحة .. كان عقربا جبانا يلدغ لدغته بعد تردد كبير ..

ولم يعترض عبد العظيم وهو يرى مدير مكتبى يحتل مكانه منى .. لقد عاد خسيسا كما بدا حياته .. كل ما يهمه ان يجمع من الاموال ما يغطى خسارته .. وكان دنيئا فى جمع هذه الأموال .. اصبح يأخذ رشوة من كل موظف يعين فى احدى الشركات ، نظير تعيينه .. واخذ يتقاسم مع رؤساء العمال ما يقتطعونه من الأجور لانفسهم .. واخذ يبالغ فى العمولة التى يطالب بها لنفسه على مشتريات الشركة .. تماما ، كما كان يفعل فى بدء حياته عندما كان يشتغل معى فى مقاولات الجيش البريطانى ..

وقد سكت عليه .. لم احاول ان اقفه عند حده ، أو احاسبه على ما يبتزه من اموال .. انه مهما تمادى فلن يعوض خسارته .. انه يحتاج الى ثلاثين سنة اخرى ليعوض خسارته بهذه الطريقة الرخيصة الخسيسة .. ولو كان عبد العظيم رجل اعمال كامل الشخصية لحاول ان يجازف فى البورصة بما بقى من ثروته ليعوض ما ضاع منها .. ولكنه لم يفعل .. انه اكثر جبنا من ان يفعل

ذلك .. ان شخصيته لا تحتمل مثل هذه المجازفة .. وكانت الضربة التى ضربتها له قد أفقدته ثقته بنفسه .. ضربة أقنعته بأنه لا يستطيع أن يكون شيئا الا ذيلا لى ..

وكان عبد العظيم — بعد هذه الصدمة — لا يزال يتردد سرا على خيرية .. ولكن كلا منهما عرف أنه لم يعد ينفع الآخر .. انها لم تنفعه لأنه لم يعد يقدم على عمليات كبيرة تحتاج الى الاتصال بالشخصيات الكبيرة .. وهو لن ينفعها لأنه لا يستطيع أن يدفع ثمنها .. انه نتن .. بخيل .. مجروح الشخصية ..

وحاولت خيرية أن تكسبنى من جديد ، بعد أن أفاقت من الصدمة ، ودق جرس التليفون فى مكتبى ، وسمعت صوتها ناعما وقد شحنته بكل رقتها الملساء ، وقالت فى دلال :

— حسين .. وحشتنى يا خاين ..

قلت فى شماتة :

— ازيك يا خيرية ؟ .. ازى صحتك دلوقت ؟ !

قالت :

— صحتى كويسه .. بس اعصابى .. ما تعرفش دوا للأعصاب ؟ ..

قلت وانا اكاد اضحك :

— أحسن حاجة تسافرى تغيرى هوا ..

قالت وهى تمط فى كلماتها :

— انا ماقدرش أسافر الا لما تصالحنى !

قلت :

— وانا عمرى خاصمتك ؟ .. ده انا ما أستغناش عنك أبدا ..

قالت :

— طيب حاشوفك امتى ؟

قلت :

— مشغول اليومين دول يا خيرية .. اول ما افضى حاضرب لك تليفون ..

قالت وهى تتنهد كأنها تستجير بالله :

— ما تبقاش قاسى يا حسين .. خليك معقول .. كفاية كده !

قلت والمجنون يتقلب مرحا فى صدرى :

— وحياتك مشغول يا خيرية .. استنى على اليومين دول !

ووضعت سماعة التليفون وانا أضحك .. انى قاس فعلا ، وانا سعيد بقسوتى !

ولم اتصل بها بعد ذلك .. ولم ادعها الى بيتى .. انى مضغتها وبصقتها بقايا .. مضغتها كما مضغتك ، وكما مضغت امك ، وكما مضغت عبد العظيم ..

وقد عرفت خيرية أنها لن تعود الى .. عرفت انى لن أعوضها عن خسارتها .. وبدأت تتخبط فى محاولة استرجاع ثروتها .. انها لا تزال محتفظة بمظهر الثراء .. ولا تزال محتفظة بأصدقائها .. الأصدقاء الكبار .. ولكن الصدمة كانت قد هزتها .. أتلفت أعصابها ، وافقدتها شخصيتها هى الأخرى .. وكان حقدها على يعميها عن طريقها .. كانت تحقد على حقدا أسود .. كانت هى الأخرى تتهمنى بأنى سبب مصيبتها ، وبأنى مشترك فى جريمة الشركة العالمية الوهمية ..

وذهبت الى النادى فى احدى الليالى ، ولاحظت أن خيرية جالسة مع زوجها على غير عادتها ، وبينهما همس طويل .. والرجل لا يبدو سعيدا .. يبدو عصبيا يتململ فى جلسته ، ويقرص شاربه بأصبعه .. ووجهه محتقن .. ثم فجأة قام من مقعده ، وسار متجها الى فى خطوات غاضبة ، وعيناه متقدتان كأنه مقبل على ارتكاب جريمة ..

وبسرعة قدرت الموقف .. ان خيرية قد ملأت صدر هذا

الرجل الأبله ببخار حقدها على .. ربما قالت له انى حاولت أن أغازلها ، وأنه يجب أن يؤدبنى .. وشريف بك لا يمانع فى أن أغازل زوجته ، ولكن بشرط رضائها .. وبشرط الا أزعجه بمغازلتى لها .. أما أن تشكو له زوجته من مغازلتى ، وتعكر عليه صفو سعادته بشكواها ، فانى ولا شك أستحق التأديب .. وربما قالت له خيرية أى شىء آخر .. ولكن يبدو أنها تحاول أن تسبب فضيحة لى .. أن يضربنى زوجها فى وسط النادى ، وأمام عينيها ، حتى تطفىء نارها ..

ووصل شريف بك الى مائدتى ، ووقف فوق رأسى وشاربه الذى فى لون الفضة يهتز ، ويشق وجهه الأحمر كأنه خنجر يعلقه بين أسنانه ، وصاح فى غضب ، وفى صوت يكاد يصل الى الشارع :

ــ اسمع يا باشا .. أنا ما اسمحش ان ..

وقاطعته فى هدوء :

ــ مالك زعلان كده .. علشان ما اتغلبت فى البلياردو النهارده الصبح ؟

وسكت الرجل ، وتعلقت عيناه بشفتى ، ثم قال وقد هدأ صوته قليلا :

ــ بتقول ايه ؟

قلت وأنا لا أزال محتفظا بهدوئى :

ــ باقول انك اتغلبت فى البلياردو .. غلبك الأمير محسن .. واد لسه عنده عشرين سنة ، يغلب بطل كبير زيك ؟ ..

قال وقد بدأ يغضب من جديد :

ــ محسن ما غلبنيش .. احنا طلعنا كيت .. اسأل كل واحد !

قلت :

ــ هو بيقول انه غلبك ..

قال كأنه طفل عنيد يهم بالبكاء :

ـــ ما غلبنيش .. ما غلبنيش .. مش ممكن يغلبنى ..

قلت :

ـــ على كل حال أنا اتفقت معاه اننا نعمل مباراة الجمعة الجايه .. وحاقدم كاس لبطل النادى .. انما لسه مش عارف التفاصيل .. تفتكر نخليها مبـــاراة عامة ، ولا فى البليـــاردو الانجليزى بس ؟ .

قال :

ـــ أنا باشوف أولا ان ..

وقاطعته :

ـــ اقعد يا شريف بك .. اتفضل .. احنا عايزين نعملها مباراة جامدة قوى .

وجلس بجانبى شريف ، وأخذنا نتحدث عن تفاصيل مباراة البلياردو .. وهـــدأ الرجل .. وعادت الى وجهـــه ملامح السعادة ..

ولمحت بطرف عينى خيرية ، وهى تقوم غاضبة ، وتخرج من النادى وهى تكاد تقلب الموائد فى طريقها ..

وتنبه شريف بك بعد فترة الى أن زوجته قد خرجت ، وتذكر أنه كان ثائرا على ، وأنه كان قد قرر بينه وبين نفسه أن يعتدى على .. أن يضربنى .. فعاد وجهه يتجهم من جديد .. وسكت عن حديث البلياردو مرة واحدة .. ولكنه لم يستطع أن يستعيد حماسه للاعتداء على ، فقام فجأة ، وهو يقول :

ـــ بعدين .. بعدين .. بونسوار ..

وقضى أعضاء النادى ليلتهم يتندرون على خيرية وزوجها .. الغيور !!

وكان اتهامى بأنى مشترك فى جريمة الشركة الوهمية قد انتشر فى كل الأوساط المالية .. ولكن أحدا لم يستطع أن يثبت اتهامه .. ان الدليل الوحيد القاطع هو انى لم أشتر أسهم هذه الشركة ،

ولم أخسر مالى فيها كما خسروا .. وهو دليل لا يكفى .. انه ليس دليلا اطلاقا .. ولكنهم بدوا جميعا يحاربوننى فى الخفاء .. واشترك معهم فى حربى أعضاء مجالس ادارة شركاتى الذين اصابتهم جريمتى ، وعلى رأسهم حسنين باشا شهاب .. الفنطاس الفارغ .. لم يستقيلوا من مجالس الادارة .. لقد أصبحوا أحوج مما كانوا الى المكافآت التى ادفعها لهم .. ولكنهم كانوا يقبضون هذه المكافآت دون أن يعملوا .. دون أن يستعملوا نفوذهم لمصلحتى ، بل أصبحوا يستعملون هذا النفوذ الكبير ضد مصالحى ..

واحتملت هذه الحرب .. احتملتها كالكلب المسعور .. أعض كل من يقترب منى .. ولم أكن أعلم أن الكلاب المسعورة يمكن أن تكون سعيدة الى هذا الحد .. لقد كنت سعيدا جدا وانا أعض كل من حولى .. ووصلت سعادتى الى القمة عندما غرزت اسنانى فى لحم حسنين باشا .. ان لحمه لذيذ .. لحم اشتهيته منذ التقيت به ..

وكنت قد أنشأت مصنعا هزيلا للمنتجات الصوفية ، وكان الأمل الوحيد أمام هذا المصنع هو أن ترفع الحكومة الضريبة الجمركية على الأصواف المستوردة من الخارج ، حتى يضطر الناس الى أن يشتروا بالسعر الذى أفرضه عليهم .. ولم يكن انتاج هذا المصنع يكفى الناس جميعا .. ورفع الضريبة الجمركية على الصوف المستورد ، معناه أن يموت الناس من البرد ، والا يلبسوا الأصواف .. ولكن كان هذا هو الحل الوحيد اذا أردت لهذا المصنع أن يكسب ، بل أن يعيش ..

وكان المفروض أن يستغل حسنين باشا نفوذه لدى الحكومة لترفع هذه الضريبة الجمركية الى ثلاثة أضعافها بحجة حماية الصناعة الوطنية .. ولكنه لم يستغل نفوذه .. بل انه كان يحارب المشروع فى الخفاء .. وكلما اجتمع مجلس الادارة وعد بأن

يعيد الكرة ، واخذ يتهم الحكومة بالتكاسل والتفريط فى حماية المصانع الوطنية ..

وفاجأت مجلس الادارة يوما بقرار حل الشركة ..

وبغتوا ..

ولكنى اكدت لهم ان الشركة سيعاد تكوينها بعد تسوية الخسائر التى لحقتها نتيجة عدم حماية منتجاتنا ..

وخرج حسنين باشا ، وقد عرف انى ضربته ..

واعدت تكوين الشركة دون ان يكون بين اعضائها سعادته .. طردته .. طردته من جميع شركاتى .. والقيت به فى الشارع .. وتركته يبدأ حربا صريحة ضدى ، ويقف فى صف واحد بجانب خيرية ، وبجانب عبد العظيم .. بجانب الذى مضغتهم وبصقتهم بقايا

وكنت فى غمار هذا الجنون قد سددت اذنى عن اصوات تنبعث من الشارع .. اصوات كالزئير تعلو رءوس ناس لا اعرفهم .. ناس فقراء .. ناس يقتربون وفى أيديهم هراوات ليطاردوا بها الكلب المسعور ..

- ٢٣ -

كان من عادة سكرتيرى الخاص ان يجمع لى قصاصات الصحف التى يكتب فيها عنى او عن احدى شركاتى او عن واحد من خصومى ، ويرتبها فى دوسيه يضعه على مكتبى ، لأراه أول شىء فى الصباح ..

ونحن — رجال الأعمال — نهتم كثيرا بما ينشر عنا فى الصحف .. كل الصحف .. حتى الصحف الاقليمية الصغيرة التى لا يشعر بها قراء القاهرة .. وليس معنى ذلك اننا نؤمن بقوة الصحافة ، أو بأنها السلطة الرابعة كما يقولون .. لا .. اننا اعلم الناس بالصحف وكيفية ادارتها والموارد المالية التى تعتمد عليها .. ولدى كل منا قائمة بأسعار الصحف واصحابها ورؤساء تحريرها ومندوبيها .. ان كلا منهم له ثمن فى بورصة سرية ترتفع وتنخفض حسب خطورة المعلومات التى تحصل عليها الصحيفة ، وحسب قيمتها فى السوق .

ولكننا — رغم ذلك — نهتم بقراءة ما ينشر فى الصحف ، لنتحسس التيار الذى يختفى وراء السطور .. اننا لا نقرأ الأخبار والمقالات كما يقرؤها بقية الناس ، اننا نقرؤها بعقل واع وأفق يتسع ليحلل كل كلمة ، ويبحث عن معانيها الخفية ، وعن مصدرها والموحى بها .. اننا نعتبر كل صحيفة مكتب تجسس يعمل لحسابنا .. فاذا نشرت هجوما او اخبارا تمسنا

كشفت بذلك عن اتجاهات تفكير اعدائنا ، أو كشفت عن موضع نقص فى أعمالنا نسرع الى تلافيه .. واذا نشرت مدحا فينا استفدنا أيضا .. فان أحدا لا يمكن أن يمتدحنا الا كان وراءه غرض يسعى الى تحقيقه ..

وبدأت فى قراءة القصاصات ..

وفجأة سقطت عيناى على مقال كبـــير بعناوين حمراء :

« أسرار فى الصحراء .. شركة مصرية تمتص دماء العمال .. هل تعرف الحكومة أن فى مصر بلدا يسمى القصير » .. وبعد ذلك مقال كالنار عن شركة مناجم القصير .. كلمات كالسكاكين تغمد فى وجهى ..

وتحملت الكلمات .. ولكن ما لم اتحمله هو الأرقام .. ان المقال مزود بأرقام .. دقيقة صادقة مفروض انها أرقام سرية .. أرقام تفضح الشركة وتكاد تقضى عليها .. ونحن لا نخاف الناس الذى يتكلمون ، ولكننا نخاف الناس الذين يحسبون بالأرقام ..

وأكثر من ذلك ..

ان كاتب المقال يكشف عن المالك الحقيقى للشركة .. انه أنا .. وهو يسمينى باسمى ..

ــ من هو كاتب المقال ؟

انه عادل .. والمقال يحمل توقيعه ! واستدعيت عبد العظيم وصرخت فى وجهه ، وقد بدأ المجنون يزمجر فى صدرى :

ــ الواد اللى اسمه عادل ده ، لسه موظف فى شركة القصير ؟

وأجاب عبد العظيم وظهره قد أحناه الذل :

ــ لا يا افندم .. اســـتقال .. خرج من المستشفى وقدم استقالته ، وطلب تسوية مكافأته !

قلت وأنا لا زلت أصرخ :

ــ وما قلتليش ليه ؟

قال ونظراته تقطر سما :

— سعادتك ما سألتنيش .. من مدة وسعادتك لا بتنده لى ولا بتسألنى عن حاجه ..

ونظرت اليه كأنى أغمد عينى فى قلبه ، وقلت فى غيظ :

— وحضرتك اديته مكافأة اد ايه ؟

قال وهو يبتسم ابتسامة صغيرة يتملقنى بها :

— ولا مليم .. وده يستحق حاجه بعد اللى عمله !

قلت فى حدة :

— طيب اتفضل من غير مطرود !

وخرج الرجل الذليل ..

وناديت مدير مكتبى ، وطلبت منه أن يتصل بالجريدة التى نشرت المقال ويدفع ثمن سكوتها ..

الجريدة اسمها « الشعب الحر » .. وهى جريدة تتاجر بالفضائح ، والكلمات الضخمة .. والشعارات الشعبية .. ورغم ذلك فسعرها فى البورصة السرية رخيص .. ان أصحابها من الدناءة والجهل بحيث لا يستطيعون أن يرفعوا سعرهم .. ان رفع السعر يحتاج الى ذكاء والى حد معين من التعفف ، حتى فى البورصة السرية ..

وقبضت الجريدة الثمن .. وسكتت !

ومضت أيام ثم جاء مندوبها يحمل مقالا آخر معدا للنشر كتبه عادل أيضا .. ومشحون أيضا بالأرقام .. وطلب ثمنا جديدا والا اضطر الى نشر المقال .. ودفعت الثمن مرة أخرى .. انه ثمن تافه لا يستحق المجادلة .. ولكن المندوب طلب شيئا آخر .. قال انه فى حاجة الى أن يبرر امتناعه عن النشر امام عادل وأمام القراء .. ولذلك فهو يرجو أن نقدمه الى المحاكمة فى جنحة مباشرة ، حتى يتخذ من تقديمه الى المحاكمة عذرا كافيا يبرر به امتناعه عن النشر ..

لا تدهشى .. فهذا ما كان يحدث فى تلك الأيام !

ورفعنا على الجريدة قضية ، وانا اضحك .. ولم احاول أن اثير هذه القضية جديا .. انما تركتها تؤجل .. وتؤجل .. حتى ماتت .. ان القضايا الصحفية ، حتى لو كسبناها تسىء الى موقفنا وتفتح فى وجوهنا ثغرات نحرص على أن تظل مغلقة ..

ولكن عادل لم ييأس ..

لقد ذهب بمقاله الى جريدة أخرى .. مجلة صغيرة لم أكن قد تعاملت معها من قبل ، لأنها لم تتعرض لى من قبل .. وعندما بحثت عن اسمها فى البورصة السرية ، لم أجد لها اسما .. وعندما حاولت أن ادفع لها الثمن لم اجد لها ثمنا .. انها مجلة غبية قنوع .. لا تقامر فى البورصة السرية !

ويومها اكتشفت أن هذه البورصة التى نعتمد عليها فى حاجة الى تعديل الأسماء التى تضمها .. وأن مصر قد ازدحمت فى غفلة منى بكثير من هذه المجلات الغبية القنوع التى لا تعرف طريقها الى بورصتنا السرية ..

وفضلت السكوت ..

ان عادل سيقول كل ما عنده فى مقال أو اثنين ثم ينتهى .. لن يجد شيئا آخر يقوله .. ثم ينساه القراء ..

ولكن عادل لم ينته ..

انه يكتب كل اسبوع .. وفى كل اسبوع يجد أرقاما صادقة أرقاما كالسكاكين يغمدها فى وجهى ..

من أين يأتى بهذه الأرقام ؟

لقد عرف الأرقام الخاصة بشركة القصير ، لأنه كان موظفا بها .. ولكنه بدأ ينشر أرقاما عن شركاتى الأخرى .. أرقاما سرية لا يمكن أن يزوده بها اصدقاؤه العمال .. لابد أن الذى زوده بها ، واحد قريب منى .. واحد يعرف اسرارى .. قد يكون عبد العظيم ، وقد يكون حسنين باشا شهاب .. وقد يكون واحدا من أعضاء مجالس الادارة .. هؤلاء الأغبياء .. انهم

لا يعلمون أنهم عندما يصلون فى محاربتى الى هذا الحد انما يقضون على وعلى أنفسهم .. يقضون على النظام الذى يتكسبون فى نطاقه ويرتفعون به الى قمة البلد .. انهم لا يعلمون أن الحرب بيننا يجب أن تظل دائما محصورة بيننا ، بعيدة عن الناس .. بعيدة عن الملايين الذين يسيرون فى الشارع .. انهم لا يعلمون أن هذه الملايين لو أدخلناها بيننا ، أو لو استعان بها واحد منا على الآخر فسيقضى علينا كلنا .. ان من صالح اللصين اذا اختلفا الا يستدعى أحدهما رجل البوليس والا قبض عليه هو الآخر ..

ولكن هذا ما حدث ..

لقد بدأ اللصوص يستعينون برجل البوليس ..

بدأت الرأسمالية تقضى على نفسها بنفسها ..

وعادل لا يزال يكتب مقالاته .. ويجد فى أعدائى من رجال الأعمال مصادر تزوده بأسرارى .. والمجلة التى يكتب فيها يرتفع توزيعها أسبوعا بعد أسبوع .. والمجلات الأخرى بدأت تسير وراءه .. ثم لحقتها الصحف اليومية .. ان أصحاب الصحف اكتشفوا أن تملق الشعور الوطنى ، يرفع التوزيع ويدر عليهم ربحا أكثر مما كانوا يقبضونه بتعاملهم فى البورصة السرية .. فبدأوا يتزايدون فى اثارة الشعور الوطنى .. لم تبق الا جريدة أو جريدتان واقفتين معنا .. مع النظام الذى نعيش فيه .. النظام الذى يحمينا من الشعب ..

والهدير يقترب ..

هدير صاخب مخيف ..

والمجنون فى صدرى بدأ ينكمش فى خوف وجبن ..

ولجأت الى الحكومة .. كانت حكومة الأغلبية .. حكومة الشعب .. ان بين وزرائها أصدقاء لى .. أصدقاء أدفع لهم ، واشتريهم بمالى .. وقد لجأت اليهم لأفتح عيونهم على المأساة

وعلى وشك أن يتغلب عليهم ..
التى تقترب منهم .. منا جميعا .. ان الشارع يفلت من أيديهم
ولكن وزراء حكومة الأغلبية كانوا فى ظلام أطماعهم وجشعهم لا يرون ولا يسمعون .. ولا يقتنعون .. ان الملك معهم ، والانجليز معهم .. وهذا يكفيهم ليبقوا فى الحكم ويمعنوا فى جشعهم .. ان الشارع لم يعد له حسا بعندهم ..

ورغم ذلك ، ومرضاة لى ، فقد صدر أمر بمصادرة المجلة التى يكتب فيها عادل .. وبالقبض على عادل .. وما كاد هذا الأمر يصدر حتى علا الهدير .. اتحد الشعب كله فى قبضة واحدة ، سارت فى الشارع تهدد ..

واحست الحكومة بالخطر ..

وأفرجت عن الجريدة المصادرة ..

ولم يمكث عادل فى السجن سوى أربعة أيام ، خرج بعدها بطلا .. وقد طالت أظافره وأصبحت أقوى على خمش وجوهنا ..

ثم حاولت الحكومة أن تشدد قبضتها على الناس .. أن تستعيد سلطاتها على الشارع بكل الطرق ، فأعدت قانونا للصحافة يحميها ويحمينى .

وابتسم لى صديقى الوزير قائلا :

— اطمئن يا باشا .. احنا حنعرف ازاى نأدبهم !

واطمأننت فعلا . ولكن اطمئنانى لم يدم سوى أيام .. ثم ما كاد مشروع الصحافة يعلن ، حتى كشف الشارع عن أسنانه الحادة .. وأصبح الهدير فى صوت الرعد .. ورغم ذلك فقد تحدت الحكومة الأسنان التى تكاد تنهشها ، وقدمت المشروع الى البرلمان .. فاذا بأغلبية الأعضاء يتخلون عنها .. نفس الأعضاء الذين ينتمون الى الحزب الحاكم .. أعضاء بعضهم لا يزال يؤمن بالشارع وبما يسمونه حرية الصحافة ، وأعضاء عجزت الحكومة عن أن تحقق كل أطماعهم ، وسحبت الحكومة المشروع ..

وانتصر الشارع ..

ثم بدات الحكومة تتبع سياسة ذات وجهين .. تتملق الشارع من ناحية ، وتتملق الملك والانجليز وانا ، من ناحية اخرى ..

ولكن الشارع لا يهدأ ..

من الذى يحرك الشارع ؟

لا احد يدرى .. ان فى الشارع جمعيات سياسية كثيرة ، واحزابا صغيرة ، ونقابات ، وهيئات ، وشيئا اسمه « الهيئة العليا للعمال والطلبة » وجماعات ارهابية تغتال وتطلق الرصاص وتقذف القنابل .... وعادل .. وكثيرين مثل عادل .. ولكن ليس هناك واحد بالذات أو جمعية واحدة بالذات ، تسيطر وحدها وتستطيع أن تدعى زعامة الشارع .. ان الشارع يقوده وعى .. وعى لا يتمثل فى شخص واحد ، ولا فى هيئة واحدة .. وعى فطرى اثارته كتابات الصحف ومزايداتها الوطنية والفساد الجاهل فى اداة الحكم ، وضيق الناس وفقرهم ..

ومر عامان والشارع يتمرغ فى حرية لم يشهدها منذ اعلان الحرب الثانية .. حرية لا يحدها شىء ..

وانا حائر ..

انى استطيع ان اتعامل مع اى نظام .. مع اية حكومة .. انى اعرف كيف اشكل مصالحى مع الظروف التى تحيط بى .. ولكن هذه الأيام لم يكن فى مصر نظام ولا حكومة بمعنى الكلمة .. لم اكن اجد شخصا أطمئن الى التعامل معه ..

ثم فجأة اتجه الشارع الى القتال ..

ان الحفاة والطلبة الصغار قرروا محاربة الانجليز .. بالسلاح !

هؤلاء الاغبياء ..

كيف يحاربون الانجليز ، وليس لهم زعيم يقودهم ، وليس لهم حزب يضمهم ، وليست لهم خطة حربية ينفذونها .. كيف يحاربون الانجليز ووراءهم حاكم يطعنهم فى ظهورهم ..

اليس هناك من ينقذهم من هذه الحرب .. من هذه المذبحة ؟
اليس هناك من يشفق على هؤلاء الحفاة والطلبة الصغار !
لا ..
لقد ذهب الصغار والحفـاة المضللون بايمانهم وفى أيديهم بنادق كلعب الأطفال .. ذهبوا ليموتوا .. فقط ليموتوا .. والحكومة من ورائهم تزيدهم تضليلا ، فتشعل من حماسهم لتتخذ منهم أداة تهدد بها الملك حتى يبقيها فى الحكم ..
وانا ..
وانا اتبرع من مالى للكتائب التى تكونت لتحارب الامبراطورية البريطانية فى القنال .. ان الأطفال يطرقون بابى وفوق ظهورهم بنادق وفى جيوبهم خناجر ، ويطالبوننى بالتبرع .. فأتبرع خوفا وجبنا وانا أعرف مصيرهم .. انى أتبرع بثمن قبورهم .. كلهم سيموتون .. كلهم مضللون ..
والملك أيضا يتبرع .. انه أيضا يخاف .. وهو لن يضيره تبرعه حتى يكسب هتافا باسمه من هذه الشفاه البريئة المضللة فى ايمانها .. وسيبقى تبرعه دائما وهميا .. انه لن يدفع شيئا .. فقط سيعلن تبرعه !
وكان لابد أن نصنع شيئا لنقف هذه المهزلة ..
ان الأطفال والحفاة يموتون ..
وموتهم لا يهم احدا .. ولكن المهم أن الانجليز بدأو يغضبون .. وبدأوا يتذكرون قصة الناموسة التى قتلت فيلا .. وهم اذا غضبوا فقدوا ثقتهم فى الملك ، وفى الحكومة ، وفى الرءوس التى تحدد نظام الحكم فى مصر ..
كان يجب أن نفعل شيئا لنحمى انفسنا من غضب الانجليز ..
وفعلنا ..
حرقت القاهرة ..
ووقفت اشاهد ألسنة النار وأنا أفرك كفى كأنى أتدفأ بها ..

والمجنون فى صدرى يقهقه .. قهقهة النصر .. النصر على الحفاة والأطفال الصغار ..

واعلنت الحكومة الأحكام العرفية ..

وعرفت المحاربون فى القنال ان النار فى ظهورهم ، فكفوا عن اطلاق النار ..

ولم يخسر اصحاب العمارات والمتاجر التى حرقت شيئا ، انما فرحوا بحرقها .. ان مصر ستدفع لهم ثمن ممتلكاتهم مضاعفة .. ستدفعها من دم هؤلاء الذين حاولوا طرد الانجليز من القنال .

واقيلت الحكومة ..

وجاءت حكومة أخرى ..

وساد الشارع هدوء كاذب ، ومنع التجول ، ورجال الجيش يصرخون فى وجه كل عابر : « قف .. من انت » ؟ !

وبدات اعيد تنظيم اعمالى .. انى فى حاجة الى صديق جديد يستطيع ان يحمينى ويحمى مصالحى .. لم تعد الأحزاب كلها تنفعنى بعد أن فقدت سيطرتها على الحكم .. لم يعد زعيم ولا قطب من اقطاب السياسة ينفعنى ، فكلهم قد فقدوا نفوذهم واصبحوا اضعف من ان استند اليهم ، واضعف من ان يواجهوا المارد الجديد الذى انتصب واقفا فى الشارع ..

ليس هناك الا شخص واحد استطيع ان اعتمد عليه ..

شخص مستقر ..

الملك ..

نعم .. لماذا لا اجعل من فاروق عميلا لى .. انه انسان قبل ان يكون ملكا .. وهو انسان خسيس كما اعرفه .. والفرق بينه وبين اى خسيس آخر هو فرق الثمن ..

وكان فاروق يكرهنى ، لأنه لم يكن يستفيد منى .. كنت لا العب معه القمار ، ولا اشركه فى مشاريعى ، واجاهر باعتمادى على الانجليز ..

ولكنى أعرف كيف أكسب حبه .. كيف اجعله يتيم بى ؟
وبدات اتردد على صالة اللعب فى نادى السيارات .. انه هناك كل ليلة يجلس على مائدة الباكاراه ، او مائدة البوكر .
وبدات أدعو رجال الملك ، واغرقهم بالهدايا .. الى ان وضعوا لى مقعدا على مائدة الملك ..
وبدات العب ..
واخسر ..
وكنت أخسر للملك بوقاحة ، حتى اشعره بأنى اتعمد الخسارة ، وحتى أزيد اطماعه فى .. كان الورق يصل الى يدى فلا انظر فيه .. ثم انتظر الى ان ينظر جلالته فى ورقه ، واقول فى برود :
ــ جلالتك تكسب !
ولم يكن يرفض مكسبا ..
كان يكسب منى فى الليلة الواحدة ما بين الف وخمسة آلاف جنيه .. وفى بعض الليالى كان يصر على أن يرفع مكسبه الى عشرة آلاف جنيه ..
ثم دعوته الى شقتى الخاصة ..
ووفرت له هناك كل مباذله .. وانا انظر اليه وهو ينظر الى ، وكل منا يعتبر الآخر ضحية له ..
وفى احدى هذه الليالى ملت على كارم باشا ــ صفى الملك وحبيبه ــ وقلت له :
ــ انا عندى مشروع جديد .. مشروع كبير .. انما مش ممكن يتم الا فى رعاية مولانا ..
وقال فى لهجته الوقحة :
ــ انت عارف مولانا ما يهتمش الا بالحاجات الجامدة ..
قلت وانا أرخى عينى حتى لا يجرحه احتقارى :
ــ دى حاجة جامدة قوى .. بس الشرط الأول ان الوزارة

تنشال .. دى وزارة معقدة وما حدش عارف يشتغل معاها أبدا ..

ـــ ويا ترى حاتكسب كام من المشروع ده ؟

قلت وقد بدأت المساومة :

ـــ مش كتير .. يمكن مليون ، ولا مليون ونص !

قال وهو يضحك ضحكة كالنهيق :

ـــ بأه علشان مليون ونص عايز تشيل وزارة بحالها ؟ ..

قلت :

ـــ البركة فيك يا كارم باشا .. ولو جيت للحق ، دى وزارة ما تساويش مليم !

قال وهو يبتسم ابتسامة لزجة :

ـــ نتكلم فى الموضوع ده بكره .. بس اتوصى بسيدنا الليلة !!

وخسرت لسيدنا فاروق فى هذه الليلة خمسة آلاف جنيه ..

وفى مساء اليوم التالى جاء كارم باشا ليزف الى البشرى .. لقد قبل الملك أن يقيل الوزارة على شرط أن ادفع له مليون جنيه .. مليونا كاملا ..

وبهت .. انه مبلغ ضخم .. ولكن بهتتى بدأت تزول عندما قدرت الأرباح التى يمكن أن أجنيها عندما أسيطر على الحكم سيطرة صريحة مباشرة .. انا الذى اقيل الوزارة .. وانا الذى أضع الوزارة .. أنا الذى أسيطر على الجيش وعلى البوليس .. أنا الملك .. أنا صاحب الجلالة .. ومن ورائى الانجليز يسندون ظهرى ..

وسال لعاب المجنون الذى يعيش فى صدرى وقلت لكارم :

ـــ بس مين حيألف الوزارة الجديدة ؟

قال فى سرعة :

ـــ اللى تختاره .. عندك كارت بلانش يا اكسلانس .. بس فيه شرط واحد .

قلت وقد بدات احلامى تنقبض :

ــ خير ؟ ..

قال وابتسامته اصبحت اوسع من شفتيه :

ــ المليون جنيه تدفعهم فى سويسرا .. مش هنا .. فرنكات سويسرى يا حبيبى ..

وقبلت ..

ان الملك يهرب امواله .. وانا اهرب اموالى .. كل الناس تهرب اموالها .. وليس فى هذا الشرط شىء عجيب ..

وعاد كارم يقول :

ــ وشرط ثان ..

قلت :

ــ ايه كمان

قال :

ــ خمسة فى الميه لمحسوبك !

قلت :

ــ فين ..

قال :

ــ انا مش طماع .. حاقبضهم هنا .. اكمل بيهم ثمن العمارة !

وتمت الصفقة بسرعة .. واشترطت ان يتم دفع نصف المبلغ الآن والنصف الثانى بعد تاليف الوزارة الجديدة بشهر ..

واقيلت الوزارة بعد ايام ..

ورشحت الرئيس الجديد .. انا الذى رشحته .. ولا تندهشى .. لقد رشحت حسنين باشا شهاب .. انى لم اجد ارخص ضميرا منه .. وعندما يعود الى الحكم ، وهو يعلم انى انا الذى اعدته ، سيعود كالحذاء القديم ..

وبدا حسنين باشا يختار وزراءه ..

وقامت أزمة عند اختيار الوزراء ..

واشتدت الأزمة ..

ان جميع السياسيين يحاربون الوزارة الجديدة .. انهم يرتكبون نفس الخطأ .. يتنازعون على الدفة والمركب تغرق .

انهم لا يقدرون أن العاصفة ستهب وستقتلهم جميعا .. وخير لهم ان يستسلموا لى من أن يستسلموا لغضب الشارع ..

ولكنهم لا يستسلمون .. اطماعهم لا تزال تغمى عقولهم ..

وانتابتنى ثورة عاتية .. وانا احاول ان احل الأزمة الوزارية واجمع عدد كافيا من الوزراء حول حسنين باشا .. ولا أستطيع ..

وانتابت الملك نزوة من نزواته ، فطرد حسنين فجأة ، وكلف غيره بتأليف الوزارة ..

وخسرت ..

خسرت مرة اخرى للملك ..

وكان يجب أن استرد خسارتى ، فانقلبت عليه .. على جلالته ، وسلطت كل قواى لأهدم من قواه ..

ولم تستطع وزارة ملكية أن تعيش اكثر من شهر .. وتوالت وزارة بعد وزارة .. وكل وزارة اعد لها بنفسى الحبل الذى اخنقها به ..

لقد اصبحت مثلهم ..

مثل كل السياسيين ورجال النظام الذى يقوم على وعلى امثالى .. اعمتنى اطماعى كما اعمتهم اطماعهم ، فلم اعد ارى المستقبل .. ولا السحب التى تتجمع فوق رءوسنا ..

كان المجنون خلال هذه الأيام قد طغى على .. لم يترك فى عقلى ولا فى عواطفى ما يدفعنى اليك .. ولم يكن يدفعنى اليك الا هذا الشىء الذى يتحرك فى صدرى ، فلما أسكت المجنون هذا الشىء ، لم يعد هناك ما يربطنى بك .. لم يعد فى شىء يحاول أن يكون شريفا فأهملتك .. انك فقط من ضحاياى .. واحدة من ملايين الضحايا التى أتلذذ بعداوتها ونقمتها على

ولو كنت استطعت أن أستولى على والدك كما استوليت عليك .. لو كنت استطعت أن أسيطر عليه وأخضعه لعقليتى ، لاسترحت طول حياتى .. لما عانيت هذا القلق الذى عانيته منذ التقيت به .. ولكن والدك فر منى .. ابتعد عنى .. أما أنت ، فقد أخذتك ، وانتقمت فيك من قلقى .. وانتصرت عليك .. قتلت الشىء الذى يتحرك فى صدرى ، فلم يعد يقلقنى ..

وفى خلال هذه الأيام ، لم يعد يذكرنى بك الا قائمة مصروفاتى الخاصة التى ترفع الى فى أول كل شهر ، ويسجل فيها المبلغ الذى خصصته لك ، أنت وأمك .. وكنت أنظر الى هذا الرقم طويلا ، وأغتاظ . انكما تكلفاننى كثيرا .. انكما أغلى نزوة من نزواتى .. وكنت أفكر فى أن اخفض هذا المبلغ الذى ادفعه لكما كل شهر .. ثم أعدل عن تفكيرى ريثما أجد وسيلة للتخلص منكما .. ولكنى لم اكن أدرى أين القى بكما .. كنت كمن تجمعت

فى شدقيه بصقة ويتحرج أن يقذف بها فى الشارع أمام الناس .. كنت لا أدرى أين ألقى ببقايا مضغتى ..

وعندما عدت الى القاهرة بعد أن قضيت ستة شهور فى أوربا .. راجعت قائمة مصروفاتى الخاصة ثم قررت أن أزوركما .. أنت وأمك . .ذهبت اليكما كأنى صاحب خرابة اريد ان أعاينها لأزيل أنقاضها وابنى مكانها بناء جديدا ..

وفاجأتنى رائحة الخرابة .. لقد اصبحت الشقة خرابة فعلا .. كل ما فيها خراب .. الأرائك الأوبيسون قد اكلح لونها .. والمقاعد المذهبة قد سقط عنها الذهب .. وكوم من الثياب المغسولة فوق السجاد العجمى .. وفتح لى الباب السفرجى وهو مرتد جلبابا عاديا .. انه لم يعد يكلف نفسه ارتداء الزى الخاص الذى يرتديه أثناء خدمة أسياده .

ووجدت أمك ..

لقد عادت الى ارتداء السواد .. وطرحتها محكمة الوضع فوق رأسها ، بحيث لا تكشف عن شعرها .. وكل شىء فيها حزين مستسلم كأنه ميت .. وجنتاها ميتتان ، وشفتاها ، ولحم عنقها مهدل كاللحم الميت ..

ورفعت الى عينين منطفئتين .. وهمت أن تقوم لتحيتى ولكنها لم تستطع ، فمدت الى يدها مصافحة ، وهى تقول :

— والنبى تعذرنى يا سعادة الباشا .. مش قادره اقوم !

وصافحتها فى امتعاض ، والتفت اليك .. كنت بجانبها .. حزينة مستسلمة انت الأخرى .. صفراء .. كأن نقطة الدم التى نزفت منك كانت كل ما فيك من دم ..

وقلت لكما فى صوت غليظ قاس :

— مالكم قاعدين زى الندابات كده ؟

ولم ترد واحدة منكما ..

وعدت أقول لكما فى صوت اكثر غلظة وقسوة :

— ما تتكلموا .. حصل حاجة .. خرستم ليه ؟ !

ورفعت الى عينيك .. عيناك اللتان كنت اخافهما .. ولكنى لم اعد اخافهما ، فنظرت فيهما بكلتا عينى ، وقلت وانا اواجهك بكل جنونى :

ــ مالك يا هدى .. حصل ايه ؟ !

واجبت فى صوت ضعيف كالتنهيد :

ــ ما حصلش حاجة ..

قلت كأنى اصرخ :

ــ امال مالكم مبوزين كده ؟

قالت امك دون ان تنظر الى :

ــ آدى احنا عايشين .. هوه لازم نضحك علشان نعيش !

قلت وانا اصرخ فعلا :

ــ امال انا باصرف عليكم ليه .. الفلوس اللى بتاخدوها بتعملوا بيها ايه ؟ .. انا حبيت ارقيكم .. حبيت اعلمكم تلبسوا كويس ، وتاكلوا كويس .. وتتفسحوا وتضحكوا .. انما يظهر ان الواطى عمره ما يعلا ..

وقمت أنت بسرعة دون ان تردى على ، وهرعت الى غرفتك .. وانا انظر وراءك والمجنون يقهقه فى صدرى .. ان بصقتى تفر منى !

وظلت امك جالسة صامتة .. فعدت اقول لها وانا احاول أن اخفض من صوتى :

ــ عبد العظيم ما فاتش عليكم ؟

قالت دون أن تهتز :

ــ لا ..

قلت :

ــ ما اتصلتيش بيه ؟

قالت :

ــ اتصل بيه على ايه ؟ .. ما بقاش له لازمه !

قلت :

ــ ازاى .. ده جوزك !

ورفعت لى عينيها المنطفئتين ، وقالت فى صوت ضعيف :

ــ حرام عليك يا باشا .. كفاية بأه اللى اتعمل فى .. ربنا يسامحك !

قلت مبهوتا :

ــ يسامحنى على ايه .. هو عبد العظيم قال حاجة ؟ !

ــ اخويا قال لى على كل حاجة .. الله يسامحكم ..

قلت دون أن احس بالشفقة عليها :

ــ على كل حال احمدى ربنا انك فقت من السكر اللى كنت فيه !

قالت :

ــ باحمده وباشكره .. الذى لا يحمد على مكروه سواه

وقمت واقفا ، وقلت فى حدة :

ــ انا اللى غلطان .. ما كنش لازم اهتم بناس زيكم !

وخطوت نحو الباب .. ثم فجاة وقعت عيناى على صورة كبيرة على الحائط .

انها صورة والدك ..

نفس الصورة التى انزلتها أمك من مكانها عندما دفعها ذكاؤها الساذج الى محاولة الزواج منى ..

لقد افاقت من ذكائها ..

افاقت بعد ان حطمتها ، وحطمتك معها .. وعادت تحن الى الزوج القديم .. الى الرجل الفقير البسيط .. محمد افندى السيد ..

وقهقه المجنون .. ولم استطع ان اكبت قهقهته فى صدرى ، فانطلقت من بين شفتى ضحكة عالية وانا انظر الى الصورة المعلقة

فوق الجدار .. ثم خرجت وضحكتى لا تزال تتجاوب فى البيت الخرب ، كأنها صراخ الشياطين ..

وفى اليوم التالى ناديت مدير مكتبى وأمرته أن يخفض مخصصاتكما الى خمسين جنيها فى الشهر .. بعد أن كانت مائة وخمسين .. انكما لم تعودا فى حاجة الى كل هذا المبلغ .. ان أمك تدخره .. ان ذكاءها الساذج لا تزال فيه بقية تلح عليها أن تستغلنى .. ولن أسمح لها باستغلالى .. لم تعد تملك شيئا تستحق من اجله ان اتركها تستغلنى ..

ثم عدت أفكر فى التخلص منكما .. فكرت أن انقلكما الى شقة أخرى ارخص من هذه الشقة .. وبعد أن تنتقلا ، اترككما وشأنكما تدبران أمركما ..

ولكنى لم انفذ ما فكرت فيه ..

الهتنى المعارك التى كنت أخوضها عنكما ، بل الهتنى عن تتبع أخباركما ، ولم أعد أقرأ التقارير التى يرفعها عم جابر ، بواب العمارة ، عن تحركاتكما .. ولو قرأتها لعرفت أن عادل قد جاء اليك .. زارك فى البيت .. فى بيتى أنا ..

لقد جاء وبصحبته ثلاثة شبان ليحموه اذا سلط عم جابر أعوانه عليه .. ثم اقتحم العمارة ، وصعد اليك .. ولم ينتظر حتى يسمح له بالدخول ، بل أزاح الخادم الذى فتح له الباب من أمامه ودخل ..

واستقبلته أمك دهشة ، واحكمت وضع طرحتها على صدرها كأن انسانا من عالم غريب قد انتصب أمامها .. عالم تركته منذ زمن بعيد .. عالم يعترف بالحياء وتغطى فيه النساء صدورهن أمام الرجال ..

وانحنى عادل يقبل يد أمك .. انه لا يدرى شيئا عن الخطيئة التى تحملها هذه اليد .. وربما كانت يد الأمهات فى العالم الذى أتى منه عادل ، أطهر دائما من أن تلوثها الخطيئة .. وسحبت

امك يدها بسرعة كأنها تخشى ان يشم عادل فيها رائحة الخطيئة .. ثم بكت ..

وقال عادل فى صوت متهدج .. والسفرجى واقف خلف الباب ليسجل كلماته وينقلها الى فى تقرير :

ـ وحشتينا يا عمتى .. والدتى بتسلم عليكى وبتسأل عنك ..

وقالت امك من بين دموعها :

ـ عادل .. والله فيك الخير يا سى عادل ..

ثم عادت تجهش بالبكاء ..

وخرجت انت من غرفتك .. خرجت اليه مسرعة كأنك تجرين وراء حلم .. ثم وقفت مشدوهة ! ثم انطلقت من بين شفتيك صرخة :

ـ عادل ..

ووقف قبالتك ينظر اليك فى حنان ، وقال فى همس :

ـ هدى .. الحمد لله .. الحمد لله !

ولم يأخذك بين احضانه .. ولم يلمس يدك .. ظللتما واقفين وعيونكما تهتزان كأنكما تنفضان عن حبكما غبار الزمن ، أو كأن كلا منكما يسأل الآخر عن حبه ، الى ان دعتكما الأم الباكية الى الجلوس ..

همس عادل كأنه يخاف ان يفضح سره امام امك :

ـ ما كنتيش بتردى على جواباتى ليه ؟ .. انا بعت كتير ..

وقلت انت وشفتاك ترتعشان فوق وجهك الأصفر :

ـ جوابات .. ما جانيش منك جوابات .. آخر جواب جه من زمان .. من زمان قوى .. ورديت عليه ..

قال وكأنه اكتشف سرا :

ـ ماستلمتيش ولا جواب ؟ !

قلت فى حياء :

ـ جواب واحد من يوم ما سبنا شبرا ..

وصمت طويلا كأنه اكتشف شيئا لم يكن يعرفه ، ثم التفت الى أمك ، قائلا :

ــ أنا جاى اطلب هدى يا عمتى .. أنا بعت أمى من تلات سنين علشان تخطبها .. والدور ده جاى بنفسى ..

وصاحت هدى كأنها تحميك من مصيبة :

ــ لأ .. لأ .. مش ممكن !

ونظر اليك فى تعجب وقال كأنه لا يصدق اذنيه :

ــ لأ ليه ؟ .. ده وعد وعشنا بيه طول عمرنا !

واجهشت بالبكاء كأنك اكتشفت فجأة أنه لا تزال هناك بقية من دموعك ، وقلت :

ــ أنا ما بقتش انفع لك يا عادل .. ما اقدرش .. ما اقدرش اتجوزك !

قال وهو يحنو عليك بعينيه :

ــ كل شىء يتصلح يا هدى .. المهم ان ربنا جمعنا تانى ..

قلت فى يأس :

ــ فيه حاجات كتير مش ممكن تتصلح .

قال فى اصرار :

ــ كل حاجه حا تتصلح .. كل حاجه حا تتصلح !

ثم همس فى صوت خفيض :

ــ انا باحبك يا هدى .. ما قدرتش انساك وانسى حلمنا احنا الاتنين .. كان كل يوم بيفوت باحبك اكتر ..

واسرعت دموعك فوق خديك ، وقلت وراسك منكس :

ــ أنا مش هدى اللى بتحبها يا عادل .. أنا هدى تانيه ..

وقالت أمك دون أن تسمع حديثكما ، وهى تمسح دموعها بكم ثوبها :

ــ معلهش يا خويا .. ربنا يعوضك خير .. والنبى انت سيد الناس يا سى عادل .. انما نعمل ايه فى البخت ..

واخذ عادل ينقل عينيه بينكما ، ثم قطب جبينه وقال غاضبا :
ـــ انا عايز اعرف الباشا ده وضعه ايه فى البيت .. بدى اعرف عمل فيكم ايه ..

وقالت امك بسرعة وكأنها ذعرت

ـــ ولا حاجه .. ولا حاجه يا اخويا .. ده كان صاحب المرحوم جوزى ، وبيرد جميله عليه .. وكل الناس عارفه .

والتفت عادل اليك وقال :

ـــ هدى .. ايه اللى غيرك من ناحيتى .. عاجباك العيشة هنا ..

قلت ودمعك فوق خديك :

ـــ لا .. لا .. ياريت ارجع شبرا .

قال :

ـــ ايه اللى غيرك من ناحيتى امال ؟

ونظرت اليك ثم خفضت عينيك ، وقلت فى صوت خافت وفى حياء يمزق يأسك :

ـــ ما تغيرتش .. عمرى ما تغيرت !

قال :

ـــ ومش راضيه بى ليه ؟

وقلت :

ـــ سيبنى افكر يا عادل .. ارجوك تسيبنى افكر .. انا كنت قطعت الامل منك .. كنت يائسة .. ما فكرتش انى فى يوم حاشوفك تانى .. سيبنى اتلم على نفسى ..

وقام عادل قائلا :

ـــ انا مستنيكى فى البيت .. ولو ما قدرتيش تيجى البيت ، حافوت كل يوم من قدام العمارة ، شاورى لى وانا اطلع لك ..

وخرج وانت صامتة ..

وما كاد يخرج حتى سقطت فوق صدر امك تبكين .. وهى

تبكى معك .. تبكيان شيئا فقد منك .. نقط حمراء سقطت منك فوق ملاءة بيضاء ..

ما اغباك ..

ما اغبى هذه الطبقة التى تنتمين اليها .. ماذا يحدث لو ذهبت اليه وانت لا تملكين هذه النقطة الحمراء ..

ولكنك غبية ، وامك غبية ، وكل الفقراء اغبياء .. ونحن نعيش على غبائكم ..

ولم تذهبى الى عادل .. لم تقبلى ان تقــدمى له جســدا مشروخا ، منزوف الدم .

ولم تطلى عليه من الشرفة ، وهو يمر كل يوم امام العمارة وعم جابر البواب يتربص به ..

— ٢٥ —

الى ان كان صباح ..
صباح ٢٣ يوليو بالذات ..

وقمت من النوم على صوت جرس التليفون يدق بجانب فراشي ، وصوت مدير مكتبى يقول لى فى صوت مبهور :

ـــ الجيش عمل ثورة .. واحتل القاهرة !

الجيش !!!

ما دخل الجيش فى كل هذا .. لقد كان الجيش يقف منذ شهور فى الشوارع ليحمينا من الناس .. فكيف يقوم بثورة ؟ !

وذهل المجنون الذى فى صدرى ..

واحسست انى فى حاجة الى تفكير طويل ، لافهم ..

وجلست فى بيتى .. لم اذهب الى مكتبى .. انتابنى خوف شديد لا ادرى سببه ، احسست انى لو خرجت الى الشارع ، فسيقابلنى جندى يصرخ فى وجهى : « قف .. من انت » ، وعندما اقول له اسمى ، يطلق على صدرى الرصاص ..

جلست اتلقى الأخبار ، وأستمع الى الاذاعة المصرية .. الى بيانات الثورة .. واحاول ان افهم ..

وفى الساعة الواحدة ، جاء عم جابر بواب العمارة والح فى مقابلتى ، وعندما وقف امامى قال كأنه يبلغنى خبرا خطيرا !

ــ الست نفيده وبنتها سابوا العمارة .. خدوا حاجتهم ومشيوا .. يظهر عزلوا ..

ورفعت اليه عينى فى بلادة ..

ونظرت الى شفتيه اللتين انطلق منهما الكلام .. وانا لا زلت احاول ان افهم .

وبدا عم جابر يروى لى تقريره عن كيفية خـــروجكم من العمارة ..

لقد جاء عادل فى الصباح بين فريق من اصدقائه ، واقتحم العمارة مرة ثانية ، وصعد اليك .. وازاح الخادم من طريقه .. ثم قال لكما ــ انت وامك ــ كأنه قائد منتصر يلقى اوامره الأخيرة :

ــ انا جاى آخدكم شبرا ..

وقالت امك فى اسى :

ــ شبرا .. ما خلاص .. ما بقاش لنا حد فى شبرا ..

وقال عادل :

ــ لكم انا .. وامى .. واختى .. والجيران .. خلاص .. من هنا ورايح ما فيش باشوات ..

وقلت انت :

ــ عادل .. و ..

وصرخ فى وجهك :

ــ ما تتكلميش .. مش وقت كلام .. الثورة قامت . والبلد هايجه .. ولازم تنزلوا معايا دلوقت ..

وعدت تقولين :

ــ خلينى اتكلم يا عادل .. لازم اقول لك على كل حاجة ..

وقال وهو لا يزال يلقى اوامره :

ــ مش عاوز اسمع حاجه .. فين هدومك يا عمتى .. ولا خليهم !

ونظرت انت الى امك ..

ونظرت امك اليك ..

وكأن امك قد قررت فجاة ان تستغنى عن الخمسين جنيها التى ادفعها لها كل شهر .. قررت ان تتخلى عن بقية ذكائها الساذج .. كأن الثورة قد مستها هى الأخرى وفتحت امامها باب امل جديد ، فقامت وقمت معها ثم دخلتما وارتديتما ثيابكما .. وخرجتما وامك تسير وهى تتأوه كأنها تسير على سكاكين ..

وشهد عم جابر ثلاثة يخرجون من العمارة ..

شاب يرتدى البنطلون وقميصا مفتوحا ، ويحمل صرة ملابس ..

وفتاة ذابلة صفراء ..

وامراة مهدمة تسير فى خطا ثقيلة ، وتتأوه كأنها تسير على سكاكين ..

والشمس تسقط على الثلاثة ، كأنها تغسلهم من شقاء كبير ..

وفهمت ..

فهمت ان عادل اخذك منى ..

انى كنت على وشك ان القى بك انت وامك فى الشارع ، ولكنى لم اكن مستعدا ان يأخذك منى احد .. خصوصا عادل بالذات !

انى قد القى بفتات مائدتى الى فقير ، ولكنى لا اقبل أن يغتصب هذا الفقير فتات مائدتى رغما عنى .. وقد اتبرع بآلاف الجنيهات لاحدى الجمعيات ولكنى لا ارضى أن تتكون جمعية لاغتصاب قرش واحد من نقودى ..

وقد اغتصبك عادل منى .. اغتصب فتات مائدتى ..

وشعرت بالهزيمة ..

لقد اخذك محطمة ، ورغم ذلك فانى اشعر بالهزيمة .. الهزيمة امام الفقراء .. أمام ملايين من الشبان يرتدون البنطلونات والقمصان المفتوحة ..

وشعرت بالمجنون يئن فى صدرى .. انه لا يقهقه .. انه فقط يئن كالقط الجريح .. انه خائف .. انه لم يعد يواجه عادل وحده .. انه يواجه ثورة الملايين ..

ورفعت جفنى عن عينى وقلت لعم جابر فى صوت ضعيف :

ــ اقفل الشقة وماتخليش حد يخشها الا بأمرى !

وظل عم جابر واقفا أمامى برهة ، كأنه لا يصدق عينيه وهو يرانى أستقبل الخبر بهذا الهدوء والضعف ، ثم هز كتفيه وانصرف عنى .. وعدت أحاول أن أركز ذهنى فيما يجرى حولى .. لعلنى أفهم .. ولعلنى أجد لى طريقا بين الأحداث ..

ولم أخرج من بيتى فى المساء .. مساء ٢٣ يوليو .. ومر بى ليل طويل قضيته ارسم فى خيالى صورا جديدة لنفسى .. صورا تقبلها الثورة .. انى أستطيع أن أتشكل فى صور كثيرة .. انى رأسمالى .. هل تعرفين ما هو الراسمالى .. انه أسلوب مرن فى الحياة والعمل ..أسلوب يمتد وينكمش ويتلوى كالثعبان .. ان الرأسمالى ، يستطيع أن يكون ديموقراطيا ، ويستطيع أن يكون فاشستيا ، ويستطيع أن يكون اسلاميا أو استعماريا ، أو وطنيا .. أو أى شىء .. كل ما يريده هو أن يجد ثغرة يتنفس منها .. ثغرة يمد منها يده ليعتصر الناس ويجعل من عصارتهم ذهبا يحتفظ به فى خزائنه ....

ان « الرأسمالى » ليس معناه الرجل الغنى .. انما معناه أسلوب معين فى العمل .. العمل الفردى .. وقد كنت رأسماليا منذ كنت فقيرا .. منذ تخرجت من مدرسة الفنون والصنائع .. لأنى كنت انسانا فردا ، لا أرى الا نفسى .. لا أرى الآخرين ، ولا أشفق على الآخرين .. والفرد عندما لا يرتبط بالآخرين يستطيع أن يتشكل فى أى صورة تعجبه .. وقد تشكلت فى صور كثيرة منذ ذلك اليوم .. كنت رجل الانجليز ، ثم كنت رجلا وطنيا بعد ثورة ١٩ ، ثم كنت صديقا للوفد وصديقا للأحرار الدستوريين ،

وصديقا للملك .. وفى كل هذه الصور لم تكن هناك الا حقيقة واحدة وهى انى .. راسمالى !!

ولكن اية صورة من هذه الصور تعجب هذه الثورة الجديدة ؟ واجهدت فكرى ..

لم اين افكر فى شىء آخر .. لقد اجلت معركتى مع عادل ، واجلت احساسى بالهزيمة ، الى ان استولى اولا على هذه الثورة . الى ان البس الزى الجديد واندس به بين الثائرين ..

وكان يجب ان افهم اولا ماذا تريد الثورة ؟

وفى اليوم التالى ذهبت الى مكتبى .. والدبابات تحتل الشوارع ، وليس فوق الدبابات جنود فحسب ، ولكن فوقها ناس مدنيون يرتدون الجلابيب .. انها دبابات تحمل الشعب .. والشعب يهتف فى فرح ..

واخفيت وجهى خلف الجريدة وانا داخل السيارة التى تحملنى الى مكتبى .. كنت لا ازال خائفا .. لا ادرى لماذا

وبدات فى مكتبى اتصل بأصدقائى .

اتصلت بالانجليز ..

واتصلت بالسراى ..

واتصلت بالأحزاب ..

انهم كلهم مطمئنون .. الانجليز يقولون : لا تخف .. ليس هناك خطر .. والسراى تقول : لا تخف .. انها ثورة من اجل مطالب الضباط ، وسنجيب مطالبهم .. والاحزاب تقول : لا تخف .. انها ثورة قامت من اجلنا وستسلمنا الحكم ..

لقد خدعوا جميعا ..

خدعتهم الثورة ، وصدقوا البيان الأول الذى اذاعه الثوار وقالوا فيه ان هدف الثورة هو تطهير صفوف الجيش من المفسدين والمرتشين !

واردت ان اخدع نفسى مثلهم .. ولكنى امتاز بحاسة تجعلنى

اشم من بعيد .. وقد شممت ريحا لا اطمئن اليها !

وقررت ان اصبر .. انى لم اياس .. لقد مرت بى ثورات كثيرة ، ولن تكون هذه الا ثورة اخرى .. !!

وارتفع هدير صاخب فى الشارع الذى يقع فيه مكتبى .. وقمت وانزويت فى جانب من النافذة ونظرت الى الشارع ..

انهم آلاف من المتظاهرين .. وهم يهتفون .. يسقط الخونة .. يسقط المفسدون .. يسقط العملاء ..

واشتعلت النيران فى صدرى ..

انهم يقصدوونى .. انا الخائن .. انا المفسد .. انا العميل !

صبرا يا كلاب .. سأنتقم منكم .. انتظروا حتى استولى على ثورتكم .. سأشتريها بمالى .. كما اشتريت ثورة ١٩١٩ ، وكما اشتريت ثورة ١٩٣٤ .. ثم بعد ذلك سأبيعكم كالعبيد واسترد أضعاف ما دفعته ..

وابتعدت عن النافذة .. وامرت مدير مكتبى أن يتصل بمدير الأمن العام ، ليرسل من يحمينى من المتظاهرين .. واعتذر مدير الأمن العام .. انه لا يستطيع ان يتحرك .. لانه مثلنا جميعا لا يدرى اين يتحرك ..

ولم يكن المتظاهرون فى حاجة الى بوليس .. لقد انصرفوا عنى .. قالوا رايهم فى وانصرفوا .

وعدت الى افكارى ، احاول ان اكتشف الطريق ..

وفى اليوم التالى ذهبت الى مقر قيادة الثورة .. كان كل الكبار يذهبون الى هناك ، يقدمون انفسهم ، ويضعون كفايتهم فى خدمة الضباط الشبان .. لماذا لا اذهب انا الآخر .. قد لا اكسب شيئا ا ولكنى بذلك اكون قد رسمت خطا فى الصورة الجديدة التى احاول ان ابدو بها .. صورة نصير الثورة ..

ولم يمنعنى احد من الدخول .. ان كل الناس يدخلون .

والحرس الواقف على الباب يبدو مطمئنا كأن الثورة اقوى من كل اعدائها .. كأن احدا لن يستطيع ان يدخل الا ليستسلم ..

ووجدت نفسى بين ناس كثيرين كلهم يبتسمون .. وضباط كثيرين ، كلهم يبتسمون ايضا .. وحاولت ان افهم شيئا .. حاولت ان اعرف اشخاص الثوار .. ولكنى لم افهم شيئا ، ولم اعرف احدا .. كلهم يبدون كأنهم قادة ، وكلهم يبدون كأنهم مجرد جنود .. وكلهم يتكلمون كلاما عاما لا استطيع ان اتبين منه شيئا ..

وعدت ..

عدت وانا احس كأنى اهنت نفسى .. انا ، حسين باشا شاكر ، بعد هذا العمر الطويل .. اسعى لحفنة من الضباط الصغار ..

وبعد يومين عزل فاروق ..

واحسست انى عزلت معه ..

ان فاروق ليس شخصا .. انه نظام .. وقد عزل النظام ..

ان الملك لا يمثل شخصا ، والاستعمار لا يمثل دولة ، والاقطاع لا يمثل افرادا .. ولكن كل هذا يمثل معنى .. معنى الاستغلال .. معنى حرية الفرد فى ان يهزم الآخرين ، ويرتفع على اكتاف الآخرين .. كل ذلك يمثل فلسفة فى الحياة .. فلسفتى انا ..

وقد قضى على هذه الفلسفة ..

لماذا لا يتدخل الانجليز .. لماذا لا تتجمع الأحزاب وتحمى النظام الذى عزل ؟ ..

ولكن .. لقد خدعتهم الثورة مرة ثانية ..

اعتقد الانجليز انهم بسكوتهم على عزل فاروق سيرضون الثورة ، ويخدعونها ، ثم يضعونها فى جيبهم .. واعتقد كل حزب ان عقبة ازيلت من طريقه ، وانه يستطيع ان يرتفع الى الحكم

على اكتاف الثورة .. حتى رجال السراى انفسهم خدعوا . واعتقدوا انهم بتخلصهم من سيدهم القديم سيجدون سيدا جديدا اسهل قيادا ..

انا وحدى الذى احسست انى عزلت مع فاروق ..

احسست انى اصبحت وحدى بلا نظام يحمينى ..

لقد قطع الراس ، ولن يستطيع الذنب ان يعيش طويلا ..

ورغم ذلك فقد تجلدت .. حاولت ان اخدع نفسى مرة ثانية .. حاولت ان استرد ثقتى بنفسى وقدرتى على التشكل بمختلف الأشكال !

وفى هذه الايام جاءت زوجتى الانجليزية من انجلترا .. وفرحت بعودتها .. نظرت الى وجهها المكتنز ككتلة الشحم ، تغطس فيها شفتاها وانفها وعيناها .. وذراعاها الحمراوان كأنهما فخذا خنزير مسلوق .. وفرحت .. احسست ان بريطانيا العظمى كلها قد جاءت لتقف بجانبى ..

ولم تحاول زوجتى ان تخفف من مصيبتى .. جاءت كأنها وراء خطة عاجلة تسعى الى تنفيذها .. وكانت تسألنى اسئلة كثيرة عن الحالة ، ولا تناقشنى فيها ، ولا تقول رأيها ..

وقضت اياما وهى مشغولة .. مشغولة جدا .. ولا ادرى فيم هى مشغولة ..

وانا سادر فى تفكيرى فى الثورة ، واتجلد حتى تهدأ هذه الحوادث من حولى .. انى لا استطيع ان اعمل وسط الحوادث المضطربة .. وسط كل هذا الضجيج .. لقد تعودت ان اعمل فى الأيام الراكدة .. الأيام التى ينصرف فيها عنى حماس الجماهير .. كل ما كنت اعمله فى تلك الايام هو محاولة معرفة اشخاص قادة الثوار .. كنت اسأل .. والح فى السؤال .. فاذا قيل لى اسم واحد منهم .. سألت عن اسم ابيه واسم جده .. ثم لا اعرفه ولا اعرف كيف اصل اليه

وفجأة ، فى صباح احد الأيام من الأسبوع الثانى للثورة عرض عدد كبير من أسهم شركاتى للبيع فى البورصة ..

وهوى السعر ..

انه خراب ..

من الذى عرض هذه الأسهم للبيع ؟

انها زوجتى .. زوجتى الانجليزية !

ان هذه الأسهم تملكها .. لم تكن تملكها ملكية خالصة .. ولكنى كنت كتبتها باسمها ، باتفاق بينى وبينها على الا يكون لها حق التصرف فيها ..

وهرعت اليها صارخا :

ــ ايتها المجنونة .. انك تفلسيننى !

ونظرت الى فى هدوء بارد ، وقالت :

ــ انى اصفى املاكى فى مصر ..

ومددت اصابعى نحوها كانى اهم بأن اخنقها ، ثم عدت وكمشت اصابعى ، وقلت متوسلا :

ــ لماذا ؟ .. لماذا ؟ .. ان الحالة ليست خطيرة الى هذا الحد .. ان الثورة لم تأخذ منا شيئا .. اننا لا زلنا كما كنا ..

ولم تهتز وهى ترانى لأول مرة فى حياتها متوسلا اليها .. وقالت وهى لا تزال محتفظة ببرودها :

ــ سأعود غدا الى انجلترا ..

ولم أستطع ان اقنعها بأن تعدل عن رايها .. ولم احاول ان ارفع ثمن الأسهم فى البورصة .. وبدات اضع خطة جديدة .. خطة أوحت الى بها زوجتى .. سأترك ثمن الأسهم يهبط الى آخر حدود الهبوط .. ان ذلك سيهز الثورة ، وينبهها الى خطورة الحالة الاقتصادية ، فتلجأ الى لأعينها .. ستلجأ الثورة الى بدل أن الجأ اليها .. وفى نفس الوقت سالحق بزوجتى فى

انجلترا ، وابقى هناك الى ان تستدعينى الثورة ، فاذا لم تستدعنى اكون فى مأمن منها ..

وسافرت زوجتى ، بعد أن آتفقت مع وكيل يهودى على تهريب اموالها اليها .. وبدات استعد لألحق بها .. ولكنى فوجئت بعد ايام بزيارة اثنين من الضباط لى فى مكتبى .. اثنين لا اعرفهما ، ولم اسمع باسمهما .. ولم يقل لى سكرتيرى الا انهما ضابطان .. وسمحت لهما بالدخول لمجرد انهما ضابطان ..

واستقبلتهما بابتسامة كبيرة .. ان الثورة بدات تلجأ الى !

وسكت الضابطان طويلا ، ثم بدءا يتحادثان معى عن الحالة الاقتصادية ، ثم قال احدهما فى ادب جم ، وصوت فيه نبرة حاسمة :

ـ القيادة ترجو سـعادتك انك تستقيل من مجلس ادارة شركة الصناعات ..

ونظرت اليه فى غباء ..

انى لم افهم ..

واعاد الضابط كلامه وهو لا يزال محتفظا بهدوئه وادبه الجم .. وقلت وانا اتحدث من خلف ذهولى :

ـ ليه ؟

قال :

ـ والله مجرد اجراء مؤقت ..

قلت وقد بدات افيق من ذهولى :

ـ اجراء مؤقت ليه !

قال فى هدوء :

ـ والله ده كل اللى اقدر اقوله ..

وقلت وانا احاول ان اقلده فى هدوئه :

ـ آسـف .. ما اقدرش .. دى اكـبر شركة فى مصر ، واستقالتى منها معناها القضاء عليها ..

وقال الضابط فى هدوء :

— زى ما تشوف سعادتك !

وانصرف الضابطان بلا ضجيج ، وهما يبتسمان ..

وتركونى وانا اغلى .. ماذا يريدون .. ماذا يريد هؤلاء المغرورون .. بأى حق يطالبوننى بالاستقالة .. بأى قانون .. ان القانون معى .. ومجلس الادارة معى .. والجمعية العمومية معى .. ليرفعوا قضية .. سأكسبها .. انى دائما اقوى من القانون ، واقوى من القضاء .. وسأجمع الدنيا عليهم .. سأقنع الانجليز بعزلهم .. بعزل الثـورة .. وسأشل مصر كلها .. ان يجد الناس ما يلبسونه ، ولا ما يأكلونه ، وان يجدوا عملا .. سأجعل جنيهات مصر تقف فى الهواء جامدة لا تستطيع ان تتحرك الا بأمرى .. و .. و ..

وفوجئت فى اليوم التالى بخبر نشر فى الصحف بأن مجلس ادارة شركة الصناعات قد حل ، وعين بدلا منه مجلس مؤقت ..

هؤلاء المجانين ..

الا يعرفون من انا .. انا حسين شاكر .. انا سعادة الباشا .. انا المليونير .. انا القوى الجبار ..

ودرت اتخبط بين مختلف الجهات احاول ان استرد مكانى فى شركة الصناعات .. وراسى مشتعل كالنار ..

ولكن .. ان الدنيا تغيرت .. لأول مرة احس ان الدنيا تغيرت .. ليست هذه هى الدنيا التى كنت اسيطر عليها بنفوذى وجبروتى .. انها دنيا اخرى .. وقررت وانا الهث ، ان احنى راسى الكبير للدنيا الجديدة ..

وبدأت ابحث عن ضابط .. اى ضابط .. لعله ينقذنى .. واستطعت ان اصل الى واحد ، لم اكن اعرفه من قبل ، ولكن قيل لى ان له نفوذا كبيرا فى القيادة .. واستطعت ان اتوصل الى دعوته لتناول الشاى فى بيتى .. وجاء .. جاء مبتسما كأنه يزور

صديقا حميما .. وجلس امامى فى غاية الأدب .. ان ادب هؤلاء الضباط يكاد يقتلنى .. وبدات احدثه عن الحالة الاقتصادية ، وعن جهودى الطويلة لانعاش الاقتصاد المصرى .. و .. و .. وعن ضرورة عودتى الى مجلس ادارة شركة الصناعات .. الى عرشى الذى خلعت منه .. ان الملوك يعزلون عن عروش يرثونها ولا يتعبون فى صناعتها ، ولكنى عزلت عن عرش صنعته بأيامى وبذكائى وبأعصابى ..

وقال الضابط فى هدوء :

ــ ان الثورة لا تنوى الاستيلاء على الشركة ، بل فقط ستديرها وتوجهها وتحفظ لك كل حقوقك فيها ..

هذا المخبول .. هل يدرى معنى ما يقول ؟

ان الثورة ستدير الشركة .. رضينا .. ولكن ستديرها لصالح من ؟ ! هذا هو السؤال الأهم .. هذا هو الحد الفاصل بينى وبين الثورة ..

ان الثورة ستدير الشركة لمصلحة الناس ، ولمصلحة مصر .. كما يروق مصر .. ولكنى كنت ادير الشركة لمصلحتى انا .. انا وحدى .. وليهلك الآخرون !

وقلت وانا اخفى عينى تحت جفنى حتى لا يبدو دهائى :

ــ الموضوع ده يمس كرامتى .. ورجوعى لشركة الصناعات باعتبره امر مهم جدا بالنسبة لى .. رجوعى يساوى فى نظرى عشرة آلاف جنيه .. واكتر من كده .. عشرين الف جنيه !

ورفعت جفنى لاتحقق من تأثير كلامى على حضرة الضابط ..

هل فهم ما أعنيه ؟

ان اقدم له رشوة عشرين الف جنيه ليعمل على اعادتى الى شركة الصناعات .. لابد انه فهم .. انه يبتسم .. انه مبلغ

جسيم بالنسبة لضابط لا يزيد مرتبه على اربعين جنيها فى الشهر .. نعم .. انه يبتسم .. لابد انه قبل الرشوة ..

وبادلته الابتسام ، كأنى اهز يده مهنئا نفسى ومهنئا له بالصفقة ..

انى داهية ..

الحمد لله ، انى لازلت داهية ..

وقال الضابط فى هدوء ، ووجهه جامد ، وابتسامته لا تزال بين شفتيه :

ــ اما اشوف ..

وانصرف ..

ونمت ليلتها نوما سعيدا ، وبكرت فى الذهاب الى مكتبى ، وبدأت احرك اعمالى التى كنت وقفتها منذ يوم الثورة ..

وفى الساعة الثانية عشرة تماما .. سمعت هدير سيارات كثيرة تقف امام مكتبى .. سيارات جيب .. وجنود وضباط على رءوسهم قبعات حمراء اقتحموا المكتب ، ومعهم فريق آخر من الموظفين المدنيين .. ثم دخل الى ضابط .. نفس الضابط الذى كان معى بالأمس .. ونظرت اليه فى فزع وقلت مبهور الأنفاس :

ــ حصل ايه ..

قال وهو يبتسم .. نفس ابتسامة الأمس :

ــ حصل خير .. بس عايزين نراجع دفاتر سعادتك !

قلت وقد اشتد فزعى :

ــ تراجعوا دفاترى !! ليه ؟!

قال فى هدوء

ــ استلمنا بلاغ بيقول ان الحسابات المقدمة من سعادتك لمصلحة الضرائب مزورة .. ومع البلاغ بيان بالحساب الدقيق ..

قلت :

ــ مش معقول .. مش معقول واحد زيى يزور .. انا مش تاجر صغير علشان ازور .. انا .. انا .. اقدر اشوف البلاغ ده ؟

وفى هدوء وضع الضابط على مكتبى دوسيها كاملا مليئا بالأرقام ...

انى اعرف هذه الأرقام ..

انها أرقامى ..

ارقام الحساب السرى الخاص بأرباحى .. وكل شركة فى مصر لها حسابان ، حساب مزيف تقدمه لمصلحة الضرائب ، وحساب سرى تسجل فيه ارباحها الحقيقية وتحتفظ به لنفسها ..

من اين حصلت الثورة على هذه الأرقام ؟ ..

ليس هناك من يعرفها الا انا .. و .. عبد العظيم ..

انه عبد العظيم !!

هذا المجنون .. انه لا يدرى انه مشترك معى فى مسئولية التزوير ، الا يعلم أن ما قد يصيبنى سيصيبه ..

واحسست بالنار تندلع فى راسى .. نار لم احس بها من قبل ، ولا قبل لى على احتمالها ...

وتماسكت ، وقلت وانا اضغط على كل اعصابى حتى ابدو هادئا :

ــ البلاغ ده كاذب .. لازم تسجنوا اللى قدمه لكم .. وعلى كل حال اتفضلوا فتشوا فى دفاترى زى ما انتم عايزين .

ونظرت فى وجه الضابط ، ابحث عن رايه فى الرشوة التى عرضتها عليه .. فلم اجد الا ابتسامته التى لا تفتر ..

وخرج الضابط ، واستوقفته قبل ان يخرج قائلا :

— تحب استنى هنا لغاية ما تراجعوا الحسابات ولا اقدر اروح البيت ؟

قال فى هدوء ، وادب جم :

— لأ .. اتفضل سعادتك روح البيت لو حبيت ..

وذهبت الى البيت ، وانا اشعر براسى كطاسة من النحاس المحمى ..

ماذا سيفعلون بى ؟ !

انهم لو طالبونى بضرائب على ارباحى الحقيقية خلال العشر السنوات السابقة ، فمعنى ذلك انهم سيطالبوننى بحوالى عشرة ملايين من الجنيهات !

معنى ذلك ان تستولى الحكومة على جميع شركاتى سدادا للضريبة ..

معنى ذلك ان افلس ..

لماذا لم اسافر مع زوجتى ، واعفى نفسى من كل هذا الهم ؟!!

لماذا لا اسافر غدا ؟ .

ولكن لابد لى من تاشيرة خروج من مصر حتى استطيع السفر . فهل يمنحونى هذه التاشيرة ؟

واذا لم يمنحونى التاشيرة ، هل استطيع ان افر فى طائرتى الخاصة .. نعم ، استطيع .. سآمر طيارى الخاص بأن ينتظرنى فى مطار الأقصر ، ومن هناك استقل اى طائرة الى لندن !

وكنت افكر ، وراسى كطاسة من النحاس المحمى ..

واتصلت بالتليفون بطيارى الخاص ، وامرته أن يطير الى الأقصر ، وينتظرنى هناك ..

ثم بدات اجمع اوراقى ، وادس بعضها فى حقيبة ، واحرق البعض الآخر .. وانهمكت بين اوراقى حتى طغى على الليل ....

ثم استلقيت على مقعد وحاولت ان اغفو ..

ولم استطع .... وقمت اجوب فى انحاء القصر ، كأنى مجرم تطارده اشباح جريمته .. وطاسة النحاس المحمى فوق راسى .. وصهد لافح يحرق عينى .. واعصابى تتمزق . كأنها يشد بعضها بعضا .. وانفاسى تضيق كأنى سأموت .. وقرصات حادة تفرك لحـــمى ، كأن عشرات من الزنابير تقرصـــنى .. وتعذبنى ..

وفى الساعة الثالثة صباحا فوجئت بأضـــواء قوية تطوف بنوافذ القصر .. ثم سيارات جيب محملة بالجنـــود تدخل الى الحديقة ..

ثم فوجئت بجند مسلحين يقفون امامى ، واســـلحتهم فى وجهى . وضابط يتقدم منى ، ويبتسم فى ادب .:

وحاولت ان اتكلم .. فلم استطع ..

حاولت ان اتحرك فلم استطع ..

وجحظت عيناى .. انى احس بهما جاحظتين .. وارتعشت شفتاى .. انى احس بهما ترتعشان .. وسمعت اصواتا تخرج من شفتى .. اصواتا ممزقة غير مفهومة .. وطافت بين اللهب المندلع فى راسى خيالات مخيفة .. السجن .. قضبان .. ظلام .. ظلام .. ظلام كثيف .. ثم احسست بجسدى الثقيل يقع على الأرض ..

ثم لم اعد ادرى ..

***

وافقت لأجد نفسى فى فراشى .. بجانبى ممرضة فى ثياب بيضاء تبتسم لى .. وباب الحجرة مغلق ..

وحاولت ان اتكلم .. ولكن لسانى ثقيل .. ثقيل جدا .. لا استطيع ان احركه ..

وحاولت ان ارفع ذراعى .. ولكن ذراعى ثقيلة .. ثقيلة جدا كطن من حديد .. لا استطيع ان ارفعها ..

وحاولت ان اهز قدمى .. ولكن قدمى ثقيلة .. ثقيلة جدا كالجبل .. لا استطيع ان اهزها ..

ونظرت الى الممرضة فى فزع .. رأيت فى عينيها لمسة عطف واشفاق واحسست بقطرات ساخنة تسيل على خدى ..

انها دموعى .. دموعى انا ..

انى ابكى .. لاول مرة ابكى ..

انى مشلول ..

كان مجلس قيادة الثورة قد اصدر أمرا باعتقالى .. ثم لما وقعت مريضا اكتفوا بأن اعتقلونى فى بيتى .. ان على باب غرفتى ضابطا يجلس حاملا فى جنبه مسدسا .. وفى بهو الدور الأول يجلس جنديان مسلحان .. ولكنى لست سجين البيت ، ولست سجين هذا الضابط وهذين الجنديين .. انما انا سجين جسدى .. سجين هذا الجسد المشلول الذى لا يتحرك .. انه اضيق سجن .. اضيق من القبر ..

لقد سبق الله الثورة بلحظات ، فأمر باعتقالى فى جسدى ..

وانا لا اطيق هذا الاعتقال ..

أريد ان أموت ..

الموت يا رب ..

ولكن ربى لا يرحمنى .. انه يطيل حياتى لأتعذب .. لأتعذب بتفاهتى .. انى لم اعد سوى شىء ملقى على سرير .. شىء يرفعونه ويضعونه .. ويعرونه ويلبسونه .. ويناولونه الطعام فى فمه .. شىء لم يعد فيه من معانى الحياة سوى عينين تغضبان حينا ، وتتوسلان حينا .. ثم تعجزان عن الغضب ، وعن التوسل ، فتبكيان ..

انا .. حسين شاكر .. انا الذى اطلقت حيويتى لتملأ كل دقيقة من عمرى .. انا الذى كنت أبخل بنفسى على النوم ..

انا القوى الجبار .. انا الفحل .. أنا الذى قبضت على الدنيا بيدى وعصرتها بأصابعى ، وجعلت من عصارتها شرابا لأطماعى .. انا الذى كنت أمضغ الناس وأبصقهم بقايا .. انا .. أصبحت هذا الشىء الملقى على سرير لا يستطيع حراكا ..

يا رب .. خذ ثروتى وامنحنى كلمة أستطيع أن انطق بها ..

يا رب .. انى لا أريد نفوذا ، أريد فقط القدرة على أن أرفع ذراعى ..

يا رب .. انى لا أريد من دنياك سوى متر واحد أستطيع أن أحرك فيه قدمى ..

يا رب .. انى أعرف انك تعد لى عذابا كبيرا فى الآخرة ، فاعفنى من عذاب الدنيا .. وخذنى اليك !

ولكنى لا أموت ..

وبدأت أفكر فى الانتحار .. ولكن كيف .. انى لا أستطيع أن أحرك ذراعى .. ولا أستطيع أن أصل الى أداة أقتل بها نفسى .. كل ما أستطيعه هو أن أرفض الطعام ، وأرفض الدواء .. كنت أهز راسى بعنف كلما همت المرضة أن تضع فى فمى طعاما أو دواء .. ويسقط الرذاذ على صدرى ويلوث وجهى ولكن المرضة لا تيأس .. انها تستعين بالخادم وتضع فى فمى ما تريده بالقوة .. لم أعد أستطيع شيئا ، حتى الانتحار ..

وكانت تنتابنى أحيانا ثورة .. ثورة مشلولة داخل جسدى المشلول .. ثورة كل قدرتها أن تنظر شزرا بعينى ا وأن تهز راسى هزات عنيفة فوق الوسادة ، وتطلق من حنجرتى أصواتا قبيحة كخوار ثور مذبوح .. فكانوا فى هذه النوبات يستدعون الطبيب ليحقننى بمخدر .. وانام .. او أموت موتا مؤقتا ..

واخيرا استسلمت ..

استسلمت للعذاب ..

ولم أكن أعانى آلاما فى جسدى .. انه كتلة من اللحم والشحم والعظام ، لا تحس ولا تتألم .. ولكن عذابى كان من عقلى ..

ان عقلى لا يزال صاحيا يرقب كل شيء .. يرقب جسدي المشلول .. ويرقب روحى السجينة داخل جسدى .. ويرقب الضابط الذى يجلس عند باب غرفتى فى جنبه مسدس .. يرقب كل ذلك ، ويفكر .. يفكر كثيرا .. يفكر فى حدة كأن خلايا مخى تتجمع وتعصر نفسها .. ثم لا تجد حلا .. لا تجد حلا لجسدى المشلول ، ولا لروحى الحبيسة ، ولا لهذا الضابط الذى يجلس عند باب غرفتى ..

لو كان عقلى مشلولا هو الآخر لاسترحت .. ان العقول المشلولة تريح أصحابها ، والعقول الصاحية التى تعجز عن ان تجد حلا هى التى تعذب اصحابها .. انها عقول أشبه بأسود فى اقفاص من حديد ، تروح وتهدر داخل القفص دون أن تجد ثغرة تنفذ منها ..

وكان الضابط يدخل الى غرفتى بين الحين والآخر ، ويحييى باحترام ، ويسأل الممرضة عن صحتى ، ثم يبتسم لى فى أدب ، وينظر الى فى حنان .. كأن ليس بينى وبينه عداوة .. كأنه ليس سجانى .. كأنه يفترض انى اعذره وأعذر ثورته ..

كيف أعذر هذا الشاب المغرور ؟ !

كيف أعذر هذه الثورة المجنونة التى تتصور أن مصر تستطيع أن تعيش من غيرى ؟ !

ورغم ذلك ، ففى فترات يأسى ، كنت أجد عقلى ينظر الى ما حدث لى ، من وجهة نظر الثورة .. كأنى اصبحت أحد الثوار .. وكنت فى هذه اللحظات اعذرهم .. نعم ، كانت تمر بى لحظات ، اعذر فيها الثورة ..

كنت أرى أن هذه الثورة قامت ضدى .. ضدى انا وحدى .. لم تتم ضد الملك ، فالملك هو الشعار ، وأنا الحقيقة .. ولم تتم ضد الأحزاب ، فالأحزاب كانت الأداة ، وانا كنت المنفذ ..

انها ثورة قامت على الفساد .. والفساد لا ينحصر فى اختلاس

بضعة ملايين من الجنيهات .. الفساد لا يقاس بالأرقام .. ولكنه يقاس بأسلوب العمل .. وعندما تبدأ الثورة العاقلة فى البحث عن الفساد لا تسأل أعداءها : كم ربحت ؟ ولكنها تسأل : لمصلحة من تعمل ؟ ! فقد يكون هناك شخص يربح الكثير ، ولكنه ليس مفسدا ، لأنه يعمل لمصلحة الناس ، ولا يستغل أحدا ، ولا يمتص دماء أحد .. وقد يكون هناك شخص يربح القليل .. القليل جدا .. ورغم ذلك فهو مفسد ، لأن أسلوبه فى العمل أسلوب الفساد .. انه يعمل لمصلحته الشخصية ضد مصلحة الناس ، ويمتص دماء الناس ..

هذا هو منطق الثورة العاقلة ..

وهو منطق يستطيع أن يقنعنى ، عندما أفكر تفكيرا مجردا عن أطماعى ومصالحى الخاصة .. ولكنى لا أستطيع أبدا أن أفكر تفكيرا مجردا عن أطماعى .. ثم انى لا أومن بأن هناك ثورة عاقلة .. ان كل الثورات التى شهدتها كانت ثورات ساذجة .. ثورات تقوم ضد الاحتلال الانجليزى .. لا .. ليس ضد الاحتلال ، بل فقط ضد شكل الاحتلال .. وكانت هذه الثورات تخمد بمجرد أن يتخذ الاحتلال شكلا جديدا ، والاحتلال كراس المال ، يستطيع ان يتخذ عدة أشكال .. ويستطيع ان يلبس اردية مختلفة فى الوانها .. انه يستطيع أن يرتدى زى قسيس ، وزى شيخ ، وزى حاخام ، وزى ملحد .. ان الاحتلال هو رأس المال ..

ولم أكن أنتظر من هـــذه الثورة أكثر مما فعلته الثـــورات الأخرى .. أن تطلب فقط تغيير شكل الاحتلال .. ولكنى خدعت فى هذه الثورة عندما قستها بالثورات الأخرى .. وكذلك خدع فيها الانجليز .. وما كنا لنخدع فيها لو عرفنا منذ اليوم الأول قادتها الحقيقيين .. لو عرفنا أن ليس من بين هؤلاء القادة وزراء سابقون ولا أحد من ملاك الأرض كما كان قادة ثورة ١٩١٩ مثلا ..

انهم كلهم من أولاد صغار الموظفين ، وصغار التجار ، وصغار المزارعين .. انهم أولاد الطبقة الوسطى الصغيرة .. انهم مثلك ومثل عادل .. أولاد محمد افندي السيد الموظف الصغير الذى استعصى على ، وتعفف عنى .

ولن تكتفى هذه الطبقة بتغيير شكل الاحتلال .. انها طبقة لها مصالح مرتبطة بمصالح الفلاحين والعمال .. مصالح تتعارض مع مصالحنا ومع أطماعنا ومع أسلوبنا فى العمل .. فكان من المنطق .. منطق هذه الثورة .. أن تقضى على أطماعنا ، وعلى أسلوبنا ..

وعندما كنت أنظر الى الثورة بمنطقها ، كنت أستريح .. وكنت اشعر بالشيء الذى فى صدرى يهدأ ، ويبتسم لى ..

لقد عاد هذا الشيء يتحرك فى صدرى ..

خيل الى يوما أنى قتلته .. تخلصت منه .. وسكن مكانه مجنون يملأ فراغ صدرى بقهقهته ..

ولكن ، لا ..

ان هذا الشيء لا يموت أبدا .. انه لم يمت عندما مات والدك محمد افندى السيد ، ولم يمت عندما اعتديت عليك ، والمجنون الذى سكن مكانه ظل ينكمش جبنا وخوفا من الثورة ، حتى تلاشى .. ذاب .. واذا بهذا الشيء لا يزال حيا فى صدرى .. يتحرك .. ويقلقنى .. ويعذبنى ..

وبدأت المعركة من جديد ..

معركة بين ذكائى الذى صنعت به مجدى على جثث ضحاياى ، وبين هذا الشيء .. الشيء الذى يسميه البعض : الضمير ..

كان ضميرى يهدأ وهو يناقش الثورة من وجهة نظرها ، ثم لا يلبث ذكائى أن يتمرد عليه ويبدأ فى الدفاع عن أطماعى .. « لماذا تسميها أطماعا .. انها خدمات .. خدمات جليلة أديتها لوطنك وللناس .. لقد أنشأت لهم كل هذه الشركات .. وأوجدت

عملا لهذه الألوف من العمال والموظفين .. فماذا كانت تساوى مصر من غيرك .. واين كان يذهب هؤلاء العمال والموظفون .. لولاك لكانوا الآن يشحذون .. تقول انك كسبت ارباحا هائلة .. وايه يعنى .. هذا اقل ما تستحقه .. تقول انك تعاونت مع الاستعمار .. وايه يعنى .. لقد كان الجميع يتعـــاونون مع الاستعمار .. ولو كانت هذه الثورة منصفة لأقامت لك تمثالا ، لأنهم يحسدونك على مالك ، وعلى نجاحك ، وعلى ثرائك .. انها ثورة اشعلها الحقد الشعبى على الناجحين .. حقد العبيد الذين يعجزون عن أن يكونوا اسيادا .. يجب ان تكره هذه الثورة .. اكرهها ، وقاومها .. حاول أن تحمى نفسك ، وتحمى اموالك منها » ..

كان ذكائى يقول لى هذا الكلام .. وانا اعلم انه ذكاء عاجز .. لم يعد يستطيع شيئا .. عاجز وهو حبيس هذا الجسد المشلول .. وقد ابعدت عنه كل ادواته التى كان يعمل بها .. ابعـــدت الأحزاب ، وابعد الملك ، وابعد خدام اطماعى ، وتخلى عنى الانجليز بعد أن خدعوا فى الثورة ..

وهذا الضابط يدخل الى غرفتى ، ويحيينى باحترام ، ويسأل المرضة عن صحتى ، ثم يبتسم لى فى ادب ، وينظـــر الى فى حنان ..

انه يكاد يقتلنى ..

وانى أرى فى وجهه صورتك ، وصورة والدك محمد افندى السيد ، وصورة امك تفيدة ، وصورة ملايين من ضحاياى .. الملايين الذين كنت ابتز قوتهم عندما ارفع الأسعار ، وابتز قوتهم عندما اهبط بسعر القطن ، وابتز قوتهم عندما اهـــوى بأجور العمال ..

كلكم هذا الضابط ..

الفرق الوحيد هو أن هذا الضابط فى جنبه مسدس .. ولن أستطيع ان أخدعه ، كما خدعتكم ..

بخيل الى أن هذا المسدس فى يدكم جميعا ..

انكم جميعا مسلحون ..

وأسلحتكم موجهة الى صدرى ..

ورغم ذلك فهذا الضابط لا يزال يبتسم لى .. كأن المسدس الذى فى جنبه سلاح للحب ، وليس سلاحا للحقد والانتقام .. والثورة تعاملنى برفق ورحمة كأنى أتفه من أن أكون عدوا لها .. كأنها واثقة من انتصارها الى حد أن تشفق على أعدائها ..

وقد وفرت لى الثورة كل وسائل العلاج — على حسابى طبعا — ! ، وبدأ الشلل ينحسر عن نصفى الأعلى .. بدأت شيئا فشيئا أحس بذراعى .. أحسست كأن جيوشا من النمل تمشى فوقها .. ثم مع الأيام اختفت جيوش النمل ، واستطعت أن أحرك ذراعى ..

وابتسم الأطباء ..

وابتسم الضابط الذى يحمل المسدس .. كأنه لا يخاف اذا ما حركت ذراعى ..

ومع الأيام بدأت أحس أنى أستطيع أن أحرك لسانى .. كان مجرد احساس يدفعنى الى تركيز ارادتى فوق لسانى .. ثم فجأة فى صبيحة أحد الأيام ، قال الطبيب وهو منحن فوق صدرى :

— قلبك سليم .. زى ما يكون قلب شاب عنده عشرين سنة . وطول ما قلبك بالقوة دى ، ضرورى حاتخف ..

وحركت لسانى ، ولم أكن أنتظر أنى سأنطق به شيئا .. حركته كمجرد محاولة من ملايين المحاولات التى أجريها كل يوم ولكنى سمعت صوتى .. سمعته بعد أن غاب عنى ستة أشهر .. سمعته وهو يقول :

ــ متشكر .. متشكر يا دكتور !

وابتسم الطبيب ..

وابتسم الضابط ..

وابتسمت ابتسامة كبيرة ، وأخذت أكرر كلمة « متشكر .. متشكر » .. كأنى عدت الى الحياة ..

كانت فرحة عمرى .. فرحة لم أحس بها فى حياتى أبدا .. ان كل ما جنيته من أيامى لم يفرحنى قدر فرحتى بكلمة تخرج من لسانى المشلول ..

ولكن قلبى السليم لم يستطيع أن يدفع الحياة الى نصفى الأسفل ..

انى لا زلت مشلولا ..

لا زلت شيئا ملقى على السرير .. يرفعونه ويضعونه ، ويعرونه ويلبسونه .. كل ما حدث أن هذا الشىء أصبح يتكلم .. وعندما استطعت أن أتكلم ، اكتشفت انى لا أستطيع أن أقول شيئا .. لا أستطيع الا أن أقول « حاضر » .. حاضر للطبيب .. وحاضر ، للمرضة .. وحاضر للضابط الواقف على بابى .. حاضر .. حاضر .. حاضر .. انى لم أعد أستطيع أن أقول « لا » .. ولم يعد من حقى أن أرفض ما يملى على .. دائما « حاضر » ، وأقولها فى استسلام وضعف ..

ان الشلل ليس فى نصفى الأسفل ، فحسب .. انه فى روحى أيضا .. شلت روحى ، وأصبحت روحا عاجزة جبانة ، تنطوى على حقدها .. وكانت تمر بى لحظات اتمنى فيها أن أصرخ .. أن العن .. أن اقول رايى بصراحة فى هؤلاء الضباط .. ولكن الجبن كان يكبت صراخى ويحيله الى أبخرة ساخنة تحرق دمى ، وتذيب أعصابى .. واكتم الالم الدفين ، ثم ابتسم ، واحنى راسى الكبير ، واقول : حاضر !

ولم تدم فترة اعتقـــالى فى بيتى طويلا .. لم تدم اكثر مما

استغرقته عملية مراجعة دفاترى ، ثم اصدرت قيادة الثورة امرا باستيفاء قيمة الضرائب المستحقة على ، من الأسهم والسندات التى املكها .. وبذلك اصبحت الحكومة هى صاحبة الحق الأول فى كل شركاتى .. استولت على شركة الصناعات .. اممتها .. ولكنها لم تؤممها تطبيقا لمبدأ من مبادىء الثورة ، ولكنها اممتها استيفاء لديونها على .. وباقى الشركات ايضا اصبحت للحكومة اغلبية الأسهم ، فاصبحت بذلك صاحبة الحق فى ادارتها .. وطردتنى !

واهتزت دوائر الأعمال فى مصر لهذه القرارات ..

اهتزت مصر كلها ..

وقيل انها ثورة شيوعية .. وبدأ رجال الأعمال يهربون ، والذى لا يهرب بنفسه ، يهرب أمواله الى الخارج ، والذى لا يستطيع ان يهرب أمواله يجمدها .. ان الاموال المجمدة اشبه بالجثث الميتة .. وكان رجال الأعمال يحاولون ان يجعلوا من مصر جثة ميتة لا تجرى فى عروقها دماء .. اى لا تجرى فى عروقها أموال ..

وكنت اعلم — ورجال الأعمال يعلمون — ان هذه الثورة ليست شيوعية .. اننا نعرف طبيعة الثورات الشيوعية .. وهى ليست طبيعة هذه الثورة .. ورغم ذلك فقد اردنا ان نشيع حالة من الذعر فى السوق الاقتصادية ، واردنا ان يقتنع العالم بأنها ثورة شيوعية .. لعل بريطانيا تتحرك ضد الثورة .. او لعل امريكا ايضا تتحرك ضد الثورة ..

وبدأت بريطانيا تتحرك ..

وبدأت امريكا تتحرك ..

ولكن الثورة لم تخف .. لم تجبن .. ان هؤلاء الشبان لا يخافون حتى بريطانيا وامريكا .. ان اعصابهم لا تهتز ، ولا تتخلى عنهم .. انهم لا يزالون يحاولون خداع بريطانيا وامريكا

.. وقد كنت اعتقد ان قوة الثورة فى السلاح الذى تحمله .. ولكن هذا السلاح لا يقاس بالسلاح الذى تحمله بريطانيا وأمريكا .. فكيف تستطيع الثورة أن تتحداهما وتستمر فى خداعهما .. أى قوة تستند اليها .. انها لا تستند الى دولة اجنبية ، ولا تستند الى جيش اجنبى ، ولا تستند الى أحزاب .. انها تعتمد فقط على الناس .. على الشعب .. وقد كان الشعب موجودا دائما ، ولكننا لم نكن نعتمد عليه .. كنا نعتمد على الملك ، وعلى الانجليز ، وننسى ان هناك قوة ثالثة .. وربما لم ننسها ، ولكننا لم نكن نؤمن بها ، لم نكن نعرف كيف نستغلها ..

وفى نفس الوقت بدأ شبان الثورة يتخذون قرارات جريئة حاسمة لحماية الاقتصاد القومى .. لقد اصدروا أمرا يمنع المصانع من التوقف عن العمل ، وبمنعهم من الاستغناء عن العمال حتى لو ادعى أصحاب المصانع الخسارة ، وبداوا يخرجون مدخرات النقابات والهيئات ويوظفونها فى الميادين الاقتصادية ، حتى يتغلبوا على محاولة رجال الأعمال تجميد السوق .. و .. و .. و .. والناحية الوحيدة التى فشلوا فيها هى اجتذاب رءوس الأموال الأجنبية الى مصر .. لقد اصدروا عدة قرارات بمنح رءوس الأموال الأجنبية عدة امتيازات ورغم ذلك لم يدخل مليم واحد الى مصر .. فقد كنا — نحن رجال الأعمال — قد نجحنا فى تشويه سمعة الثورة فى الخارج ..

ولم تأبه الثورة كثيرا برءوس الأموال الأجنبية .. استمرت فى طريقها واثقة بنفسها ، متمالكة كل أعصابها ، وبلغ من ثقتها أن اطلقت سراحى ..

انى حر الآن ..

حر فى أن أخرج من البيت ، ولكنى مشـــلول القـــدمين ، لا أستطيع أن أخرج .. وليس لى نصيب من الدنيا الا هذه المساحة الضيقة الجامدة التى أطل عليها من نافذة حجرتى ..

وحر فى أن أستقبل من أشاء من الزوار .. ولكن أحدا لا يريد أن يزورنى .. الكلاب الذين أطعمتهم ، وعودتهم على أن يقبلوا مواضع قدمى ، كلهم تخلوا عنى .. لا يريد أحد منهم أن يزورنى .. كل منهم يتبرأ منى وينكر نعمتى عليه ..

وأنا حر فى أن أحادث من أشاء فى التليفون .. ولكن أحد لا يريد أن يحادثنى ، فاذا اتصلت بأحد رد على فى جفاف ، أو أنكر نفسه عنى .. أنا الذى كنت أعتبر اتصالى بالتليفون مع أحد منة أنعم بها عليه .. أنا الذى كان لا يوجد من يرد على فى التليفون الا واقفا على قدميه يرتعد من الرهبة ، وبجانبه زوجته تتقصع كأنها ترسل الى اغراءها عبر أسلاك التليفون ..

وأنا حر فى أن أعمل ، ولكنى لا أجيد الا نوعا واحدا من أساليب العمل .. أسلوب لا أستطيع الآن أن أباشره ..

ن الثورة أفرجت عنى فعلا ، ولكن الناس لم يفرجوا عنى .. لقد حبسونى فى دنيا بعيدة عنهم .. دنيا من فراغ هائل .. دنيا ليس فيها أحد .. انى أتمنى أن أرى أى أحد ، حتى لو كان عبد العظيم ..

ولكن أين عبد العظيم ؟

لقد اعتقد المغفل أنه يستطيع أن يخدع الثورة ، فوضع نفسه فى خدمتها .. فى خدمة السيد الجديد .. ووضع بين يدى هذا السيد كل الأسرار التى اختزنها طوال الأعوام الطويلة التى قضاها معى .. ليست أسرارى وحدى ، بل أسرار كل رجال الأعمال وأسرار الشركات وأسرار البورصات .. وسكتت عليه الثورة وقربته حتى استنزفت كل أسراره .. وخيل للبعض — فى هذه الفترة — أنه أصبح من أصحاب النفوذ فى العهد الجديد ، فالتفوا حوله .. يسيرون فى ركابه .. ثم اقتنع عبد العظيم نفسه أنه أصبح من أصحاب النفوذ .. أصبح حسين شاكر الثورة .. وثقل عليه الغرور حتى اختل توازنه .. نسى نفسه ..

ونسى الثورة .. وتحرر من حرصه فبدأ يعمل بنفس الأسلوب القديم .. ولم أحقد على عبد العظيم وأنا أسمع عن سطوته الجديدة ، بل تمنيت فى قرارة نفسى أن يخدع الثورة .. وأن يستشرى فساده .. لو استطاع عبد العظيم أن يخدع الثورة ، فانه — دون أن يتعمد — سيخدعها لحسابنا ، وسيعيد الينا كلنا نفوذنا وسطوتنا .. وبعد ذلك من السهل القضاء على عبد العظيم .

ولكن فجأة ، وجد عبد العظيم نفسه فى السجن ..

قبضت عليه الثورة لتحاسبه على فساده القديم والجديد ..

وخيرية ؟ !

لقد قامت تتنفس هى الأخرى فى الفترة التى لمع فيها نجم عبد العظيم .. ثم لما سجن عبد العظيم اختفت .. واختفى معها فريق كبير لا يستطيع أن يعيش الا فى الضوء الملوث الذى ينطلق من حول أمثال عبد العظيم .. ان خيرية الآن زوجة .. مجرد زوجة .. وتقلصت أطماعها الى حد الاكتفاء بعشيق يرضى بما بقى منها ، ويجود عليها ببعض الهدايا المتواضعة .. وزوجها لا يدرى لماذا أصبحت زوجته مجرد زوجة .. ولا يفهم شيئا مما يجرى حوله .. لا يفهم سر تعاسته .. لماذا لا يضحك الناس فى نادى السيارات ؟.. ولماذا لا يلعبون البليارود ؟.. ولماذا انكمش الرخاء من بيته ؟ .. انه لا يدرى الا أنه تعيس ، ولا يستطيع أن يفر من تعاسته ..

وبقية الباشوات ، أعضاء مجالس ادارة شركاتى ، أين هم ؟

انهم ينطوون مثلى على حقدهم ، وقد قبض على واحد منهم وقدم آخر الى المحاكم فانكمش الباقون ودخلوا جحورهم والناس تتساءل : هل لا يزالون أحياء .. وأنا أفتح الجريدة كل صباح فأقرأ أن أحدهم قد مات ، فأدهش لأنه كان لا يزال حيا !!

اننا كلنا أموات ..

اننا مجمدون كالموت ..

ولكن الشيء الذى فى صدرى لا يموت .. انه حى كما لم يكن حيا ابدا .. انه ينطلق كالمارد ليحاسبنى على عمرى ، حسابا قاسيا لا يرحم فيه شللى ..

وصور حياتى تتوالى امام هذا المارد فيثور ويضغط على صدرى حتى يكاد يكتم أنفاسى ويصرخ حتى يكاد يمزق رئتى ..

ان ذكائى لم يعد ينفعنى .. لم يعد يستطيع أن يحمينى من هذا المارد .. لقد كنت كلما ارتكبت جريمة وحاول هذا المارد أن يحاسبنى عليها ، أعقبتها بجريمة اخرى ، انفعل فيها ، حتى أسكته .. وهذا المارد يحاسبنى اليوم عن كل جرائمى .. ولا استطيع ان ارتكب جريمة أخرى لأهرب من حسابه ..

لقد تكشفت حياتى كلها امامى ..

حياة بشعة ..

ونظرت الى ما كنت اعتقد انه نجاح واذا بى اكتشف انه فشل .. والى ما كنت اعتقد انه نفوذ ، فاذا به ضعف .. والى ما كنت اعتقد انه هيبة وجلال ، فاذا به نفخة كاذبة ..

انى انسان فاشل ..

فاشل منذ يومى الأول ..

كل هذا الثراء وكل هذا السلطان الذى حققته .. وانا فاشل .. فاشل .. فاشل لأنى لم أستطع أن اكون سعيدا ..

انى لم اكن سعيدا فى أى يوم من حياتى ..

لقد كنت عنيفا .. كنت حقودا .. كنت قاسيا .. كنت غنيا .. كنت أقيم فى قصر .. وكنت اركب سيارة .. ولكنى لم اكن ابدا انسانا سعيدا ..

كنت آخذ ما أريد .. ولكننى لم أسعد ابدا بما أخذته .. فقد كنت اعتقد أن السعادة هى فيما ألمسه بيدى ، لا فيما يسمو بروحى .. وما ألمسه كنت افقد لذته بمجرد أن أرفع عنه أصابعى

.. الاكل .. القصور .. المال .. الأجساد .. كل هذه اشياء لا تعيش الا لحظات ولا تثير الا شهوة الحيوان ، ثم لا تترك اثرا وراءها الا فراغا يدوى فيه الجشع والطمع والحقد ..

ان السعادة هى سعادة الروح ، وقد كانت روحى شقية ، فقيرة ، خاوية ..

فشلت فى ان اسعد روحى ..

والانسان الناجح الذى اعرفه هو محمد افندى السيد .. لأنه كان انسانا سعيدا .. سعيدا برضائه عن نفسه .. باحترامه لنفسه .. وسعيدا ببيته .. سعيدا بزوجه ، وبابنته .. سعيدا بالحب .. وانت ايضا .. انك سعيدة .. رغم كل شىء .. ورغم جسدك المشروخ الذى لوثته بجنونى .. فأنت سعيدة .. ولا ادرى ان كنت تزوجت عادل ام لم تتزوجيه ، فان اخباركما قد انقطعت عنى منذ عدتما الى شبرا .. لم اعد اراك ولكنى اسمع صوتك فى اعماق ضميرى ، ولم اعد ارى عادل ولكنى اسمع صوته فى كل قرار تصدره الثورة ..

وكل ما اعلمه عنكما انكما لابد ان تكونا سعيدين .. لأنكما تعيشان فى الحب ..

نعم ، الحب ..

انى لم احب ابدا .. هذا صحيح ، انى لم احب ابدا .. لم احب امرأة .. ولم احب الناس .. لقد عشت لنفسى فقط .. حتى نفسى لم احبها .. وانما عشت لأحطمها بذكائى الشرير ..

نعم ، لم احبها .

وقد تمنيت هذا الحب عندما رأيتك .. تمنيت ان احبك كما احبك والدك .. وتمنيت ان احبك كما احبك عادل .. ولكنى لم

استطع .. كان شرى اقوى من حبى .. فحطمتك .. وحطمت الحب ..

ولكنى الآن أحبك ..

احبك بعد ان اكتشفت الحقيقة التى تاهت عنى .. بعد ان اكتشفت ان السعادة هى الحب .. حب الناس .. حب المجتمع .. السعادة ، هى مجتمع سعيد .. انى لا استطيع ابدا ان اكون سعيدا وحدى .. يجب ان يسعد الناس من حولى حتى يوفروا لى السعادة .. ان السعادة شعاع ينطلق من النفس ليلتقى بشعاع ينطلق من نفوس الآخرين ، فتتم الدورة ، وتتولد السعادة ..

ولكنى عرفت ذلك بعد ما انتهى نصيبى من الدنيا .. لم يعد لى أيام أعوض بها شقائى ..

***

حبيبتى هدى ..

هذه آخر مرة ادعوك فيها حبيبتى .. انى أموت .. انى احس بأصابعى تتراخى فوق قلمى .. واحس بالسطور تغيب فى غبار اشبه بالرماد .. وانفاسى تضيق .. وشىء حاد يسكتنى فى قلبى .. وآلام كالقرصات تهرىء لحمى ، وتفكك عظامى .. انى أحس بالشلل يزحف من فوق ساقى ليبتلع بقية جسدى .. انى أموت ..

لقد تعذبت كثيرا قبل ان أموت ..

تعذبت بحياتى التى خلتها انتصارا ..

وتعذبت بحياتى بعد الثورة التى خلتها هزيمة .. وتعذبت بهذا المارد الذى ينتصب فى صدرى ليحاسبنى .. تعذبت بالفراغ الهائل الموحش الذى القيت فيه جثة مشلولة ..

وقد مضى على ستة اشهر وانا اكتب اليك .. لقد قال لى الأطباء ان الكتابة تقربنى من الموت .. هؤلاء الأغبياء .. انهم لا يعلمون أنهم بذلك يغروننى بالكتابة ..

لماذا كتبت اليك ؟ !

انى كما قلت لك لا أطمع فى صفحك .. ان جرائمى أكبر من الصفح .. حتى صفح الله ..

الله ..

آه لو عرفت الله قبل أن أختار طريقى فى الحياة .. آه لو آمنت به .. فلعلى كنت الآن سعيدا .. وربما وجدت الحب .. ولكنى لم أعرفه ، ولم أومن به .. لقد عشت وحدي ، لا اقبل ان يشاركنى أحد حياتى ، حتى الله ..

لماذا أكتب اليك ؟ !

لست أدرى ..

ولكنى استرحت وانا اكتب اليك .. استرحت وانا اقول لك الحقيقة .. كل الحقيقة ..

ربما كتبت اليك ، فقط لتعرفى الحقيقة .. الحقيقة التى كانت تائهة عنك .. وعن الناس ..

انها رشوة أقدمها لله .. انى أرشوه باعترافى لك .. فهل يقبل الله الرشوة ؟

يبدو انى لا أتوب أبدا .. فانى لا زلت اتحدث بلغة رجال الأعمال ..

وربما استرحت انت أيضا بهذه الحقيقة .. انك على الأقل تعرفين الآن انه ليس الله الذى شرخ جسمك وحطم أمك .. انه الشيطان .. انه انا ..

وداعا ..

وداعا يا أملى الكبير الذى لم أصل اليه أبدا ..

وداعا .. وحاولى أن لم تصفحى عنى أن تفهمينى .. ان

تفهمى انى رجل حاولت ان اكون شريفا فلم استطع ..
وداعا مرة ثانية ..

لن اقبلك ، حتى لا الوثك .. سأوقع خطابى وشـــفتاى محرومتان .. نعم سأوقع خطابى .. انها آخر مرة اضع فيها توقيعى على ورقة ..

الفصـــل بعـد الأخـير

وتوقف حسين شاكر عن الكتابة ، والساعة الثالثة صباحا .. والنار مشتعلة فى المدفأة .. والقصر هادىء ..

ومال برأسه الكبير فوق الوسادة ، واختلط بياض شعره ببياض الملاءة ، فلم يعد يبدو فوق الوسادة الا كتلة من اللحم الأزرق ، فيها تجاعيد سوداء كأنها عينان .. وفيها شىء بارز ذو لون قاتم كأنه أنف . وفيها قطعتان من اللحم المهدل المعفر كأنهما شفتان ..

وتنهد حسين شاكر فى صوت محشرج ، كأن تنهيدته خرجت من ثقب فى رقبته .. ثم تحامل على نفسه وعاد يرفع رأسه من فوق الوسادة .. ومد يدا مرتعشة انتثرت فوقها بقع غامقة كأنها تراب الزمن .. وامسك بالورقة وقربهـا من عينيـه المكدودتين ، وقرأ السطور الأخيرة .. ثم رفع قلمه بين أصابعه الضعيفة ، وحاول أن يكتب ..

انه سيكتب سطرا واحدا ، ثم يوقع .

يوقع !!

لقد تعود أن يتردد كثيرا قبل أن يوقع .. بل انه فى كثير من صفقاته الضخمة كان يرفض أن يتعامل بتوقيعه حتى يظل

حرا فى نقض اتفاقاته .. ان توقيعه هو أعز ما يملك .. ان كل جهاده وثمرة كل حياته تتركز فى هذا التوقيع .. ان هذا التوقيع كان يساوى ملايين الجنيهات .. يساوى أقوات شعب كامل .. يساوى سلطانا جبارا ..

والآن سيوقع !!

لماذا ؟ !

وحاول الا يجيب عن هذا التساؤل .. حاول أن يغمض عينيه ويوقع ..

ولكن .. لا .. لا ..

ان رأسه يدوى بكلمة لا .. وصوت انتزع كل ما بقى من قواه يصرخ فيه « لا توقع .. لا توقع .. لماذا تفضح نفسك .. لماذا تترك للتاريخ وثيقة اتهامك .. انك لا تتهم نفسك فحسب .. انك تتهم نظاما بنيت مجدك فيه .. تتهم مبدأ للحياة عشت به .. دع التاريخ يخدع فيك كما خدع فى كثير من العظماء .. دع التاريخ يخدع فى هذا النظام وفى هذا المبدأ .. ان المعركة لم تنته بعد ، وسيأتى بعدك ناس يحاولون أن يسيروا فى الطريق الذى سرت فيه .. فلا تسد فى وجوههم الطريق ، دعهم يحاولوا أن يعيدوا هذا النظام وينصروا هذا المبدأ ، وربما أفلحوا .. وربما انتصروا على هذه الثورة وانتقموا لك منها .. ان المعركة لم تنته .. انها ليست معركة محصورة فى شخصك .. انهـا معركة تتجدد مع الحياة ، وتتقد جيلا بعد جيل .. واذا كنت قد هزمت ، فسيأتى بعدك خليفة لك قد ينتصر ، ويومها سيكتب عنك التاريخ أنك كنت بطلا .. وأنك كنت زعيما .. وأنك بنيت الاقتصاد المصرى .. لا توقع يا مجنون .. يا مغفل .. ان كنت فقدت أملك فى الحياة ، فلا تضيع أملك فى التـاريخ .. ولا تضيع أمل من يأتى بعدك من المؤمنين بك ... » .

ولمعت عينا حسين شاكر لمعانا قويا مخيفا كأنه استرد لحظة من شبابه الجبار .. ثم مال بنصفه الأعلى وفتح درجا بجانب سريره ، وأخرج الأوراق التى استغرقها خطابه ، ثم اعتدل فى رقدته ، وأخذ يقرأ فقرات مما كتبه .. وصوت فى داخله يصيح :

« ما هذا الجنون .. كيف كتبت هذا الكلام .. لماذا كتبته .. ارضاء لضميرك !! وما جدوى الضمير الآن .. ارضاء الله !! ان الله لن يغفر لك ولو ملأت سطح الأرض بهذا الكلام !! لا .. لا يا مجنون .. لا تترك وراءك هذه الوثيقة المشينة .. دع المعركة تستمر .. دع المعركة تستمر الى آخر الحياة » ..

وأحس حسين شاكر بلذة خبيئة تندلع فى صدره ، وتحرق المارد الذى كان يتولى حسابه ..

أحس بنشوة المعركة التى كان يخوضها طول حياته ..

أحس بالحقد يزغرد فى صدره ويملأ كيانه .. كان الشياطين اجتمعت حوله لتقيم له حفلة ..

وفى قوة طارئة جمع الأوراق بين يديه ، ثم مال بجسده والقى نصفه العلوى من فوق السرير ، وارتكز بصدره على الأرض .. ثم شد نصفه الأسفل — نصفه المشلول — اليه .. فسقطت ساقاه فى صوت كئيب كأنه دقة على باب الجحيم .. ثم أخذ يزحف فوق كوعيه ويشد نصفه المشلول وراءه .. وعيناه لا تزالان تلمعان بهذا البريق المخيف .. ورغوة كرغوة الصابون تسيل من بين شفتيه .. الى أن وصل الى المدفأة والقى فى نارها بكل الأوراق التى كتبها ..

وظل يرقب النار وهى تلتهم السطور ، وتحيلها الى سواد ..

وأنفاسه تتهدج كأنها تخرج من منفاخ مثقوب ..

وسعل سعالا حادا ، وخرج من بين شفتيه مزيد من الرغاوى
.. ثم شهق شهقة حادة ، كأنه اصيب بطعنة ..
وجحظت عيناه وسط وجهه الأزرق ..
وسقط على الأرض ..
ومات ..
والنار تأكل الحقيقة ..

« تمت »